محمد راجي حسن كناس

أزواج الخلفاء

دار المعرفة
بيروت - لبنان

أزواج الخلفاء

أزواج الخلفاء

١ر٥٤١
ك م ١

إعداد
محمد راجي حسن كناس

دار المعرفة
بيروت - لبنان

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار المعرفة بيروت ـ لبنان

Copyright© All rights reserved
Exclusive rights by **Dar El-Marefah** Beirut - Lebanon.

ISBN 9953-85-058-5

الطبعة الأولى
1428 هـ \ 2007 م

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

جسر المطار . شارع البرجاوي . ص.ب: ٧٨٧٦ . هاتف: ٨٣٤٣٠١ . ٨٥٨٨٣٠ . فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت . لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858930, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www. marefah.com E.mail: info@marefah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان من أنثى وذكر، وفضَّله على كل ما برأ وذرأ وفطر، وأثنى على الحامدين والشاكرين، وسخط على الجاحدين والكافرين، ووعد المحسنين حسن الثواب، وأوعد المسيئين سوء العقاب، الذي إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا.

ذلك أنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون.

والشكر له على بعثة نبيه المصطفى، خير من دعا إلى عبادة الله وحده وكفى.

والثناء الجميل له على رسالة الإسلام ومعجزة القرآن، الذي أعيا فرسان الفصاحة والبيان، عن أن يأتوا بمثله على مَرِّ الزمان.

قال تعالى في تنزيله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمٰن، الآيات: ١ ـ ٤].

ولمَّا أراد «مسيلمة الكذاب»، أن يتحدى رب الأرباب، بمضاهاة بعض السور والآيات، أتى بسفاسفَ وزُيُوف وتُرَّهات، أحرى ما تُوصف به أنها هذيان، صادر عن مخبول لا عقل له ولا جنان، فباء بالخزي والخِذلان، وحصد الخيبة والخسران، وحَقَّت عليه لعنة الديَّان.

تعالى الله عما يقول المرجفون علواً كبيراً، وكفى بالله هادياً ونصيراً، وله الحمد أولاً وأخيراً، أن هدانا بِمَنِّه وكرمه للإيمان، وجعلنا من أتباع مصطفاه

الهاشمي العدنان، صلى الله تعالى عليه وسلم وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

وبعد:

لمَّا فرغت من كتابي عن (نساء الأنبياء) طُلِبَ إلي أن أكتب عن (أزواج الخلفاء)، فلبيت النداء، وكلي أمل ورجاء، أن أستطيع بيان الجوانب المضيئة في حياتهنّ، عسى أن تأتسي نساء عصرنا الحاضر بهنّ، ويَكُنَّ خيراً لأزواجهن وأبنائهن، وسنتطَرَّق إلى الحديث عن:

١ ـ أزواج الخلفاء الراشدين الأربعة: «أبي بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» و«عثمان بن عفان» و«علي بن أبي طالب» ﷺ.

٢ ـ بعض أزواج خلفاء بني أمية.

٣ ـ بعض أزواج خلفاء بني العباس.

وعلى الله توكلي واعتمادي، وأسأله أن يلهمني رشادي.

كتبها

محمد راجي حسن كِنَّاس

١ ـ أزواج الخلفاء الراشدين الأربعة

١ ـ أزواج أبي بكر الصديق ﷺ

أول الخلفاء الراشدين، وأحد الأعمدة الأربعة للدين.

باديء ذي بدء، لا بد لنا من معرفة اسم «أبي بكر» ونسبه، ولقبه، وأشهر مناقبه، وصلته بسيد البشر ﷺ.

قال الإمام «جلال الدين السيوطي» في كتابه «تاريخ الخلفاء»: «أبو بكر الصديق» خليفة رسول الله ﷺ، اسمه «عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب «القرشي» التيمي، يلتقي مع رسول الله ﷺ في «مُرَّة»[١]. وأمه «أم الخير»؛ سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة». قال «النووي» في «تهذيبه»: اسم «أبي بكر الصديق»: «عبد الله» هو الصحيح المشهور، وقيل: اسمه: «عتيق»، والصواب الذي عليه كافة العلماء: أن «عتيقاً» لقبٌ له لا اسم، ولُقِّبَ «عتيقاً» لعتقه من النار، كما ورد في حديث رواه الترمذي. وقيل: لِعَتَاقة وجهه ـ أي: حسنه وجماله ـ قال: «مصعب بن الزبير» و«الليث بن سعد»، وجماعة، وقيل: لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به[٢].

وأخرج «أبو يعلى» في مسنده، «وابن سعد» و«الحاكم» وصححه، عن عائشة ﷺ قالت: والله! إني لفي بيتي ذات يوم، ورسول الله ﷺ وأصحابه في الفِناء، والستر بيني وبينهم، إذ أقبل «أبو بكر»، فقال النبي ﷺ: **«من سَرَّه أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى «أبي بكر»**، وإن اسمه الذي سماه أهله

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣١.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٨١).

«عبد الله»، فغلب عليه اسم «عتيق».

وأخرج الترمذي والحاكم عن «عائشة» ﵂ أن «أبا بكر» دخل على رسول الله ﷺ، فقال: **«يا أبا بكر! أنت عتيق الله من النار»**، فمن يومئذٍ سمي «عتيقاً».

وأما «الصديق» فقيل: كان يلقَّب به في الجاهلية، لما عرف منه من الصدق، ذكره ابن مسدي، وقيل: لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ فيما كان يخبر به. قال ابن إسحاق، عن الحسن البصري، وقتادة: وأول ما اشتهر به صبيحة الإسراء.

وأخرج الحاكم في «المستدرك» عن عائشة ﵂، قالت: جاء المشركون إلى «أبي بكر»، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أنه أُسْرِيَ به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: لقد صدق، إني لأصدقه بأبعد من ذلك بخبر السماء غدوة وروحة، فلذلك سمي «الصديق»، ـ إسناده جيد ـ، وقد ورد ذلك من حديث أنس، وأبي هريرة، أسندهما ابن عساكر، وأم هانىء، أخرجه الطبراني.

قال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا أبو معشر، عن أبي وهب مولى «أبي هريرة»، قال: لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ به، فكان بذي «طُوَى»، قال: **«يا جبريل! إن قومي لا يصدقوني»**، قال: يصدقك «أبو بكر»، وهو «الصديق»، وأخرجه الطبراني في الأوسط موصولاً عن أبي وهب، عن أبي هريرة.

وأخرج الدارقطني، والحاكم، عن أبي يحيى، قال: لا أحصي، كم سمعت «علياً» يقول على المنبر: إن الله سمى «أبا بكر» على لسان نبيه «صدِّيقاً»(١).

وكان «أبو بكر» ﵁ صَدِيقاً لرسول الله ﷺ من أيام الجاهلية، وقد حَرَّم الخمر على نفسه منذئذٍ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، على مبغضه اللعنة. فقد روي السيوطي، عن ابن عساكر، عن أبي العالية الرياحي، قال: قيل لأبي بكر الصديق، في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: هل شربت الخمر في

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٢ ـ ٣٣.

الجاهلية؟ فقال: أعوذ بالله، فقيل: ولِمَ؟ قال: كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان وضيعاً في عِرْضِه ومروءته، قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدق أبو بكر، صدق أبو بكر» مرتين. مرسل غريب سنداً ومتناً[١].

فلما حمل رسول الله ﷺ رسالة الإسلام، كان «أبو بكر» أول من دعاه إلى الله، فلم يتلكَّأ، ولم يتردد، حتى لَبَّاه رضي الله عنه وأرضاه، ذلك لأن ثقته بالله وبرسوله ﷺ ليس لها حدود، ولا غرو فقد كان رسول الله ﷺ يدعى في الجاهلية «الصادق الأمين».

وقد أخرج الطبراني في الكبير، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، عن الشعبي، قال: سألت ابن عباس: أيُّ الناس كان أول إسلاماً؟ قال: «أبو بكر الصديق»، ألم تسمع قول «حسان»:

إذا تذكَّرْتَ شجواً من أخي ثقةٍ ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فَعَلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... إلا النبي وأوفاها بما حَمَلا
والثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدَّق الرُّسُلا

وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن الحصين التميمي أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام، إلا كانت له عنه كبوة وتردُّد ونظر، إلا «أبا بكر» ما عَتَّم عنه حين ذكرته، وما تردَّد فيه» عَتَّم: لبِثَ وأبطأ[٢].

وأما عن مناقبه فيعزُّ حصرها، ويضيق القرطاس بذكرها، فهو في الجود والكرم أسخى الناس بعد رسول الله ﷺ، ووقف نفسه وماله في سبيل الله، ونصرة رسوله ﷺ وتجهيز السرايا والبعوث، فقد أخرج ابن عساكر، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أجد عندي أعظم يداً من أبي بكر، واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته».

وأخرج أبو داود والترمذي، عن «عمر بن الخطاب» قال: أمرنا رسول الله ﷺ

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٥.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٦ ـ ٣٧.

أن نتصدَّق، فوافق ذلك مالاً عندي، قلت: اليوم أسبق «أبا بكر»، إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أبقيت لأهلك؟»** قلت: مثله، وأتى «أبو بكر» بكل ما عنده، فقال: **«يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟»** قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسبقه في شيء أبداً، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرج الترمذي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما لأحد عندنا يد إلَّا وقد كافأناه إلا «أبا بكر»، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر»**[1].

وكان أعلم الناس بأنساب العرب، لاسيما قريش، وكان أقرأ الصحابة ـ أعلمهم بالقرآن ـ وأعلمهم بالسنة، فقد أخرج الترمذي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«لا ينبغي لقوم فيهم «أبو بكر» أن يؤمهم غيره»**.

وأخرج ابن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن شيخ من الأنصار، قال: كان «جبير بن مطعم» من أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة، وكان يقول: إنما أخذتُ النسب من «أبي بكر الصديق»، وكان «أبو بكر الصديق» من أنسب العرب[2].

وقال السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ: وكان «الصديق» مع ذلك غاية في علم تعبير الرؤيا، وقد كان يعبر الرؤيا في زمن النبي ﷺ، وقال محمد بن سيرين، ـ وهو المقدم في هذا العلم بالاتفاق ـ: كان «أبو بكر» أعبر هذه الأمة بعد النبي ﷺ، أخرجه ابن سعد.

وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس» وابن عساكر، عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُمِرتُ أن أؤول الرؤيا، وأن أعلمها أبا بكر»**.

وقال الزبير بن بكار: سمعت بعض أهل العلم يقول: أفصح خطباء أصحاب رسول الله ﷺ «أبو بكر الصديق» و«علي بن أبي طالب» رضي الله عنهما.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٤١.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٤٣.

ومن الدلائل على أنه أعلم الصحابة، حديث صلح الحديبية، حين سأل «عمر» رسول الله ﷺ عن ذلك الصلح، وقال: علام نعطي الدنيَّة في ديننا؟ فأجابه النبي ﷺ، ثم ذهب إلى «أبي بكر»، فسأله عما سأل رسول الله ﷺ فأجابه كما أجابه النبي ﷺ سواء بسواء، أخرجه البخاري وغيره.

وكان مع ذلك أسَدَّ الصحابة رأياً، وأكملهم عقلاً[1].

وكفى «الصديق» من الفخار، أنه كان ثاني اثنين إذ هما في الغار، وحين وعك رسول الله ﷺ، ولم يستطع الخروج إلى الصلاة ليؤم المسلمين، أمروا «أبا بكر» فأمَّهم.

وكان يفدي رسول الله ﷺ بنفسه، فقد دخل الغار قبل رسول الله ﷺ ليستبرئه له من أي شيء ضار، حتى إنه مزَّق ثوبه مزقاً، وراح يسد بها جحور الغار، فبقي جُحْر واحد لم يجد ما يسده به، فسدَّه بقدمه، وكان رسول الله ﷺ قد نام ووضع رأسه على فخذ «أبي بكر»، وكان في الجحر ثعبان فلدغ «أبا بكر» مراراً عديدة، وهو صابر لا يتحرك لمكان رسول الله ﷺ منه، رضي الله تعالى عنه.

وأظهر حنكة بالغة يوم تصدى للمرتدين، وقمع فتنتهم، وقطع دابرهم، وقد ألهمه الله تعالى السداد حين أصرَّ على قتالهم، على الرغم من مخالفة العديد من الصحابة لرأيه، ثم تبيَّن لهم بعد ذلك أن الحق كان معه، فظهر على أهل الردة، ولله الحمد والمِنَّة.

ومن أعظم مناقبه جمع القرآن بناء على اقتراح «عمر» رضي الله عنه بعد أن استشهد يوم اليمامة، عدد كبير من القرّاء، وإنفاذه جيش «أسامة بن زيد» الذي عقد له لواءه رسول الله ﷺ قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى، ورفضه الاستجابة لرغبة بعض الصحابة بتأمير بديل لأسامة لحداثة سنه.

وكيف لي أن أعدد خصال «أبي بكر» الحميدة، ومآثره المجيدة؟ وقد أخرج ابن عساكر، عن صدقة القرشي، عن رجل، قال: قال رسول الله ﷺ: «خصال

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٤٣ ـ ٤٤.

الخير ثلاثمائة وستون»، فقال «أبو بكر»: «يا رسول الله، لي منها شيء؟ قال: «كلها فيك، فهنيئاً لك يا أبا بكر!»[١].

وأما عن شجاعة «أبي بكر» فإنه أشجع الصحابة ـ ﷺ ـ فقد أخرج البزار في مسنده عن «عليّ» أنه قال: أخبروني، من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت، قال: أما إني ما بارزت أحداً إلّا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: «أبو بكر»، إنه لما كان يوم بدر، فجعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله! ما دنا منا أحد إلا «أبو بكر» شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه، فهو أشجع الناس.

قال «عليّ» ﷺ: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يجبؤه، وهذا يتلتله ـ أي: يسوقه بعنف ويدفعه ـ، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلٰهاً واحداً؟ قال: فوالله! ما دنا منا أحد إلّا «أبو بكر» يضرب هذا، ويجبأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم رفع «عليٌّ» بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلَّت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم «أبو بكر؟» فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني؟ فوالله! لساعة من «أبي بكر» خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه[٢].

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه أسماء نساء «أبي بكر الصديق» ﷺ، قال: حدث علي بن محمد، عمن حدثه ومن ذكرت من شيوخه، قال: تزوج «أبو بكر» في الجاهلية «قُتَيْلَة» ـ ووافقه على ذلك الواقدي والكلبي ـ قالوا: وهي «قتيلةُ ابنة عبد العُزَّى بن عبد بن أسعد بن جابر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي» فولدت له «عبد الله وأسماء».

وتزوج أيضاً في الجاهلية «أم رومان بنت عامر بن عَمِيرة بن ذهل بن دهمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة».

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٥٦.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٨ ـ ٣٩.

وقال بعضهم: هي «أم رومان بنت عامر بن عُوَيْمر بن عبد شمس بن عَتَّاب بن أُذَيْنَة بن سُبَيْع بن دُهْمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة» فولدت له «عبد الرحمٰن» و«عائشة». فكل هؤلاء الأربعة من أولاده، ولدوا من زوجتيه اللتين سميناهما في الجاهلية.

وتزوَّج في الإسلام «أسماء بنت عميس» وكانت قبله عند «جعفر بن أبي طالب» وهي «أسماء بنت عميس بن مَعْد بن تَيْم بن الحارث بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن مالك بن نَسْر بن وهب الله بن شَهْران بن عِفْرِس بن حَلْف بن أَفْتَل ـ وهو خَثْعم ـ فولدت له «محمد بن أبي بكر» ـ.

وتزوج أيضاً في الإسلام «حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير» من بني الحارث بن الخزرج»، وكانت نَسْأً ـ النَّسْءُ: المرأة التي يظن بها الحمل، وقيل: التي ظهر حملها ـ حين توفي «أبو بكر»، فولدت له بعد وفاته جارية سميت «أم كلثوم»[(١)].

أولاً: أما «قُتَيْلَة» فقد نسبها «ابن حِجر العسقلاني» في «الإصابة» فقال:

«قَتْلَة» وقيل: بالتصغير ـ بنت عبد العُزَّى بن سعد بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي، القرشية العامرية، والدة «أسماء بنت أبي بكر» وشقيقها «عبد الله» كذا نسبها الزبير وغيره.

وقال أبو موسى في «الذيل»: قتيلة بنت سعد بن عامر بن لؤي: كذا اختصر النسب، وحذف منه جماعة، ثم قال: أوردها المستغفري في الصحابيات، وقال: تأخر إسلامها، وسماها الحاكم «أبو أحمد» في الكنى.

وحديثها عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق، قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم، فاستأذنت رسول الله ﷺ أن أصلها... الحديث، وهو في الصحيح، وفي بعض طرقه: وهي راغبة.

قال أبو موسى: ليس في شيء من الروايات ذكر إسلامها، وقولها: «راغبة»

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

ليست تريد في الإسلام، بل في الصلة، ولو كانت مسلمة، لما احتاجت «أسماء» أن تستأذن في صلتها، إلا أن تكون أسلمت بعد ذلك.

قلت: إن كانت عاشت إلى الفتح، فالظاهر أنها أسلمت[١].

ولم يذكرها «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب».

وفي رواية البخاري، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدتهم، مع أبيها، فاستفتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم، صليها»[٢].

وقيل: إن «أبا بكر» رضي الله عنه طلَّق «قتيلة» في الجاهلية، ولا تعرف أخبارها بعد فراقه لها.

وأما ولداه «عبد الله» و«أسماء» من «قتيلة» فقد أسلما ثم هاجرا إلى المدينة بعد أن أذن رسول الله ﷺ إلى أصحابه الهجرة إليها.

وكان لعبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما دور بارز عشية هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة مع صاحبه «أبي بكر» رضي الله عنه.

فقد أوى رسول الله ﷺ و«أبو بكر» رضي الله عنه إلى غار ثور، ومكثا فيه ثلاثاً حتى ينقطع عنهما طلب قريش التي رصدت جائزة قدرها مائة ناقة لمن يأتيها بهما، فكان «عبد الله بن أبي بكر» يأتيهما حين يمسي بكل خبر بمكة، ثم يصبح بمكة، فلا يفطن له أحد من أهلها ـ وعند ابن سعد في الطبقات[٣] سماه «الحارث بن سخبرة» ـ.

ثانياً: وكان «عبد الله بن الحارث بن سخبرة» الأزدي قد تزوج في الجاهلية من «أم رومان» واسمها «زينب» وقيل: «دعد»، بَيْدَ أن لقب «أم رومان» غلب على اسمها فعرفت به، وكانت لزوجها مكانة مرموقة في قومه، وأنجبت له «أم

---

(١) الإصابة (٤/ ٢٦١١).

(٢) صحيح البخاري (٣٠١٢).

(٣) انظر الإصابة (٤/ ٢٦٩٢) والطبقات (٨/ ٢٠٢) والاستيعاب (٨/ ١٩٣٦).

رومان» ولده «الطفيل بن الحارث»، وكانت الأسرة تقطن السَّرَاة من جزيرة العرب، ثم خرج «الحارث» بأهله إلى مكة المكرمة، وعزم على المقام فيها، لكن كان عليه أن يحالف أحد زعمائها، ويدخل في جواره ليتسنَّى له الوصول إلى غايته، ووجد «الحارث» ضالَّته في «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه، فتحالفا.

ولم يمضق طويل وقت حتى مرض «الحارث» ثم وافاه الأجل.

وكانت الأعراف السائدة في الجاهلية تقتَضي المبادرة إلى الزواج من أرملة الميت، وفي ذلك تكريم له وصون لأسرته.

ولما حَلَّت «أم رومان» خطبها «الصديق» رضي الله عنه وتزوجها، وأصبحت مع ابنها «الطفيل» في كنفه، وأنجبت لأبي بكر «عائشة بنت أبي بكر» وأخاها «عبد الرحمٰن بن أبي بكر».

ولكن، أية امرأة كانت «أم رومان؟» إنها إحدى الفرائد الحسان، وقد شبَّهها النبي المصطفى العدنان، بحور الجنان، حيث قال: «من سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان»[1]. ولم تكن تدري أنها ستصبح حماة حبيب الرحمٰن ﷺ. وذات يوم أشرقت شمسُه، وأفل نحسُه، خرج «أبو بكر» من بيته على عادته، ولم يطل غيابه إلا قليلاً حتى عاد ووجهه يزينه البشر والضياء، حاملاً لأهله الخير والهناء.

أي شيء دهاك يا أبا بكر!؟ لقد اعتدت على رؤيتك فرحاً مسروراً، وبالسعادة مغموراً، ولكنك اليوم لست كعهدي بك من قبل، فهلا أخبرتني بسر سرورك، ولِمَ أسرعت في حضورك؟

أجل، يا أم رومان! لقد جئتك بخيري الدنيا والآخرة، وقد أعلمني صاحبي أن الوحي قد نزل عليه، ومعه رسالة الإسلام، فلما دعاني إلى الله لم أتردد قيد أُنمُلَة، فاتبعته وصدقته، وآمنت بما جاء به.

قالت: وأي واحد من أصحابك هو؟ عساه أن يكون الصادق الأمين!

---

(١) كنز العمال (٣٤٤١٨).

قال: إنه هو، لأنني لم أصحب أصدق منه قيلاً، ولا أقوم سلوكاً، فهلمي بَنيَّ جميعاً حتى أنظر ما أنتم فاعلون.

وجاؤوا أباهم يُهْرَعُون، فلما أخبرهم بإيمانه، كانوا أَطْوَعَ له من بنانه، وآمنت «أم رومان» و«عائشة» و«أسماء» و«عبد الله»، وأبى «عبد الرحمٰن» قبول دعوة أبيه، الأمر الذي أحفظه عليه، وشَقَّت على «أبي بكر» مخالفة ولده، وفِلْذَة كبده، لمكانه من رسول الله ﷺ، ووثوق صلته به.

ولما ناصبت قريش أتباع الدين الجديد العداوة والبغضاء أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى بلاد الحبشة ليعبدوا الله على أرض ملكها الذي لا يظلم عنده أحد، فكانوا في خير دار، عند أكرم جار.

ثم عاد بعض المهاجرين إلى مكة، وكان منهم فارس الإسلام، وبطله المقدام، «الزبير بن العوام»، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ «صفية بنت عبد المطلب».

وجاء «الزبير» إلى «أبي بكر» يخطب عليه ابنته الكبرى «أسماء» فأنكحه إياها، وكانت قريش قد أسرفت في نكالها بالمسلمين الذين لم يستطيعوا الهجرة إلى الحبشة، حتى ألجأتهم مع بعض المشركين إلى شعب «أبي طالب»، وكتبت عليهم صحيفة جائرة ظالمة، تمنعهم بموجبها بيع وشراء الطعام والشراب منهم وإليهم، وكذلك منعتهم النكاح منهم وإليهم، واستمر ذلك الحصار الغاشم ثلاث سنوات، ثم تنادى بعض العقلاء من قريش لِتمزيق الصحيفة وفك الحصار، فخرج الناس من الشعب متعبين مكدودين، ووقع «أبو طالب» فريسة المرض، ولم يلبث حتى تَدَهْوَرَت صحته، ورجا رسول الله ﷺ أن يحصل منه على كلمة التوحيد حتى يُحَاجَّ بها له عند ربه، وقال له: «قل: لا إله إلا الله» فأبى ومات على شركه، وبرحيله زادت قريش من وطأتها على رسول الله ﷺ ونالت منه ما لم تستطع أن تناله في حياة عمه «أبي طالب» لأنه منعه منهم. وبعد أيام قلائل، حضرت الوفاة أم المؤمنين السيدة «خديجة بنت خويلد» فحزن رسول الله ﷺ أشد الحزن، وفقد برحيلها الوزير بعد أن فقد برحيل عمه «أبي طالب» النصير، وسمي عام رحيلهما عام الحزن.

وخلا البيت النبوي من عبق «الطاهرة» الحبيبة «خديجة» وغاب الدفء والحنان من أرجائه، وعرت نفس الحبيب الأعظم كآبة وأسى لم تستطع قريش أن تبلغهما منه، ذلك أن بسمة من شفتي «خديجة» ولمسة من يدها الحانية كانتا تكفيان لسُلُوِّ كل ما يلقاه من سفهاء قريش، ونسيان إيذائهم له.

ولكن، ما كان الله ليدع حبيبه حزيناً، فقضت مشيئته أن يخرجه من عزلته، فوجَّه إليه امرأة أحد صحابته الأبرار لتكلمه بصدد الزواج.

وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه، الحديث الذي دار بين رسول الله ﷺ وامرأة صاحبه، وما نجم عنه من خير فاض على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، فقال: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا محمد بن عمرو، قال: حدثنا يحيى بن عبد الرحمٰن بن حاطب، عن عائشة، قالت: لما توفيت «خديجة»، قالت «خولة بنت حكيم بن أمية بن الأوقص» امرأة «عثمان بن مظعون» وذلك بمكة: أيْ رسول الله! ألا تزوَّج؟ فقال: «ومَنْ؟» فقالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً، قال: «فمن البكر؟» قالت: ابنة أحب الخلق إليك «عائشة بنت أبي بكر»، قال: «ومن الثيب؟» قالت: «سودة بنت زمعة بن قيس»، قد آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه، قال: «فاذهبي، فاذكريهما علي».

فجاءت ودخلت بيت «أبي بكر»، فوجدت «أمَّ رومان» ـ «أمُّ عائشة» ـ، فقالت: أيْ أمَّ رومان! ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه «عائشة». قالت: وددت! انتظري «أبا بكر» فإنه آتٍ، فجاء «أبو بكر»، فقالت: يا أبا بكر! ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟ أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه «عائشة»، قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه!

فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له ذلك، فقال: «ارجعي إليه، فقولي له: أنت أخي في الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لي»، فأتت «أبا بكر» فذكرت ذلك له، فقال: انتظريني حتى أرجع.

فقالت: «أم رومان»: إن «المطعم بن عدي» كان ذكرها على ابنه، ولا والله! ما وعد شيئاً قط فأخلف، فَدَخل «أبو بكر» على «مطعم»، وعنده امرأته أم

ابنه الذي كان ذكرها عليه، فقالت العجوز: يابن أبي قحافة! لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك أن تُصْبِئَه ـ ترده عن دينه ـ وتدخله في دينك الذي أنت عليه!

فأقبل على زوجها «المطعم»، فقال: ما تقول هذه؟ فقال: إنها تقول ذاك. قال: فخرج «أبو بكر»، وقد أذهب الله العِدَةَ التي كانت في نفسه من عِدَتِهِ التي وعدها إياه، وقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ، فدعته فجاء، فأنكحه، وهي يومئذ ابنة ست سنين[1].

ثم إن رسول الله ﷺ بنى بعائشة بعدما قدم المدينة، وهي يوم بني بها ابنة تسع سنين، وأما «سودة بنت زمعة» ﵂ ـ فقد بنى بها بمكة.

وخرج رسول الله ﷺ ومعه «أبو بكر» ﵁ من الغار، واتخذا طريقهما إلى المدينة، وكان بصحبتهما «عامر بن فهيرة» مولى «أبي بكر» ودليل مشرك يدلهم على الطريق يدعى «عبد الله بن أريقط»، واسْتُقْبِلَ الموكب النبوي في المدينة أروع استقبال أعده الأنصار لأعَزِّ الضيوف.

وقد روى محمد بن إسحاق، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ و«أبو بكر» أتانا نفر من قريش، فيهم «أبو جهل بن هشام»، فوقفوا على باب «أبي بكر»، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوكِ يابنة أبي بكر!؟ قلت: لا أدري والله! أين أبي!

قالت: فرفع «أبو جهل» يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة طرح منها قُرْطي.

قالت: ثم انصرفوا ومكثنا ثلاث ليالٍ، لا ندري أين توجه رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من الجن، من أسفل مكة، يغني بأبيات من الشعر غناء العرب، والناس يتبعونه، يسمعون صوته وما يرونه، حتى خرج من أعلى مكة، وهو يقول:

جَزَى اللهُ ربُّ الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم مَعْبَدِ
هما نزلاها بالهدى واغتدوا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمَّدِ
لِيَهْنِ بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمَرْصَدِ

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٦٢).

قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وَجَّهَ رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة، وكانوا أربعة: رسول الله ﷺ، و«أبو بكر» و«عامر بن فهيرة» و«عبد الله بن أريقط» دليلهما[١].

ونزل رسول الله ﷺ بالمدينة على «أبي أيوب الأنصاري؛ خالد بن زيد»، ونزل «أبو بكر» رضي الله عنه على «خُبَيْب بن أساف» وقيل: على «خارجة بن زيد بن أبي زهير» بالسُّنح الذي زوَّجه ابنته «حبيبة بنت خارجة» فيما بعدُ.

ولما استَقَرَّ المُقَامُ برسول الله ﷺ وبأبي بكر في المدينة، بعث رسول الله ﷺ إلى بناته وامرأته «سودة بنت زمعة» موليبه «زيد بن حارثة» و«أبا رافع» فحملاهُنَّ من مكة إلى المدينة.

وحين رجع «عبد الله بن أريقط» إلى مكة أخبر «عبد الله بن أبي بكر» بمكان أبيه «أبي بكر»، فخرج «عبد الله» بعيال أبيه إليه، وصحبهم «طلحة بن عبيد الله»، معهم «أم رومان» وهي «أم عائشة»، و«عبد الله بن أبي بكر» حتى قدموا المدينة. وفي شهر شوال من السنة الأولى بنى رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها وكانت تستحب أن يبنى بالنساء في شوال.

وهاجرت «أسماء بنت أبي بكر» إلى المدينة، وهي حامل، ولما وضعت «عبد الله بن الزبير» رضي الله عنه تكنَّت «عائشة» رضي الله عنها به لأنه ابن أختها، فصار يقال لها «أم عبد الله»، قال ذلك لها رسول الله ﷺ.

وكانت «أم رومان» خير ما رُزِقَه «أبو بكر» رضي الله عنه، فهي المرأة الصالحة التي عناها الحديث الشريف، إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا أقسم عليها أبرته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله، وإذا كانت المرأة لها هذه الصفات، فلا غرو أن تكون أفضَل المربيات، وقد أهدت لرسول الله ﷺ أحبَّ الزوجات، وللمؤمنين أعظم الأمهات، ولكنها لم تسلم من كيد المرجفين، وتخرّص المنافقين، فاختلقوا لها إفكاً عظيماً، وسَبَّبوا لها عذاباً أليماً، حين اتهموا أطهر النساء في عفتها، وأرادوا النيل من سمعتها، غير مبالين بحسن

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

تربيتها، ولم يكن في وسع أم المؤمنين، إلّا تفويض أمرها لرب العالمين، الذي تعهد بنصرة المظلومين، وإنصافهم ولو بعد حين، وما كان الله ليتخلى عن أشرف شريفة، وأعف عفيفة، اختارها زوجاً لسيد أحبابه، وأكرمهم على جنابه.

ولئن برئت ساحة «مريم البتول» على لسان ابنها، وشهد على كذب امرأة العزيز شاهد من أهلها، فإن العلي الكبير القدير، تصدى بنفسه لهذا الاتهام الخطير، وشدَّد على مقترفيه الوعيد والنكير، فأصدر البراءة من علياء سمائه، وأقر عين خير أنبيائه، وكشف الغمة عن المطهرة العصماء، التي لم تحظ بمناقبها أي من النساء، وها هي ذي قصة الإفك التي رواها الإمام «أبو عبد الله البخاري؛ محمد بن إسماعيل» في صحيحه الجليل، قال:

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب، قال: حدثني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيَّب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة ﵂؛ زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثبت له اقتصاصاً ـ أي: أحفظ وأحسن إيراداً وسرداً للحديث ـ، وقد وعيتُ عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن «عائشة»، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، قالوا: قالت «عائشة»: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت «عائشة»: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزِل الحجاب، فكنت أُحْمَلُ في هودجي وأُنْزَلُ فيه، فَسِرْنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارِ قد انقطع، فرجعتُ فالتمستُ عقدي، فحبسني ابتغاؤه.

قالت: وأقبل الرهطُ الذين كانوا يَرْحَلُون لي، فاحتملوا هودجي فَرَحَلُوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه.

وكانت النساء، إذ ذاك خِفافاً لم يُهَبِّلْنَ ـ لم يَسْمَنَّ ـ، ولم يَغْشَهُنَّ اللَّحْم،

إنما يأكلن العُلْقَةَ من الطعام ـ أي: ما يتبلَّغ به ـ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبَعَثوا الجملَ فساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيشُ، فجئت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب. فتيمَّمتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان «صفوان بن المُعَطَّل» السُّلَميُّ ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله! ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطيء على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة ـ أي: داخلين في وقت شدة الحر ـ، وهم نُزُولٌ.

قالت: فهلك فيَّ مَنْ هلك، وكان الذي تولَّى كِبْرَ الإفك «عبد الله بن أبي ابن سلول» قال «عروة»: أُخبِرتُ أنه كان يشاعُ ويُتَحدَّثُ به عنده، فيُقِرُّه ويستمعه ويستوشيه ـ أي: يطلب ما عند المتحدث ليزيد منه ـ.

وقال «عروة» أيضاً: لم يُسَمَّ من أهل الإفك أيضاً إلَّا «حسان بن ثابت»، و«مِسْطَحُ بن أُثَاثَةَ» و«حَمْنَةُ بنت جحش»، في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى، وإنَّ كُبْرَ ذلك يقال له: «عبد الله بن أبي ابن سلول».

قال «عروة»: كانت «عائشة» تكره أن يُسَبَّ عندها «حسانُ»، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعِرْضي ... لِعِرْضِ محمَّدٍ منكم وِقاءُ

قالت «عائشة»: فقدمنا المدينة، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيءٍ من ذلك، وهو يُريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، «إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيُسَلِّم، ثم يقول: «كيف تِيكُمْ؟» ـ اسم إشارة للمؤنث ـ، ثم ينصرف، فذلك يَريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت حين نَقَهْتُ ـ

أي: أفقت من المرض ـ، فخرجتُ مع «أم مِسْطَح» قِبَلَ المناصع ـ مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها ـ، وكان مُتَبَرَّزَنَا، وكنا لا تخرج إلَّا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُفَ قريباً من بيوتنا. قالت: وأُمرنا أَمْرُ العرب الأُوَل في البرِّيَّة قِبَلَ الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

قالت: فانطلقتُ أنا و«أُمُّ مِسْطَحٍ»، وهي ابنة «أبي رُهْم بن المُطَّلب بن عبد منافٍ» وأمها «بنت صخر بن عامر» خالةُ «أبي بكر الصديق»، وابنها «مِسْطَحُ بن أُثاثة بن عَبَّاد بن المُطَّلب»، فأقبلتُ أنا و«أُمُّ مِسْطَحٍ» قِبَلَ بيتي حين فرغنا مِنْ شأننا، فعثرت «أم مِسْطَح» في مِرْطِهَا، فقالت: تَعِسَ «مِسْطَحٌ»، فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أيْ هَنْتَاهْ! ـ أي: يا هذه! ـ أولم تسمعي ما قال؟

قالت: وقلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك.

قالت: فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، دخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلَّم، ثم قال: «كيف تِيكُمْ؟»، فقلت له: أتأذن لي أن آتيَ أبويَّ؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهِمَا.

قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي: يا أُمَّتاهُ! ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية! هَوِّني عليك، فوالله! لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلَّا أكثرن ـ عليها ـ أي: أكثرن القول الرديء عليها ـ.

قالت: فقلت: سبحان الله! أو لقد تحدث الناس بهذا؟

قالت: فبكيتُ تلك الليلةَ حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع ـ أي: لا يسكن ولا ينقطع ـ ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحتُ أبكي.

قالت: ودعا رسول الله ﷺ «علي بن أبي طالب» و«أسامة بن زيد» حين استلبث الوحي ـ أي: أبطأ ـ، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما «أسامة» فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال «أسامة»: أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما «عليٌّ» فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسَلِ الجاريةَ تَصْدُقْك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ «بَرِيرَةَ»، فقال: «أيْ بَرِيرَةُ! هل رأيتِ من شيءٍ

يَرِيبكِ؟»، قالت له«بَرِيرَة»: والذي بعثك بالحق! ما رأيت عليها أمراً قط أَغْمِصُه ـ أي: أعيبه ـ أكثرَ من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن ـ الشاة ـ فتأكله.

قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من «عبد الله بن أبي»، وهو على المنبر، فقال: «يا معشر المسلمين! من يعذِرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله! ما علمتُ على أهلي إلاَّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلَّا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلَّا معي».

قالت: فقام «سعد بن معاذ» أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله! أعذِركَ، فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت «أمُّ حسانَ» بنتَ عمِّه من فخذه، وهو «سعد بن عبادة» وهو سيد الخزرج.

قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحميَّة، فقال لسعد: كذبت لَعَمْرُ اللهِ لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يقتل.

فقام «أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ، وهو ابن عم «سَعْدٍ»، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لَعَمْرُ اللهِ لنقتلَنَّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

قالت: فثار الحَيَّانِ الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهم، حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيتُ يومي ذلك كُلَّه لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيتُ ليلتين ويوماً، ولا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنتْ عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي.

قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا، فَسَلَّم، ثم جلس،

قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يُوحَى إليه في شأني بشيء.

قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: **«أمَّا بعد، يا عائشة! إنه بَلَغَني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبَرِّئك الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف، ثم تاب، تاب الله عليه»**.

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي حتى ما أُحسُّ منه قطرة، فقلتُ لأبي: أَجِبْ رسول الله ﷺ عني فيما قال، فقال أبي: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمي: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً ـ إني والله! لقد علمتُ، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لَتُصَدِّقُنِّي، فوالله! لا أجد لي ولكم مثلاً إلاَّ «أبا يوسف» حين قال: قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف، الآية: ١٨]، ثم تحولتُ واضطجعتُ على فراشي، والله يعلم أني حينئذٍ بريئة، وأن الله مُبَرِّئي ببراءتي، ولكن والله! ما كنت أظن أن الله مُنْزِلٌ في شأني وحياً يُتْلَى، لَشَأْنِي في نفسي كان أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يتكلم الله فِيَّ بِأَمْرٍ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرِّئني الله بها، فوالله! ما رام رسول الله ﷺ مجلسَه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أُنْزِلَ عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء ـ الشدة ـ، حتى إنه ليتحدَّر منه من العَرَق مثلُ الجمان، وهو في يوم شات، من ثِقَلِ القول الذي أنزل عليه.

قالت: فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلَّم بها أن قال: **«يا عائشة! أمَّا الله فقد براكِ»**.

قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلتُ: والله! لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله ﷻ.

قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١ ـ ٢٠] العشر آيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي.

فقال «أبو بكر الصديق» ـ وكان ينفق على «مِسطح بن أثاثة، لقرابته منه

وفقره ـ : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ...﴾ [النور، الآية: ٢٢].

فقال «أبو بكر الصديق»: بلى والله! إني لأحب أن يغفر الله لي، فرَجَع إلى «مِسْطَحٍ» النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله! لا أَنْزِعها منه أبداً.

قالت «عائشة»: وكان رسول الله ﷺ سأل «زينب بنت جحش» عن أمري، فقال لزينب: «ماذا علمتِ، أو رأيتِ؟»، فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، والله! ما علمتُ إلا خيراً.

قالت: «عائشة»: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختُها «حَمْنَةُ» تحارِبُ لها، فهلكت فيمن هلك.

قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط.

ثم قال «عروة»: قالت: «عائشة»: والله! إن الرجل الذي قيل له ما قيل، لَيَقُول: سبحان الله! فوالذي نفسي بيده! ما كشفتُ من كَنَفِ أنثى قط، قالت: ثم قُتِلَ بعد ذلك في سبيل الله[(١)].

وروى البخاري أيضاً: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن حصين، عن أبي وائل، قال: حدثني مسروق بن الأجدع، قال: حدثتني «أم رومان» وهي «أم عائشة» ﵄، قالت: بينا أنا قاعدة أنا و«عائشة» إذ وَلَجَتِ امرأة من الأنصار، فقال: فعل الله بفلان وفعل، فقالت «أم رومان»: وما ذاك؟ قالت: ابني فيمن حَدَّث الحديث، قالت: وما ذاك؟ قالت: كذا وكذا.

قالت: «عائشة»: سمع رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قالت: وأبو بكر؟ قالت: نعم، فخرَّت مغشياً عليها، فما أفاقت إلَّا وعليها حُمَّى بنافض، فطرحتُ عليها ثيابها فغطَّيتُها، فجاء النبي ﷺ، فقال: «ما شأن هذه؟»، قلت: يا رسول الله! أخذتها الحمى بنافض، قال: «فلعل في حديث تُحُدِّث به»، قالت: نعم، فقعدت «عائشة» فقالت: والله! لئن حلفتُ لا تصدقونني، ولئن قلتُ لا تَعْذِرونني، مَثَلي ومثلُكُم كيعقوب وبنيه: (والله المستعان على ما تصفون).

---

(١) صحيح البخاري (٣٩١٠).

قالت: وانصرفت ولم يقل شيئاً، فأنزل الله عذرها، قالت: بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك[١].

لماذا أسرفتَ يا رأس المنافقين، في إيذاء رسول رب العالمين؟ وهو الذي نهى فِلْذَة كبدك عن قتلك، وكان في قتلك راحة للمسلمين.

لماذا افتريت على ربة العفاف والطهر، وسببت لها الألم والقهر؟ وهي أم للمؤمنين، وخيرة الله من النساء لسيد المرسلين.

ماذا فعَل لك «أبو بكر» و«أم رومان» حتى قابلتهم بأعظم بهتان؟ لقد ارتقيت مرتقى ظلامه حالك، وسلكت سبيلاً وعرة المسالك، وما ذاك إلا لسوء نيتك، وفساد طويتك، وأحسب أنك في الآخرة من الهالكين، فَلَكَ الدرك الأسفل من النار مع المنافقين، وسائر أعداء الله والدين.

واختلف أهل السير في وفاة «أم رومان» ﵂، وقد أفاض «ابن حجر العسقلاني» في «الإصابة» بذلك فقال: (وقال ابن سعد: توفيت في عهد النبي ﷺ في ذي الحجة سنة ست، ثم أخرج عن «عفان» و«زيد بن هارون» كلاهما، عن حماد، عن علي بن زيد، عن القاسم بن محمد، قال: لَمَّا دُلِّيَتْ «أم رومان» في قبرها، قال النبي ﷺ: **«من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان»** وقال أبو عمر: توفيت «أم رومان» في حياة النبي ﷺ، وذلك في سنة ست من الهجرة، فنزل النبي ﷺ قبرها واستغفر لها، وقال: **«اللهم! لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك»**.

قال أبو عمر: كانت وفاتها فيما زعموا في ذي الحجة سنة أربع أو خمس عام الخندق.

وقال ابن الأثير: سنة ست، وكذلك قال الواقدي: في ذي الحجة سنة ست، وتعقَّب ابن الأثير من زعم أنها ماتت سنة أربع أو خمس، لأنه قد صَحَّ أنها كانت في الإفك حية، وكان الإفك في شعبان سنة ست.

قلت: ـ ابن حجر ـ لم يتفقوا على تاريخ الإفك، فلا معنى للتوهم بذلك،

---

(١) صحيح البخاري (٣٩١٢).

والخبر الذي ذَكَرَ «ابن سعد»، وأخرجه «البخاري» في تاريخه، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدْعان، عن القاسم بن محمد، قال: لَمَّا دُلِّيَتْ «أم رومان» في قبرها، قال رسول الله ﷺ: **«من سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى هذه»**، ومنهم من زاد فيه: عن القاسم، عن أم سلمة، وقال البخاري بعد تخريجه: فيه نظر، وحديث مسروق أسند، يعني الذي أخرجه هو من طريق حصين، عن مسروق، عن أم رومان.

وقال «أبو نعيم الأصبهاني»: قيل: إنها ماتت في عهد رسول الله ﷺ وهو وهم، وقال في موضع آخر: بقيت بعد النبي ﷺ دهراً.

وقال إبراهيم الحربي: سمع «مسروق» من «أم رومان» وله خمس عشرة سنة.

قلتُ: ـ ابن حَجَر ـ ومقتضاه أن يكون سمع منها في خلافة «عمر» لأن مولده سنة إحدى عشرة من الهجرة، وردَّ ذلك «الخطيب» في المراسيل»، فقال بعد أن ذكر الحديث الذي أخرجه البخاري، فوقع فيه عن مسروق: حدثتني «أم رومان»، فذكر طرفاً من قصة الإفك: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً رواه غير حُصَيْن، ومسروق لم يدرك «أم رومان»، يعني: أنه إنما قدم من اليمن بعد وفاة النبي ﷺ، فوهم حُصَيْن في قوله: حدثتني، إلَّا أن يكون بعض النَّقَلَةِ كتب «سئلت» بألف، فصارت «سألت»، وتحرَّفت الكلمة، فذكرها بعض الرواة بالمعنى، فعبَّر عنها بلفظ: حدثتني، على أن بعض الرواة رواه عن حُصَيْن بالعنعنة، قال الخطيب: وأخرج «البخاري» في «التاريخ» لما وقع فيه عن مسروق: سألت «أم رومان»، ولم يظهر له عِلَّته.

قلت: ـ ابن حَجَر ـ بل عرف «البخاري» العلة المذكورة، وردَّها كما تقدم، ورجَّح الرواية التي فيها: إنها ماتت في حياة النبي ﷺ لأنها مرسلة، وراويها «علي بن زبير»، وهو ابن جُدْعان، ضعيف.

قلت: ـ ابن حَجَر ـ وأما دعوى من قال: إنها ماتت سنة أربع أو خمس أو ست، فيردها ما أخرجه «الزبير بن بكار»، عن إبراهيم بن حمزة الزبيري، عن ابن عيينة، عن علي بن زيد: أن «عبد الرحمٰن بن أبي بكر» خرج في فتية من قريش

قبل الفتح إلى النبي ﷺ، وكذا قال «محمد بن سعد»: إن أول إسلامه كان في صلح الحديبية، وكان أول الصلح في ذي القعدة سنة ست بلا خلاف، والفتح كان في رمضان سنة ثمان.

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي عثمان النهدي، عن عبد الرحمٰن بن أبي بكر ـ أن أصحاب الصفة كانوا ناساً فقراء ـ فذكر الحديث في قصة أضياف «أبي بكر»، قال «عبد الرحمٰن»: وإنما هو أنا وأمي وامرأتي وخادم بيتنا، وفي بعض طرقه عند «البخاري» في كتاب «الأدب»: فلما جاء «أبو بكر» قالت له أمي: احتبست عن أضيافك، و«أم عبد الرحمٰن» هي «أم رومان» بلا خلاف، وإسلام «عبد الرحمٰن» كان بين الحديبية والفتح كما نبهتُ عليه آنفاً، وهذه القصة كانت بعد إسلامه قطعاً، فلا يصح أن تكون ماتت في آخر سنة ست إلَّا إن كان «عبد الرحمٰن» أسلم قبل ذلك، وأقرب ما قيل في وفاتها من الوفاة النبوية، أنها كانت في ذي الحجة سنة ست، والحديبية كانت في ذي القعدة سنة ست، وقدوم «عبد الرحمٰن» بعد ذي الحجة سنة ست، فإن ادُّعِيَ أن الرجوع من الحديبية، وقصّة الجفنة المذكورة، وقدوم «عبد الرحمٰن بن أبي بكر» ووفاة «أم رومان» كان الجميع في ذي الحجة سنة ست كان ذلك في غاية البعد.

ووقفتُ ـ أي: ابن حجر ـ على قصة أخرى تدل على تأخر وفاة «أم رومان» عن سنة ست، بل عن سنة سبع، بل عن سنة ثمان، ففي مسند الإمام أحمد من طريق أبي سلمة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة، فقال: «**يا عائشة! إني عارض عليك أمراً فلا تفتاتي فيه بشيءٍ، حتى تعرضيه على أبويك: أبي بكر وأم رومان**».

قالت: يا رسول الله! وما هو؟ قال: قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب، الآية: ٢٨] إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب، الآية: ٢٩].

قالت: قلت: فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولا أؤامر في ذلك «أبا بكر» ولا «أم رومان» فضحك. وسنده جيد، وأصل القصة في الصحيحين، من طريق أخرى، عن أم سلمة، والتخيير كان في سنة تسع، والحديث مُصَرِّح بأن

«أم رومان» كانت موجودة حينئذٍ، وقد أمعنتُ في هذا الموضوع في مقدمة «فتح الباري» في الفصل المشتمل على الرد على من ادعى في بعض ما في الصحيح علة قدحة، ولله الحمد، فلقد تلقى هذا التعليل لحديث «أم رومان» بالانقطاع جماعة، عن «الخطيب» من العلماء، وقلدوه في ذلك، وعُذرهم واضح، ولكن فتح الله ببيان صحة ما في الصحيح، وبيان خَطَإِ من قال: إنها ماتت سنة ست.

وقيل غير ذلك، وأول من فتح هذا الباب صاحب الصحيح كما ذكره أولاً، فإنه رجَّح رواية «مسروق» على رواية «علي بن زيد»، وهو كما قال، لأن «مسروقاً» متفق على ثقته، و«علي بن زيد» متفق على سوء حفظه، ثم وجدتُ للخطيب سَلَفاً، فذكر «أبو علي بن السكن» في كتاب «الصحابة»، في ترجمة «أم رومان» أنها ماتت في حياة النبي ﷺ، قال: وروى حُصَيْن، عن أبي وائل، عن مسروق، قال: سألت «أم رومان»، قال «ابن السكن»: هذا خطأ، ثم ساق بسنده إلى «حصين» عن «أبي وائل» عن «مسروق» أن «أم رومان» حدثتهم... ـ فذكر قصة الإفك التي أوردها «البخاري»، ثم قال: تفرد به «حصين».

ويقال: إن «مسروقاً» لم يسمع من «أم رومان» لأنها ماتت في حياة النبي ﷺ، وبالله التوفيق)[1].

وهكذا رحلت المؤمنة الصابرة، والمبايعة المهاجرة، عن الدار الفانية، إلى الدار الباقية، رحلت الزوجة العاقلة، والمربية الفاضلة، رحلت «أم رومان»، لتلقى صواحبها من حور الجنان، مشيعة بدعوات النبي المصطفى العدنان، لها بالرحمة والغفران، وقد ألهمتني سيرة «أم رومان» العطرة هذه الأبيات:

يا أم رومان عليك سلامُ	وسقى ضريحك وابلٌ سَجَّامُ
ألقى «أبو بكر» لديك مودَّةً	ورعايةً حارت بها الأفهامُ
قد كنتِ معواناً له في دينه	حتى نما وترعرع الإسلامُ
ومنحتِه فخر البنات فأدركتْ	فضلاً كمثله لم يرَ الأنسَامُ
يا أم عائشة التي نقلت لنا	خير الهدى ما كَرَّتِ الأيامُ

---

(١) الإصابة (٤/ ٢٦٩٢ ـ ٢٦٩٤).

عن زوجها المختار أكرم مرسَلِ ... وأحب من يزجى إليه غرامُ
ما كنت أحسَبُ أن تشبَّه غادةٌ ... بالحور حتى جاءني إعلامُ
عَمَّنْ غدا لحديث أحمَد راوياً ... من غير أن ترقى له الأوهامُ
فبهن شَبَّهك النبي ولم يكن ... يُلْقَى جزافاً من لدنه كلامُ
بل كان وحياً قوله لا عن هَوَى ... أوحى به المتفضِّل العَلاَّمُ
مَنْ أشبهت حور الجنان بحسنها ... جاءت غداة الحَشْرِ وَهْيَ إمامُ
تتقدم الملأَ الحسانَ فخورةً ... بجليل ما أعطى لها القسامُ
فَلْيَهْنكِ الفضلُ الذي نُوِّلْتِهِ ... بأحبِّ بُشْرى تُبْتَغَى وتُرَامُ
يا زوج أوفى صاحب ومصدِّقٍ ... للمصطفى إذ أنكر الأقوامُ
ما قال عن إسرائه وعروجه ... في ساعة تكبو بها الأقدامُ
وتزيغ عن ذكر الحقيقة أنفسٌ ... سيئت بها وعلا الرؤوسَ رَغَامُ
إلَّا رفيقَ الغار جاء مُصَدِّقاً ... ما قد رواه الصادق المِقْدامُ
يا عِتْرَةَ الصِّديقِ أشهد أنكم ... حُزْتم سنامَ المجد حيث يُرَامُ
فغدوتُم بعد النبي وآله ... أغلى الأحبة لو درى الهُيَّامُ
ولئن شفعتم بي إلى خير الورى ... فعسى يعمُّني بَرْدُه وسلامُ
وتنالني مرضاةُ أكرمِ منعمٍ ... لا مُبْتَغَى من غيره الإنعامُ(١)

ثالثاً: وتزوج الصحابية اللبيبة الفذَّة «أسماء بنت عميس» ـ رضي الله تعالى عنها ـ وقد اختلف أصحاب السير في نسبها، قال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: «أسماء بنت عميس بن معد بن الحارث بن تيم بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن معاوية بن زيد بن مالك بن بشر بن وهب الله بن شهران بن عفرس بن خلف بن أقبل»، وهو جماعة خثعم بن أنمار على الاختلاف في أنمار هذا، وقيل: «أسماء بنت عميس بن مالك بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن زيد بن بشر بن وهب الله» الخثعمية، من خثعم.

وأمها: «هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن كنانة»، وهي أخت «ميمونة» زوج النبي ﷺ، وأخت «لبابة» أم الفضل زوجة «العباس» وأخت أخواتها، فأسماء وأختها «سلمى» وأختها «سلامة» الخثعميات هن أخوات

(١) القصيدة للشاعر محمد راجي حسن كتاس.

«ميمونة» لأم، وهنّ تسع، وقيل: عشر أخوات لأم، وست لأب وأم[١].

أسلمت «أسماء» وزوجها «جعفر بن أبي طالب» وبايعت، ثم خرجا مع المهاجرين إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى قريش وطغيانها مخافة أن تفتنهم عن دينهم، وكان «جعفر» ﷺ المتحدث باسم المهاجرين أمام (النجاشي) حين دعاهم، ليسألهم عن سبب لجوئهم إلى بلاده، وإيثاره على غيره، فلما علم حقيقة أمرهم أكرمهم غاية الإكرام، وأقاموا عنده في أحسن جوار، وعلى أرض الحبشة أنجبت «أسماء» لزوجها ثلاثة ذكور: «عبد الله بن جعفر» و«محمد بن جعفر» و«عون بن جعفر».

ولما عادت «أسماء» وزوجها «جعفر» وبنوهم مع المهاجرين من الحبشة، كان رسول الله ﷺ قد هاجر إلى المدينة، فلحقوا به، حتى إذا وصلوا المدينة، كان رسول الله ﷺ والمسلمون قد خرجوا لفتح خيبر، فانطلقوا إلى خيبر، وعند وصولهم كان الله قد فتحها على رسول الله ﷺ، فلما رأى رسول الله ﷺ «جَعْفَراً» التزمه ـ اعتنقه وضمَّه إليه ـ وقبَّل ما بين عينيه، وقال: **«ما أدري بأيهما أنا أَسَرُّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»**.

وكان ﷺ يقول له: **«أشبهت خَلْقي وخُلُقي»**[٢].

وبعد أن قضى رسول الله ﷺ والمسلمون عائدين إلى المدينة من خيبر، أقام بالمدينة شهري ربيع، ثم بعث في جمادى الأولى بعثه إلى «مؤتة» بالشام.

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه حديث «أبي قتادة» فارس رسول الله ﷺ، قال: بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء، فقال: **«عليكم «زيد بن حارثة» فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب «جعفر» فعبد الله بن رواحة»**، فوثب «جعفر» فقال: يا رسول الله ما كنت أذهب أن تستعمل «زيداً» عليَّ! قال: **«امضِ، فإنك لا تدري أي ذلك خير»**[٣]!.

وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف، وجيش الروم مائة ألف، وانضم إليهم

(١) الاستيعاب (٤/ ١٧٨٤).
(٢) مسند الإمام أحمد رقم (١٨٢٣٨).
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٤٠ ـ ٤١).

مائة ألف من المستعربة، مما جعل القتال غير متكافىء، واقتحم «زيد» براية رسول الله ﷺ صفوف العدو، فتناوشه القوم برماحهم فسقط شهيداً، فتناول الراية «جعفر» وقاتل فجاءته ضربة سيف أطاحت بيمينه، ثم تلقى ضربة أخرى أطارت شماله، حتى إذا ألحمه القتال اخترطته السيوف وسقط شهيداً، وهَبَّ «عبد الله بن رواحة» فانتزع الراية من بين عضديْ «جعفر» ثم اقتحم وهو ينشد:

يا نفس إلّا تقتَلي تموتي ... هذا حمامُ الموت قد صَلِيتِ
وما تمنيتِ فقد أعطيتِ ... إن تفعلي فعلهما هُدِيتِ

ثم لم يلبث أن لحق بأخويه «زيد» و«جعفر» رحمهم الله تعالى.

وجاء الوحي رسول الله ﷺ بالخبر، فصعِد رسول الله ﷺ منبره في المدينة، وأمر فنودي: الصلاة جامعة! فاجتمع الناس إلى رسول الله ﷺ فأخبرهم بما جرى للأمراء الثلاثة، وشهد لهم بالشهادة واستغفر لهم، ولكن كيف علمت «أسماء» باستشهاد «جعفر»؟.

روى الإمام أحمد، عن أم عيسى الجزار، عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب، عن جدتها «أسماء بنت عميس»، قالت:

لما أصيب «جعفر» وأصحابه دخلتُ على رسول الله ﷺ، وقد دبغتُ أربعين منيئة[١]، وعجنتُ عجيني، وغسَّلتُ بَنِيَّ ودهَنْتُهم ونظَّفتُهم، فقال رسول الله ﷺ: «ائتيني ببني جعفر».

قالت: فأتيته بهم فشمَّهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! ما يبكيك؟ أبلغك عن «جعفر» وأصحابه شيء؟

قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم»، قالت: فقمتُ أصيح واجتمع إليَّ النساء. وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: **«لا تُغْفِلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شُغِلُوا بأمر صاحبهم»**[٢].

ودخل النساء على «أسماء» يهدئن من روعها وجزعها، فجعل رسول الله ﷺ

---

(١) في رواية: أربعين إهاباً ـ جلداً ـ من أُدم، جمع: أديم، وهو الجلد.
(٢) مسند أحمد (٢٥٨٣٩).

يقول: «**يا أسماء! لا تقولي هُجْراً، ولا تضربي صدراً**»، ثم قال: «**تَسَلَّبي ثلاثاً**، ـ أي: البسي السِّلاَبَ، وهو ثوب الحداد، سواء أكان أبيض أم أسود ـ **ثم اصنعي ما شئت**»، ودخل رسول الله ﷺ على ابنته «فاطمة الزهراء»، وهي تندب «جعفراً»، وتقول: واعَمَّاه! فقال رسول الله ﷺ: «**على مثل جعفرٍ فلتبكِ الباكية**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا لآل جعفرٍ طعاماً، فإنه قد أتاهم أمر شغلهم**»(١).

وأخلدت «أسماء» إلى عِدَّتها، وكان «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه قد ماتت عنه امرأته «أم رومان»، فأرسل إلى «أسماء بنت عميس» من يذكرها عليه، ومثلُ «أبي بكر» لا يُرَدُّ، فإن مكارمه أكثر من أن تُعَدَّ.

وأخرج «ابن حجر» في «الإصابة» عن ابن وَهْب، عن عمرو بن الحارث، عن سعد بن أبي هلال، وقال: إن النبي ﷺ زَوَّج «أبا بكر»، «أسماء بنت عميس» يوم حنين، أخرجه عمر بن شَبَّة في كتاب «مكة»، وهو مرسل جيد الإسناد(٢)، وتحوَّلت «أسماء» مع بنيها إلى بيت «الصديق» أولِ من اكتحلت عيناه بنور الإيمان، فمنحها وأبناءها كل ما لديه من الحب والحنان، فخرج بها إلى حجة الوداع، وهي حامل، حتى إذا كانا بالبيداء وضعت ولدها «محمد بن أبي بكر الصديق» فأخبر «أبو بكر» رسول الله ﷺ، فقال: «**مُرْهَا فَلْتَغْتَسِلْ ثم لِتُهِلَّ**»(٣).

وحَصَلَتْ «أسماء» من رسول الله ﷺ على عدد من الأوسمة والدعوات الطيبات والمباركات، في عدد من المناسبات.

فقد روى الإمام البخاري في صحيحه، حدثني محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، حدثنا يزيد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: بَلَغَنَا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما «أبو بُرْدَة» والآخر «أبو رُهْم»، إما قال: في بِضْعٍ، وإما قال: في ثلاثة وخمسين، أو: اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى «النجاشي» بالحبشة، فوافَقْنَا «جعفر بن أبي طالب» فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافَقْنَا النبي ﷺ حين افتتح خيبر.

---

(١) أبو داود في الجنائز (٢٧٢٥).
(٢) الإصابة (٤/٢٤١٧).
(٣) النسائي (٢٦١٥)

وكان أناسٌ من الناس يقولون لنا، يعني لأهل السفينة: سبقناكم بالهجرة، ودخلت «أسماء بنت عميس»، وهي مِمَّنْ قدم معنا، على «حفصة» زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى «النجاشي» فيمن هاجر، فدخل «عمر» على «حفصة»، و«أسماء» عندها، فقال «عمر» حين رأى «أسماء»: من هذه؟ قالت: «أسماء بنت عميس»، قال «عمر»: آلحبشيةُ هذه؟ آلبحريةُ هذه؟ قالت «أسماء»: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت: كلا والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويَعِظُ جاهلكم، وكنا في دار - أو في أرض - البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وَايْمُ الله! لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤْذَى ونَخَافُ، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله! لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبي ﷺ، قالت: يا نبي الله! إن «عمر» قال: كذا وكذا، قال: **«فما قلت له؟»**، قالت: قلت له: كذا وكذا، قال: **«ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم - أهلَ السفينة - هجرتان»**.

قالت: فلقد رأيت «أبا موسى» وأصحابَ السفينة يأتونني أرسالاً، يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيءٌ هم به أفرحُ ولا أعظمُ في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ.

قال «أبو بُرْدَة»: قالت «أسماء»: فلقد رأيتُ «أبا موسى» وإنه ليستعيد هذا الحديث مني[(١)].

أما رواية الإمام مسلم فقد جاء فيها: حدثنا عبد الله بن بَرَّاد الأشعريُّ، ومحمد بن العلاء الهَمْدانيُّ، قالا: حدثنا أبو أُسامة، حدثني بُرَيْدٌ عن أبي بُرْدَة، عن أبي موسى، قال: بلغنا مَخْرَجُ رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأخوان لي، أنا أصغرهما، - هكذا في النسخ، والوجه أصغر منهما -، أحدهما «أبو بُرْدة» والآخر «أبو رُهْم» - إما قال: بضعاً، وإما قال: ثلاثاً وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي - قال: فركبنا سفينةً، فألقتنا سفينتُنا

(١) صحيح البخاري (٣٩٩٠/ ٣٩٩٢).

إلى «النجاشي» بالحبشة، فوافَقْنا «جعفرَ بن أبي طالب» وأصحابَه عنده، فقال «جعفرٌ»: إن رسول الله ﷺ بعثنا ههُنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً.

قال: فوافَقْنَا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لنا، أو قال: أعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً، إلَّا لمن شهد معه، إلَّا لأصحاب سفينتنا مع «جعفرٍ» وأصحابه، قسم لهم معهم.

قال: فكان ناسٌ من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ: نحن سبقناكم بالهجرة.

قال: فدخلت «أسماء بنت عميس»، وهي ممن قدم معنا، على «حفصة» زوج النبي ﷺ زائرةً، وقد كانت هاجرت إلى «النجاشي» فيمن هاجر إليه، فدخل «عمر» على «حفصة»، و«أسماء» عندها، فقال «عمر» حين رأى «أسماءَ»: مَنْ هذه؟ قالت: «أسماء بنت عميس».

قال «عمر»: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ فقالت «أسماء»: نعم. فقال «عمر»: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت، وقالت كلمةً: كذبت[1]، يا «عمر!» كلا، والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويَعِظُ جاهلكم، وكنا في دار، أو في أرض، البُعَدَاء البُغَضَاء[2] في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وايْمُ الله! لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤْذَى ونُخَافُ، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ، وأسأله، ووالله! لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك.

قال: فلما جاء النبي ﷺ، قالت: يا نبي الله! إن «عمر» قال: كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم، أهلَ السفينة، هجرتان».

قالت: فلقد رأيتُ «أبا موسى» وأصحابَ السفينة يأتوني أرسالاً ـ أفواجاً ـ،

---

(١) تقول العرب: كَذَبْتَ، وتعني: أخطأتَ.

(٢) قال العلماء: البعداء في النسب، البغضاء في الدين، لأنهم كفار إلَّا «النجاشي»، وكان يستخفي بإسلامه عن قومه ويُوَرِّي لهم.

يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيءٌ هم به أفرحُ ولا أعظمُ في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ.

قال «أبو بُرْدة»: فقالت «أسماء»: فلقد رأيت «أبا موسى»، وإنه ليستعيد هذا الحديث مني[١].

وما أحسن قوله وتوجيهه لها ﷺ حين نعي لها زوجها «جعفر»: «يا أسماء! لا تقولي هُجْراً، ولا تضربي صدراً» وذلك حرصاً منه ﷺ على ألاَّ تفعل شيئاً من أفعال الجاهلية التي منعها الإسلام، فتقع في الإثم من حيث لا تريد ذلك، ولا يخطر لها على بال.

وليلة زفاف «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه على «فاطمة» رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ رأى رسول الله ﷺ سواداً وراء الباب، فقال: «من هذا؟» قالت: «أسماء»، قال: «أسماء بنت عميس»؟ قالت: نعم، أبغي بنت رسول الله ﷺ، قال: «جئت كرامة لرسول الله ﷺ؟» قالت: نعم، فدعا لي دعاء إنه لأوثق عملي عندي[٢].

ومن مناقب «أسماء بنت عميس» وصية السيدة «فاطمة الزهراء» بنت رسول الله ﷺ إليها، فقد روى المحب الطبري في ذخائره: عن أم أبي جعفر أن «فاطمة» عليها السلام قالت «لأسماء بنت عميس»: يا أسماء! إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء، إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها.

وقالت «أسماء»: يابْنَة رسول الله! ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة؟ فدعت بجرائد رطبة - أي سَعَف النخيل وورقه - فَحَنَتْها، ثم طرحت عليها ثوباً، فقالت «فاطمة»: ما أحسن هذا وأجمله! تعرف به المرأة من الرجل، فإذا أنا مِتُّ فاغسليني أنت و«عليٌّ» ولا يدخل عليَّ أحد.

فلما توفيت جاءت «عائشة» رضي الله عنها تدخل، فقالت «أسماء»: لا تدخلي، فشكت إلى «أبي بكر»، قالت: إن هذه الخثعمية تحول بيننا وبين بنت رسول الله ﷺ، وقد جعلت لها مثل هودج العروس، فجاء «أبو بكر»، فوقف على

---

(١) صحيح مسلم (١٦٩/ ٢٥٠٢ - ٢٥٠٣).
(٢) انظر ذخائر العقبى للمحب الطبري، ص: ٢٨.

الباب، فقال: يا أسماء! ما حملك على أن منعت أزواج النبي ﷺ يدخلن على بنت رسول الله ﷺ، وجعلت لها مثل العروس؟ فقالت: أمرتني ألّا يدخل عليها أحد، وأريتها هذا الذي صنعت وهي حية، فأمرتني أن أصنع ذلك لها، قال «أبو بكر»: اصنعي ما أَمَرَتْكِ، ثم انصرف، وغسَّلها «عليٌّ» و«أسماء»، خرجه «أبو عمر» وخرج الدولابي معناه مختصراً، وذكر أنها لما أرتها النعش تبسَّمت، وما رئيت مبتسمة ـ يعني بعد النبي ﷺ ـ إلى يومئذ[١].

ولم يكن أحد يعلم ـ إلا الله ـ أن «علياً» سينكح «أسماء» بعد «الزهراء»، ﷺ فسبحان عَلّام الغيوب! ما أوسع علمه! وما أجهل عباده بقَدْره!.

وكانت «أسماء» شديدة الذكاء، مراعية لحقوق ربها، ملتزمة بوصايا نبيها، مطيعة لزوجها، حريصة على تربية بنيها وفق تعاليم الدين الحنيف، راوية للحديث النبوي الشريف، وكانت من العابدات القانتات، فنهارها للصيام، وليلها للقيام، وقد أمرها «أبو بكر» ﷺ بالفطر إذا حضرته الوفاة، وألّا يغسِّلَه سواها، وما كانت تلك المرأة الفذة لتخالف آخر رغبة لأمير المؤمنين، عليه رحمة رب العالمين.

ولما مات أنفذت وصيته، واستسلمت لقضاء الله، وقضت أيام عدتها، في عبادتها، ورعاية بني «جعفر» الثلاثة، ووحيدها من شيخ المسلمين أبي بكر الصديق ﷺ.

وكانت مناقب «أسماء» بادية لكل ذي عينين، وقد أراد «أبو الريحانتين» ووالد «الحسنين» أن يخرجها من وحدتها، ويخلِّصها من عزلتها، فسارع إلى خطبتها، وتم الزواج.

انتقلت «أسماء» مع بني «جعفر»، ووحيد «الصديق» إلى دار فارس الإسلام، وبطله الهمام، فلقيت فيها مع أبنائها خير رعاية، وأكرم عناية، وأعظم تقدير، وقد نقل «ابن حَجَر» في «الإصابة» عن «ابن سعد» صاحب «الطبقات» عن الواقدي أنها ولدت لعلي «عوناً» و«يحيى»[٢]، ومن المعلوم أن «عوناً» أحد أبنائها

---

(١) ذخائر العقبى، ص: ٥٣.

(٢) الإصابة (٤/٢٤١٧).

الثلاثة من «جعفر بن أبي طالب» ـ رضي الله عنه ـ، ولا يعرف على وجه الدقة ما إذا كان لها ولدان باسم «عون» وواحد من «جعفر» والآخر من «علي» رضي الله عنه.

وإن عمر «محمد بن أبي بكر» يوم وفاة أبيه ثلاث سنين، ولما آل الأمر إلى «علي بن أبي طالب» بعد مقتل «عثمان» رضي الله عنه ولَّى عليٌّ «مقاليد مصر» إلى «محمد بن أبي بكر» وكان «معاوية» قد حمَّله تبعة قتل «عثمان»، فأرسل جيشاً يقوده «عمرو بن العاص» لإخراج «ابن أبي بكر» من مصر، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين للهجرة، وانفضَّ عن «محمد بن أبي بكر» أعوانه، فتصدى لعمرو ومن معه، وجرت بينهما رسائل ذكرها «ابن جرير الطبري في تاريخه (٥/ ٩٤ ـ ١٠٥) لا مجال لإيرادها هٰهُنا، وقاتلهم» «محمد» حتى قتل، وذكر «ابن حَجَر» في «الإصابة» أن أمه «أسماء بنت عميس» لما بلغها مقتل ولدها «محمد» بمصر، قامت إلى مسجد بيتها، وكظمت غيظها، حتى شخب ثدياها دماً[1]، ثم ماتت رحمها الله تعالى.

وفي سنة أربعين، قتل «علي بن أبي طالب» على يد أشقى الآخرين، «عبد الرحمٰن بن ملجم» عليه لعنة الله تعالى إلى يوم الدين.

رابعاً: وكانت «حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير»، آخر من تزوَّج «أبو بكر» رضي الله عنه، وتوفي عنها وهي حامل، وبعد وفاته وضعت جارية أسمتها «أم كلثوم»[2].

وقد أخرج «أبو جعفر الطبري» في تاريخه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان منزل أبي بالسُّنحِ عند زوجته «حبيبة ابْنَة خارجة بن زيد بن أبي زهير» من بني الحارث بن الخزرج، وكان قد حَجَّر عليه حجرة من سَعَف، فما زاد على ذلك حتى تحوَّل إلى منزله بالمدينة؛ فأقام هنالك بالسُّنح بعدما بويع له ستة أشهر، يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فرس له، وعليه إزار ورداء مُمَشَّق ـ فيه شقوق ـ، فيوافي المدينة، فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء، رجع إلى أهله بالسُّنح، فكان إذا حضر صلى بالناس، وإذا لم يحضر صلى بهم

(١) الإصابة (٤/ ٢٤١٧).
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٢٦).

«عمر بن الخطاب».

قال: فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسُّنْح يصبغ رأسه ولحيته، ثم يروح لَقَدر الجمعة، فيجمِّع بالناس، وكان رجلاً تاجراً، فكان يغدو كل يوم إلى السوق، فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربَّما خرج هو بنفسه فيها، وربَّما كُفِيَها فَرُعِيَتْ له، وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة، قالت جارية من الحي: الآن لا تُحْلَب لنا منائح دارنا، فسمعها «أبو بكر»، فقال: بلى، لعمري لأحلِبنَّها لكم؛ وإني لأرجو ألَّا يغيرني ما دخلتُ فيه عن خُلُقٍ كنت عليه، فكان يحلب لهم، فربَّما قال للجارية من الحي: يا جارية! أتحبين أن أرعى لك، وأصرِّح؟ ـ أخلِّص من الشوائب ـ، فربَّما قالت: ارْغَ، وربَّما قالت: صَرِّح، فأي ذلك قالته فعل؛ فمكث كذلك بالسُّنْح ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة، فأقام بها، ونظر في أمره، فقال: لا والله! ما تُصْلِحُ أمورَ الناس التجارةُ، وما يُصْلِحُهم إلَّا التفرغ لهم والنظر في شأنهم، ولا بد لعيالي مما يُصْلِحُهم، فترك التجارة، واستنفق من مال المسلمين ما يُصْلِحُه ويُصْلِحُ عياله يوماً بيوم، ويحج ويعتمر، وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستَّة آلاف درهم.

فلما حضرته الوفاة، قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من هذا المال شيئاً، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبتُ من أموالهم، فدفع ذلك إلى «عمر»، ولقوحاً، وعبداً صَيْقَلاً ـ أي: يجلو السيوف ويشحذها ـ وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم، فقال «عمر»: لقد أتعب من بعدَه.

وقال علي بن محمد ـ فيما حدثني أبو زيد عنه في حديثه عن القوم الذين ذكرتُ روايته عنهم ـ قال «أبو بكر»: انظروا كم أنفقت منذُ وُلِّيتُ من بيت المال فاقضوه عني، فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته.

وعن ابن إسحاق، عن الزهري، عن القاسم بن محمد، عن أسماء بْنَةِ عميس، قالت: دخل «طلحة بن عبيد الله» على «أبي بكر» فقال: استخلفت على الناس «عمر»، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه؛ فكيف به إذا خلا بهم؟ وأنت لاقٍ ربك، فسألك عن رعيتك.

فقال «أبو بكر» وكان مضطجعاً: أجلسوني، فأجلسوه، فقال لطلحة: أبالله

تفرِّقُني؟ - أو أبالله تخوفني؟ - إذا لقيت ربي فساءلني، قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك[١].

تلكم هي بعض النفحات العطرة عن رجل باع نفسه لله، وكان في علانيته وسره يخشاه، ضمنتها بعض اللمحات عن أزواجه وأولاده، ولعل فيها بعض العظات والعِبَر، لمن أمعن فيها النظر، والله أحمد على معونتي، وهو قصدي ورضاه غايتي.

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٣٢ - ٤٣٣).

٢ ـ أزواج عمر بن الخطاب ﷺ

ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد الأعمدة الأربعة للدين، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، على مبغضه اللعنة.

نسبه «الإمام» «السيوطي» في كتابه «تاريخ الخلفاء» فقال: «عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العُزَّى بن رياح بن قُرْط بن رِزاح بن عدي بن كعب بن لؤي» أمير المؤمنين، «أبو حفص» القرشي، العدوي، الفاروق[(١)].

وكانت السفارة لعمر في الجاهلية، فإذا أرادت قريش أن تبعث سفيراً عنها بعثت «عمر» وإذا نافرها منافر وفاخرها مفاخر أرسلت «عمر» منافراً أو مفاخراً، وأمه «حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم» وخاله «أبو جهل» أشقى قريش، وأشدها على رسول الله ﷺ والمسلمين، ونال ببدر شر ميتة.

وزاد الطبري في نسبه «عبد الله» بين «رياح» وبين «قُرُط»[(٢)].

وسماه رسول الله ﷺ «الفاروق» فقد روى ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنا أبو حَزْرة؛ يعقوب بن مجاهد، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي عمر وذكوان، قال: قلت لعائشة: من سمَّى «عمر» الفاروق؟ قالت: النبي ﷺ.

وقد كَنَّاه رسولُ الله ﷺ بأبي حفص يوم بدر، فقد روى أبو جعفر الطبري في تاريخه: عن ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومئذ ـ أي: يوم بدر ـ: **«إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كُرْهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمَنْ لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومَنْ لقي «أبا البَخْتَري بن هشام بن الحارث بن أسد» فلا يقتله، ومن لقي «العباس بن عبد المطلب» عم رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً»**.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٩٩.

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ١٩٥).

قال: فقال «أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة»: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا، ونترك «العباس؟» والله لئن لقيتُه لأُلْحِمَنَّهُ السيف ـ أي: لأطعنَنَّ لحمه بالسيف ـ، فبلغت رسول الله ﷺ، فجعل يقول لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص! أما تسمع لقول أبي حذيفة؟ يقول: أضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف» فقال «عمر»: يا رسول الله! دعني فلأضربن عنقه بالسيف، فوالله! لقد نافق.

قال «عمر»: والله! إنه لأول يوم كنَّاني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص[1].

ولكن، كيف أسلم «عمر بن الخطاب»؟

كان «عمر» في جاهليته شديداً على المسلمين وأسهم بنفسه في تعذيب بعضهم، ثم حزم أمره على الفتك برسول الله ﷺ وتخليص قريش منه، فأخذ لذلك أهبته، وتقلَّد سيفه، ثم خرج من منزله ينشد ضالَّته، ولكن مشيئة رَبِّ «عمر» قضت بخلاف مشيئة «عمر» وبدلاً من أن ينفذ بُغْيَته، ويرجع بالإثم العظيم، عاد بالخير العميم، حين زيَّن خير الأنام، صدره بأرفع وسام، ألا وهو وسام الإسلام.

وقد تعددت الروايات حول إسلامه، حيث جاء إسلامه إثر دعوة دعاها رسول الله ﷺ له، فاستجاب الله تعالى لنبيه ﷺ لِمَا أراد الله بعمر من الكرامة، فقد أخرج «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» حديث الترمذي، عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: «اللهم! أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام»، فظفر الأول برضا الله وكان من المسلمين، وباء الثاني بسخط الله وكان من الكافرين.

وفي رواية للحاكم عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة»[2] وإنها لدعوة خالصة صادفت قدراً مقدوراً.

ثم قال السيوطي: وأخرج ابن سعد، وأبو يعلى، والحاكم، والبيهقي في الدلائل عن أنس رضي الله عنه، قال: خرج «عمر» متقلداً سيفه، فلقيه رجل من بني زُهْرَة، فقال: أين تعمد يا عمر! فقال: أريد أن أقتل «محمداً»، قال: وكيف تأمن

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٥٠).

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ١٠٠.

من بني هاشم وبني زهرة، وقد قتلت «محمداً؟»، فقال: ما أراك إلا قد صبأت، قال: أفلا أدلك على العجب؟ إن خَتَنَك ـ أي: صهرك ـ وأختك قد صَبَآ وتركا دينك.

فمشى «عمر»، فأتاهما وعندهما «خَبَّاب»، فلما سمع بحس «عمر» توارى في البيت، فدخل، فقال: ما هذه الهينمة؟ ـ الكلام غير المفهوم ـ وكانوا يقرأون قوله تعالى: ﴿طه ۝١﴾ [طه، الآية: ١] قالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا، قال: فلعلكما قد صبأتما، فقال له خَتَنُه: يا عمر! إن كان الحق في غير دينك، فوثب عليه «عمر»، فوطئه وطأً شديداً، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها، فنفحها نفحة بيده، فدمَّى وجهها، فقالت ـ وهي غضبى ـ: وإن كان الحق في غير دينك، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فقال «عمر»: أعطوني الكتاب الذي هو عندكم، فأقرأه ـ وكان «عمر» يقرأ الكتاب ـ فقالت أخته: إنك نجس، وإنه لا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ، فقام فتوضأ، ثم أخذ الكتاب، فقرأ: قوله تعالى: ﴿طه ۝١﴾ [طه، الآية: ١] حتى انتهى إلى: قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه، الآية: ١٨]، فقال «عمر»: دلوني على «محمد»، فلما سمع «خبَّاب» قول «عمر» خرج، فقال: أبشر يا عمر! فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك، ليلة الخميس «اللهم! أعِزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمرو بن هشام».

وكان رسول الله ﷺ في أصل الدار التي في أصل الصفا، فانطلق «عمر» حتى أتى الدار، وعلى بابها «حمزة» و«طلحة» وناس، فقال «حمزة»: هذا «عمر»، إن يرد الله به خيراً يسلم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً، قال: والنبي ﷺ داخل يوحى إليه، فخرج حتى أتى «عمر»، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، فقال: «ما أنت بِمُنْتَهٍ يا عمر! حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة»، فقال «عمر»: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله.

وأخرج البزار والطبراني وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الدلائل، عن أسلم، قال: قال لنا «عمر»: كنتُ أشدَّ الناس على رسول الله ﷺ، فبينا أنا في يوم حار بالهاجرة في بعض طريق مكة إذ لقيني رجل، فقال: عجباً لك يابن

الخطاب! إنك تزعم أنك وأنك، وقد دخل عليك الأمر في بيتك، قلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد أسلمت، فرجعتُ مغضباً حتى قرعتُ الباب، قيل: من هذا؟ قلت: «عمر»، فتبادروا فاختفوا مني، وقد كانوا يقرأون صحيفة بين أيديهم، تركوها ونسوها، فقامت أختي تفتح الباب، فقلت: يا عدوة نفسها! أَصَبَأْتِ؟ وضربتُها بشيء كان في يدي على رأسها، فسال الدم وبكت، فقالت: يابن الخطاب! ما كنت فاعلاً فافعل، فقد صَبَأْتُ، قال: ودخلتُ حتى جلستُ على السرير، فنظرتُ إلى الصحيفة، فقلت: ما هذا؟ ناولنيها.

قالت: لست من أهلها، إنك لا تَطَهَّر من الجنابة، وهذا كتاب لا يمسه إلا المطهرون، فما زلت بها حتى ناولتنيها، ففتحتها فإذا فيها: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فلما مررتُ باسم من أسماء الله تعالى ذعرت منه، فألقيت الصحيفة، ثم رجعت إلى نفسي، فَناولتُها، فإذا فيها: قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الصف، الآية: ١] ، فذعرت، فقرأت إلى: قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فقلت: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، فخرجوا إليَّ مبادرين وكبَّروا وقالوا: أبشر فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الإثنين فقال: «اللهم! أعِزَّ دينك بأحب الرجلين إليك: إما «أبو جهل بن هشام»، وإما «عمر».

ودَلُّوني على النبي ﷺ في بيت بأسفل الصفا، فخرجتُ حتى قرعتُ الباب، فقالوا: مَنْ؟ قلت: ابن الخطاب، وقد علموا شدتي على رسول الله ﷺ، فما اجترأ أحدٌ بفتح الباب، حتى قال ﷺ: «افتحوا له»، ففتحوا لي، فأخذ رجلان بعضدي حتى أتيا بي النبي ﷺ، فقال: خَلُّوا عنه، ثم أخذ بمجامع قميصي وجذبني إليه، ثم قال: «أَسْلِمْ يابن الخطاب! اللهم! اهده»، فتشهدت، فكبَّر المسلمون تكبيرة سمعت بفجاج مكة، وكانوا مُسْتَخْفِينَ، فلم أشأ أن أرى رجلاً يضرب ويضرب إلا رأيته ولا يصيبني من ذلك شيء، فجئت إلى خالي «أبي جهل بن هشام» وكان شريفاً، فقرعتُ عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: ابن الخطاب، وقد صبأتُ، فقال: لا تفعل، ثم دخل، وأجَاف الباب دوني، فقلت: ما هذا بشيء، فذهبتُ إلى رجل من عظماء قريش، فناديته، فخرج إليَّ، فقلت له مثل مقالتي لخالي، وقال لي مثل ما قال خالي، فدخل وأجَاف الباب دوني، فقلت: ما هذا بشيء، إن المسلمين يضربون وأنا لا أُضرَب، فقال لي رجل: أتحب أن يعلم بإسلامك؟ قلت: نعم، قال: فإذا جلس الناس في الحِجْر، فَأْتِ

فلاناً ـ لرجل لم يكن يكتم السر ـ فقل له فيما بينك وبينه، إني قد صبأت، فإنه قلَّ ما يكتم السر، فجئت وقد اجتمع الناس في الحِجْر، فقلت فيما بيني وبينه: إني قد صَبَأْتُ قال: أو قد فعلت؟ قلت: نعم، فنادى بأعلى صوته: إن «ابن الخطاب» قد صَبَأَ، فبادروا إليَّ، فما زلتُ أضربهم ويضربونني، واجتمع عليَّ الناس، فقال خالي: ما هذه الجماعة؟ قيل: «عمر» قد صبأ، فقام على الحِجْر فأشار بكمه: ألا إني قد أجرتُ ابن أختي، فتكشفوا عني، فكنتُ لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يضرب ويضرب إلَّا أريته، فقلت: ما هذا بشيء قد يصيبني، فأتيتُ خالي، فقلت: جوارُك ردٌّ عليك، فما زلتُ أضرب وأضرب حتى أعزَّ الله الإسلام.

وأخرج أبو نعيم في «الدلائل» وابن عساكر، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سألت «عمر» رضي الله عنه: لأي شيء سميت الفاروق؟ فقال: أسلم «حمزة» قبلي بثلاثة أيام، فخرجت إلى المسجد، فأسرع «أبو جهل» إلى النبي ﷺ يسبُّه، فأُخْبِرَ «حمزة» فأخذ قوسه وجاء إلى المسجد إلى حلقة قريش التي فيها «أبو جهل» فاتكأ على قوسه، مقابل «أبي جهل»، فنظر إليه فعرف «أبو جهل» الشر في وجهه، فقال: مالك يا أبا عُمَارة!؟ فرفع القوس، فضرب بها أخدعه ـ عرق في جانب العنق ـ فقطعه، فسالت الدماء، فأصلحت ذلك قريش مخافة الشر.

قال: ورسول الله ﷺ مختفٍ في دار الأرقم المخزومي، فانطلق «حمزة» فأسلم، فخرجت بعده بثلاثة أيام، فإذا فلان المخزومي، فقلت له: أرغبت عن دين آبائك واتبعت دين «محمد؟»، فقال: إن فَعَلْتُ فقد فعله مَنْ هو أعظم عليك حقاً مني، قَلتُ: ومن هو؟ قال: أختك وختنك، فانطلقت فوجدتُ الباب مغلقاً، وسمعت همهمة، ففتح لي الباب، فدخلت، فقلت: ما هذا الذي أسمع عندكم؟ قالوا: ما سمعتَ شيئاً، فما زال الكلام بيننا حتى أخذت برأس خَتَني، فضربتُه ضربة فأدميتُه، فقامت إليَّ أختي، فأخذت برأسي وقالت: قد كان ذلك على رغم أنفك، فاستحييتُ حين رأيت الدماء، فجلستُ وقلتُ: أروني هذا الكتاب، فقالت: إنه لا يمسه إلَّا المطهرون، فقمت واغتسلت، فأخرجوا إليَّ صحيفة فيها «بسم الله الرحمٰن الرحيم» فقلت: أسماء طيبة طاهرة: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه، الآيتان: ١، ٢] إلى قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه، الآية: ٨]، قال: فتعظمت في صدري، وقلت: من هذا فرَّت قريش، فأسلمت

وقلت: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: إنه في دار «الأرقم»، فأتيتُ الدار، فضربتُ الباب، فاستجمع القوم، فقال لهم «حمزة»: مالكم؟ قالوا: «عمر»، قال: وإن كان «عمر»، افتحوا له الباب، فإن أقبل قبلنا منه، وإن أدبر قتلناه، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فخرج، فتشهد «عمر»، فكبَّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة، قلت: يا رسول الله! ألسنا على الحق؟ قال: «بلى»، قلتُ: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا صَفَّيْن أنا في أحدهما و«حمزة» في الآخر، حتى دخلنا المسجد، فنظرت قريش إليّ وإلى «حمزة»، فأصابتهم كآبة شديدة لم يصبهم مثلها فسماني رسولُ الله ﷺ «الفاروق» يومئذ، لأنه أظهر الإسلام، وفرق بين الحق والباطل[(١)].

وكان «عمر» رضي الله عنه أخشى الناس لله تعالى بعد رسول الله ﷺ وصاحبه «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه، وأتقاهم، وكانت خشيته تلك مدعاة لمراقبة الله تعالى سراً وعلانية، آناء الليل وأطراف النهار، ورغم ذلك كله كان خائفاً على نفسه من أن يكون أحد المنافقين، وكان رسول الله ﷺ قد أسَرَّ إلى «حذيفة بن اليمان» واستودعه أسماءهم، فجاءه «عمر» رضي الله عنه، وسأله عما إذا كان في عدادهم.

ولهذا لم تكن مخافة الله تعالى تفارقه حتى خرج من الدنيا وهو لها كاره، بل أحد المبغضين، وقال عنه «معاوية بن أبي سفيان» رضي الله عنه: أما «أبو بكر» فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما «عمر» فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما نحن فَتَمَرَّغْنا فيها ظهراً لبطن. قاله «الزبير بن بكار» في مُوَفَّقياته.

فكيف اسْتُخْلِفَ «عمر؟» ولِمَ آثره «أبو بكر» رضي الله عنهما على من سواه؟

لقد أخرج «ابن جرير» في تاريخه، عن ابن سعد، عن الواقدي، عن ابن أبي سبرة، عن عبد المجيد بن سهيل، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، قال: لما نزل بأبي بكر رضي الله عنه الوفاة دعا «عبد الرحمٰن بن عوف»، فقال: أخبرني عن «عمر»، فقال: يا خليفة رسولِ الله! هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة.

فقال «أبو بكر»: ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٠٠ ـ ١٠٤.

مما هو عليه، ويا أبا محمد! قد رَمَّقْتُه، فرأيتني إذا غضبتُ على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه، وإذا لنتُ له أراني الشدة عليه، لا تذكر «أبا محمد!» مِمَّا قلت لك شيئاً، قال: نعم، ثم دعا «عثمان بن عفان»، قال: يا أبا عبد الله! أخبرني عن «عمر»، قال: أنت أخبرُ به، فقال «أبو بكر»: عليَّ ذاك يا أبا عبد الله! قال: اللهم! علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله.

قال «أبو بكر» ﷺ: رحمك الله، يا أبا عبد الله! لا تذكر مما ذكرتُ لك شيئاً، قال: أفعلُ، فقال له «أبو بكر»: لو تركته ما عَدَوْتُكَ، وما أدري لعله تاركه، والخِيرَةُ له ألَّا يليَ من أموركم شيئاً، ولوددت أني كنت خِلْواً من أموركم؛ وأني كنت فيمن مضى من سلفكم، يا أبا عبد الله! لا تذكُرَنَّ مِمَّا قلتُ لك من أمر «عمر» ولا مِمَّا دعوتك له شيئاً[١].

وقال أبو جعفر: وقال الواقدي: حدثني إبراهيم بن أبي النضر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، قال: دعا «أبو بكر»، «عثمان» خالياً، فقال: اكتب:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما عهد به «أبو بكر بن أبي قحافة» إلى المسلمين، أما بعد، قال: ثم أغمي عليه، فذهب عنه، فكتب «عثمان»: أما بعد: فإني قد استخلفتُ عليكم «عمر بن الخطاب»، ولم آلُكُمْ خيراً منه، ثم أفاق «أبو بكر» فقال: اقرأ عليَّ، فقرأ عليه، فكبَّر «أبو بكر»، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افْتُلِتَتْ نفسي في غشيتي! قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقَرَّها «أبو بكر» ﷺ من هذا الموضع.

ثم قال أبو جعفر: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، قال: حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، قال: حدثنا الليث بن سعد، قال: حدثنا عُلْوان، عن صالح بن كيسان، عن عمر بن عبد الرحمٰن بن عوف، عن أبيه، أنه دخل على «أبي بكر الصديق» ـ رضي الله تعالى عنه ـ في مرضه الذي توفي فيه، فأصابه مهتماً: فقال له: «عبد الرحمٰن»: أصبحت ـ والحمد لله ـ بارئاً! فقال «أبو بكر» ﷺ: أتراه؟

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٢٨).

قال: نعم، قال: إني ولَّيْتُ أمركم خيركم في نفسي، فكلم وَرِمَ أنفه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولَمَّا تُقبِلْ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأَذْرِيّ ـ نسبة إلى أذربيجان ـ؛ كما يألم أحدكم أن ينام على حَسَك، والله! لأن يقدَّم أحدكم فتضرب عنقه في غير حَدٍّ خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا وأنتم أول ضالٍّ بالناس غداً، فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً، يا هادي الطريق! إنما هو الفجر أو البَجْر ـ أي: الأمر العظيم ـ، فقلت له: خَفِّض عليك رحمك الله، فإن هذا يهيضك في أمرك، إنما الناس في أمرك بين رجلين، إما رجل رأى ما رأيتَ فهو معك، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك وصاحبك كما تحب، ولا نعلمك أردتَ إلَّا خيراً، ولم تزل صالحاً مُصْلِحاً، وأنك لا تأسى على شيء من الدنيا.

قال «أبو بكر» ﷺ: أجل، إني لا آسى على شيء من الدنيا إلَّا على ثلاث فعلتُهُنَّ، وددتُ أني تركتُهُنَّ، وثلاث تركتُهُنَّ، وددتُ أني فعلتُهُنَّ، وثلاث وددتُ أني سألت عنهن رسول الله ﷺ.

فأما الثلاث اللاتي وددتُ أني تركتُهُنَّ؛ فوددت أني لم أكشف بيتَ «فاطمة» عن شيء، وإن كانوا قد غَلَّقوه على الحرب، ووددتُ أني لم أكن حَرَقْتُ «الفُجَاءَة السُّلَمِيّ»، وأني كنت قَتَلتُه سريحاً أو خلَّيتُه بحيحاً ـ صابراً ـ، ووددتُ أني يوم سقيفة بني ساعدة كنتُ قذفتُ الأمرَ في عنق أحد الرجلين ـ يريد «عمر» و«أبا عبيدة» ـ فكان أحدهما أميراً؛ وكنتُ وزيراً.

وأما اللاتي تركتُهُنَّ؛ فوددتُ أني يوم أُتِيتُ بالأشعث بن قيس أسيراً كنتُ ضربتُ عنقه، فإنه تَخَيَّلَ إليَّ أنه لا يرى شراً إلَّا أعان عليه، ووددتُ أني حين سيَّرتُ «خالد بن الوليد» إلى أهل الرِّدة؛ كنتُ أقمتُ بذي القَصَّةِ؛ فإنْ ظَفِرَ المسلمون ظفِروا، وإن هُزِموا كنتُ بصدد لقاءٍ أو مدداً، ووددت أني كنتُ إذ وجَّهتُ «خالد بن الوليد» إلى الشام، كنتُ وجَّهتُ «عمر بن الخطاب» إلى العراق؛ فكنتُ قد بسطتُ يديَّ كلتيهما في سبيل الله ـ ومَدَّ يديه ـ، ووددتُ أني كنتُ سألتُ رسول الله ﷺ: لمن هذا الأمر؟ فلا يُنَازَعه أحد، ووددتُ أني كنتُ

سألته: هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ ووددتُ أني كنتُ سألته عن ميراث ابنة الأخ والعَمَّةِ، فإنَّ في نفسي منهما شيئاً(١).

وكان أول ما نطق به «عمر» حين استُخْلِفَ: إنما مَثَلُ العرب مثل جمل «أنف» اتَّبع قائده، فلينظر قائدُه حيث يقود، وأما أنا فوربِّ الكعبة، لأحملنَّهم على الطريق، ولئن بدا «عمر» للناس جباراً في الجاهلية، فإن الإسلام ألقى في قلبه الرحمة للمؤمنين، والشدة على أعدائهم الكافرين، ولا غَرْوَ، فقد صَدَّق قول الله تعالى في تنزيله العزيز: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح، الآية: ٢٩]، وهل كان في مُكْنَته الخروج على مبادىء المدرسة المحمدية، وهو من أنجب طلابها؟. وقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه، أسماء من تزوج «عمر» من النساء، ومن ولد له، فقال:

١ ـ حدثني أبو زيد عن عمر بن شبة، عن علي بن محمد والحارث، عن محمد بن سعد، عن محمد بن عمر، وحُدِّثْتُ عن هشام بن محمد ـ اجتمعت معاني أقوالهم، واختلفت الألفاظ بها ـ قالوا: تزوج «عمر» في الجاهلية «زينب بْنَةُ مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمَح، فولدت له «عبد الله» و«عبد الرحمٰن الأكبر» و«حفصة».

٢ ـ وقال علي بن محمد: وتزوج «مليكة بْنَةَ جَرْوَل» الخزاعي في الجاهلية، فولدت له «عبيد الله بن عمر»، ففارقها في الهدنة، فخلف عليها بعد «عمر» أبو الجهم بن حذيفة.

٣ ـ وأما محمد بن عمر، فإنه قال: «زيد الأصغر» و«عبيد الله» الذي قتل يوم «صِفِّين» مع «معاوية»، أمهما «أم كلثوم بنت جَرْوَل بن مالك بن المسيَّب بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس بن حرام بن حبشية بن سَلول بن كعب بن عمرو بن خزاعة، وكان الإسلام فَرَّق بينها وبين «عمر».

٤ ـ قال علي بن محمد: وتزوج قُرَيْبَة بْنَة أبي أمية المخزومي في الجاهلية، ففارقها أيضاً في الهدنة، فتزوجها بعده «عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق».

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٢٩ ـ ٤٣١).

٥ ـ قالوا: وتزوج «أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم» في الإسلام؛ فولدت له «فاطمة» فطلقها، قال المدائني: وقد قيل: لم يطلقها.

٦ ـ وتزوج «جميلة» أخت «عاصم بن ثابت بن أبي الأصلح ـ واسمه «قيس بن عصمة بن مالك بن ضبيعة بن زيد بن الأوس» ـ من الأنصار في الإسلام ـ فولدت له «عاصماً»، فطلقها.

٧ ـ وتزوج «أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب» وأمها «فاطمة» بنت رسول الله ﷺ، وأصدقها ـ فيما قيل ـ أربعين ألفاً، فولدت له «زيداً» و«رقية».

٨ ـ وتزوج «لُهَيَّة» امرأة من اليمن، فولدت له «عبد الرحمٰن»، قال المدائني: ولدت له «عبد الرحمٰن الأصغر»، قال: ويقال: كانت أم ولد. قال الواقدي: «لُهَيَّة» هذه أم ولد، وقال أيضاً: ولدت له «لُهَيَّة» عبد الرحمٰن الأوسط، وقال: «عبد الرحمٰن الأصغر» أمه أم ولد.

٩ ـ وكانت عنده «فُكَيْهَة»، وهي أم ولد، في أقوالهم: فولدت له «زينب». وقال الواقدي: هي أصغر ولد «عمر».

١٠ ـ وتزوَّج «عاتكة بنَة زيد بن عمرو بن نُفَيْل»، وكانت قبله عند «عبد الله بن أبي بكر»؛ فلما مات «عمر» تزوجها «الزبير بن العوام».

قال المدائني: وخطب «أم كلثوم بنت أبي بكر» وهي صغيرة، وأرسل فيها إلى «عائشة» فقالت: الأمر إليك، فقالت «أم كلثوم»: لا حاجة لي فيه؛ فقالت لها «عائشة»: ترغبين عن أمير المؤمنين! قالت: نعم، إنه خشن العيش، شديد على النساء، فأرسلت «عائشة» إلى «عمرو بن العاص» فأخبرته؛ فقال: أكفيكِ؛ فأتى «عمرَ» فقال: يا أمير المؤمنين! بلغني خبراً عِندك بالله منه، قال: وما هو؟ قال: خطبتَ «أم كلثوم بنت أبي بكر»، قال: نعم؛ أفرغبت بي عنها، أم رغبت بها عني؟ قال: لا واحدة؛ ولكنها حَدَثَة، نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق؛ وفيك غلظة، ونحن نهابك، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك؛ فكيف بها إن خالفتك في شيء؛ فَسَطَوْت بها؟ كنتَ قد خلفت «أبا بكر» في ولده

بغير ما يحق عليك، قال: فكيف بعائشة وقد كلمتُها؟ قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها، «أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب»، تَعْلَق منها بسبب من رسول الله ﷺ قال المدائني: وخطب «أم ابن بنت عتبة بن ربيعة» فكرهَتْه، وقالت: يغلق بابه، ويمنع خيره، ويدخل عابساً، ويخرج عابساً[١].

وكان أبو جعفر قد ذكر أن «عمر بن الخطاب» طلق امرأتيه «قُرَيْبة بنت أبي أمية بن المغيرة»، فتزوجها بعده «معاوية بن أبي سفيان» وهما على شركهما بمكة، و«أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية» أم «عبيد الله بن عمر»، فتزوجها «أبو جهم بن حذافة بن غانم» رجل من قومها، وهما على شركهما بمكة[٢].

وخطب «أم سلمة» قبل رسول الله ﷺ، فلم توافق واحتجت بأنها مُسِنَّة، ثم تزوجها رسول الله ﷺ.

وخطب «فاطمة الزهراء» بنت رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «لم ينزل القضاء بعد». ذلك أن رسول الله ﷺ لم يتزوج شيئاً من نسائه، ولا زوَّج شيئاً من بناته إلا بإذن من الله تعالى أتاه به «جبريل» عليه السلام.

أما «زينب بنت مظعون» فكانت من أسرة عريقة في الحسب، شريفة في النسب، محبة للجهاد، وإخوتها «عثمان» و«عبد الله» و«قدامة» بنو مظعون، من السابقين الأولين للإسلام، وقد شهدوا بدراً مع «السائب بن عثمان بن مظعون» و«خنيس بن حذافة» زوج «حفصة بنت عمر».

وكان «عثمان بن مظعون» أبو السائب، قد حرَّم الخمر على نفسه قبل أن تحرَّم ـ أي: زمن الجاهلية وقبل أن يسلم ـ فقيل له في ذلك، فقال: لا أشرب شراباً يذهب عقلي، ويضحك به من هو أدنى مني، وبعد عودتهم من الحبشة، دخل «عثمان» في جوار «الوليد بن المغيرة»، ثم أبت عليه شهامته أن يروح ويغدو آمناً، وأصحابه يعانون من تعذيب قريش ونكالها، فلم يعجبه ذلك، فقال: والله! إن غُدُوِّي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون

(١) تاريخ الطبري (٤/١٩٨ ـ ٢٠٠).
(٢) تاريخ الطبري (٢/٦٤٠).

من البلاء والأذى في سبيل الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى «الوليد بن المغيرة» وقال له: يا أبا عبد شمس! وَفَتْ ذِمَّتُكَ، وقد رددتُ إليك جوارك.

فقال له «الوليد»: لِمَ؟ يابن أخي! لعله آذاك أحد من قومي. فقال «عثمان»: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال «الوليد»: هيا إلى المسجد فاردد عليَّ جواري علانية، كما أجرتك علانية، وهناك قال «الوليد» للناس: هذا «عثمان» جاء يرد عليَّ جواري، قال «عثمان»: صدق، قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكني قد أحببت ألَّا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره، ثم انصرف «عثمان».

وفيما كان الشاعر «لبيد بن ربيعة» ينشد قريشاً، سمعه «عثمان» يقول:

ألا كـلُّ شـيءٍ مـا خـلا اللهَ بـاطـلُ

فقال «عثمان»: صدقتَ، وتابع «لبيد» إنشاده، فقال:

وكـلُّ نـعـيـمٍ لا مـحـالـة زائـلُ

فقال «عثمان»: كذبتَ، نعيم الجنة لا يزول، فقال «لبيد»: يا معشر قريش! والله! ما كان يؤذي جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟

فقام رجل من القوم، فضرب «عثمان» فآذى عينه، وكان «الوليد» حاضراً، فقال: أما والله يا ابن أخي! قد كانت عينك غنية عما أصابها، وكنت في ذِمَّة منيعةٍ، فقال «عثمان»: بل والله! إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في سبيل الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس! فقال له «الوليد»: هلم، يابن أخي! إن شئت، فعد إلى جوارك، فقال «عثمان»: لا، ثم غادر المكان والألم ينزع عينه، ولكن جوار الله منحه الراحة، فقال:

فإن تك عيني في رضا الله نالها ... يدا ملحدٍ في الدين ليس بمهتدي
فقد عوَّض الرحمٰن منها ثوابَه ... ومن يُرْضِه الرحمٰن يا قوم يُسْعَدِ
فإني وإن قلتم غويٌّ مضَلَّلٌ ... لأحيا على دين الرسول محمَّدِ
أريد بذاك الله والحقُّ دينُنا ... على رغم من يبغي علينا ويعتدي

وهكذا أبت نفس «عثمان»، أن تؤثر أي جوار على جوار الرحمٰن، وهل يدل ذلك إلا على قوة الإيمان؟

وأصيب «عثمان» بجراحة يوم بدر، وفيما كان المسلمون عائدين إلى المدينة وقد مَنَّ الله عليهم بالنصر المبين، فاضت روح «عثمان» بالطريق، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ يقبله ويعطره بدموعه، وهو يقول: «**رحمك الله أبا السائب! خرجت من الدنيا، وما أصبت منها وما أصابت منك**»، وأي شيء كان يبتغي «عثمان»، غير شهادة تفضي به إلى الجنان، وأن يكون آخر ما يمسه من الدنيا جسد المصطفى الهاشمي العدنان؟

أما «أم حكيم بنت الحارث بن هشام» فقد أخرج «ابن حَجَر العسقلاني» في «الإصابة» نقلاً عن «أبي عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب» أنها كانت تحت «عكرمة بن أبي جهل» فقتل عنها ـ كما قال «أبو عمر» ـ بأجنادين، فاعتدت أربعة أشهر وعشراً، وكان «يزيد بن أبي سفيان» يخطبها، وكان «خالد بن سعيد» يرسل إليها يعرض لها في خطبتها، فخطبت إلى «خالد بن سعيد»، فتزوجها على أربعمائة دينار، فلما نزل المسلمون مرج الصُّفَّر ـ وكان «خالد» قد شهد أجنادين وفِحْل ومرج الصُّفَّر ـ أراد «خالد» أن يعرِّس بأم حكيم، فجعلت تقول: لو أخَّرت الدخول حتى يفض الله هذه الجموع، فقال «خالد»: إن نفسي تحدثني أني أصاب في جموعهم، قالت: فَدُونَكَ، فأعرس بها عند القنطرة التي بالصُّفَّر، فيها سميت «قنطرة أم حكيم»، وأولم عليها، فدعا أصحابه على طعام، فما فرغوا من الطعام، حتى صفت الروم صفوفها صفوفاً خلف صفوف، وبرز رجل منهم يدعو إلى البراز، فبرز إليه «أبو جندل بن سهيل بن عمرو» فنهاه «أبو عبيدة»، فبرز «حبيب بن مسلمة» فقتله «حبيب»، ورجع إلى موضعه، وبرز «خالد بن سعيد» فقاتل فقتل، وشدَّت «أم حكيم» عليها ثيابها، وتبدَّت وإن عليها أثر الخلوق، فاقتتلوا أشد القتال على النهر، وصبر الفريقان جميعاً، وأخذت السيوف بعضها بعضاً، وقَتَلَت «أم حكيم» يومئذ سبعة بعمود الفسطاط الذي بات فيه «خالد» معرِّساً بها[١].

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣) والإصابة (٤/ ٢٦٨٢ ـ ٢٦٨٣).

وكان إسلامها يوم الفتح، وفرَّ زوجها «عكرمة» إلى اليمن، فاستأمنت له النبي ﷺ فأمَّنه، فانطلقت إليه وعادت به فأسلم، وحسن إسلامه، ولم يذكر «ابن حَجَر» ولا «أبو عمر» في ترجمتيهما لها شيئاً عن زواجها من «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه.

وأما «جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح» أخت «عاصم بن ثابت» فقد ذكر «ابن جرير الطبري» أن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه تزوجها في السنة السادسة، فولدت له «عاصم بن عمر»، فطلقها «عمر» فتزوجها بعده «يزيد بن جارية»؛ فولدت له «عبد الرحمٰن بن يزيد» فهو أخو «عاصم» لأمه[1].

وأما «أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب» من «فاطمة الزهراء» رضي الله عنهما، فكان لها من المناقب الفذة ما حبَّبها إلى أمير المؤمنين أكثر من سائر أزواجه الأخريات، فكيف جمع الله بينهما تحت سقف واحد، على سنته وسنة مصطفاه؟

حين التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى كانت «أم كلثوم بنت علي» لم تتعدَّ الخامسة من عمرها، ولم تمض إلا عدة أشهر ـ ستة على الأرجح ـ حتى لحقت أمها «الزهراء» بأبيها ﷺ، فباتت الصغيرة تحت جناح أبيها «علي» رضي الله عنه، ورعاية أخويها «الحسن» و«الحسين» ريحانتي جدهما قُرَّة عيون المسلمين ﷺ.

وبينما «عمر» رضي الله عنه في عمله مَرَّ على خاطره حديث للحبيب الأعظم ﷺ: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»، ومَنْ أكثر من «عمر» يطمح إلى صلةٍ كهذه، فبادر إلى منزل «أبي الحسنين» وبعد السلام عليه، قال بلهجة ممزوجة بالأمل والرجاء: ألا تزوجني «أم كلثُوم؟»، وعلت الدهشة وجه «علي» لأن ابنته ما تزال صغيرة، وأدرك أن مجيء أمير المؤمنين إلى منزله ومفاجأته له بهذا الطلب رغم معرفته بصغرها وراءه باعث قوي ما ينبغي لمثله أن تفوته الإحاطة به، قال: يا أمير المؤمنين! كنت قد حبست بناتي على أبناء أخي «جعفر» وإن «أم كلثوم» صغيرة على الزواج، فقال «عمر»: زوجنيها يا علي! فوالله! ما على ظهر الأرض من يرصد من كرامتها ما أرصد، وذكر له حديث رسول الله ﷺ وألَحَّ عليه، وألحف في طلبه، حتى أجابه بقوله: قد فعلت،

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٦٤٢).

وسأبعثها إليك، فإن رضيتها فقد زوجتكها.

وانطلق أمير المؤمنين إلى غايته بعد أن حصل على بُغْيته، ودعا «عليٌّ» ابنته «أم كلثوم» وكان قد أعد لها ثوباً، ثم قال لها: انطلقي بهذا الثوب إلى أمير المؤمنين، وقولي له: إن أبي أرسلني بهذا الثوب، وهو يقرئك السلام، ويقول لك: إن رضيت هذا الثوب فأمسكه، وإن لم ترضه فردَّه.

ولما دخلت «أم كلثوم» على «عمر» وأخبرته بمقالة أبيها، قال لها: ـ وهو ينظر إليها لا إلى الثوب الذي تحمله ـ: بارك الله فيك، وفي أبيك، قد رضينا ما قال.

وعادت العروس الصغيرة إلى أبيها، وهي دَهِشَة، وأخبرته أن «عمر» لم ينظر إلى الثوب، ولم ينشره، بل ما نظر إلّا إليَّ، فقال لها: يا بنية! لقد زوجتك إياه، وهو الآن زوجك، وعندها أدركت السر الذي وراء إرسالها بالثوب إلى أمير المؤمنين، وما كانت «أم كلثوم» لتخالف قرار أبيها، وتم الزواج الميمون بعد أن أصدقها أربعين ألف درهم، وولدت له غلاماً وجارية، أما الغلام فدُعيَ بزيد الأكبر، وأما الجارية فسميت «رقية» باسم خالتها «رقية» رضي الله عنها.

ودخلت «أم كلثوم» بيت أمير المؤمنين فلم تدهش لبساطة محتوياته، ولا لخشونة عيشه، ولم تضق ذرعاً بذلك لأنها بينت أن بيتها القديم وبيتها الجديد لا يمتاز أحدهما من الآخر إلا باسم صاحبه، وأما من حيث المحتوى فالبيتان سواء، وما أرضاها بذلك!.

وكانت «أم كلثوم» على جانب كبير من الذكاء والفهم والإدراك رغم حداثة سنها، وكانت تكفيها الإشارة من «عمر» فتسعى إلى تلبية طلبه قبل أن يبوح به، وكانت شديدة الحرص على طاعته ومرضاته.

وفي إحدى الليالي، خرج «عمر» من داره ليعُسَّ ويتحرى أحوال الرعية، فرأى بصعوبة على مسافة قريبة خيمة لم تكن بالأمس في هذا الموضع، فحث خطاه حتى وصل إليها، فوجد رجلاً جالساً على مدخلها، وإذا هو يسمع أنيناً ضعيفاً ينبعث من داخلها، فقال «عمر» للرجل: السلام عليكم يا أخا العرب! فرد الرجل عليه التحية بأحسن منها وقال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قال

«عمر»: مِمَّن الرجل؟ ومن أين أقبلت؟ وإلى أين تقصد؟ فقال الرجل: أنا من البادية، وقد علمت أن أمير المؤمنين «عمر» يعطي الفقراء والمساكين، فقدمت لعلي ألقاه وأنال من بعض فضله. فقال «عمر»: ما هذا الأنين الذي أسمع يخرج من داخل الخيمة؟ قال: إنها امرأتي وقد طرقها المخاض وهذا أنينها، قال «عمر»: أما من أحد عندها في الداخل؟ قال: لا، إنها وحدها، وما نعرف أحداً هٰهُنا ليساعدها، وبينما كان الرجل يسترسل في كلامه، أدار «عمر» ظهره إليه، وانطلق مهرولاً حتى إذا وصل إلى بيته وجد «أم كلثوم» مستغرقة في نومها، فدنا منها وأيقظها برفق، ثم قال لها: هل لك في خير ساقه الله إليك؟ فقالت باهتمام بالغ ـ لأن مجرد سماعها كلمة «خير» تبعث فيها القوة والنشاط وتجعلها مستعدة لأن تلبي كل دعوة فيها خير: وما هو يا أمير المؤمنين!؟ قال: بظاهر المدينة، خيمة في داخلها امرأة طرقها المخاض، وهي تحتاج إلى المساعدة حتى تضع مولودها، فهلمي كارَةً ـ صُرَّة توضع فيها الثياب ـ واجعلي فيها ما يمكن أن يلزمها ـ ثم أحضري لي قدراً، وبعض الشحم والطحين، وفي الحال جهزت له ما طلب، وانطلقا إلى مكان الخيمة، ودخلت امرأة أمير المؤمنين الخيمة لتقوم بدور القابلة، وأمر «عمر» الرجل أن يجمع بعض الأغصان ويشعل النار تحت القدر، وجعل «عمر» يسوط الطعام داخل القدر حتى نضج.

ولم تلبث القابلة الفاضلة أن أطَلَّت من كِسْرِ الخيمة ـ جانبها ـ وقالت: بَشِّر صاحبك بغلام، يا أمير المؤمنين! وصَعِق الرجل لدى سماعه الكلمة الأخيرة، وكاد يغشى عليه من شدة الفزع، وطفق يعتذر لأنه لم يكن يدري أن الذين عرضا مساعدتهما أمير المؤمنين «عمر» وأن القابلة حفيدة سيد المرسلين، وامرأة أمير المؤمنين، وبنت سيدة نساء العالمين، وأخذ «عمر» يسكِّن الرجل ويهدىء من روعه، ثم ناول القدر لأم كلثوم لتطعم المرأة، وهو ينتظرها حتى تشبع، فراحت تطعمها بيديها الكريمتين، ولما شبعت تناول «عمر» منها القدر، ووضعها بين يدي الرجل ليسكت منها جوعه، وحين فرغ من طعامه، قال له «عمر»: ائتنا صباح الغد في الديوان لنأمر لك بما يصلح حالك، ثم انطلق بامرأته الفذة إلى دارهما، وقد غمرها الفرح والسرور بهذا العمل النبيل الذي أدَّياه، والناس غارقون في سبات عميق، ولكن عين الحي القيوم التي لا تنام، كانت ترمقهما في تلك الليلة

الشديدة الظلام، لتدون اسميهما في سجل الكرام.

وأخرج أبو جعفر الطبري في تاريخه، قال: وبعثت «أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب» إلى ملكة الروم بطيبٍ ومشاربَ وأحفاشٍ من أحفاشٍ ـ أوعية الطيب ـ النساء، ودسته إلى البريد، فأبلغه لها، وأخذ منه، وجاءت امرأة «هرقل»، وجمعت نساءها، وقالت: هذه هدية امرأة ملك العرب، وبنت نبيهم، وكاتبتها وكافأتها. وأهْدت لها، وفيما أهْدت لها عقد فاخر، فلما انتهى به البريد إليه أمر بإمساكه ودعا: الصلاة جامعة، فاجتمعوا، فصلى بهم ركعتين، وقال: إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري، قولوا في هدية أهدتها «أم كلثوم» لامرأة ملك الروم، فأهدت لها امرأة ملك الروم، فقال قائلون: هو لها بالذي لها، وليست امرأة الملك بذمّة فتُصانَع به، ولا تحت يدك فتتقيك.

وقال آخرون: قد كنا نُهدي الثياب لنستثيب، ونبعث بها لنبتاع، ولنصيب ثمناً، فقال: ولكن الرسول رسول المسلمين، والبريد بريدهم، والمسلمون عظَّموها في صدرها، فأمر بردها إلى بيت المال، وردَّ عليها بقدر نفقتها[(١)].

ولم تأس «أم كلثوم» رضي الله عنها على هديتها، ولم تحزن لِفَقْدها، لحديثين قد سمعتهما، وقد رواهما «السيوطي» في تاريخ الخلفاء، الأول أخرجه ابن ماجه والحاكم، عن أبي ذر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به»**، والثاني أخرجه أحمد والبزار، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»**[(٢)].

ولم تغب عن بَالِ «أم كلثوم» وهي اللبيبة الفطنة الحاذقة، موافقات القرآن لعمر رضي الله عنه، فقد أخرج «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» بعنوان (فصل في موافقات «عمر» رضي الله عنه)، قال: قد أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين، أخرج ابن مردويه عن مجاهد، قال: كان «عمر» يرى الرأي فينزل به القرآن.

وأخرج ابن عساكر، عن علي، قال: إن في القرآن لرأياً من رأي «عمر».

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٢٦٠).

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ١٠٦.

وأخرج عن ابن عمر مرفوعاً: ما قال الناس في شيء، وقال فيه «عمر» إلَّا جاء القرآن بنحو ما يقول «عمر».

وأخرج الشيخان عن «عمر»، قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله! لو اتخذنا من مقام «إبراهيم» مصلًّى، فنزلت: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة، الآية: ١٢٥] ، وقلت: يا رسول الله! يدخل على نسائك البر والفاجر، فلو أمرتهن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة، فقلت: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت كذلك.

وأخرج مسلم عن عمر، قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم، ففي هذا الحديث خصلة رابعة.

وفي «التهذيب» للنووي: نزل القرآن بموافقته في أسرى بدر، وفي الحجاب، وفي مقام إبراهيم، وفي تحريم الخمر، فزاد خصلة خامسة، وحديثها في السنن ومستدرك الحاكم أنه قال: اللهم! بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله تحريمها.

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره، عن أنس، قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع، نزلت هذه الآية: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون، الآية: ١٢] الآية، فلما نزلت قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون، الآية: ١٤] ، فزاد في هذا الحديث خصلة سادسة، وللحديث طريق آخر عن ابن عباس رضي الله عنه أوردته في التفسير المسند، ثم رأيت في كتاب «فضائل الإمامين» لأبي عبد الله الشيباني، قال: وافق «عمر» ربه في أحد وعشرين موضعاً، فذكر هذه الستة، وزاد سابعاً قصة «عبد الله بن أبي».

قلتُ: حديثها في الصحيح عنه، قال: لما توفي «عبد الله بن أبي» دُعِيَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فقمت حتى وقفت في صدره، فقلت: يا رسول الله! أو على عدو الله «ابن أبي» القائل يوم كذا وكذا؟ فوالله! ما كان إلَّا يسيراً حتى نزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة، الآية: ٨٤] ، وثامناً:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٢١٩] .

وتاسعاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النِّساء، الآية: ٤٣] ، قلت: هما مع آية المائدة خَصْلة واحدة، والثلاثة في الحديث السابق.

وعاشراً: لما أكثر رسول الله ﷺ من الاستغفار لقوم قال «عمر»: سواء عليهم، فأنزل الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ [المنَافِقون، الآية: ٦] ، قلت: أخرجه الطبراني عن ابن عباس.

الحادي عشر: لما استشار الصحابة في الخروج إلى بدر، أشار «عمر» بالخروج، فنزلت: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفَال، الآية: ٥] .

الثاني عشر: لما استشار الصحابة في قصة الإفك، قال «عمر»: من زوَّجكها يا رسول الله!؟ قال: «الله»، قال: أفتظن أن ربك دلَّسَ عليك فيها؟ سبحانك هذا بهتان عظيم، فنزلت كذلك.

الثالث عشر: قصته في الصيام لما جامع زوجته بعد الانتباه، وكان ذلك محرماً في أول الإسلام، فنزل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ [البَقَرَة، الآية: ١٨٧] ، قلت: أخرجه أحمد في مسنده.

الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٩٧] ، قلت: أخرجه ابن جرير وغيره من طرق عديدة، وأقربها للموافقة ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى: أن يهودياً لقي «عمر» فقال: إن «جبريل» الذي يذكره صاحبكم عدو لنا، فقال له «عمر»: من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين، فنزلت على لسان «عمر».

الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النِّساء، الآية: ٦٥] ، قلت: أخرج قصتها ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي الأسود، قال: اختصم رجلان إلى النبي ﷺ فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه: رُدَّنا إلى «عمر بن الخطاب» فأتيا إليه، فقال الرجل: قضى لي رسول الله ﷺ على هذا، فقال: رُدَّنا إلى «عمر»، فقال: أكذاك؟ قال: نعم، فقال «عمر»: مكانكما حتى أخرج

إليكما، فخرج إليهما مشتملاً على سيفه، فضرب الذي قال: رُدَّنا إلى «عمر» فقتله، وأدبر الآخر، فقال: يا رسول الله! قَتَلَ «عمرُ» والله صاحبي!.

فقال: «ما كنت أظن أن يجترىء «عمر» على قتل مؤمن»، فأنزل الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء، الآية: ٦٥] فأهدر دم الرجل وبرىء «عمر» من قتله، وله شاهد موصول أوردته في التفسير المسند.

السادس عشر: الاستئذان في الدخول، وذلك أنه دخل عليه غلامه، وكان نائماً، فقال: اللهم! حَرِّم الدخول، فنزلت آية الاستئذان.

السابع عشر: قوله في اليهود: إنهم قوم بُهْتٌ.

الثامن عشر: قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝﴾ [الواقعة، الآيتان: ٣٩، ٤٠] قلتُ: أخرج قصتها «ابن عساكر» في تاريخه، عن «جابر بن عبد الله»، وهي في أسباب النزول.

التاسع عشر: رفع تلاوة: «الشيخ والشيخة إذا زنيا» الآية.

العشرون: قوله يوم أُحُدٍ ـ لما قال «أبو سفيان»: أفي القوم فلان؟ ـ: لا نجيبَنَّه، فوافقه رسول الله ﷺ، قلتُ: أخرج قصته «أحمد» في مسنده.

قال: ويضم إلى هذا ما أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب «الرد على الجهمية» من طريق ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله؛ أن «كعب الأحبار» قال: ويل لِمَلِكِ الأرض من مَلِكِ السماء، فقال «عمر»: إلا من حاسب نفسه، فقال «كعب»: والذي نفسي بيده! إنها في التوراة لَتَابِعَتُها، فَخَرَّ «عمر» ساجداً[1].

أفبعد كل هذه الموافقات القرآنية لا تكون «أم كلثوم بنت علي» رضي الله عنهما أسعد الناس بمثل هذا الرجل؟ وقد قالت عنه «عائشة» أم المؤمنين رضي الله عنها: كان والله! أَحْوَذِيًّا نسيج وَحْدِه.

ألا تسعد بمن أعز الله تعالى به دينه، وملأ الأرض به عدلاً وأمناً وسلاماً، وفتح البلاد، ودوَّخ العباد؟

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١١٠ ـ ١١٣.

وما كانت «أم كلثوم» رضي الله عنها لتتخيَّل ولو للحظة واحدة أن تغيب شمسه عنها، فقد أحبته الحب كله، وباتت لا تحسُّ بالسعادة إلَّا إذا كان منها قريباً، وتلك حالة لا يمرُّ بها إلَّا أصدق المحبين، ولكن ما بوسع «أم كلثوم» أن تصنع إذا حمَّ القضاء؟ لقد آن لهذا النجم أن يَأْفُل، وأن يغيب ضياؤه الوهاج من سماء حياتها، فقد خرج إلى صلاة الغداة ـ الصبح ـ ولم تعلم أنه الخروج الأخير الذي لا رجوع بعده، فإنْ عِلجاً مجوسياً كان يتربص به، يريد أن يخلص الأمة من خيره وعدله.

وكان من دعاء «عمر»: اللهم! ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك، أخرجه البخاري عن أسلم.

واستجاب الله لدعائه، فقد أخرج «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» عن سعيد المسيب: لما نفر «عمر» من مِنًى أناخ بالأبطح، ثم استلقى ورفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم! كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مُضَيِّع ولا مُفَرِّط، فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل، أخرجه الحاكم.

وقال أبو صالح السمان: قال «كعب الأحبار» لعمر: أجدك في التوراة تقتل شهيداً، قال: وأنّى لي الشهادة وأنا بجزيرة العرب؟[١].

أما عن استشهاده فقد روى «السيوطي» عن الزهري، قال: كان عمر رضي الله عنه لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة، حتى كتب إليه «المغيرة بن شعبة» وهو على الكوفة، يذكر له غلاماً عنده جملة صنائع، ويستأذنه أن يدخل المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس، إنه حَدَّاد، نَقَّاش، نَجَّار، فَأَذِنَ له أن يرسله إلى المدينة، وضرب عليه «المغيرة» مائة درهم في الشهر، فجاء إلى «عمر» يشتكي شدة الخراج، فقال: ما خراجك بكثير، فانصرف ساخطاً يتذمَّر، فلبث «عمر» ليالي، ثم دعاه، فقال: ألم أُخْبَرْ أنك تقول: لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح؟ فالتفت إلى «عمر» عابساً، وقال: لأصنعَنَّ لك رحى يتحدث بها، فلما ولى قال «عمر» لأصحابه: أوعدني العبد آنفاً، ثم اشتمل «أبو لؤلؤة» على خنجر ذي رأسين، نصابه في وسطه، فكمن بزاوية من زوايا المسجد في الغَلَس

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٢٠.

ـ ظلمة آخر الليل ـ، فلم يزل هناك حتى خرج «عمر» يوقظ الناس للصلاة، فلما دنا منه طعنه ثلاث طعنات، أخرجه ابن سعد.

وقال أبو رافع: كان «أبو لؤلؤة» عبد «المغيرة» يصنع الأرحاء، وكان «المغيرة» يستغلُّه كل يوم أربعة دراهم، فلقي «عمر» فقال: يا أمير المؤمنين! إن «المغيرة» قد أثقل عليَّ فكلِّمه، فقال: أَحْسِنْ إلى مولاك ـ ومن نية «عمر» أن يكلم «المغيرة» فيه ـ فغضب، وقال: يسع الناسَ كلَّهم عدلُه غيري، وأضمر قتله، واتَّخذ خنجراً وشحذه وسَمَّه.

وكان «عمر» يقول: أقيموا صفوفكم، قبل أن يُكَبِّر، فجاء فقام حذاءه في الصف، وضربه في كتفه وفي خاصرته، فسقط «عمر»، وطعن ثلاثة عشر رجلاً معه فمات منهم ستة، وحمل «عمر» إلى أهله، وكادت الشمس تطلع، فصلى «عبد الرحمٰن بن عوف» بالناس بأقصر سورتين، وأُتِيَ «عمر» بنبيذ فشربه فخرج من جرحه، فلم يتبيَّن، فسقوه لبناً فخرج من جرحه، فقالوا: لا بأس عليك، فقال: إن يكن القتل بأساً فقد قُتِلْتُ، فجعل الناس يثنون عليه ويقولون: كنت وكنت، فقال: أما والله! وددتُ أني خرجت منها كفافاً لا عليَّ ولا لي، وأن صحبة رسول الله ﷺ سلمت لي، وأثنى عليه «ابن عباس» رضي الله عنهما فقال عمر: لو أن لي طِلاَعَ ـ مِلْءَ ـ الأرض ذهباً لافتديت به من هول المَطْلَع، وقد جعلتها شورى في «عثمان «وعلي» و«طلحة» و«الزبير» و«عبد الرحمٰن بن عوف» و«سعد»، وأمر «صهيباً» أن يصلي بالناس، وأجل الستة ثلاثاً، أخرجه الحاكم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان «أبو لؤلؤة» مجوسيًا.

وقال عمرو بن ميمون: قال «عمر»: الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي، بيد رجل يدَّعي الإسلام، ثم قال لابنه: يا عبد الله! انظر ما عليَّ من الدين، فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوها، فقال: إن وفَى مال آل عمر فأدِّه من أموالهم، وإلَّا فاسأل في بني عدي، فإن لم تف أموالهم، فاسأل في قريش.

اذهب إلى أم المؤمنين «عائشة» فقل: يستأذن «عمر» أن يدفن مع صاحبيه، فذهب إليها، فقالت: كنت أريده لنفسي ـ تعني المكان ـ، ولأُوثِرَنَّه اليوم على نفسي.

فأتى «عبد الله» فقال: قد أذِنَتْ، فحمد الله تعالى، وقيل له: أوصِ، يا أمير المؤمنين واسْتَخْلِفْ، قال: ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمَّى الستة، وقال: يشهد «عبد الله بن عمر» معهم وليس له من الأمر شيء، فإن أصابت الإمرة «سعداً» فهو ذاك، وإلَّا فليَسْتَعِنْ به أيكم ما أُمِّرَ، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، ثم قال: أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله، وأوصيه بالمهاجرين والأنصار، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، في مثل ذلك من الوصية.

فلما توفي خرجنا به نمشي، فسلم «عبد الله بن عمر» وقال: «عمر» يستأذن، فقالت «عائشة»: أَدْخِلُوه، فَأُدْخِلَ، فَوُضِعَ هناك مع صاحبيه.

فلما فرغوا من دفنه، ورجعوا، اجتمع هؤلاء الرهط، فقال «عبد الرحمٰن بن عوف»: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال «الزبير» قد جعلت أمري إلى «عليٍّ»، وقال «سعد»: قد جعلت أمري إلى «عبد الرحمٰن»، وقال «طلحة»: قد جعلت أمري إلى «عثمان»، قال: فخلا هؤلاء الثلاثة، فقال «عبد الرحمٰن»: أنا لا أريدها، فأيكما يبرأ من هذا الأمر ونجعله إليه؟ واللهُ عليه والإسلام لينظُرَنَّ أفضلهم في نفسه، ولْيَحْرِصْ على صلاح الأمة، فسكت الشيخان «علي» و«عثمان»، فقال «عبد الرحمٰن»: اجعلوه إليَّ، واللهُ عليَّ لا آلوكم عن أفضلكم، قالا: نعم، فخلا بعلي، وقال: لك من القِدم في الإسلام، والقرابة من رسول الله ﷺ ما قد علمت، الله عليك لئن أمَّرتُك لَتَعْدِلَنَّ، ولئن أمَّرتُ عليك لَتَسْمَعَنَّ ولَتُطِيعَنَّ؟ قال: نعم، ثم خلا بالآخر، فقال له كذلك، فلما أخذ ميثاقهما، بايع «عثمان» وبايعه «علي»[(١)].

ولما خرجت «أم كلثوم» من عدتها بادر «سعيد بن العاص» إلى خطبتها فوافقت عليه، ولما شاورت أخويها «الحسن» و«الحسين» ﷺ أجمعين، وافق «الحسن» وأبى «الحسين»، وكان «سعيد» قد بعث إليها بمائة ألف درهم، وأرسل إلى الناس لحضور زواجه، وحين بلغه موقف «الحسين» ﷺ، واجتمع الناس عنده، قال لهم: إني قد دعوتكم الأمر، ثم بدا لي غيره، إني كنت خطبت «أم

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٢١ ـ ١٢٣.

كلثوم بنت علي» فأنعمت، والله! ما كنتُ لأَدْخُلَ على ابني «فاطمة الزهراء» بأمر يكرهانه، ثم ترك التزويج والمال لها.

وأخرج «ابن حَجَر العسقلاني» في «الإصابة» عن ابن إسحاق، عن الحسن بن الحسن بن علي، قال: لما تأيمت «أم كلثوم بنت علي»، عن «عمر»، فدخل عليها أخواها «الحسن» و«الحسين»، فقالا لها: إن أردتِ أن تصيبي بنفسك مالاً عظيماً لتُصيبِنَّ، فدخل «عليٌّ» فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: أيْ بُنَيَّةُ! إن الله قد جعل أمرك بيدك، فإن أحببتِ أن تجعليه بيدي، فقالت: يا أبتِ! إني امرأة أرغب فيما ترغب فيه النساء، وأحب أن أصيب من الدنيا، فقال: هذا من عمل هذين، ثم قام يقول: والله! لا أكلم واحداً منهما أو تفعلين، فأخذا شأنها، وسألاها ففعلت، فتزوجها «عون بن جعفر بن أبي طالب».

وذكرها «الدارقطني» في كتاب «الإخوة» أن «عوناً» مات عنها، فتزوجها أخوه «محمد» ثم مات عنها، فتزوجها أخوه «عبد الله بن جعفر» فماتت عنده، وذكر «ابن سعد» نحوه، وقال في آخره: فكانت تقول: إني لأستحيي من «أسماء بنت عميس»، مات ولداها عندي، فأتخوف على الثالث، قال: فهلكت عنده، ولم تلد لأحد منهم.

وذكر «ابن حَجَر» أن «أم كلثوم» وولدها «زيداً» ماتا في يوم واحد، أصيب «زيد» في حرب كانت بين بني عدي، فخرج ليصلح بينهم، فشَجَّه رجل وهو لا يعرفه في الظلمة، فعاش أياماً، وكانت أمه مريضة، فماتا في يوم واحد، ومن طريق عطاء الخُراساني، أن «عمر» أمهرها أربعين ألفاً، وأخرج بسند صحيح: أن «ابن عمر» صلى على «أم كلثوم» وابنها «زيد»، فجعلها مما يليه، وكبَّر أربعاً، وساق بسند آخر: أن «سعيد بن العاص» هو الذي صلى عليهما[(١)]. رحمهما الله تعالى.

وتزوَّج «عمر» رضي الله عنه من «عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية» العدوية، أخت «سعيد بن زيد» أمها «أم كُرَيْز بنت عبد الله بن عمار بن مالك»

(١) الإصابة (٤/ ٢٧٤٦).

الحضرمي، وقد نسبها «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»، فقال: كانت من المهاجرات، تزوجها «عبد الله بن أبي بكر الصديق»، وكانت حسناء جميلة ذات خلق بارع، فأولع بها وشغلته عن مغازيه، فأمره أبوه بطلاقها لذلك فقال:

يقولون طلِّقها وخيِّمْ مكانها ... مقيماً تُمَنِّي النفس أحلامَ نائمِ
وإن فراقي أهل بيت جميعهم[(١)] ... على كثرة مني لإحدى العظائمِ
أراني وأهلي كالعجولَ تروَّحَتْ ... إلى بَوِّها قبل العشار الرَّوائمِ

فعزم عليه أبوه حتى طلقها، ثم تبعتها نفسه، فهجم عليه «أبو بكر» وهو يقول:

أعاتكُ لا أنساك ما ذَرَّ شارق ... وما ناح قُمْرِيُّ الحَمامِ المُطَوَّقُ
أعاتكُ قلبي كل يوم وليلةٍ ... إليك بما تخفي النفوس مُعَلَّقُ
ولم أر مثلي طلَّق اليوم مثلَها ... ولا مثلُها في غير جُرْمٍ تُطَلَّقُ
لها خُلُقٌ جَزْلٌ ورأيٌ ومَنْصِبٌ ... وخَلْقٌ سَوِيٌّ في الحياء ومَصْدَقُ

فَرَقَّ له أبوه، فأمره، فارتجعها، فقال حين ارتجعها:

أعاتكُ قد طُلِّقْتِ في غير ريبةٍ ... وروجعت للأمر الذي هو كائنُ
كذلك أمر اللهِ غادٍ ورائحُ ... على الناس فيه ألفة وتباينُ
وما زال قلبي للتفرّق طائراً ... وقلبي لما قد قرَّب الله ساكنُ
لِيَهْنِكِ أني لا أرى فيه سخطة ... وأني قد تمَّت عليك المحاسنُ
وأنك ممن زيَّن الله وجهه ... وليس لوجه زانه الله شائنُ

ثم شهد «عبد الله» الطائف مع رسول الله ﷺ فرمي بسهمٍ فمات منه بعد بالمدينة، فقالت «عاتكة» ترثيه:

رزئتُ بخير الناس بعد نبيهم ... وبعد أبي بكر وما كان قَصَّرَا
فآليت لا تنفكُّ عيني حزينةً ... عليك ولا ينفكُّ جلدي أغْبَرا
فلله عينَا مَنْ رأى مثلَه فتًى ... أكرَّ وأحمى في الهياج وأصبَرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الرمح أحمَرا

فتزوجها «زيد بن الخطاب» على اختلاف في ذلك، فقتل عنها يوم اليمامة

(١) في الإصابة: جَمَعْتُهُم.

شهيداً، ثم تزوجها «عمر بن الخطاب» في سنة اثنتي عشرة من الهجرة، فأولم عليها، ودعا أصحاب رسول الله ﷺ، وفيهم «علي بن أبي طالب»، فقال له: يا أمير المؤمنين، دعني أكلم «عاتكة» قال: نعم، فأخذ «عليٌّ» بجانب الخِدْر، ثم قال: يا عُدَيَّةَ نفسِها! أين قولك؟:

فآليت لا تنفكُّ عيني حزينةً عليك ولا ينفكُّ جلديَ أغْبَرا

فبكت، فقال «عمر»: ما دعاك إلى هذا يا أبا حسن!؟ كل النساء يفعلن هذا، ثم قتل عنها «عمر»، فقالت تبكيه:

عيني جودي بعبرة ونحيب لا تَمَلِّي على الإمام النجيبِ
فجعتني المنونُ بالفارس المُعْـ ـلَم يومَ الهياج والتثويبِ
قل لأهل الضرَّاء والبؤس موتوا قد سقته المنونُ كأس شَعُوبِ

وقد أغفل «أبو عمر» البيت التالي، ومحله قبل البيت الأخير:

عصمة الناس والمعين على الدَّهْـ ـرِ وغيثُ المحرومِ والمحروبِ

ثم قال «أبو عمر»: وما رثت به «عمر» رضي الله عنه قولها:

مُنِعَ الرقادُ فعاد عينَي عائد مما تضمَّن قلبي المَعْمُودُ
قد كان يسهرني حذارك مَرَّةً فاليوم حُقَّ لعينيَ التسهيدُ
أبكي أمير المؤمنين ودونه للزائرين صفائح وصعيدُ[١]

وقد أغفل «أبو عمر» البيت التالي، ومحله بعد البيت الأول:

يا ليلة حُبِسَتْ عليَّ نجومُها فسَهِرتُها والشامتون هُجودُ

كما رثته بأبيات أخرى لم يوردها «أبو عمر» في «الاستيعاب» منها:

وفجَّعني فيروزُ لا درَّ درُّهُ بأبيضَ تالٍ للكتاب مُنيبِ
رؤوف على الأدنى غليظ على العِدى أخي ثقةٍ في النائبات مجيبِ
متى ما يَقُلْ لا يكذبُ القول فعلُه سريعٍ إلى الخيرات غير قَطُوبِ

وهذه أبيات أخرى لم ترد في «الاستيعاب»:

(١) الاستيعاب (٤/١٨٧٦ ـ ١٨٧٩).

مــن نــفــسٍ عــادَهــا أحــزانُــهــا ولــعــيــن شَــفَّــهــا طــول الــسَّــهَــرْ
جــســدٌ لُــفِّــقَ فــي أكــفــانــه رحــمــة الله عــلــى ذاك الــجَــسَــدْ
فــيــه تــفــجــيــعٌ لــمــولًــى غــارمٍ لــم يــدعــه الله يــمــشــي بــسَــبَــدْ[1]

وقال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: ثم تزوجها «الزبير بن العوام»، وكان قد شرط ألّا يمنعها من المسجد، وكانت امرأة خليقة ـ أي: بادنة وسمينة ـ، فكانت إذا تهيأت إلى الخروج للصلاة قال لها: والله! إنك لتخرجين وإني لكاره، فتقول: فامنعني فأجلس، فيقول: كيف وقد شرطتُ لكَ ألّا أفعل، فاحتال فجلس لها على الطريق في الغَلَس ـ الظلمة الشديدة ـ، فلما مرت وضع يده على كَفَلِهَا، فاسترجعت، ثم انصرفت إلى منزلها.

فلما حان الوقت الذي كانت تخرج فيه إلى المسجد لم تخرج، فقال لها «الزبير»: ما لك لا تخرجين إلى الصلاة؟ قالت: فسد الناس، والله! لا أخرج من منزلي، فعلم أنها ستفي بما قالت، فقال: لا رَوْعَ يابنة «عُمَرَ»، وأخبرها الخبر، فَقتل عنها يوم الجمل، فقالت ترثيه:

غــدر ابــن جــرمــوز بــفــارس بُــهْــمــةٍ يــوم الــلــقــاء وكــان غــيــر مُــعَــرِّدِ[2]
يــا عــمــر ولــو نــبَّــهــتــه لَــوَجَــدتَّــه لا طــائــشــاً رَعْــشَ الــجَــنــان ولا الــيــدِ
كــم غــمــرةٍ قــد خــاضــهــا لــم يَــثْــنِــه عــنــهــا طــرادك يــابــن فَــقْــعِ الــقَــرْدَدِ[3]
ثــكِــلــتــك أمــك إن ظــفــرت بــمــثــلــه مــمــن مــضــى مــمــن يــروح ويــغــتــدي
واللهِ ربِّــك إن قــتــلــت لَــمُــسْــلِــمــاً حــلَّــت عــلــيــك عــقــوبــةُ الــمــتــعــمِّــد

ثم خطبها «علي بن أبي طالب» ﷺ بعد انقضاء عدتها من «الزبير»، فأرسلت إليه: إني لأَضَنُّ بك يابن عم رسول الله ﷺ عن القتل.

وكان «عبد الله بن الزبير» إذ قتل أبوه، قد أرسل إلى «عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل» يقول: يرحمك الله، أنت امرأة من بني عدي، ونحن قوم من بني أسد، وإن دخلت في أموالنا أفسدتها علينا، وأضررت بنا، فقالت: رأيك

---

(١) تعني أنه ذهب فقيراً لا شيء له.
(٢) بُهْمة: أمر معضل، ومُعَرِّد: من التعريد وهو الهرب.
(٣) الفَقْع: الكمأة البيضاء الرخوة، والقَرْدَد: ما غلظ وارتفع من الأرض.

يا أبا بكر! ما كنت لتبعث إليَّ بشيء إلَّا قبلته، فبعث إليها بثمانين ألف درهم، فقبلتها، وصالحت عليها، وتزوجها «الحسن بن علي» فتوفي عنها، وهو آخر مَنْ ذكر من أزواجها، والله أعلم[1].

ولعل الصواب: «الحسين بن علي» عوضاً عن «الحسن بن علي»، فقد روي أن «عبد الله بن عمر» ﷺ قال: مَنْ أراد الشهادة فليتزوج «عاتكة» وشاعت تلك المقولة بين الناس، إلَّا أنَّ «الحسين بن علي» ﷺ لم يكترث لتلك الإشاعة، فتقدم لخطبتها، وتم الزواج.

ولكن تحققت مقولة «عبد الله بن عمر» واستشهد «الحسين» يوم كربلاء مع عدة من آل بيت النبي ﷺ في أشنع مذبحة سمع بها الناس.

وقيل: إن «عاتكة» رثته بقولها:

واحسيناً ولا نسيتُ حسيناً   أقصدته أسنة الأعداءِ
غادروه بكربلاء صريعاً   جادتِ المزن في ذرا كربلاءِ

وهذا يؤكد أن آخر أزواجها كان «الحسين» لا «الحسن» كما ورد في رثائه.

وجاءها بعد انتهاء عدتها «مروان بن الحكم» خاطباً فأبت، وقالت: لستُ بمتخذة حَماً بعد رسول الله ﷺ.

ولئن كان صحيحاً أنها تزوجت خيرة الرجال وصفوة أصحاب رسول الله ﷺ، إلَّا أنها أمضت حياة حافلة بالأسى والآلام، فما إن تجد راحتها مع الزوج حتى يخطفه الموت منها، فتخلد إلى عدتها، ومما لا ريب فيه أن تكرار ذلك أربع مرات سبب لها الكثير من العنت والإرهاق، وكانت وفاتها سنة (٤٠ هـ)، رحمها الله تعالى.

ومن المفارقات العجيبة أن يقتل رائد العدل وباني صرح العدالة ظلماً وعدواناً على يد جبان رعديد، ليس له رادع من دين، ولا وازع من ضمير، والعزاء في رحيل «عمر» أنه نال الشهادة التي طالما دعا الله أن يرزقه إياها:

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠).

ولكنه قبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة حظي بآخر أمنياته من هذه الدنيا الفانية، وهي أن يرقد بجوار حبيبه الأعظم ﷺ، وما كانت أم المؤمنين «عائشة» لتبخل عليه بالمكان كانت تدخره لنفسها، فآثرته به لأنها خير من يعرف أقدار الرجال بعد سيد البشر.

وهذه بعض صور العدالة التي نعم الناس بها في حياته، دون أن تبرح أذهانهم بعد وفاته، فقد أخرج «أبو الفرج بن الجوزي» في كتابه «تاريخ عمر بن الخطاب»: في ذكر عدله في رعيته.

عن عامر الشعبي» قال، قال «عمر»: والله! لقد لان قلبي في الله حتى هو ألين من الزبد، ولقد اشتد قلبي في الله حتى لهو أشد من الحجر.

عن عروة، قال: كان «عمر» إذا أتاه الخصمان برك على ركبتيه، وقال: اللهم! أعني عليهما، فإن كل واحد يريدني على ديني.

عن أبي فراس، قال: خطب «عمر بن الخطاب»، فقال: يا أيها الناس! ألا إنما كنا نعرفكم إذ بين أظهرنا النبي ﷺ، وإذ ينزل الوحي، وإذ ينبئنا الله من أخباركم، ألا وإن النبي ﷺ قد انطلق، وانقطع الوحي، وإنما نعرفكم بما نقول لكم: من أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً وأحببناه عليه، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم، ألاَ وإنه قد أتى عليَّ حين وأنا أحْسَبُ أن من قرأ القرآن يريد الله وما عنده، فقد خيل لي بأُخَرَة أن رجالاً قد قرأوه يريدون ما عند الناس، فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم.

ألا وإني والله! ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فُعِلَ به سوى ذلك فليرفعه إليَّ، فوالذي نفسي بيده! إذن لأُقُصَّنَّهُ ـ أي: لأُجْرِيَنَّ عليه حكم القِصَاص ـ فوثب «عمرو بن العاص»، فقال: يا أمير المؤمنين! أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته، فأدّب بعض رعيته إنك لَمُقِصُّهُ منه؟

قال: إي والذي نفس «عمر» بيده! إذن لأُقُصَّنَّهُ منه، أنّى ـ أي: كيف ـ لا أقص منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتُذِلُّوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم، ولا تنزلوهم الغياض ـ جمع الغيضة،

وهي الشجر الملتف ـ فتضيعوهم.

عن جرير بن عبد الله البجلي، أن رجلاً كان مع «أبي موسى الأشعري» وكان ذا صوتٍ ونكاية في العدو. فغنموا مغنماً فأعطاه «أبو موسى» بعض سهمه، فأبى أن يقبله إلا جميعاً، فجلده «أبو موسى» عشرين سوطاً، وحلقه، فجمع الرجل شعره، ثم ترحَّل إلى «عمر بن الخطاب» حتى قدم عليه، فدخل على «عمر».

قال «جرير»: وأنا أقرب الناس من «عمر»، فأدخل يده، فاستخرج شعره، ثم ضرب به صدر «عمر بن الخطاب»، فقال: أما والله! لولا... فقال «عمر»: صدق لولا النار.

فقال: يا أمير المؤمنين! إني كنت ذا صوت ونكاية في العدو، وأخبره بأمره، وقال: ضربني «أبو موسى» عشرين سوطاً، وحلق رأسي، وهو يرى ألَّا يُقْتَصَّ منه، فقال «عمر»: لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب إليَّ من جميع ما أفاء الله عليَّ، فكتب «عمر» إلى «أبي موسى»: سلام عليكم، أما بعد، فإن فلاناً أخبرني بكذا وكذا، فإن كنت فعلت ذلك في ملإ من الناس، فعزمتُ عليك لَمَّا قعدتَ له في ملإٍ من الناس حتى يقتص منك، وإن كنتَ فعلتَ ذلك في خلاءٍ من الناس، فاقعد له في خلاء من الناس حتى يقتص منك.

فقدم الرجل، فقال له الناس: اعف عنه، فقال: لا والله! لا أدعه لأحد من الناس، فلما قعد «أبو موسى» ليقتص منه، رفع الرجل رأسه إلى السماء، ثم قال: اللهم! قد عفوتُ عنه.

وروى عمر بن شَبَّة بإسناد له، قال: قال «عمرو بن العاص» لرجل من تُجِيبَ ـ بطن من كندة، بضم التاء وفتحها ـ: يا منافق! فقال التُّجيبي: ما نافقت منذ أسلمت، ولا أغسل لي رأساً ولا أدهنه حتى آتي «عمر»، فأتى «عمر»، فقال: يا أمير المؤمنين! إن «عَمْراً» نفقني، ولا والله! ما نافقت منذ أسلمت، فكتب «عمر» إلى «عمرو» ـ وكان إذا غضب كتب إليه العاصي بن العاص: أما بعد، فإن فلاناً التجيبي ذكر أنك نفقته، وإني أمرته إن أقام عليك شاهدين أن يضربك أربعين أو سبعين، فقام فقال: أَنْشُدُ اللهَ رجلاً سمع «عَمْراً» نفقني، إلا

قام فشهد، فقام عامة أهل المسجد، فقال له حَشَمُه ـ خاصته ـ: أتريد أن تضرب الأمير؟ قال: وعرض عليه الأَرْش، ـ الدِّيَة ـ ، فقال: لو ملأت لي هذه الكنيسة ما قبلت، فقال له حشمه: أتريد أن تضرب الأمير؟ فقال: ما أرى لعمرو ههُنا طاعة، فلما أبى، قال «عمرو»: اتركوه، فأمكنه من السوط، وجلس بين يديه، فقال: أتقدر أن تمتنع عني بسلطانك؟ قال: لا ، قال: فامضِ لما أُمِرْتَ به، قال: فإني أَدَعُكَ لله.

عن سلام، قال: سمعت «الحسن» يقول: جيء إلى «عمر» ﷺ بمال، فبلغ ذلك «حفصة» أم المؤمنين، فجاءت، فقالت: يا أمير المؤمنين! حق أقربائك من هذا المال، قد أوصى الله بالأقربين.

فقال: يا بنية! حق أقربائي في مالي، وأما هذا ففيء المسلمين، غششت أباك، ونصحت أقرباءك، قومي، فقامت والله! تجر ذيلها.

عن ابن عباس ﷺ، قال: قدم علينا «عمر بن الخطاب» حاجاً، فصنع له «صفوان بن أمية» طعاماً، قال: فجاءوا بجفنة يحملها أربعة، فوضعت بين يدي القوم، فقام القوم يأكلون، وقام الخدام، فقال «عمر»: أرى خدامكم لا يأكلون معكم، أترغبون عنهم، فقال «سفيان بن عبد الله»: لا والله يا أمير المؤمنين! ولكنا نستأثر عليهم، فغضب غضباً شديداً، ثم قال: ما لقوم يستأثرون على خدامهم فعل الله بهم وفعل، ثم قال للخدام: اجلسوا فكلوا، فقعد الخدام يأكلون، ولم يأكل أمير المؤمنين.

وعن السائب بن الأقرع أنه كان جالساً في إيوان «كسرى» فنظر إلى تمثال يشير بإصبعه إلى موضع، قال: فوقع في روعه أنه يشير إلى كنز، قال: فاحتفرتُ ذلك الموضع، فاستخرجت كنزاً عظيماً، وكتبتُ إلى «عمر» أخبره، وكتبتُ أن هذا شيء، أفاء الله به عليَّ دون المسلمين، قال: فكتب إليَّ «عمر»: إنك أمير من أمراء المسلمين، فاقسمه بين المسلمين.

عن يحيى بن عبد الرحمٰن بن حاطب، عن أبيه، قال: قدمنا مكة مع «عمر» فأقبل أهل مكة يسعون: يا أمير المؤمنين! «أبو سفيان» حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا، فأقبل «عمر» ومعه الدِّرَّة، فإذا «أبو سفيان» قد نصب أحجاراً،

فقال له: ارفع هذا فرفعه، وهذا فرفعه، ثم قال: وهذا، وهذا، حتى رفع أحجاراً خمسة أو ستة، ثم استقبل «عمر» الكعبة، فقال: الحمد لله الذي جعل «عمر» يأمر «أبا سفيان» ببطن مكة فيطيعه.

عن جرير بن حازم، قال: سمعت «الحسن» يقول: حضر باب «عمر» رضوان الله عليه «سهيل بن عمرو» و«الحارث بن هشام» و«أبو سفيان بن حرب»، ونفر من قريش من تلك الرؤوس، و«صهيب» و«بلال» وتلك الموالي الذين شهدوا بدراً، فخرج آذن «عمر» فأذن لهم، وترك هؤلاء، فقال «أبو سفيان»: لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد، ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا؟ فقال «سهيل بن عمرو» ـ وكان رجلاً عاقلاً ـ: أيها القوم! إني والله لقد أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دعي القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتُرِكْتُم؟

عن نوفل بن عُمَارة، قال: جاء «الحارث بن هشام» و«سهيل بن عمرو» إلى «عمر بن الخطاب» رضوان الله عليه، فجلسا عنده وهو بينهما، فجعل المهاجرون والأولون يأتون «عمر»، فيقول: ههُنا يا سهيل! ههُنا يا حارث! فينحّيهما عنه، فجعل الأنصار يأتون «عمر» فيقول: ههُنا يا سهيل! ههُنا يا حارث! فينحيهما عنه، حتى صارا في آخر الناس.

فلما خرجا من عند «عمر» قال «الحارث بن هشام» لِ «سهيل بن عمرو»: ألم تر ما صنع «عمر» بنا؟ فقال «سهيل بن عمرو»: أيها الرجل! لا لوم عليه، ينبغي أن نرجع باللوم على أنفسنا، دعي القوم فأسرعوا، ودعينا فأبطأنا، فلما قاما من عنده أتياه فقالا: يا أمير المؤمنين! قد رأينا ما فعلت اليوم، وعلمنا أنا أُتينا من أنفسنا، فهل من شيء نستدرك به؟

فقال لهما: لا أعلمه إلّا هذا الوجه، وأشار لهما إلى ثغر الروم، فخرجا إلى الشام، فماتا ـ رحمهما الله ـ.

عن الحسن: أن رجلاً أتى أهل ماء فاستسقاهم فلم يسقوه حتى مات عطشاً، فأغرمهم «عمر بن الخطاب» دِيَتَهُ.

عن أنس بن مالك قال: كنا عند «عمر بن الخطاب» ﷺ إذ جاءه رجل من

أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين! هذا مقام العائذ بك، قال: وما لك؟ قال: أجرى «عمرو بن العاص» الخيل بمصر، فأقبلت فرس لي، فلما رآها الناس، قام «محمد بن عمرو» فقال: فرسي ورب الكعبة! فلما دنا مني عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة! فقام يضربني بالسوط، ويقول: خذها، خذها، وأنا ابن الأكرمين، قال: فوالله! ما زاد «عمر» على أن قال: اجلس، ثم كتب إلى «عمرو»: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل وأقبل معك بابنك «محمد» قال: فدعا «عمرو» ابنه، فقال: أأحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟ قال: لا، قال: فما بال «عمر» يكتب فيك؟ قال: فقدما على «عمر».

قال أنس: فوالله! إنا لعند «عمر» بمِنًى إذا نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل «عمر» يلتفت هل يرى ابنه؟ فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصري؟ فقال: هأنذا، قال: دونك الدرة، اضرب ابن الأكرمين، قال: فضربه حتى أثخنه، ثم قال: اجعلها على صلعة «عمرو» فوالله! ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال: يا أمير المؤمنين! لقد ضربت من ضربني، فقال: أما والله! لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعُه، يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ثم التفت إلى المصري، فقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إليَّ[1].

هذا هو «عمر» الذي أعز الله به الإسلام، فأي رجل كان؟ رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء.

(١) تاريخ عمر بن الخطاب، ص: ١١٤ ـ ١١٩.

٣ ـ أزواج عثمان بن عفان ﷺ

ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد الأعمدة الأربعة للدين، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد رجال الشورى الستة، الذين ترك لهم «عمر» ﷺ اختيار خلف له، فاختاروا «عثمان» ﷺ فكيف فاز بالخلافة دون الخمسة الآخرين؟

لقد أخرج «أبو جعفر الطبري» في تاريخه حديث الشُورى، فقال: حدثني عمرو بن شبة، قال: حدثنا علي بن محمد، عن وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيم، ومحمد بن عبد الله الأنصاري، عن ابن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، وأبي مخنف، عن يوسف بن يزيد، عن عباس بن سهل، ومبارك بن فضالة، عن عبيد الله بن عمر، ويوسف أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي؛ أن «عمر بن الخطاب» لما طُعِنَ قيل له: يا أمير المؤمنين! لو استخلفت!

قال: من أستخلف؟ لو كان «أبو عبيدة بن الجراح» حياً استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: «**إنه أمين هذه الأمة**»، ولو كان «سالم» مولى «أبي حذيفة» حياً استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: «**إن سالماً شديد الحب لله**»، فقال له رجل: أدلك عليه؟ «عبد الله بن عمر»، فقال: قاتلك الله، والله! ما أردتَ اللهَ بهذا، ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا في أموركم، ما حَمِدْتُها فأرغبَ فيها لأحد من أهل بيتي؛ إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحَسْبِ آل عمر أن يحاسَب منهم رجل واحد، ويُسْأل عن امرأته «محمد»، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوتُ كَفَافاً لا وِزْرَ ولا أجر إني لسعيد؛ وأنظر فإن استخلفتُ فقد استخلَفَ مَنْ هو خير مني، وإن أترك فقد ترك مَنْ هو خير مني، ولن يضيع الله دينه.

فخرجوا ثم راحوا، فقالوا: يا أمير المؤمنين! لو عهدت عهداً! فقال: قد كنتُ أجمعتُ بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولّيَ رجلاً أمْرَكُم؛ هو أجراكم أن يحملكم على الحق ـ وأشار إلى «عليٍّ» ـ ورَهِقَتْني غَشْية، فرأيت رجلاً دخل جنة قد غرسها، فجعل يقطف كلّ غضَّةٍ ويانعةٍ فيضمُّه إليه ويصيِّره تحته؛ فعلمت أن الله غالب أمره، ومُتَوَفٍّ «عمر»؛ فما أريد أن أتحمَّلَها حياً وميتاً.

عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ: «إنهم من أهل الجنة»؛ وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل منهم؛ ولست مدخله؛ ولكن الستة: «علي» و«عثمان» ابنا عبد مناف، و«عبد الرحمٰن» و«سعد» خالا رسول الله ﷺ، و«الزبير بن العوام» حواريُّ رسول الله ﷺ وابن عمته، و«طلحة الخير بن عبيد الله»؛ فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولَّوْا والياً فأحسنوا مؤازرته وأعينوه، إن ائتمن أحداً منكم فَلْيُؤَدِّ إليه أمانته، وخرجوا.

فقال «العباس» لعلي: لا تدخل معهم، قال: أكره الخلاف، قال: إذاً ترى ما تكره!

فلما أصبح «عمر» دعا «علياً» و«عثمان» و«سعداً» و«عبد الرحمٰن بن عوف» و«الزبير بن العوام» فقال: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم؛ ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قُبِضَ رسول الله ﷺ تعالى وهو عنكم راضٍ، إني لا أخاف الناسَ عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة «عائشة» بإذن منها، فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم، ثم قال: لا تدخلوا حجرة «عائشة» ولكن كونوا قريباً منها، ووضع رأسه وقد نزفه الدم.

فدخلوا فتناجوا، ثم ارتفعت أصواتهم، فقال «عبد الله بن عمر»: سبحان الله! إن أمير المؤمنين لم يمت بعد، فأسمَعه فانتبه، فقال: ألا أعرضوا عن هذا أجمعون، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، ولْيُصَلِّ بالناس «صهيب»، ولا يأتيَنَّ اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر «عبد الله بن عمر» مشيراً، ولا شيء له من الأمر، و«طلحة» شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأَحْضِروه أمركم؛ وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم، ومن لي بطلحة؟

فقال «سعد بن أبي وقاص»: أنا لك به؛ ولا يخالف إن شاء الله، فقال «عمر»: أرجو ألَّا يخالف، إن شاء الله؛ وما أظن أن يليَ إلا أحد هذين الرجلين: «علي» أو «عثمان»؛ فإن ولي «عثمان» فرجل فيه لين، وإن ولي «عليٌّ» ففيه دُعابة، وأَحْرِ به أن يحملهم على طريق الحق، وإن تُوَلُّوا «سعداً» فأهلها هو؛ وإلَّا فليستعِن به الوالي، فإنه لم أعزله عن خيانة ولا ضعف، ونعم ذو الرأي «عبد الرحمٰن بن عوف»! مسدَّد رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه.

وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة! إن الله ﷻ طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستَحِثَّ هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي، فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال لصهيب: صَلِّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل «علياً» و«عثمان» و«الزبير» و«سعداً» و«عبد الرحمٰن بن عوف» و«طلحة» إن قَدِم؛ وأحضِرْ «عبد الله بن عمر» ولا شيء له من الأمر، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضُوا رجلاً وأبى واحد فاشْدَخْ رأسه ـ أو اضرب رأسه بالسيف ـ وإن اتفق أربعة فرضُوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثةٌ رجلاً منهم، فحكِّموا «عبد الله بن عمر»؛ فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم؛ فإن لم يرضَوْا بحكم «عبد الله بن عمر»، فكونوا مع الذين فيهم «عبد الرحمٰن بن عوف» واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

فخرجوا، فقال «عليّ» لقوم كانوا معه من بني هاشم: إن أطيع فيكم قومَكم لم تؤمروا أبداً، وتلقاه «العباس» فقال: عدلت عنَّا! فقال: وما علمك؟ قال: قُرِن بي «عثمان» وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم «عبد الرحمٰن بن عوف»؛ فسعد لا يخالف ابن عمه «عبد الرحمٰن» و«عبد الرحمٰن» صهر «عثمان»؛ لا يختلفون، فيوليها «عبد الرحمٰن»، «عثمان» أو يوليها «عثمان»، «عبد الرحمٰن»؛ فلو كان الآخران معي لم ينفعاني، بَلْهَ إني لا أرجو إلَّا أحدها، فقال له «العباس»: لم أرفعك في شيء إلا رجعتَ إليّ مستأخراً بما أكره، أشرتُ عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن

تسأله فيمن هذا الأمر؛ فأبيتَ، وأشرتُ عليك بعد وفاته أن تُعاجل الأمر فأبيتَ، وأشرتُ عليك حين سمَّاك «عمر» في الشورى ألَّا تدخل معهم فأبيتَ، احفظ عني واحدة؛ كلما عرض عليك القوم، فقل: لا، إلَّا أن يولُّوك، واحذر هؤلاء الرهط، فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا، وايم الله! لا يناله إلَّا بشَرٍّ لا ينفع معه خير.

فقال «علي»: أما لئن بقي «عثمان» لأُذَكِّرَنَّهُ ما أتى، ولئن مات لَيَتَدَاوَلُنَّهَا بينهم، ولئن فعلوا ليجدُنِّي حيث يكرهون، ثم تمثَّل:

حلفت بربِّ الراقصاتِ عَشيَّةً ... تدوم خفافاً فابتدرن المُحَصَّبا
لَيَخْتَلِيَنْ رهط ابن يَعْمُرَ مارئاً ... نجيعاً بنو الشُّدَّاخ وِرْداً مُصَلَّباً

والتفت فرأى «أبا طلحة» فكره مكانه، فقال «أبو طلحة»: لم تُرَعْ «أبا الحسن»، فلما مات «عمر» وأخرجت جنازته، تصدَّى «عليٌّ» و«عثمان» أيهما يصلي عليه، فقال «عبد الرحمٰن»: كلاكما يحب الإمرة، لستما من هذا في شيء، هذا إلى «صهيب»، استخلفه «عمر»، يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على إمام، فصلى عليه «صهيب».

فلما دفن «عمر» جمع «المقداد» أهل الشورى في بيت «المِسْوَرِ بن مَخْرَمة» ـ ويقال: في بيت المال، ويقال: في حجرة «عائشة» بإذنها ـ وهم خمسة، معهم «ابن عمر»، و«طلحة» غائب؛ وأمروا «أبا طلحة» أن يحجبهم، وجاء «عمرو بن العاص» و«المغيرة بن شعبة» فجلسا بالباب، فحصبهما «سعد» وأقامهما، وقال: تريدان أن تقولا: حضرنا وكنا في أهل الشورى!

فتنافس القوم في الأمر؛ وكثر بينهم الكلام؛ فقال «أبو طلحة»: أنا كنتُ لأنْ تدفعوها أخوفَ مني لأنَ تنافسوها! لا والذي ذهب بنفس «عمر!» لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم، ثم أجلس في بيتي؛ فأنظر ما تصنعون!

فقال «عبد الرحمٰن»: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أنخلع منها؛ فقال «عثمان»: أنا أول من رضي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمين في الأرض، أمين في السماء».

فقال القوم: قد رضينا ـ و«عليٌّ» ساكتٌ ـ فقال: ما تقول يا أبا الحسن!؟

قال: أعطني موثقاً لتؤثِرَنَّ الحق ولا تتَّبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألُ الأمة! فقال: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على مَنْ بدَّل وغيَّر، وأن ترضَوْا مَنِ اخترت لكم، عليَّ ميثاق الله أَلَّا أخصَّ ذا رَحِم لِرَحِمِهِ، ولا آلو المسلمين، فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، فقال لعلي: إنك تقول: إني أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك، وحسن أثرك في الدين، ولم تبعُد، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر؟ قال: «عثمان»، وخلا بعثمان؛ فقال: تقول: شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه، لي سابقة وفضل، لم تبعُد، فلن يصرف هذا الأمر عني، ولكن لو لم تحضر، فأي هؤلاء الرهط تراه أحق به؟ قال: «علي». ثم خلا بالزبير، فكلمه بمثل ما كلم به «علياً» و«عثمان»؛ فقال: «عثمان»، ثم خلا بسعد، فكلمه، فقال: «عثمان»، فلقي «علي» «سعداً» فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النّساء، الآية: ١] ، أسألك برحم ابني هذا من رسول الله ﷺ، وبرحم عمي «حمزة» منك ألَّا تكون مع «عبد الرحمٰن» لعثمان ظهيراً عليَّ، فإني أدلي بما لا يدلي به «عثمان».

ودار «عبد الرحمٰن» لياليه يلقى أصحاب رسول الله ﷺ، ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس، يشاورهم، ولا يخلو برجل إلَّا أمره بعثمان؛ حتى إذا كانت الليلة التي يُسْتَكْمَلُ في صبيحتها الأجل، أتى منزل «المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ» بعد ابهيرارٍ ـ أي طلوع نجومه إذا تتامَّت واستنارت ـ من الليل، فأيقظه، فقال: ألا أراك نائماً ولم أذق في هذه الليلة كثير غُمْض! انطلق فادع «الزبير» و«سعداً» فدعاهما، فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصُفَّة التي تلي دار «مروان» فقال له: خَلِّ ابني عبد مناف وهذا الأمر، قال: نصيبي لعلي، وقال لسعد: أنا وأنت كلالة، فاجعل نصيبك لي فأختار، قال: إن اخترت نفسكِ فنعم وإن اخترت «عثمان» فعليٌّ أحب إليَّ، أيها الرجل! بايع لنفسك وأرِحْنا، وارفع رؤوسنا.

قال: يا أبا إسحاق! إني قد خلعت نفسي منها على أن أختار، ولو لم أفعل وجُعِلَ الخيار إليَّ لم أُرِدْها، إني أريت كروضة خضراء كثيرة العشب، فدخل فَحْلٌ فلم أرَ فحلاً قط أكرمَ منه، فمَرَّ كأنه سهم لا يلتفت إلى شيء مما في

الروضة حتى قطعها، لم يعرِّج، ودخل بعير يتلوه، فاتبع أثره حتى خرج من الروضة، ثم دخل فَحْلٌ عبقري يجر خطامه، يلتفت يميناً وشمالاً، ويمضي قصد الأولين حتى خرج، ثم دخل بعيرٌ رابعٌ فرتع في الروضة؛ ولا والله! لا أكون الرابع؛ ولا يقوم مقام «أبي بكر» و«عمر» بعدهما أحد فيرضى الناس عنه.

قال «سعد»: فإني أخاف أن يكون الضعف قد أدركك، فامضِ لرأيك؛ فقد عرفت عهد «عمر».

وانصرف «الزبير» و«سعد» وأرسل «المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ» إلى «عليٍّ» فناجاه طويلاً، وهو لا يشك أنه صاحب الأمر، ثم نهض.

وأرسل «المِسْوَر» إلى «عثمان» فكان في نَجِيِّهما؛ حتى فرَّق بينهما أذان الصبح، فقال «عمرو بن ميمون»: قال لي «عبد الله بن عمر»: يا عمرو! من أخبرك أنه يعلم ما كلَّم به «عبد الرحمٰن بن عوف»، «علياً» و«عثمان»، فقد قال بغير علم؛ فوقع قضاء ربك على «عثمان».

فلما صَلَّوْا الصبح جمع الرهط، وبعث إلى مَنْ حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار، وإلى أمراء الأجناد، فاجتمعوا حتى التَّجَّ ـ كَثُرَ مَنْ فيه ـ المسجد بأهله، فقال: أيها الناس! إن الناس قد أحبُّوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم، وقد علموا مَنْ أميرهم.

فقال «سعيد بن زيد»: إنا نراك لها أهلاً، فقال: أشيروا عليَّ بغير هذا، فقال «عمار»: إن أردت ألّا يختلف المسلمون فبايع «علياً».

فقال «المقداد بن الأسود»: صدق «عمار»؛ إن بايعت «علياً» قلنا: سمعنا وأطعنا. قال «ابن أبي سرح»: إن أردت ألّا تختلف قريش فبايع «عثمان»، فقال: «عبد الله بن أبي ربيعة»: صدق، إن بايعت «عثمان» قلنا: سمعنا وأطعنا، فشتم «عمارٌ»، «ابنَ أبي سرح»، وقال: متى كنت تنصح المسلمين؟.

فتكلم بنو هاشم وبنو أمية، فقال «عمار»: أيها الناس! إن الله ﷻ أكرمنا بنبيِّه، وأعزَّنا بدينه، فأنَّى تَصْرِفُون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟

فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يابن سمية! وما أنت قريش لأنفسهما؟

فقال «سعد بن أبي وقاص»: يا عبد الرحمٰن! افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال «عبد الرحمٰن»: إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلنّ أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً، ودعا «علياً» فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملَنَّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده.

قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا «عثمان» فقال له مثل ما قال لعلي، قال: نعم، فبايعه، فقال «علي»: حبوته حَبْوَ دهر؛ ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٨]؛ والله! ما وليتَ «عثمان» إلا ليردَّ الأمر إليك، والله كل يوم هو في شأن، فقال «عبد الرحمٰن»: يا علي! لا تجعل على نفسك سبيلاً؛ فإني قد نظرتُ وشاورتُ الناس؛ فإذا هم لا يعدلون بعثمان.

فخرج «عليٌّ» وهو يقول: سيبلغ الكتابُ أجَلَه، فقال المقداد: يا عبد الرحمٰن! أما والله! لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون، فقال: يا مقداد، والله لقد اجتهدتُ للمسلمين، قال: إن كنت أردتَ بذلك الله فأثابك اللهُ ثواب المحسنين، فقال المقداد: ما رأيتُ مثل ما أُوتِيَ إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم ﷺ، إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول: إن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل، أما والله! لو أجد عليه أعواناً! فقال «عبد الرحمٰن»: يا مقداد! اتقِ اللهَ؛ فإني خائف عليك الفتنة.

فقال رجل للمقداد: رحمك الله! مَنْ أهل هذا البيت، ومَنِ الرجل؟ قال: أهل البيت بنو عبد المطلب، والرجل «علي بن أبي طالب».

فقال «عليٌّ»: إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها، فتقول: إنْ وُلِّيَ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم، وقدم «طلحة» في اليوم الذي بويع فيه لعثمان، فقيل له: بايعْ «عثمان»، فقال: أكل قريش راضٍ به؟ قال: نعم، فأتى «عثمان» فقال له «عثمان»: أنت على رأس أمرك، إن أبيتَ رددتُها، قال: أتردُّها؟ قال: نعم، قال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم، قال: قد رضيتُ، لا أرغب عمَّا قد أجمعوا عليه، وبايعه.

وقال «المغيرة بن شعبة» لعبد الرحمٰن: يا أبا محمد! قد أصبتَ إذ بايعتَ «عثمان»، وقال لعثمان: لو بايع «عبد الرحمٰن» غيرَك ما رضينا، فقال «عبد الرحمٰن»: كذبتَ يا أعور! لو بايعتُ غيرَه لبايعتَه، ولقلتَ هذه المقالة. وقال الفرزدق:

صلَّى صهيبٌ ثلاثاً ثم أرسلها ... على ابن عفان ملكاً غيرَ مَقْصُورِ
خلافةً من أبي بكر لصاحبه ... كانوا أخلاءَ مهديٌّ ومأمورِ

وكان «المِسْوَرُ بن مَخْرَمَة» يقول: ما رأيتُ رجلاً بَزَّ قوماً فيما دخلوا فيه بأشدَّ مما بَذَّهم «عبد الرحمٰن بن عوف»[1].

أما رواية «المِسْوَرِ بن مَخْرَمَة» فقال أبو جعفر الطبري: إن الرواية عندنا عنه، ما حدثني سَلْمُ بن جُنَادَة، أبو السائب، قال: حدثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمٰن بن عوف، قال: حدثنا أبي، عن عبد الله بن جعفر، عن أبيه، عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة ـ وكانت أمه «عاتكة بِنْتُ عوف ـ قال: ونزل في قبره ـ يعني في قبر «عمر» ـ الخمسة، يعني: أهل الشورى، قال: ثم خرجوا يريدون بيوتهم، فناداهم «عبد الرحمٰن»: إلى أين؟ هلموا فتبعوه، وخرج حتى دخل بيت «فاطمة بِنْتَ قيس» الفهرية، أخت «الضحاك بن قيس» الفهري ـ قال بعض أهل العلم: بل كانت زوجته، وكانت نَجُوداً، يريد ذات رأي ـ.

قال: فبدأ عبد الرحمٰن الكلام، فقال: يا هؤلاء! إن عندي رأياً، وإن لكم نظراً، فاسمعوا تعلَّموا، وأجيبوا تفقهوا، فإن حابياً خيرٌ من زاهق ـ الحابي: السهم الذي يزلج على الأرض، ثم يصيب الهدف، والزاهق الذي يجاوز الهدف ـ ، وإن جُرعة من شَرُوب باردٍ أنفع من عَذْب مُوبٍ ـ أي: الماء المِلْح الذي يشرب عند الضرورة أنفع من الماء العذب المورِّث للوباء ـ؛ أنتم أئمة يهتدى بكم، وعلماء يُصْدَر إليكم، فلا تفلُّوا المدَى بالاختلاف بينكم، ولا تغمدوا السيوف عن أعدائكم، فتوتروا ثأركم، وتُؤَلِّتوا ـ تنقصوا ـ أعمالكم؛ لكل

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٢٢٧ ـ ٢٣٤).

أجل كتاب، ولكل بيت إمام بأمره يقومون، وبنهيه يَرعوْن، قلّدوا أمركم واحداً منكم، تمشوا الهويني، وتلحقوا الطلب، لولا فتنةٌ عمياء، وضلالة حيراء، يقول أهلها ما يرون، وتحلُّهم الحَبَوْكَرَى ـ الداهية ـ، ما عدت نياتكم معرفَتكم، ولا أعمالكم نياتكم، احذروا نصيحة الهوى، ولسان الفُرْقة؛ فإن الحيلة في المنطق، أبلغ من السيوف في الكَلْم، علّقوا أمركم رَحْبَ الذراع فيما حَلَّ، مأمونَ الغيب فيما نزل، رضاً منكم وكلكم رضاً، ومُقْتَرَعاً منكم وكلكم منتهًى، لا تطيعوا مفسداً ينتصح؛ ولا تخالوا مرشداً ينتصر؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلم «عثمان بن عفان» فقال: الحمد لله الذي اتخذ «محمداً» ﷺ نبياً، وبعثه رسولاً، صدقه وعده، ووهب له نصره على كل من بَعُدَ نَسباً، أو قرب رَحِماً ﷺ، جعلنا الله له تابعين، وبأمره مهتدين؛ فهو لنا نور؛ ونحن بأمره نقوم عند تفرق الأهواء، ومجادلة الأعداء، جعلنا الله بفضله أئمة، وبطاعته أمراء، لا يخرج أمرنا منا، ولا يدخل علينا غيرنا إلا من سَفِهَ الحقَّ، وَنكَلَ عن القصد، وأَحْرِ بها يابن عوف! أن تترك، وأحذِرْ بها أن تكون إن خولف أمرك، وترك دعاؤك، فأنا أول مجيبٍ لك، وداعٍ إليك، وكفيل بما أقول زعيم، وأستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلم «الزبير بن العوام» بعده، فقال: أما بعد، فإن داعي الله لا يُجْهَل، ومجيبه لا يُخْذَل، عند تفرق الأهواء، ولَيِّ الأعناق، ولن يقصِّر عما قلت إلَّا غَوِيٌّ، ولن يترك ما دعوت إليه إلا شقي، لولا حدود لله فرضت، وفرائض لله حُدَّت، تراح على أهلها؛ وتحيا لا تموت؛ لكان الموت من الإمارة نجاة، والفرار من الولاية عصمة، ولكن لله علينا إجابة الدعوة، وإظهار السنة، لئلا نموت ميتة عَمِيَّةً؛ ولا نعمى عمى جاهلية، فأنا مجيبك إلى ما دعوت، ومعينك على ما أمرت، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلم «سعد بن أبي وقاص» فقال: الحمد لله بدئياً كان، وآخراً يعود، أحمده لما نجاني من الضلالة، وبصَّرني من الغَواية، فبهدى الله فاز مَنْ نَجا، وبرحمته أفلح مَنْ زَكا، وبمحمد بن عبد الله ﷺ أنارت الطرق، واستقامت السبل، وظهر كل حق، ومات كل باطل، إياكم أيها النفر! وقول الزور، وأمنية أهل الغرور! فقد سلبت الأماني قوماً قبلكم، ورثوا ما ورثتم، ونالوا ما نلتم،

فاتخذهم الله عدواً، ولعنهم لعناً كبيراً، قال الله ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩]، إني نكبت قَرَني ـ جَعْبَتي، ـ نكب: نثر ما فيها من السهام ـ فأخذت سهمي الفالج، وأخذت لطلحة بن عبيد الله ما ارتضيتُ لنفسي، فأنا به كفيل، وبما أعطيت عنه زعيم، والأمر إليك يا بن عوف! بجهد النفس، وقصد النصح، وعلى الله قصد السبيل، وإليه الرجوع، وأستغفر الله لي ولكم، وأعوذ بالله من مخالفتكم.

ثم تكلم «علي بن أبي طالب» رضي الله تعالى عنه، فقال: الحمد لله الذي بعث «محمداً» ﷺ منا نبياً، وبعثه إلينا رسولاً، فنحن بيت النبوة، ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب، لنا حق إنْ نعطَه نأخُذْه، وإنْ نُمْنَعْه نركبْ أعجاز الإبل، ولو طال السُّرَى، لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، اسمعوا كلامي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا المجمع، تُنْتَضَى فيه السيوف، وتُخَانُ فيه العهود؛ حتى تكونوا جماعة، ويكون بعضكم أئِمَّةً لأهلِ الضلالة، وشِيعةً لأهل الجهالة، ثم أنشأ يقول:

فإن تكُ جاسمٌ هلكت فإني ... بما فعلت بنو عبد بن ضخمِ
مطيعٌ في الهواجر كل عَييٍّ ... بصيرٌ بالنوى من كل نَجْمِ

فقال «عبد الرحمٰن»: أيكم يطيب نفساً أن يخرج نفسه من هذا الأمر ويولّيه غيره؟ قال: فأمسكوا عنه، قال: فإني أخرج نفسي وابن عمي، فقلَّده القوم الأمر، وأحلفهم عند المنبر، فحلفوا ليبايعن من بايع، وإن بايع بإحدى يديه الأخرى، فأقام ثلاثاً في داره التي عند المسجد التي يقال لها اليوم: رحبة القضاء ـ وبذلك سميت رحبة القضاء ـ فأقام ثلاثاً يصلي بالناس «صهيب».

قال: وبعث «عبد الرحمٰن» إلى «عليّ» فقال له: إن لم أبايعك فأشر عليَّ؛ فقال: «عثمان»، ثم بعث إلى «عثمان»، فقال: إن لم أبايعك، فمن تشير عليَّ؟ قال: «عليٌّ» ثم قال لهما: انصرفا، فدعا «الزبير»، فقال: إن لم أبايعك، فمن

تشير عليَّ، قال: «عثمان»، ثم دعا «سعداً»، فقال: من تشير عليَّ؟ فأما أنا وأنت فلا نريدها، فمن تشير عليَّ؟ قال: «عثمان».

فلما كانت الليلة الثالثة، قال: يا مِسْوَرُ! قلت: لبيك، قال: إنك لنائم؛ والله!ما اكتحلتُ بِغَمَاضٍ منذ ثلاث، اذهب فادعُ لي «علياً» و«عثمان»، قال: قلت: يا خال! بأيهما أبدأ؟ قال: بأيهما شئت.

قال: فخرجتُ فأتيتُ «علياً» ـ وكان هواي فيه ـ فقلت: أجب خالي، فقال: بعثك معي إلى غيري؟ قلت: نعم، قال: إلى مَنْ؟ قلت: إلى «عثمان»، قال: فأيُّنا أمرك أن تبدأ به؟ قلت: قد سألته، فقال: بأيهما شئت؟، فبدأتُ بك، وكان هواي فيك.

قال: فخرج معي حتى أتينا المقاعد، فجلس عليها «عليٌّ»، ودخلتُ على «عثمان» فوجدته يُوتِرُ مع الفجر، فقلت: أجب خالي، فقال: بعثك معي إلى غيري؟ قلت: نعم، إلى «عليٍّ»، قال: بأينا أمرك أن تبدأ؟ قلت: سألته فقال: بأيهما شئتَ، وهذا «عليٌّ» على المقاعد.

فخرج معي حتى دخلنا جميعاً على خالي، وهو في القبلة قائم يصلي، فانصرف لمَّا رآنا، ثم التفت إلى «عليٍّ» و«عثمان»، فقال: إني قد سألتُ عنكما، وعن غيركما، فلم أجد الناس يَعْدِلُون بكما، هل أنت يا «علي!» مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل «أبي بكر» و«عمر؟» فقال: اللهم! لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، فالتفت إلى «عثمان» فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل «أبي بكر» و«عمر؟»، قال: اللهم! نعم، فأشار بيده، إلى كتفيه، وقال: إذا شئتما، فنهضنا حتى دخلنا المسجد، وصاح صائح: الصلاة جامعة ـ قال «عثمان»: فتأخَّرْتُ والله! حياءً لما رأيت من إسراعه إلى «عليٍّ»؛ فكنت في آخر المسجد ـ قال: وخرج «عبد الرحمٰن بن عوف» وعليه عمامته التي عمَّمه بها رسول الله ﷺ، متقلداً سيفه، حتى ركب المنبر، فوقف وقوفاً طويلاً، ثم دعا بما لم يسمعه الناس، ثم تكلم، فقال: أيها الناس! إني قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين: إما «عليٌّ» وإما «عثمان»: فقم إليَّ يا «علي»!، فقام إليه «عليٌّ»، فوقف تحت المنبر، فأخذ «عبد الرحمٰن» بيده، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل

«أبي بكر» و«عمر؟»، قال: اللهم! لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي.

قال: فأرسل يده، ثم نادى: قم إلي يا «عثمان!»، فأخذ بيده ـ وهو في موقف «عليٍّ» الذي كان فيه ـ فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل «أبي بكر» و«عمر؟» قال: اللهم! نعم.

قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يد «عثمان» ثم قال: اللهم! اسمع واشهد؛ اللهم! إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة «عثمان»، قال: وازدحم الناس يبايعون «عثمان» حتى غَشُوه عند المنبر، فقعد «عبد الرحمٰن» مقعد النبي ﷺ من المنبر، وأقعد «عثمان» على الدرجة الثانية، فجعل الناس يبايعونه، وتلَكَّأ «عليٌّ»، فقال «عبد الرحمٰن»: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح، الآية: ١٠]، فرجع «عليٌّ» يشقُّ الناس؛ حتى بايع وهو يقول: خَدْعَة وأيّما خَدْعَة!

قال عبد العزيز: وإنما سبب قول «عليٍّ» (خَدْعة)، أن «عمرو بن العاص» كان قد لقي «علياً» في ليالي الشورى، فقال: إن «عبد الرحمٰن» رجل مجتهد، وإنه متى أعطيته العزيمة كان أزهدَ له فيك؛ ولكن الجهد والطاقة، فإنه أرغب له فيك، قال: ثم لقي «عثمان»، فقال: إن «عبد الرحمٰن» رجل مجتهد، وليس والله! يبايعك إلّا بالعزيمة، فاقبَلْ؛ فلذلك قال «عليٌّ»: خَدْعة.

قال: ثم انصرف بعثمان إلى بيت «فاطمة بنت قيس» فجلس والناس معه، فقام «المغيرة بن شعبة» خطيباً، فقال: يا أبا محمد! الحمد لله الذي وفقك، والله! ما كان لها غيرُ «عثمان» ـ وعليٌّ جالس ـ فقال «عبد الرحمٰن»: يابن الدَّباغ! ما أنت وذاك! والله! ما كنتُ أبايع أحداً إلّا قلتَ فيه هذه المقالة.

قال: ثم جلس «عثمان» في جانب المسجد، ودعا بعبيد الله بن عمر، وكان محبوساً في دار «سعد بن أبي وقاص»، وهو الذي نزع السيف من يده بعد قتله «جفينة» و«الهرمزان» و«ابنة أبي لؤلؤة»، وكان يقول: والله! لأقتلنَّ رجالاً ممن شَرِكَ في دم أبي ـ يُعَرِّض بالمهاجرين والأنصار ـ فقام إليه «سعد»، فنزع السيف من يده، وجذب شعره حتى أضجعه إلى الأرض، وحبسه في داره حتى أخرجه «عثمان» إليه، فقال «عثمان» لجماعة من المهاجرين والأنصار: أشيروا عليَّ في هذا الذي فَتَق في الإسلام ما فَتَق، فقال «عليٌّ»: أرى أن تقتله، فقال

بعض المهاجرين: قُتِلَ أمسِ «عمر» ويقتل ابنه اليوم! فقال «عمرو بن العاص»: يا أمير المؤمنين! إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان، ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك، قال «عثمان»: أنا وليهم، وقد جعلتها دِيَة، واحتملتها في مالي.

قال: وكان رجل من الأنصار يقال له: «زياد بن لبيد» البياضي، إذا رأى «عبيد الله بن عمر»، قال:

ألا يا عبيد الله مالك مهربٌ ... ولا ملجأ من ابن أروى ولا خَفَرْ
أصبتَ دماً والله في غير حله ... حراماً وقتلِ الهُرْمُزانِ له خَطَرْ
على غيرِ شيء غيْرَ أن قال قائلٌ ... أتتهمون الهُرْمُزان على عُمَرْ
فقال سفيه والحوادث جَمَّةٌ ... نعم إتَّهِمْه قد أشار وقد أمَرْ
وكان سلاح العبد في جوف بيته ... يقلِّبها والأمرُ بالأمر يُعْتَبَرْ

قال: فشكا «عبيد الله بن عمر» إلى «عثمان»، «زياد بن لبيد» وشعره، فدعا «عثمان»، «زياد بن لبيد» فنهاه، فأنشأ «زياد» يقول في «عثمان»:

أبا عمرو عبيد اللهَ رَهْنٌ ... فلا تشكك بقتل الهُرْمُزان
فإنك إن غفرتَ الجرمَ عنه ... وأسباب الخَطَا فرسا رهانِ
أتعفو إن عفوت بغير حق ... فما لك بالذي تحكي يَدانِ

فدعا «عثمان»، «زياد بن لبيد» فنهاه، وشذَّبه(١) ـ أي: طرده ـ.

وذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» نسب «عثمان» فقال: «عثمان بن عفان بن أبي العاص بن بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب» القرشي، الأموي، المكي، ثم المدني، «أبو عمرو» ويقال: «أبو عبد الله» و«أبو ليلى»(٢)، وكان إسلامه على يد «أبي بكر الصديق» مبكراً (٢)، وأمه تدعى «أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس العبشميّة، كما ذكر «ابن حَجَر» في الإصابة(٣).

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٢٣٤ ـ ٢٤٠).
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: (١٣٤).
(٣) الإصابة (٤/ ٢٤١٣).

وذكر «ابن جرير الطبري» في تاريخه أولاد «عثمان» وأزواجه، فقال:

ـ «رقية» و«أم كلثوم» ابنتا رسول الله ﷺ، ولدت له «رقية»، «عبد الله».

ـ و«فاختة بِنَةُ غزوان بن جابر بن نُسَيب بن وُهَيْب بن زيد بن مالك بن عبد مناف بن عوف بن الحارث بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس بن عَيْلان بن مضر»، ولدت له ابناً فسماه «عبد الله» وهو «عبد الله الأصغر»، هلك.

ـ و«أم عمرو بنت جُنْدَب بن عمرو بن حُمَمَة بن الحارث بن رفاعة بن سعد بن ثعلبة بن بن لؤي بن عامر بن غَنْم بن دُهْمان بن مُنْهِب بن دَوْس»، من الأزد، ولدت له «عمراً» و«خالداً» و«أباناً» و«عمر» و«مريم».

ـ و«فاطمة بِنَة الوليد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم» ولدت له «الوليد» و«سعيداً» و«أم سعيد» بني «عثمان».

ـ و«أم البنين بنت عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، ولدت له «عبد الملك بن عثمان» هلك.

ـ و«رملة بِنَة شيبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي» ولدت له «عائشة» و«أم أبان» و«أم عمرو» بنات «عثمان».

ـ و«نائلة بِنَة الفَرَافِصَة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة بن الحارث بن حصن بن ضَمْضَم بن عدي بن خباب بن كلب» ولدت له «مريم بِنَة عثمان».

وقال هشام بن الكلبي: ولدت «أم البنين بنت عيينة بن حصن لعثمان» «عبد الملك» و«عتبة»، وقال أيضاً: ولدت «نائلة»، «عنبسة».

وزعم الواقدي أن لعثمان ابنة تدعى «أم البنين بنت عثمان» من «نائلة»، قال: وهي التي كانت عند «عبد الله بن يزيد بن أبي سفيان».

وقتل «عثمان» وعنده «رملة بِنَةُ شيبة» و«نائلة» و«أم البنين بنت عُيَيْنَة» و«فاختة بِنَة غزوان»، غير أنه ـ فيما زعم «علي بن محمد» ـ طلَّق «أم البنين» وهو محصور.

فهؤلاء أزواجه اللواتي كن له في الجاهلية والإسلام، وأولاده رجالهم ونساؤهم[١].

أما زواج «عثمان» من «رقية» بنت رسول الله ﷺ فقد سبقت إليه أحداث هامة مهدت لهذا الزواج المبارك. كان «عتبة بن أبي لهب» خطب «رقية» ولما دعا النبي ﷺ قومه إلى الإسلام، أمر «أبو لهب» ولده «عِتبة» بطلاقها، ففارقها قبل أن يدخل بها كرامة لها وهواناً له.

وكانت لعثمان خالة تدعى «سُعْدَى بنت كريز» ذات فصاحة وبيان، شاعرة، كاهنة كانت تتكهن لقريش أيام الجاهلية، وقد أخرج «ابن حَجَر العسقلاني» في «الإصابة» عن أبي سعد النيسابوري في كتاب «شرف المصطفى» ﷺ، من طريق محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وهو الملقب بالديباج، عن أبيه، عن جده، قال: كان إسلام «عثمان» أنه قال: كنت بفِناء الكعبة، إذ أتينا فقيل لنا: إن «محمداً» قد أنكح «عتبة بن أبي لهب»، «رقية» ابنته، وكانت ذات جمال بارع، وكان «عثمان» مشتهراً بالنساء، وكان وضيئاً، حسناً، جميلاً، أبيض، مشرباً صفرة، جعد الشعر، له جُمَّة أسفل من أذنيه؛ جَدْل الساقين، طويل الذراعين، أقنى بين القنى، ـ أي مرتفع وسط القصبة، ضيق المنخرين ـ.

قال «عثمان»: فلما سمعت ذلك دخلتني حسرة ألَّا أكون سبقت إليها، فلم ألبث أن انصرفت إلى منزلي، فأصبتُ خالتي قاعدة مع أهلي، قال: وأمه «أروى بنت كريز»، وأمها «البيضاء بنت عبد المطلب»، وخالته التي أصابها عند أهله «سُعْدَى بنت كريز» وكانت قد طَرَقَتْ ـ تكهنت بالضرب بالحصى ـ وتكهَّنت لقومها، قال: فلما رأتني قالت:

أبشر وحُيِّيتَ ثلاثاً وِتْرا ... ثم ثلاثاً وثلاثاً أُخرَى
ثم بأخرى كي تتم عَشْرَا ... لقيت خيراً ووُقِيتَ شَرَّا
نكحت والله حصاناً زَهْرَا ... وأنت بِكْرٌ ولقيتَ بِكْرَا

قال: فعجبت من قولها، وقلت: يا خالة! ما تقولين؟ فقالت:

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

عـثـمـان يـا عـثـمـان يـا عـثـمـانُ لـك الـجـمـال وإلـيـك الـشـانُ
هـذا نـبـي مـعـه الـبـرهـانُ أرسـلـه بـحـقـه الـديـانُ
وجـاءه الـتـنـزيـل والـفـرقـانُ فـاتـبـعـه لا تـغـتـالُـكَ الأوثـانُ

فقالت: إن «محمد بن عبد الله» رسول الله، جاء إليه «جبريل» يدعوه إلى الله، مصباحه مصباح، وقوله صلاح، ودِينُه فلاح، وأمره نجاح، لقرنه نطاح، ذلت له البطاح، ما ينفع الصياح، لو وقع الرماح، وسلَّت الصفاح، ومدت الرماح، ثم انصرفت.

ووقع كلامها في قلبي، وبقيت مفكراً فيه، وكان لي مجلس من «أبي بكر الصديق» فأتيته بعد يوم الإثنين، فأصبته في مجلسه، ولا أحد عنده، فجلست إليه، فرآني متفكراً، فسألني عن أمري، وكان رجلاً رقيقاً، فأخبرته بما سمعتُ من خالتي، فقال لي: ويحك يا عثمان! والله! إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، هذه الأوثان التي يعبدها قومك، أليست حجارة صُمًّا لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع؟ قلت: بلى، والله! إنها لكذلك، قال: والله! لقد صدقتك خالتك، هذا «محمد بن عبد الله» قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه، وتسمع منه؟ فقلت: نعم، فوالله! ما كان بأسرع من أن مَرَّ رسول الله ﷺ ومعه «علي بن أبي طالب» يحمل ثوباً لرسول الله ﷺ، فلما رآه «أبو بكر» قام إليه، فسارَّه في أذنه، فجاء رسول الله ﷺ فقعد، ثم أقبل عليَّ فقال: «يا عثمان! أجب الله إلى جنّته فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه».

قال: فوالله! ما تملَّكت حين سمعت قوله أن أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن «محمداً» عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت «رقيّة» وكان يقال:

أحـسـن زوجـيـن رأى إنـسـانُ رقـيـة وزوجـهـا عـثـمـانُ

وفي إسلام «عثمان» تقول خالته «سعدى»:

هـدى الله عـثـمـان الـصـفـي بـقـولـه فـأرشـده والله يـهـدي إلـى الـحـق
فـتـابـع بـالـرأي الـسـديـد مـحـمـداً وكـان ابـن أروى لا يـصـد عـن الـحـق
وأنـكـحـه الـمـبـعـوث إحـدى بـنـاتـه فـكـان كـبـدر مـازج الـشـمـس فـي الأفـق

فداؤك يابن الهاشميين مهجتي فأنت أمين الله أرسلت في الخلق(١)

وقال ابن حجر أيضاً: وأسلمت «أروى» ـ أم عثمان ـ وهاجرت بعد ابنتها «أم كلثوم» وبايعت رسول الله ﷺ، ولم تزل بالمدينة حتى ماتت(٢). وكانت «أروى» تحت «عفان بن أبي العاص» والد «عثمان» فتوفي عنها، فخلف عليها «عقبة بن أبي معيط» فولدت له (الوليد وعماراً وخالداً وأم كلثوم وأم حكيم وهنداً) وقتل «عقبة» مشركاً يوم بدر.

وتوفيت «أروى» في خلافة ابنها «عثمان» ﷺ، وقد أخرج «ابن سعد» في طبقاته، بسند فيه الواقدي إلى عبد الله بن حنظلة بن الراهب: شهدت «أم عثمان» يوم ماتت، فدفنها ابنها بالبقيع ورجع، وقد صلى الناس فصلى وحده، وصليت إلى جنبه، فسمعته وهو ساجد يقول: اللهم! ارحم أمي، اللهم! اغفر لأمي، وذلك في خلافته(٣).

عاش «عثمان» و«رقية» ﷺ في سعادة وهناء، ولما تمادت قريش في إيذاء أصحاب رسول الله ﷺ، أذِن لهم بالهجرة إلى بلاد «النجاشي» صاحب الحبشة، ليعبدوا الله عند ملك لا يظلم على أرضه أحد، وانطلق «عثمان» وامرأته «رقية» مع ثلة من المهاجرين، فاحتفى بهم «النجاشي» أيّما احتفاء، وأكرمهم أيّما إكرام.

وهناك وضعت «رقية» لعثمان ولده «عبد الله» فسُرَّا به سروراً عظيماً، ولما بلغ سنتين(٤) من عمره، نقره ديك في وجهه، فتورم، ثم أدى إلى وفاته، ولم تنجب سواه.

ووصلت الأخبار إلى الحبشة أن أهل مكة أسلموا فسعدوا كثيراً بذلك وتجهزوا للعودة بعد أن برحت بهم الأشواق إلى المصطفى ﷺ وإلى أهاليهم وذوي قرابتهم، وقبل أن يدخل المهاجرون مكة، علموا أن خبر إسلام أهل مكة عارٍ من الصواب، فرجع بعضهم إلى الحبشة، ودخل بعضهم مكة بمعزل عن

---

(١) الإصابة (٤/ ٢٥٣٣ ـ ٢٥٣٤).
(٢) الإصابة (٤/ ٢٤١٣).
(٣) الطبقات (٨/ ٣٦٤) والإصابة (٤/ ٢٤١٣).
(٤) في ذخائر العقبى: ست سنين، ص: ١٦٤.

أعين الرقباء، وكانت «رقية» و«عثمان» مع الداخلين، وذلك ليكحلا أعينهما بطلعة أبيها ومحيا أمها بعد أن عانيا من وطأة الغربة ولوعة الفراق.

واستراحا قليلاً، وسعدا بلقاء الأحبة، ثم استأذنا رسول الله ﷺ في العودة إلى الحبشة، فأذن لهما، وكان وداع الطاهرة «السيدة خديجة» لابنتها وصهرها ثقيلاً ومضنياً، واستعصى عليها حبس دموعها وهي تضم «رقية» إلى صدرها وتغرقها بوابل من قبلاتها، ولم يكن يدور في خلد الأم وفِلْذة كبدها أن هذا هو الوداع الأخير الذي لا لقاء بعده.

أما الحبيب الأعظم ﷺ فقد ودَّع صهره وابنته وشيَّعهما بمزيد من دعواته المباركة، وأمنياته الطيبة، ولم تلبث «خديجة» أن وقعت بين براثن المرض، ثم فارقت الحياة دون أن تحظى بآخر نظرة من وجه «رقية» المشرق.

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وبلغ المهاجرين في الحبشة ذلك قرروا العودة ليكونوا قريباً من قرة عيونهم، وحين وصلوا المدينة، كان رسول الله ﷺ قد خرج إلى خيبر، فيمموا شطر خيبر، ولما شارفوا أن يصلوها كان آخر حصن من حصونها قد سقط في أيدي المسلمين، فَتَمَّتْ لهم فرحتان: أولاهما فتح خيبر، والثاني عودة المهاجرين.

وكانت أعظم صدمة تلقَّتها «رقية» بعد عودتها من مُهَاجَرها أن أمها «الطاهرة» «خديجة» لم تكن في استقبالها، فقد رحلت خلال غيابها في الحبشة، ولم تلبث «رقية» أن أصيبت بمرض الحصبة، وأخذت صحتها تتدهور شيئاً فشيئاً.

وسمع «عثمان» ﷺ، أن رسول الله ﷺ سيخرج بالمسلمين إلى بدر، فراح يتجهَّز لذلك، كسائر جند الله المخلصين، بيد أن القائد الأعظم ﷺ أمر «عثمان» بالبقاء إلى جانب امرأته المريضة، ولم يكن بوسع الجندي المؤمن إلَّا أن ينصاع وينفذ الأمر، والتقى الجمعان في بدر، ولقي جمع المشركين هزيمة منكرة، وفقدت قريش أكابر مجرميها وأشدهم إيذاء لرسول الله ﷺ والمسلمين، وعلى رأسهم عدو الله، «أبو جهل»، وأنجز الله وعده لرسول الله ﷺ بالنصر المبين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم، الآية: ٤٧].

وقفل رسول الله ﷺ مع أصحابه عائدين إلى المدينة، وأصواتهم تهدر بالتهليل والتكبير، والشكر لله العلي القدير، الذي مَنَّ عليهم بالنصر الكبير،

وعمَّت الفرحة بيوت الأنصار والمهاجرين، إلا رجلاً واحداً كان غريق الدموع، وما ذاك إلَّا لأنه مفجوع، لقد تركته الحبيبة «رقية» ولبَّت دعوة بارئها، ولم يكن في طاقته أن يبخل عليها بالعبرات رحمها الله تعالى.

ووصل رسول الله ﷺ المدينة، وبلَغَه النبأ الأليم، فقصد البقيع، ووجد «عثمان» وهو ينفض يديه من ثرى ضريح الغالية «رقية»، فاسترجع واستغفر لحبّة الفؤاد، ودعا لها بما شاء الله أن يدعو، ثم مال إلى صهره «عثمان» وقال له مواسياً: **«فهذا جبريل عليه السلام يأمرني بأمر الله عز وجل أن أزوّجك أختها»**.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما عُزِّي رسول الله ﷺ بابنته «رقية» قال: **«الحمد لله دفن البنات من المكرمات»**[1].

وكانت «حفصة بنت عمر» رضي الله عنهما قد آمت من زوجها «خنيس بن حذافة» فعرضها على «عثمان» فأخبره بعدم رغبته في الزواج في هذا الحين، فقصد «أبا بكر» فلقي منه ما لقي من «عثمان» فذهب إلى رسول الله ﷺ يشكوهما، فقال له رسول الله ﷺ: **«يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة»**.

إن من طباع البشر، إذا أرادوا حاجة من الحاجات استعجلوها، ورغبوا في الوصول إليها وشيكاً، إلَّا رسول الله ﷺ فإن الحلم والأناة كانا في عداد مكارم الأخلاق التي تحلَّى بها، وجاء إلى الناس لِيُتَمِّمَها، ورد في الحديث أنه ﷺ لم يتزوج شيئاً من نسائه، ولا زوَّج شيئاً من بناته إلا بأمر من الله عز وجل جاءه «جبريل» عليه السلام به: من أجل هذا لم يصرِّح لعثمان أنه سيتزوج «حفصة» وأنه سيزوجه «أم كلثوم» رضي الله عنها، وكان «أبو لهب» عم رسول الله ﷺ قد خطب لولديه «عتبة» و«عتيبة» ابنتي رسول الله ﷺ «رقية» و«أم كلثوم» رضي الله عنهما، ولما تمادت قريش في إيذاء المسلمين لتفتنهم عن دينهم، أجمعت رأيها على أن تأمر فتيانها ممن هاجروا رسول الله ﷺ برد بناته عليه، وهذا يؤذيه أكثر مما لو كان الأذى يمس ذاته الشريفة، فجاءوا «أبا العاص بن الربيع» خَتَنَه على ابنته «زينب» رضي الله عنها فقالوا له: طلِّق ابنة «محمد» ﷺ ونحن نزوجك المرأة التي تريد من قريش، فخيَّب «أبو

(١) ذخائر العقبى، ص: ١٦٣.

العاص» أملهم، وقال لهم بحزم: ما أنا بمفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش، وكان يومئذٍ على ملة المشركين.

لكن «أبا لهب» وامرأته «حمالة الحطب» بادرا ولديهما «عتبة» و«عتيبة» فقال «أبو لهب» لهما: رأسي من رأسكما حرام إن لم تفارقا ابنتي «محمد»، ففارقاهما ولم يكونا دخلا بهما.

واكتفى «عتبة» بطلاق «رقية» إلّا أنَّ أخاه «عتيبة» لم يكتفِ بطلاق «أم كلثوم»، بل أبعد في غيه، وأسرف في ضلاله، وارتكب منكراً كبيراً وجرماً عظيماً بحق سيد البشر، يقول قتادة فيما رواه «المحب الطبري» في «ذخائر العقبى»: إن «عتيبة» فارق «أم كلثوم»، ولم يبن بها، ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال له: كفرتُ بدينك، وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك، ثم سطا عليه وشق قميصه، وهو خارج نحو الشام تاجراً، فقال ﷺ: «**أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه**»، فخرج في تجر من قريش حتى نزلوا مكاناً من الشام يقال له: الزرقاء ليلاً، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل «عتيبة» يقول: يا ويل أمي! هو والله! آكلي كما دعا عليّ «محمد»، أقاتلي «ابن أبي كبشة» وهو بمكة وأنا بالشام؟ فعدا عليه الأسد من بين القوم، فأخذ برأسه فقدغه.

وفي رواية ثانية: عن عروة بن الزبير أن «عتيبة» لما أراد الخروج إلى الشام، أتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! هو يكفر بالذي دنا فتدلّى، فكان قاب قوسين أو أدنى، ثم تفل وردَّ التفلة على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**اللهم! سَلِّطْ عليه كلباً من كلابك**»، و«أبو طالب» حاضر، فوجَم لها ـ أي: عبس وأطرق وسكت عن الكلام ـ وقال: ما كان أغناك عن دعوة ابن أخي!

ثم خرج إلى الشام، فنزلوا منزلاً، وأشرف عليهم راهب من الدير، فقال: أرضٌ مَسْبَعَة ـ أي: ذات سباع ـ فقال «أبو لهب»: «يا معشر قريش! أعينوني على هذه الليلة، فإني أخاف دعوة «محمد».

فجمعوا أحمالهم، ففرشوا لعتيبة في أعلاها، وباتوا حوله، فجاء الأسد، فجعل يتشمَّم وجوههم، ثم ثنى ذنبه، فوثب، فضربه ضربة واحدة، فخدشه، فقال: قتلني، ومات، وروي أن الأسد أقبل يتخطاهم حتى أخذ برأس «عتيبة»

ففدغه ـ أي: خدشه وشقه ـ[1].

وهكذا لقي عدو الله جزاء شنيعاً موافقاً لشنيع جرمه، وعظيم خطيئته، وفاز مع أبيه وأمه، بالخلود في عذاب السعير.

وفكَّر «عمر» ﷺ في قول رسول الله ﷺ له، مَنْ خير مِنْ «عثمان» فيزوجه «حفصة» ومَنْ خير مِنْ «حفصة» فيتزوجها «عثمان؟».

وبعثت السماء بالرد الشافي، ونزل الأمر الإلٰهي، فتزوج رسول الله ﷺ «حفصة» وهو خير من «عثمان» ﷺ، وزوَّج «عثمان»، «أم كلثوم» وهي خير مِنْ «حفصة» ﷺ.

وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أتاني «جبريل» فأمرني أن أزوِّج «عثمان» ابنتي»**.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: لقي النبي ﷺ عند باب المسجد، فقال: **«يا عثمان! هذا «جبريل» أخبرني أن الله تعالى قد أمرني أن أزوجك «أم كلثوم» بمثل صداق «رقية» وعلى مثل صحبتها»**.

وعنه قال: قال «عثمان»: لما ماتت امرأته بنت رسول الله ﷺ بكيتُ بكاء شديداً فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» قلت: أبكي على انقطاع صهري منك، قال: **«فهذا جبريل ﷺ يأمرني بأمر الله ﷻ أن أزوجك أختها»**.

وعن ابن عباس ﷺ معناه، وفيه: **«والذي نفسي بيده! لو أن عندي مائة بنت تموت واحدة بعد واحدة، زوجتك أخرى حتى لا يبقى بعد المائة شيء، هذا «جبريل» أخبرني أن الله ﷻ يأمرني أن أزوجك أختها، وأن أجعل صَداقها مثل صَداق أختها»**. روى هذه الأحاديث «المحب الطبري» في ذخائره[2].

فأي فضل كان لعثمان!! ثم لقي «أبو بكر»، «عمر» بعد أن تزوج رسول الله ﷺ «حفصة» ﷺ، فقال «أبو بكر» ﷺ: لعلك وجدت عليَّ حين لم أردَّ عليك عندما عرضت عليَّ «حفصة» قال: نعم، قال «أبو بكر»: لقد علمت أن

(١) ذخائر العقبى، ص: ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) ذخائر العقبى، ص: ١٦٥ ـ ١٦٦.

رسول الله ﷺ ذكرها، ولم أكن لأفشيَ سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لنكحتها.

أجل! لا يعلم ما في القلوب، إلَّا علام الغيوب، ولا يعرف ما في الضمائر، إلَّا المطَّلع على السرائر، ولا يدري بما تخفي الصدور، إلَّا العزيز الغفور.

وروى صاحب «مختصر تاريخ دمشق» عن عائشة ﷺ قالت: لما زوَّج النبي ﷺ ابنته «أم كلثوم» قال لأم أيمن: «**هيئي ابنتي أم كلثوم» وزُفِّيها إلى «عثمان» وخفقي بين يديها بالدُّفّ**»، ففعلت ذلك، فجاءها النبي ﷺ بعد الثالثة، ـ أي: الليلة الثالثة ـ فدخل عليها، فقال: «**يا بنية! كيف وجدت بعلك؟**» قالت: خير بعل، فقال النبي ﷺ: «**أما إنه أشبه الناس بجدك «إبراهيم»، وأبيك «محمد» صلى الله عليهما**»[(١)].

وروى أيضاً: أن «أم كلثوم» ﷺ جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! زوج فاطمة خير من زوجي! قال: فأَسْكَتَ النبي ﷺ مليًّا، ثم قال: «**زَوَّجتُكِ مَنْ يحبه الله ورسولُه، ويحب اللهَ ورسولَه**» فولَّت.

فقال: «**هلمي ماذا قلتُ؟**» قالت: زوَّجتني مَنْ يحب اللهَ ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسولُه. قال: «**نعم، وأزيدك: لو قد دخلتِ الجنة فرأيتِ منزله لم تَرَيْ أحداً من أصحابي يعلوه في منزله**»[(٢)].

ولقي «عثمان» بصحبة «أم كلثوم» موفور السعادة، وأتم الهناء، ولقب بعد زواجه منها بذي النورين، فقد روي عن الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: إنما سُمِّيَ «عثمان» ذا النورين لأنه لا نعلم أحداً أغلق بابه على ابنتي نبي غيره[(٣)].

وقد نعتَ «عثمانَ بن عفان» أبو نعيم في حليته فقال: القانت ذو النورين، والخائف ذو الهجرتين، والمصلي إلى القبلتين[(٤)].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٦/ ١٢٠).
(٢) المصدر السابق نفسه (١٦/ ١٢١ ـ ١٢٢).
(٣) المصدر السابق نفسه (١٦/ ١٢٢).
(٤) حلية الأولياء (١/ ٥٩).

وكان «عثمان» ـ على قاتليه لعائن الديان ـ جَمَّ المناقب، ومن أرفعها شدة حيائه، فقد أخرج «المتقي الهندي» في «كنز العمال» عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «عثمان أحيا أمتي وأكرمها»(١).

وعنه، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أشد أمتي حياء عثمان بن عفان»(٢).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه، حدثنا يحيى بن يحيى، ويحيى بن أيوب وقتيبة وابن حُجْر، (قال يحيى بن يحيى: أخبرنا، وقال الآخرون: حدثنا) إسماعيل ـ يعنون ابن جعفر ـ عن محمد بن أبي حرملة، عن عطاء وسليمان ابني يسار، وأبي سلمة بن عبد الرحمٰن؛ أن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيتي، كاشفاً عن فخذيه، أو ساقيه، فاستأذن «أبو بكر»، فأذِن له، وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن «عمر»، فأذن له، وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن «عثمان» فجلس رسول الله ﷺ، وسوَّى ثيابه. ـ قال محمد: ولا أقول ذلك في يوم واحد ـ فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل «أبو بكر» فلم تهتشَّ له الهِشَاشَة والبشاشة: طلاقة الوجه وحسن اللقاء ـ، ولم تُبَالِهِ ـ لم تكترث له ولم تحتفل لدخوله ـ ثم دخل «عمر» فلم تهتشَّ له، ولم تُبَالِهِ، ثم دخل «عثمان» فجلستَ وسوَّيتَ ثيابك! فقال ﷺ: «ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة؟»(٣).

وكانت قريش تُوَادُّ «عثمان» وتحبه، حتى ضرب بتلك المودة والمحبة المثل، وقد قال أحد الشعراء:

أحـــبـــك والـــرحـــمٰـــان حـــب قـــريـــش عـــثـــمـــان

وكانت «أم كلثوم» رضي الله عنها تكتشف لعثمان في كل يوم خلقاً حميداً، وفضلاً مجيداً، وطبعاً فريداً، تزيدها له محبة وبه إعجاباً، وكيف لا تحب من يحبه اللهُ ورسولُه ﷺ، ويحبُّ اللهَ ورسولَه؟ ولقد أمضت ست سنوات مع «عثمان» تحت

---

(١) كنز العمال (١١/٣٢٨٠٦) وحلية الأولياء (١/٥٩).
(٢) كنز العمال (١١/٣٢٨٠٦) وحلية الأولياء (١/٥٩).
(٣) صحيح مسلم (٢٦/٢٤٠١).

سقف واحد، حفلت بالسعادة والوئام، واتسمت بالانسجام، لأنه الزوج الذي صُنِعَ على عين الله، ورضيه لها رسول الله ﷺ، فهل تطمح المرأة إلى زوج أفْضَل من «عثمان» وأنْبَل؟

ولئن كان أبوها رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة، فقد قبس عنه أصحابه الجود والكرم، فكانوا ينفقون أموالهم في سبيل الله ونشر دينه، وإعلاء كلمته، وإعانة المنكوبين والمحتاجين ما يعزُّ حصره، وكان «عثمان» واحداً من أجواد الصحابة، فقد أخرج «أبو نعيم» في حليته، عن عبد الرحمٰن بن أبي حباب السلمي، قال: خطب النبي ﷺ فَحَثَّ على جيش العسرة، فقال «عثمان»: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم حَثَّ، فقال «عثمان»: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها، قال: ثم حَثَّ، فقال «عثمان»: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، فرأيت النبي ﷺ يقول بيده يحركها: **«ما على عثمان ما عمل بعد هذا»**.

وعن عامر الشعبي، عن مسروق، عن عبد الله، قال: رأى رسول الله ﷺ «عثمان بن عفان» يوم جيش العسرة جائياً وذاهباً، فقال: **«اللهم! اغفر لعثمان ما أقبل وما أدبر، وما أخفى وما أعلن، وما أسر وما أجهر»**، قال محمد بن إسحاق: ما حفظت من الشعبي إلا هذا الحديث الواحد.

وعن عبد الرحمٰن بن سمرة، قال: كنت مع رسول الله ﷺ في جيش العسرة فجاء «عثمان» بألف دينار فنثرها بين يدي رسول الله ﷺ ثم ولَّى، قال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يقلب الدنانير، وهو يقول: **«ما يضر «عثمان» ما فعل بعد هذا اليوم»**.

وعن مالك، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما جهَّز النبي ﷺ جيش العسرة، جاء عثمان بألف دينار، فصبَّها في حَجْر النبي ، فقال النبي : **«اللهم! لا تنسى لعثمان، ما عمل بعد هذا»**.

وعن سفيان، عن ابن أبي عروبة، عن قتادة، قال: حمل «عثمان» على ألف فيها خمسون فرساً في غزوة تبوك(١).

وشاءت إرادة الله ألا تنجب «أم كلثوم» أبداً، ولكن شيئاً واحداً كان ينغِّص

(١) حلية الأولياء (١/ ٦٢ ـ ٦٣).

صفو حياتها، ويعكِّر سعادتها، لقد كانت بحاجة إلى وجود أمها «خديجة» إلى جانبها، ولكن هيهات!، ومن العبث أن تفكر بذلك لأن من رحلوا قبل أمها وبعد أمها لم يعد منهم أحد، وتلك سنة الحياة، ولا عودة إليها إلَّا يوم البعث والنشور.

وذات يوم أحسَّت «أم كلثوم» أنها مرهقة، فأخلدت إلى فراشها، وانتاب «عثمان» قلق شديد، لأن رحيلها يعني انقطاع صهره من رسول الله ﷺ، وظن أن الراحة والاستلقاء في الفراش قد يعيد إليها حيويتها ونشاطها، ولكن تبيَّن أن الأمر أبعد مما ظن وأخطر، لأن الإرهاق تحوَّل إلى مرض، وهذا المرض على ما يبدو لم يكن من النوع البسيط، لأن المريضة الفتية بدأ جسمها بالذُّبُول، وعلا الشحوب طلعتها التي كانت تُشِعُّ نوراً وبهاء، واستدعى «عثمان» رسول الله ﷺ فراح يدعو لها دعواته المباركات، وقضى الأهل وبعض الصحابة ليلتهم إلى جانبها للاطمئنان عليها، وإذا صوت بلال يخترق المسامع مُؤذِناً بحلول صلاة الفجر، وانطلق الجميع إلى المسجد لشهود الفجر والصلاة مع رسول الله ﷺ، وأمر «عثمان» أم عياش بمراقبة «أم كلثوم» ريثما يفرغون من صلاة الفجر، ولاحظت أن ذبولها قد اشتد، وأنينها قد خَفَتَ، وأنفاسها قد ضعفت، فأرسلت من يخبر «عثمان» ليحضر.

وجاء «عثمان» على عجل، ومعه رسول الله ﷺ و«الصديق» و«الفاروق» و«أبو الحسن» وثلة من المهاجرين والأنصار.

كلهم يدعو ويتوسل إلى الله، وكلهم عاجز عن حبس دموعه ووقف عبراته، ورسول الله ﷺ لا ينطق إلَّا بما يرضي الرب، وحُمَّ القضاء، وتوقفت الأنفاس، والروح قد صَعِدت إلى بارئها.

ولحقت «أم كلثوم»: بأمها «خديجة» وأختيها «زينب» و«رقية» تاركة دار الفناء لتلقاهن في دار البقاء، رحمها الله تعالى.

وأما امرأته «أم البنين بنت عيينة بن حصنٍ» فكان أبوها «عيينة» يقال له: أحمقُ مطاعٌ، وهو الذي أغار على لقاح النبي ﷺ بالغابة. وجاء في «الطبقات» لابن سعد: عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عمر بن جوية بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة واسم فزارة «عمرو» وكان ضربه أخ له ففزره فسمي

«فزارة» وكان اسم «عيينة»، «حذيفة» فأصابته لَقْوَة، فجحظت عيناه، فسمي «عيينة» وكان يكنى «أبا مالك». ثم قال «ابن سعد»: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني إبراهيم بن جعفر، عن أبيه، قال: أجدبت بلاد آل بدر بن عمرو حتى ما أبقت من مالهم إلا الشريد، وذكرت له سحابة وقعت بِتَغْلَمِينَ إلى «بطن نخل»، فسار «عيينة بن حصن» في آل بدر نحواً من مائة بيت حتى أشرف على «بطن نخل»، ثم هابَ النبيَّ ﷺ وأصحابَه، فورد المدينة، فأتى النبي ﷺ فدعاه إلى الإسلام فلم يبعد ولم يدخل فيه، وقال: إني أريد أن أدنو من جوارك فوادِعْني، فوادعه ثلاثة أشهر لا يغير أحد من المسلمين على أحد منهم، ولا يغير أحد منهم على المسلمين، فلما انقضت المدة، انصرف «عيينة» وقومه إلى بلادهم، قد أسمنوا وألبنوا، وسمن الحافر من الصِّلِّيان، وأعجبهم مرآة البلد، فأغار «عيينة» بذلك الحافر على لقاح النبي ﷺ التي كانت بالغابة، فقال له «الحارث بن عوف»: ما جزيت «محمداً» أسمنت في بلاده، ثم غزوته، قال: هو ما ترى.

قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني عبد العزيز بن عقبة بن سلمة بن الأكوع، عن إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: أغار عيينة بن حصين، في أربعين رجلاً من قومه وهي بالغابة عشرون لقحة واستاقها، وقتل ابناً لأبي ذر كان فيها.

فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم، وخرج معه المسلمون حتى انتهوا إلى «ذي قَرَد»، فاستنقذوا عشر لقاح، وأفلت القوم بما بقي، وهي عشر، وقتلوا: «حبيب بن عيينة» و«مسعدة بن حكمة بن مالك بن حذيفة بن بدر» و«قرفة بن مالك بن حذيفة» و«أوثاراً» و«عمرو بن أوتار».

قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني محمد بن عبد الله الزهري، عن سعيد بن المسيب، قال: كان «عيينة بن حصين» أحد رؤوس غطفان مع الأحزاب الذي ساروا إلى رسول الله ﷺ مع قريش إلى الخندق.

فلما حُصِرَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، وخلص إليهم الكرب، أرسل رسول الله ﷺ إلى «عيينة بن حصن» و«الحارث بن عوف»: أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة، أترجعان بمن معكما وتخذلان بين الأعراب؟ فرضيا بذلك.

وحضروا وحضر رسول الله ﷺ وأحضروا الدواة والصحيفة، فهو يريد أن يكتب الصلح بينهم فجاء «أُسَيْد بن حُضَيْر»، و«عيينةُ» مادًّا رجليه بين يدي

رسول الله ﷺ وعلم ما يريدونه، فقال: يا عين الهِجْرِس[١]! اقبض رجليك، أتمدهما بين يدي رسول الله ﷺ؟ والله! لولا رسول الله ﷺ لأنفذت حضنك بالرمح، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: إن كان أمر من السماء فامضِ له، وإن كان غير ذلك، فوالله! ما نعطيهم إلا السيف، متى طمعتم بهذا منا؟ والله! إنْ كانوا لِيأْكُلُوا العِلْهِز[٢] من الجهد، فما يطمعون بهذا منا أن يأخذوا تمرة إلا بشراء أو قِرىً، فحين أتانا الله بك، وأكرمنا بك نعطي الدنيَّة؟ لا نعطيهم أبداً إلا السيف.

وقال «سعد بن معاذ» و«سعد بن عبادة» مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «شُقَّ الكتاب»، فَتَفَلَ فيه «سعد»، ثم شَقَّه.

فقال «عيينة»: أما والله! لَلَّذِي تركتم خير لكم من الحنطة التي أخذتم، وما لكم بالقوم طاقة.

فقال «عَبَّاد بن بشر»: يا عيينة! أبالسيف تخوفنا؟ ستعلم أينا أجزع، والله! لولا مكان رسول الله ﷺ ما وصلتم إلى قومكم.

فرجع «عيينة» و«الحارث» وهما يقولان: والله! ما نرى أن ندرك منهم شيئاً، فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان، فقالوا: ما وراءكم؟ قالوا: لم يتم لنا الأمر، رأينا قوماً على بصيرة وبذل أنفسهم دون صاحبهم.

قال «محمد بن عمر»: فلما انكشف الأحزاب، انكشف «عيينة» في قومه إلى بلاده، ثم أسلم قبل فتح مكة بيسير، فذكر بعضهم أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وهو بين «عيينة» و«الأقرع».

قال: أخبرنا علي بن محمد القرشي، عن علي بن سليم، عن الزبير بن خبيب، قال: أقبل «عيينة بن حصين» إلى المدينة قبل إسلامه، فتلقَّاه ركب خارجين من المدينة، فقال: أخبروني عن هذا الرجل، قالوا: الناس فيه ثلاثة، رجل أسلم فهو معه يقاتِل قريشاً والعرب، ورجْل لم يسلم فهو يقاتله فبينهم

(١) الهِجْرِس: القِرْدُ.
(٢) العِلْهِز: طعام من الدم والوبر كانوا يأكلونه عند المجاعة.

التذابح، ورجل يُظْهِرُ له الإسلامَ ويظهر لقريش أنه معهم، قال: ما يُسَمَّى هؤلاء القوم؟ قالوا: يُسَمَّوْنَ المنافقين، قال: ما في من وصفتم أحزم من هؤلاء، اشهدوا أني منهم.

وتابع «ابن سعد» قوله: ولما قدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ فرد رسول الله ﷺ السبي، كان «عيينة» قد أخذ رأساً منهم نظر إلى عجوز كبيرة، فقال: هذه أم الحي لعلهم أن يغلوا بفدائها، وعسى أن يكون لها في الحي نسب.

فجاء ابنها إلى «عيينة» فقال: هل لك في مائة من الإبل؟ قال: لا، فرجع عنه فتركه ساعة، وجعلت العجوز تقول لابنها: ما أَرَبُكَ فِيَّ بعد مائة ناقة؟ اتركه فما أسرع ما يتركني بغير فداء.

فلما سمعها «عيينة» قال: ما رأيت كاليوم خدعة، والله! ما أنا من هذه إلا في غرور، لا جرم، والله! لأُبَاعِدَنَّ أثرك مني.

قال: ثم مَرَّ به ابنها، فقال «عيينة»: هل لك فيما دعوتني إليه؟ فقال: لا أزيدك على خمسين، فقال «عيينة»: لا أفعل، ثم لبث ساعة، فمَرَّ به وهو معرض عنه، فقال له «عيينة»: هل لك في الذي بذلت لي؟ قال له الفتى: لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة، قال «عيينة»: والله! لا أفعل، فما تخوَّف «عيينة» أن يَتَفَرَّق الناس، ويرتحلوا، قال: هل لك إلى ما دعوتني إليه؟ قال الفتى: هل لك في عشر فرائض؟، قال: لا أفعل، فلما رحل الناس ناداه «عيينة»: هل لك إلى ما دعوتني إليه إن شئت؟ قال الفتى: أرسلها وأحمدك، قال: لا والله! ما لي حاجة بحمدك، فأقبل «عيينة» على نفسه لائماً لها يقول: ما رأيت كاليوم امرءاً أنكَد، قال الفتى: أنت صنعت هذا بنفسك، عمدت إلى عجوز كبيرة، والله! ما ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا فوها ببارد، ولا صاحبها بواجد، فأخذتها من بين من ترى؟ فقال له «عيينة»: خذها لا بارك الله لك فيها.

قال: يقول الفتى: يا عيينة! إن رسول الله ﷺ قد كسا السبي فأخطأها من بينهم الكسوة فهل أنت كاسيها ثوباً؟ قال: لا والله! ما لها ذاك عندي.

قال: لا تفعل، فما فارقه حتى أخذ منه شمل ثوب، ثم ولَّى الفتى وهو

يقول: إنك لغير بصير بالفرص.

وشكا «عيينة» إلى «الأقرع» ما لقي، فقال له الأقرع: إنك والله! ما أخذتها بكراً غريرة، ولا نصفاً وثيرة، ولا عجوزاً مَيِّلة، عمدت إلى أحوج شيخ في هوازن فسبيت امرأته، قال «عيينة»: هو ذاك، قال: وأعطى رسول الله ﷺ «عيينة ابن حصن» من غنائم حنين مائة من الإبل، وبعثه رسول الله ﷺ سرية في خمسين رجلاً ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري إلى بني تميم، فوجدهم قد عدلوا من السقيا يؤمون أرض بني سُلَيْم في صحراء قد حلُّوا وسرَّحوا مواشيهم، والبيوت خلوف ليس فيها أحد إلّا النساء، فلما رأوا الجمع وَلَّوْا، فأغار عليهم وأخذ منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً فجلبهم إلى المدينة، فأمر بهم رسول الله ﷺ في دار «رملة بنت الحارث»، فقدم فيه عشرة من رؤسائهم وفداً إلى رسول الله ﷺ وأنزل الله فيهم القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝﴾ [الحجرات، الآية: ٤] ورد رسول الله ﷺ الأسرى والسبي، وأمر رسول الله ﷺ للوفد بجوائز.

قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنا موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، عن عائشة، قالت: دخل «عيينة بن حصن» على النبي ﷺ وأنا عنده، فقال «عيينة»: من هذه الحميراء؟ يا محمد! فقال رسول الله ﷺ: «**هذه عائشة بنت أبي بكر**»، فقال: ألا أنزل لك عن أحسن الناس عن ابنة «جمرة» فتنكحها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا**»، قالت: فلما خرج، قلت لرسول الله ﷺ: من هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هذا الحمق المطاع**»، قالوا: وكان «عيينة» قد ارتد حين ارتدت العرب، ولحق بطليحة بن خويلد حين تنبأ، فآمن به وصدقه على ما ادعى من النبوة، فلما هزم «طليحة» وهرب، أخذ «خالد بن الوليد»، «عيينة بن حصن» فبعث به إلى «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه في وَثاق، فقدم به المدينة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فنظرت إلى «عيينة» مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريد ويضربونه ويقولون: أي عدو الله! كفرت بعد إيمانك، فيقول: والله! ما كنتُ آمنتُ، ووقف عليه «عبد الله بن مسعود» فقال: خبتَ وخسرتَ، إنك لَمُوضِعٌ في الباطل قديماً، فقال «عيينة»: أقصر أيها الرجل! فلولا ما أنا فيه لم تكلمني بما تكلمني به، فانصرف عنه «ابن مسعود».

فلما كلَّمه «أبو بكر» رجع إلى الإسلام، فقبل منه، وعفا عنه، وكتب له أماناً. قال: أخبرنا علي بن محمد، عن عامر بن أبي محمد، قال: قال «عيينة» لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين! احترس أو أخرج العجم من المدينة، فإني لا آمن أن يطعنك رجل منهم في هذا الموضع، ووضع يده في الموضع الذي طعنه «أبو لؤلؤة»، فلما طعن «عمر» ﷺ، قال: ما فعل «عيينة؟» قالوا: بالهجم أو بالحاجر، فقال: إن هناك لرأياً.

قال: أخبرنا علي بن محمد بن عبد الله بن قايد، قال: كانت «أم البنين بنت عيينة» عند «عثمان» فدخل «عيينة» على «عثمان» بغير إذن، فقال له «عثمان»: تدخل عليَّ بغير إذن، فقال: ما كنت أرى أني أحجب عن رجل من مضر أو أستأذن عليه، فقال «عثمان»: إذاً فأصب من العشاء، قال: أنا صائم، قال: تصوم الليل؟ قال: إني ميلت بين صوم الليل والنهار فوجدت صوم الليل أيسر عليَّ.

قال: أخبرنا علي بن محمد، عن أبي الأشهب، عن الحسن، قال: عاتب «عثمان»، «عيينة» فقال: ألم أفعل؟ ألم أفعل؟ وكنت تأتي «عمر»، ولا تأتينا، فقال: كان «عمر» خيراً لنا منك، أعطانا فأغنانا، وأخشانا فاتَّقانا.

قال علي بن محمد: وكان «عيينة» شريفاً، رَبَّع في الجاهلية، وخَمَّس في الإسلام، وعمي في خلافة «عثمان»[(١)].

وأخرج «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: وروى أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: سمعت «عيينة بن حصن» يقول لعبد الله: أنا ابن الأشياخ الشم، فقال له عبد الله: ذاك «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»، فسكت، وكان له ابن أخ له دِين وفضل.

قال سفيان بن عيينة، عن الزهري: كان جلساء «عمر بن الخطاب» أهل القرآن شباباً وكهولاً، فجاء «عيينة الفزاري»، وكان له ابنُ أخ من جلساء «عُمَرَ» يقال له: «الحُرُّ بن قيس» فقال لابن أخيه: ألا تدخلني على هذا الرجل؟ فقال:

(١) الطبقات (٨/ ٥٥٥ ـ ٥٥٩).

إني أخاف أن تتكلم بكلام لا ينبغي، فقال: لا أفعل، فأدخله على «عمر»، فقال: يابن الخطاب! والله! ما تقسِم بالعدل، ولا تعطي الجَزْل، فغضب «عمر» غضباً شديداً حتى هَمَّ أن يوقع به، فقال له ابن أخيه: يا أمير المؤمنين! إن الله ﷻ يقول في محكم كتابه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف، الآية: ١٩٨] وإن هذا من الجاهلية، قال: فخلَّى عنه «عمر»، وكان وقافاً عند كتاب الله[1].

وأما «رملة بنت شيبة بن ربيعة» فقد كان أبوها من كبار سفهاء قريش وقد قتله «حمزة بن عبد المطلب» يوم بدر، قال «أبو عمر بن عبد البر»: كانت من المهاجرات، هاجرت مع زوجها «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، وفي ذلك تقول لها «هند بنت عتبة»:

لحا الرحمٰنُ صابئةً بِوَجٍّ ... ومكة عند أطراف الحجون
تدين لمعشر قتلوا أباها ... أقتل أبيك جاءك باليقين[2]

وكانت آخر أزواجه «نائلة بنت الفَرَافِصَة»، وكانت من قوم «عيسى بن مريم» عليه السلام، وقد ذكرها الحافظ «ابن عساكر» في كتابه «أعلام النساء»، فقال: هي «نائلة بنت الفَرَافِصَة بن الأحوص بن عمرو» ويقال: «عفير بن ثعلبة بن الحارث بن حصن بن ضمضم» زوج «عثمان بن عفان». ثم قال «ابن عساكر»: قالت «نائلة»: لما حُصِرَ «عثمان» ظل اليوم الذي كان قبل قتله بيوم صائماً، فلما كان عند إفطاره، سألهم الماء العذب، فأبوا عليه، وقالوا: دونك الرَّكِيّ ـ أي: المكان الذي يلقى فيه النتن ـ.

قالت: فلم يفطر، فأتيتُ جاراتٍ لنا على أجاجير ـ جمع إِجّار، وهو السطح ـ متواصلة، وذلك في السحر، فسألتهم الماء العذب، فأعطوني كوزاً من ماء، فأتيته، فقلت: هذا ماء عذب أتيتُك به.

قالت: فنظر، فإذا الفجر قد طلع، فقال: إني أصبحت صائماً، قالت:

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥١).
(٢) الاستيعاب (٤/١٨٤٦).

فقلت: من أين، ولم أر أحداً أتاك بطعام ولا شراب؟ فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ اطّلع عليّ من هذا السقف، ومعه دلو من ماء، فقال: «اشرب يا عثمان!» فشربتُ حتى رويتُ، ثم قال: «ازدد»، فشربت حتى ثَمِلْتُ ـ أو نهلت ـ ثم قال: أما إن القوم سيكرون عليك، فإن قاتلتهم ظفرت، وإن تركتهم أفطرت عندنا، فدخلوا عليه من يومه فقتلوه، ثم قال ابن عساكر: زوَّج «نائلة بنت الفَرَافِصَة» أخوها «ضَبٌّ»، وهو الذي حملها إلى «عثمان»، وكان «ضَبٌّ» مسلماً، وكان أبوها نصرانياً، فأمر ابنه «ضَبًا» بذلك، فقالت لأخيها:

أحقًّا تراه اليوم يا ضَبُّ إنني ... مرافقة نحو المدينة أركبا

لقد كان في فتيان حصن بن ضَمْضَمٍ ... وجدك ما يغني الخباء المُحَجَّبا

وكان «سعيد بن العاص» تزوج أخت «نائلة بنت الفَرَافِصَة»، وهو أمير على الكوفة، فبلغ ذلك «عثمان بن عفان»، فكتب إليه: بلغني أنك تزوجت امرأة، فأخبرني عن حَسَبِهَا وجمالها، فكتب إليه: أما عن حَسَبِهَا، فإنها ابنة «الفَرَافِصَة»، وأما جمالها فإنها بيضاء، وكتَبَ إليه: إن كان لها أخت فزوجنيها.

فدعا «الفَرَافِصَة» فقال له: زَوِّجْ أمير المؤمنين، فقال «الفَرَافِضَةُ» لابنه «ضَبٌّ» ـ وكان مسلماً، والفَرَافِصَةُ نصراني ـ: زوِّج أختك أمير المؤمنين، فزوَّجه «نائلة»، وحملها إليه، فلما دخلت على «عثمان»، وضع القلنسوة عن رأسه، وبدا الصَّلَعُ، فقال: لا يَغُمَّنْكِ ما تَرَيْن، فإن من ورائه ما تحبين.

قالت له: أما ما ذكرت من صلعك فإني من نسوة أحب أزواجهن إليهن السادة الصُّلْعُ، ثم قال لها: إما أن تتحوَّلي إليَّ أو أتحوَّل إليك.

قالت: ما قطعت من جنبات «السماوة» أبعد مما بيني وبينك، فتحوَّلت إليه، فكانت من أحظى النساء عنده.

قالوا: وتزوجها وهي نصرانية على نسائه، ثم أسلمت على يديه، ولما قُتِلَ «عثمان» قالت «نائلة» فيه:

ألاَ إن خير الناس بعد ثلاثة ... قتيلُ التُّجيبيّ الذي جاء من مصرِ

وما لي لا أبكي وأبكي قرابتي ... وقد غُيِّبَتْ عني فُضُول أبي عمرِو

قال: وكانت كلب كلهم يومئذ نصارى.

عن عبد الله بن علي بن السائب بن عبيد بن عبد بن يزيد بن هشام بن عبد المطلب، من بني عبد مناف، قال: إن «عثمان بن عفان» تزوَّج «نائلة بنت الفَرَافِصَة»، وهي نصرانية على نسائه، وكلب كلهم يومئذ نصارى.

قال: فدخلتُ على جارية مثل الخَلِفَة ـ الناقة ـ، فقلت: سلام عليك، قالت: وعليك السلام ورحمة الله، ونساء كلب ذلك الزمان لا يكلمن أزواجهن سنة، أو كما قال، ثم قلتُ: أين أنتِ من شيخٍ أثرمَ ـ سنة مكسورة من أصلها ـ هَرِمٍ، فقالت: إني من قوم يحبون الكهولة، فسررتُ بذلك.

قلتُ: أتأذنين لي فآتيَك؟، قالت: بلى، أنا أحق أن أقوم إليك، قال: فما زلتُ متشكراً لها، ثم أسلمت على يديه.

عن محمد وطلحة وأبي حارثة، وأبي عثمان، قالوا: لما خرج «محمد بن أبي بكر» وعرفوا انكساره، ثار «قُتَيْرَة» و«سُودان بن حُمْران» السكونيان و«الغافقي» ـ يعني ـ فضربه «الغافقي» بجريدة[1] ـ أي: سَعْفة ـ معه، وضرب المصحف برجله، واستدار المصحف، وانتشر، فاستقر بين يديه، وسالت عليه الدماء، وجاء «سُودان بن حُمْران» ليضربه، فأكبَّت عليه «نائلة» واتَّقتِ السيف بيدها فتعمَّدها ـ قصدها ـ ونفح ـ ضرب ـ أصابعها، فأطَنَّ ـ قطع ـ أصابع يدها، وولَّت، فغمز ـ فَجسَّ ـ أوراكها ـ الوَرِكُ: ما فوق الفخذ، وقال: إنها لكبيرة العجيزة، وتضرَّب «عثمان» فَقتله. وقد دخل مع القوم غِلْمة لعثمان لينصروه، وقد كان «عثمان» أعتق من كفَّ منهم، فلمَّا رأى «سُودان» قد ضربه، أهوى إليه فضرب عنقه، ووثب «قُتَيْرَة» على الغلام فقتله، وانتهبوا ما في البيت، وأخرجوا من فيه، ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى، فلمَّا خرجوا إلى الدار، وثب غلام لعثمان آخر على «قُتَيْرَة» فضربه فقتله، ودار القوم فأخذوا ما وجدوا، حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ رجلُ ملاءة «نائلة»، والرجل يدعى «كلثوم» من «تُجِيبَ» فتنحَّت «نائلة» فقال: وَيْحَ أمك من عَجِيزَةٍ، ما أَتَمَّكِ! ويضربه غلام آخر لعثمان فقتله.

---

(١) عند الطبري: (بحديدة).

وعن يحيى بن محمد بن عبد الله بن ثوبان، قال: نظرتْ «نائلة بنت الفَرَافِصَة» امرأة «عثمان بن عفان» في المرآة فأعجبها ثغرها، فأخذت فِهراً فكسرت ثناياها، وقالت: والله! لا يَجْتنيكُنَّ أحد بعد «عثمان»، ثم إن «معاوية بن أبي سفيان» خطبها، فأبت عليه، وأنشأت تقول:

أبـى اللهُ إلَّا أن تـكـونـي غـريـبـةً ... بـيـثـربَ لا تَـلْـقَـيْـنَ أُمّـا ولا أبَـا

عن محمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، قال: خطب «نائلة بنت الفَرَافِصَة» قوم من قريش بعد موت «عثمان» فدعت بمرآة، فنظرت فيها، وكانت من أحسن الناس ثغراً، فأخذتِ فهْراً ـ حجراً ـ فدقت به أسنانها، فسال الدم على صدرها، فبكي جواريها، وقلن لها: ما صنعت بنفسك؟ قالت: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وإني خفت أن يبلى حزني على «عثمان» فيطَّلع مني رجل على ما اطَّلع «عثمان» وذلك ما لا يكون أبداً، وهي التي قالت:

أبـى الله إلَّا أن تـكـونـي غـريـبـةً ... بـيـثـربَ لا تَـلْـقَـيْـن أُمّـا ولا أبَـا

عن أبي الزناد، عن أبيه: خرجت «نائلة» امرأة «عثمان» ليلة دفن «عثمان» ومعها السراج، وقد شقت جيبها وهي تصيح: واعثماناه! واأمير المؤمنيناه! فقال لها «جبير بن مطعم»: أطفئي السراج، فقد ترين من بالباب، فأطفأت السراج، وانتهوا إلى البقيع، فصلى عليه «جبير»، وخلفه «حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى» و«أبو جهم بن حذيفة» و«نيار بن مكرم» و«نائلة» و«أم البنين بنت عيينة بن حصن» امرأتاه، ونزل في حفرته «نيار» و«أبو جهم» و«جبير» وكان «حكيم» والامرأتان يُدَلُّونه على الرجال حتى قُبِرَ، وبني عليه، وغَمُّوا ـ ستروا ـ قبره وتفرَّقوا، وخرجت «نائلة» إلى الشام، فخطبها «معاوية» فنزعت ثَنِيَّتها ولم تجبه.

عن سفيان بن عيينة، عن طعمة بن عمرو، وكان رجلاً قد يبس وشحب من العبادة، فقيل له: ما شأنك؟ قال: إني كنتُ حلفتُ أن ألطم «عثمان» فلما قُتِلَ جئتُ فلطمتُه، فقالت لي امرأته: أَشَلَّ الله يمينك، وصلَّى وجهك النار، فقد شُلَّتَ يميني وأنا أخاف.

عن شداد الأعمى وعن بعض أشياخه من بني راسب، قال: كنت أطوف بالبيت، فإذا رجل أعمى يطوف بالبيت، وهو يقول: اللهم! اغفر لي، وما أراك تفعل، قال: فقلت: أما تتقي الله؟ قال: إن لي شأناً، آليتُ وصاحبٌ لي لئن قُتِلَ «عثمان» لنلطمَنَّ حُرَّ وجهه، فدخلنا عليه، وإذا رأسه في حِجْر امرأته «ابنة الفَرَافِصَة»، فقال لها صاحبي: اكشفي عن وجهه، قالت: لِمَ؟ قال: ألطم حُرَّ وجهه، فقالت: أما ترضى ما قال فيه رسول الله ﷺ؟ قال فيه كذا، وقال فيه كذا.

قال: فاستحى صاحبي فرجع، فقلت لها: اكشفي عن وجهه، فقال: فذهبت تعدو عليَّ، فلطمتُ وجهه، فقالت: مالك؟ يَبَّسَ الله يدك، وأعمى بصرك، ولا غفر لك ذنبك، قال: فوالله! ما خرجت من الباب حتى يبست يدي، وعمي بصري، وما أرى الله يغفر لي ذنبي.

وعن محمد بن سيرين، قال: كنت أطوف بالكعبة فإذا رجل، وهو يقول: اللهم! اغفر لي، وما أظن أن تغفر لي، قلت: يا عبد الله! ما سمعت أحداً يقول ما تقول، قال: كنت أعطيت الله عهداً إن قدرت أن ألطم وجه «عثمان» إلَّا لطمته، فلما قُتِلَ وُضِعَ على سريره في البيت، والناس يجيئون فيصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجدت خلوة، فرفعت الثوب عن وجهه، فلطمت وجهه وسَجَّيْتُه، وقد يبست يميني، قال ابن سيرين: فرأيتها يابسة كأنها عود[1]. وكان «عثمان» قد اشترى بئر رومة لسقيا المسلمين، فعطشوه وقتلوه، عليهم اللعنة من رب العالمين، ورحمه الله تعالى.

(١) أعلام النساء (٢٣٦ ـ ٢٣٩).

٤ ـ أزواج علي بن أبي طالب ﷺ

رابع الخلفاء الراشدين، وأحد الأعمدة الأربعة للدين، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد رجال الشورى الستة ﷺ أجمعين.

قال السيوطي في «تاريخ الخلفاء»: «علي بن أبي طالب» ﷺ، واسم «أبي طالب» عبد مناف بن عبد المطلب ـ واسمه شيبة ـ بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف، واسمه المغيرة بن قصي، واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة «أبو الحسن، وأبو تراب»، كناه بها النبي ﷺ. وأمه «فاطمة بنت أسد بن هشام» وهي أول هاشمية ولَّد هاشمياً، قد أسلمت وهاجرت.

وكان «عبد المطلب» حين حضره الموت، قد أوصى ولده «أبا طالب» بابن أخيه «محمد»[1] بعد فقد والديه، فضمَّه «أبو طالب» إليه، وجعله مع عياله، فاعتنت به امرأته «فاطمة بنت أسد» أيَّما اعتناء، وكانت ربما تؤثره على أولادها لما رأت هي وزوجها من فضله وبركته.

ولما نما عود «محمد» ﷺ واشتد ساعده، ورأى ضيق ذات يد عمه «أبي طالب» وكثرة عياله، مشى إلى عمه «العباس» وكلمه في أخذ بعض عيال «أبي طالب» ومساعدته في تربيتهم، فلما كلَّماه قال لهما: دعا لي «عقيلاً» وخذا من تريدان، فرجع «العباس» بجعفر، وانقلب «محمد» ﷺ بعلي، فكان ربيبه، ثم آخاه بعد حين.

وفاز «علي» بذلك فوزاً عظيماً، فقد أخرج أبو يعلى في مسنده، عن علي ﷺ، قال: بُعِثَ رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وأسلمتُ يوم الثلاثاء، وكان

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٤٩.

عمره حين أسلم عشر سنين، وقيل: تسع، وقيل: ثمان، وقيل: دون ذلك.

قال الحسن بن زيد بن الحسن: ولم يعبد الأوثان قط لصغره، أخرجه ابن سعد.

ولما هاجر إلى المدينة أمره أن يقيم بعده بمكة أياماً حتى يؤدي عنه أمانة الودائع والوصايا التي كانت عند النبي ﷺ، ثم يلحقه بأهله، ففعل ذلك، وشهد مع رسول الله ﷺ بدراً وأحداً وسائر المشاهد، إلا «تَبوكَ» فإن النبي ﷺ استخلفه على المدينة، وله في جميع المشاهد آثار مشهورة، وأعطاه النبي ﷺ اللواء في مواطن كثيرة[١].

والمُعَوَّل عليه أن «علياً» كان أول الغلمان إسلاماً، و«أبا بكر» أول الرجال، و«خديجة» أول النساء، و«زيد بن حارثة» أول الموالي، فهنيئاً لهم ذلك السبق العظيم.

وعشية الهجرة المباركة، فدا النبي ﷺ بنفسه حين رقد في فراشه وتسجَّى ببرده، ليخدع قريشاً التي يحيط فتيانها المسلمون بداره، وهم يريدون قتل «محمد» ﷺ، لكنه انسلَّ من بين أيديهم، وهم لا يبصرون، بعد أن جعل على رأس المحدقين بداره حفنة من تراب لتكون دليلاً على خيبتهم وخذلانهم وهوانهم وضعف قدراتهم أمام قدرة الله العلي القدير.

قال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: كان «علي» أصغر ولد أبي طالب، وكان أصغر من «جعفر» بعشر سنين، وكان «جعفر» أصغر من «عقيل» بعشر سنين، وكان «عقيل» أصغر من «طالب» بعشر سنين.

وقال «أبو عمر»، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ﷺ، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم فَرَّ عنه غيره، وهو الذي غسَّله وأدخله قبره.

وروى «أبو عمر» عن «سلمان الفارسي» أنه قال: أول هذه الأمة وروداً على

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٤٩.

نبيها عليه الصلاة والسلام الحوض، أولها إسلاماً، «علي بن أبي طالب» ﷺ.

وروى «أبو عمر»، عن «سلمان الفارسي»، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أولكم وروداً على الحوض أولكم إسلاماً: علي بن أبي طالب ﷺ**».

وعن ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «**أنت ولي كل مؤمن بعدي**»[١].

وروى «أبو عمر»، عن عفيف الكندي، عن أبيه، عن جده، قال لي: كنت امرءاً تاجراً، فقدمت الحج، فأتيت «العباس بن عبد المطلب» لأبتاع منه بعض التجارة، وكان امرءاً تاجراً، فوالله! إني لعنده بمِنًى إذ خرج رجل من خَبْاءٍ قريب منه، فنظر إلى الشمس، فلما رآها قد مالت قام يصلي، قال: ثم خرجت امرأة من ذلك الخبء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك الخبء، فقام معهما يصلي، فقلت للعباس: مَنْ هذا يا عباس!؟ قال: هذا «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» ابن أخي، قلت: مَنْ هذه المرأة؟ قال: هذه امرأته «خديجة بنت خويلد»، قلت: مَنْ هذا الفتى؟ قال: «علي بن أبي طالب» ابن عمه، قلت: ما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلي، وهو يزعم أنه نبي، ولم يتبعه فيما ادعى إلّا امرأته وابن عمه هذا الغلام، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز «كسرى» و«قيصر».

وكان «عفيف» يقول: إنه قد أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثانياً مع «علي»[٢].

وبعد أن أدى «علي» ﷺ، أماناتِ وودائعَ رسول الله ﷺ إلى أهلها، لحق به إلى المدينة مهاجراً.

ويوم بدر، خرج مع النبي ﷺ فأبلى أحسن البلاء، ونكّل أيّما تنكيل بالأعداء، فقد قتل من المشركين رجالاً عدداً، وكان من أبرزهم: «الوليد بن عتبة بن ربيعة» مبارزة وكان «حمزة بن عبد المطلب» قد قتل «شيبة بن ربيعة»، ثم

---

(١) الاستيعاب (٣/ ١٠٩٠ ـ ١٠٩١).

(٢) الاستيعاب (٣/ ١٠٩٦).

نظر «علي» و«حمزة» إلى «عبيدة بن الحارث» وهو يبارز عدو الله «عتبة بن ربيعة»، فتبادل «عبيدة» و«عتبة» ضربتين فأثبت كل منهما صاحبه، فلما رأى «علي» و«حمزة» ذلك أسرعا إلى «عتبة» فَذَفَّفا عليه ـ أي: أجهزا عليه ـ وقضي يومئذ على كبار زعماء المشركين، من أبرزهم «أبو جهل» عليه اللعنة، وخرج المؤمنون بنصر الله، وباء بسَخَطِه من عاداه.

وكان «علي» ﷺ فارس الهيجاء دون منازع، وفتى الوغى والمعامع، يخشى لقاءه الفرسان، ويدبر عن التصدي له الشجعان، ومن مشاهد شجاعته التي ضنَّ بمثلها الزمان، ما رواه محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن الحسن، عن بعض أهله، عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، قال: خرجنا مع «علي بن أبي طالب» حين بعثه رسول الله ﷺ برايته ـ يعني يوم خيبر ـ، فلما دنا من الحصن، خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود، فطرح ترسه من يده، فتناول «علي» ﷺ باباً كان عند الحصن، فتترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفرٍ سبعة أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه[(١)]. وروى «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»، عن جابر بن عبد الله: حمل «علي» الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، وإنهم جَرُّوه بعد ذلك، فلم يحمله إلا أربعون رجلاً، أخرجه ابن عساكر[(٢)].

إنه تأييدٌ من الله وفضل، مَنَّ به على مَنْ أحب، وكان رسول الله ﷺ قد قال: «لأعطين اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. فتطاول لها «أبو بكر» و«عمر» فدعا «علياً» ﷺ وهو أرمد فتفل في عينيه، وأعطاه اللواء، ففتح الله عليه.

وأما عن علم «علي» ﷺ فقد روى «أبو عمر» في «الاستيعاب» عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا مدينة العلم، وعلي بابها، فمن أرد العلم فَلْيَأْتِهِ من بابِه». وقال ﷺ في أصحابه: «أقضاهم «علي بن أبي طالب»[(٣)].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٣).

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ١٥٠.

(٣) الاستيعاب (٣/ ١١٠٢).

فقد أخرج «ابن ماجه» في سننه، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ، قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبيّ بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**»(١).

وعن سعيد بن المسيَّب ﷺ قال: كان «عمر» يتعوذ بالله من معضلة ليس لها «أبو الحسن»، وقال في المجنونة التي أمر برجمها، وفي التي وضعت لستة أشهر، فأراد «عمر» رجمها، فقال له «علي»: إن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف، الآية: ١٥]، الحديث، وقال له: «إن الله رفع القلم عن المجنون» الحديث، فكان «عمر» يقول: لولا «علي» لهلك «عمر»(٢).

وأخرج «أبو عمر» في «الاستيعاب» عن يحيى بن معين، قال: حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن زر بن حبيش، قال: جلس رجلان يتغذيان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضعا الغداء بين أيديهما مرَّ بهما رجل فسلَّم، فقالا: اجلس للغداء، فجلس، وأكل معهما، واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم، وقال: خذا هذا عوضاً مِمَّا أكلت لكما، ونلته من طعامكما، فتنازعا، وقال صاحب الأرغفة الخمسة: لي خمسة دراهم، ولك ثلاثة، فقال صاحب الثلاثة الأرغفة: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين.

وارتفعا إلى أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» ﷺ، فقصَّا عليه قصتهما، فقال لصاحب الثلاثة الأرغفة: قد عَرَضَ عليك صاحبك ما عَرَضَ، وخبزه أكثر من خبزك، فارض بثلاثة، فقال: لا والله! لا رضيتُ منه إلَّا بمُرِّ الحق، فقال «علي» ﷺ: ليس لك في مُرِّ الحق إلا درهم واحد وله سبعة، فقال الرجل: سبحان الله! يا أمير المؤمنين! وهو يعرض عليَّ ثلاثة فلم أرْضَ، وأشرت عليَّ بأخذها فلم أرْضَ، وتقول لي الآن: إنه لا يجب في مُرِّ الحق إلَّا درهم واحد، فقال له «عليٌّ»: عَرَضَ عليك صاحبُك الثلاثة صلحاً، فقلتَ: لم أرض إلَّا بمُرِّ

(١) سنن ابن ماجه (١/ ٧٤ ـ ٧٥) الحديث (١٥٤/ ٢).
(٢) الاستيعاب (٣/١١٠٣).

الحقِّ، ولا يجب لك بمُرِّ الحقِّ إلّا واحد، فقال له الرجل: فَعَرِّفْني بالوجه في مُرِّ الحق حتى أقبله، فقال «عليٌّ» ﷺ: أليس للثَّمانية الأرغفة أربعة وعشرون ثلثاً أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس، ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً ولا الأقل، فتُجْعَلُون في أكلكم على السواء؟ قال: بلى، قال: فأكلتَ أنتَ ثمانية أثلاث، وإنما لك تسعة أثلاث، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث، وله خمسة عشر ثلثاً، أكل منها ثمانية ويبقى له سبعة، وأكل لك واحداً من تسعة، فلك واحد بواحدك، وله سبعة بسبعته، فقال له الرجل: رضيتُ الآن[١].

وعن أذينة بن سلمة العبدي، قال: أتيتُ «عمر بن الخطاب» ﷺ، فسألته: من أين أعتمر؟ فقال: إيت علياً فاسأله، وذكر الحديث، وفيه، وقال عمر: ما أجد لك إلّا ما قال «علي»[٢].

وسأل «شريح بن هانىء»، «عائشة» أم المؤمنين ﷺ عن المسح على الخُفَّين، فقالت: إيت علياً فاسأله[٣].

وروى معمر، عن وَهْب بن عبد الله، عن أبي الطفيل، قال: شهدت «عليًّا» يخطب، وهو يقول: سلوني، فوالله! لا تسألوني عن شيء إلّا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله! ما من آية إلّا وأنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهار؟ أم في سهل أم في جبل؟[٤].

وقال سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص: قلت لعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة: يا عم! لو كان صَغْوُ الناس إلى «علي!» فقال: يا بن أخي! إن «علياً» ﷺ كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله ﷺ، والفقه في المسألة، والنجدة في الحرب، والجود في الماعون[٥].

(١) الاستيعاب (٣/ ١١٠٥ ـ ١١٠٧).
(٢) الاستيعاب (٣/ ١١٠٥ ـ ١١٠٧).
(٣) الاستيعاب (٣/ ١١٠٥ ـ ١١٠٧).
(٤) الاستيعاب (٣/ ١١٠٥ ـ ١١٠٧).
(٥) الاستيعاب (٣/ ١١٠٥ ـ ١١٠٧).

وقد أخرج «أبو جعفر الطبري» في تاريخه أزواجه وأولاده، فقال:

ـ فأول زوجة تزوجها، «فاطمة» بنت رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده، وكان لها منه من الولد: «الحسن» و«الحسين»، ويذكر أنه كان لها منه ابن آخر يسمى «محسناً» توفي صغيراً، و«زينب الكبرى» و«أم كلثوم الكبرى».

ـ ثم تزوج بعدُ «أمَّ البنين» بنت حزام ـ وهو أبو المَجْل بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب ـ فولد لها منه «العباس»، و«جعفر»، و«عبد الله»، و«عثمان»، قُتِلوا مع «الحسين» عليه السلام بكربلاء، ولا بقية لهم غير «العباس».

ـ وتزوج «ليلى بِنْتُ مسعود بن خالد بن مالك بن ربعي بن سَلْمى بن جَنْدَل بن نَهْشَل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم» فولدت له «عبيد الله» و«أبا بكر»، فزعم «هشام بن محمد» أنهما قُتِلا مع «الحسين» بالطَّفِّ.

وأما «محمد بن عمر» فإنه زعم أن «عبيد الله بن علي» قتله «المختار بن أبي عبيد» بالمذار، وزعم أنه لا بقيَّة لعبيد الله، ولا لأبي بكر ابني «علي» رضي الله عنه.

ـ وتزوج «أسماء بنت عميس» الخثعمية، فولدت له ـ فيما حُدِّثتُ عن هشام بن محمد ـ «يحيى» و«محمداً الأصغر»، وقال: لا عقب لهما.

وأما الواقدي، فإنه قال فيما حدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرنا الواقدي أن «أسماء» ولدت لعلي: «يحيى» و«عَوْناً» ابني «عليٍّ».

ويقول بعضهم: «محمد الأصغر» لأم ولد، وكذلك قال الواقدي في ذلك؛ وقال: قتل «محمد الأصغر» مع «الحسين».

ـ وله من «الصهباء» وهي «أم حبيب بنت ربيعة بن بُجَيْر بن العبد بن علقمة بن الحارث بن عتبة بن سعد بن زهير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن تَغْلب بن وائل، وهي أم ولد من السبي الذين أصابهم «خالد بن الوليد» حين أغار على عين التمر، على بني تغلب بها «عمر بن علي»، و«رقية بِنْتُ علي».

فعُمِّرَ «عمر بن علي» حتى بلغ خمساً وثمانين سنة، فحاز نصف ميراث

«عليّ» ﷺ ومات بينْبُعَ.

- وتزوج «أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس بن عبد مناف»، وأمها «زينب» بنت رسول الله ﷺ، فولدت له «محمداً الأوسط».

- وله «محمد بن علي الأكبر»، الذي يقال له: «محمد ابن الحنفية» أمه «خَوْلَةُ بْنَةُ جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة بن لُجَيْم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، توفي بالطائف، فصلى عليه «ابن عباس».

- وتزوج «أم سعيد بنت عروة بن مسعود بن معتّب بن مالك الثقفي، فولدت له «أم الحسن» و«رملة الكبرى».

وكان له بنات من أمهات شَتَّى، لم يُسَمَّ لنا أسماء أمهاتهن، منهن: «أم هانىء» و«ميمونة» و«زينب الصغرى» و«رملة الصغرى» و«أم كلثوم الصغرى» و«فاطمة» و«أمامة» و«خديجة» و«أم الكرام» و«أم سلمة» و«أم جعفر» و«جمانة» و«نفيسة» بنات «عليّ» ﷺ؛ أمهاتُهُنَّ أمهات أولاد شَتَّى.

- وتزوج «محياة» بْنَةُ امرىء القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عُلَيْم» مِنْ كلب، فولدت له جارية، هلكت وهي صغيرة.

قال الواقدي: كانت تخرج إلى المسجد، وهي جارية، فيقال لها: مَنْ أخوالك؟ فتقول: وَهْ، وَهْ، تعني كلباً.

فجميع ولد «عليّ» لصلبه أربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة امرأة.

حدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، عن الواقدي، قال: كان النَّسْلُ من ولد «عليّ» لخمسة: «الحسن» و«الحسين» و«محمد بن الحنفية» و«العباس ابن الكلابيَّة» و«عمر ابن التغلبيَّة»[1].

أما أول أزواجه فكانت «فاطمة الزهراء» سيدة نساء العالمين، بنت محمد بن عبد الله خاتم المرسلين، وإمام المتقين، وأمها «خديجة بنت خويلد» سيدة

---

(١) تاريخ الطبري (٥/١٥٣ ـ ١٥٥).

النساء، التي أقرأها التحية رب السماء، ولم تَحْظَ بمثلها واحدة من بنات «حواء».

وقد أخرج «المحب الطبري» في «ذخائر العقبى»، عن أنس ﷺ، قال: جاء «أبو بكر»، ثم «عمر» ﷺ يخطبان «فاطمة» ﷺ إلى رسول الله ﷺ فسكت، ولم يرجع إليهما شيئاً، فانطلقا إلى «علي» يأمرانه بطلب ذلك، قال: فنبَّهاني لأمر فقمت أجر ردائي، حتى أتيت النبي ﷺ، فقلت: تزوجني «فاطمة؟» قال: «وعندك شيء؟» قلت: فرسي وبَدَني ـ درعي ـ، قال: «أما فرسك فلا بد لك منها، وأما بَدَنُكَ فبعها» فبعتها بأربعمائة وثمانين، فجئته بها، فوضعها في حجْره، فقبض منها، فقال: «أيْ بلال! ابتغ لنا بها طيباً»، وأمرهم أن يجهِّزوها، فجعل لها سرير مشرط، ووسادة من أدم حشوها ليف، وقال لعلي: «إذا أتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك»، فجاءت مع «أم أيمن» حتى قعدت في جانب البيت، وأنا في جانب وجاء رسول الله ﷺ، فقال: «ههُنا أخي؟» قالت «أم أيمن»: أخوك وقد زوجته ابنتك؟ قال: «نعم»، ودخل رسول الله ﷺ البيت، فقال لفاطمة: «ائتيني بماء» فقامت إلى قَعْب ـ إناء ـ في البيت، فأتت فيه بماء، فأخذه النبي ﷺ، ومَجَّ فيه، ثم قال لها: «تقدَّمي»، فتقدَّمت، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها، وقال: «اللهم! إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»، ثم قال: «أدبري» فأدبرت، فصبَّ بين كتفيها، وقال: «اللهم! إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، ثم قال رسول الله ﷺ: «ائتوني بماء».

قال «علي»: فعلمت الذي يريد، فقمت فملأت القعب ماء، وأتيته به، وأخذه فمجَّ فيه، وصنع بعلي كما صنع بفاطمة، ودعا له بما دعا به لها، ثم قال: «ادخل بأهلك باسم الله والبركة»، أخرجه أبو حاتم وأحمد في المناقب.

وعن أبي يزيد ﷺ قال: فأرسل النبي ﷺ إلى «علي»: «لا تقرب امرأتك حتى آتيك» فجاء النبي ﷺ ودعا بماء، وقال فيه ما شاء الله أن يقول، ثم نضح منه على وجهه، ثم دعا «فاطمة» فقامت إليه تعثر في ثوبها ـ وربما قال: في مرطها ـ من الحياء، فنضح عليها أيضاً، وقال لها: «إني لم آل أن أنكحك أحب أهلي إليّ»، فرأى رسول الله ﷺ سواداً وراء الباب، فقال: «من هذا؟» قالت: «أسماء»، قال: «أسماء بنت عميس؟» قالت: نعم، أبغي بنتَ رسول الله ﷺ،

قال: «جئتِ كرامة لرسول الله ﷺ؟» قالت: نعم، فدعا لي دعاءً إنه لأوثق عملي عندي، قال: ثم خرج، ثم قال لعلي: «دونك أهلك»، ثم ولَّى في حُجَرِه، فما زال يدعو لهما حتى دخل في حجره[١].

وعن أنس ﷺ قال: خطب «أبو بكر» ﷺ إلى النبي ﷺ ابنته «فاطمة» فقال النبي ﷺ: «يا أبا بكر! لم ينزل القضاء بعد»، ثم خطبها «عمر» ﷺ، مع عدة من قريش كلهم يقول له مثل قوله لأبي بكر، فقيل لعلي: لو خطبت إلى النبي ﷺ لخليق أن يزوجكها، قال: وكيف؟ وقد خطبها أشراف قريش، فلم يزوجها. قال: فخطبتُها فقال النبي ﷺ: «قد أمرني ربي ﷻ بذلك».

قال أنس: ثم دعاني النبي ﷺ بعد أيام، فقال لي: يا أنس! اخرج، ادعُ لي «أبا بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» و«عثمان بن عفان» و«عبد الرحمٰن بن عوف» و«سعد بن أبي وقاص» و«طلحة» و«الزبير» وبعدة من الأنصار.

قال: فدعوتهم، فلما اجتمعوا عنده كلهم، وأخذوا مجالسهم، وكان «عليٌّ» غائباً في حاجة للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه، المرهوب من عذابه وسطوته، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، ومَيَّزهم بأحكامه، وأعزَّهم بدينه، وأكرمهم بنبيه «محمد» ﷺ، إن الله تبارك اسمه، وتعالت عظمته؛ جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، أوشج به الأرحام، وألزم الأنام، فقال عَزَّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾ [الفرقان، الآية: ٥٤]. فأمر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، ثم إن الله تعالى أمرني أن أُزوِّج «فاطمة بنت خديجة» من «علي بن أبي طالب» فاشهدوا أني قد زوَّجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضي بذلك «علي بن أبي طالب»، ثم دعا بطبق من بُسْرٍ، فوضعت بين أيدينا، ثم قال: «انْتَهِبُوا» فانتهبنا.

فبينا نحن نتهب إذ دخل «علي» ﷺ على النبي ﷺ، فتبسَّم النبي ﷺ في

---

(١) ذخائر العقبى، ص: ٢٧ ـ ٢٨.

وجهه، ثم قال: «**إن الله أمرني أن أزوجك «فاطمة» على أربعمائة مثقال فضة، إن رضيت بذاك**»، فقال: قد رضيتُ بذلك، يا رسول الله!

قال أنس: فقال النبي ﷺ: «**جمع الله شملكما، وأسعد جدكما، وبارك عليكما، وأخرج منكما كثيراً طيباً**».

قال أنس: فوالله! لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب، أخرجه أبو الخير القزويني الحاكمي[١]. وأخرج «المحب الطبري» أيضاً، عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني ملك، فقال: يا محمد! إن الله تعالى يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إني قد زوَّجت «فاطمة» ابنتك من «علي بن أبي طالب» في الملإ الأعلى فزوِّجْها منه في الأرض**»، أخرجه الإمام علي بن موسى الرضا في مسنده[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الليلة التي زُفَّت فيها «فاطمة» إلى «علي» عليه السلام، كان النبي ﷺ أمامها، و«جبريل» عن يمينها، و«ميكائيل» عن يسارها، وسبعون ألف ملك من خلفها، يسبحون الله ويقدِّسونه حتى طلع الفجر، أخرجه الحافظ أبو القاسم الدمشقي[٣].

وروى المحب، «عن أسماء بنت عميس» قالت: لقد جهزت «فاطمة» بنت رسول الله ﷺ إلى «علي بن أبي طالب»، وما كان حشو فرشهما ووسائدهما إلا ليفاً، خرجه الدولابي.

وعن علي قال: جهَّز رسول الله ﷺ «فاطمة» في خميلة وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف، خرجه أحمد في المناقب[٤].

وعن علي رضي الله عنه قال: لقد تزوجت «فاطمة» وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح ـ النواضح التي يستقى عليها ـ بالنهار، وما لي ولها خادم غيرها، خرجه في الصفوة[٥].

---

(١) ذخائر العقبى، ص: ٢٩ ـ ٣٢.
(٢) ذخائر العقبى، ص: ٢٩ ـ ٣٢.
(٣) ذخائر العقبى، ص: ٣٢.
(٤) ذخائر العقبى، ص: ٣٤ ـ ٣٥.
(٥) ذخائر العقبى، ص: ٣٤ ـ ٣٥.

وقال «محمد بن سعد» في طبقاته: أخبرنا محمد بن عمر، حدثني: إبراهيم بن شعيب، عن يحيى بن شبل، عن أبي جعفر قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، نزل على «أبي أيوب» سنة أو نحوها، فلما تزوج «علي» «فاطمة»، قال لعلي: «اطلب منزلاً»، فطلب «علي» منزلاً، فأصابه مستأخراً عن النبي ﷺ قليلاً، فبنى بها فيه، فجاء النبي ﷺ إليها، فقال: «إني أريد أن أُحوِّلك إليَّ» فقالت لرسول الله ﷺ: فَكَلِّمْ «حارثة بن النعمان» أن يتحوَّل عني، فقال رسول الله ﷺ: «قد تحوَّل «حارثة» عنَّا حتى قد استحييت منه»، فبلغ ذلك «حارثة» فتحوَّل، وجاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنه قد بلغني أنك تُحَوِّل «فاطمة» إليك، وهذه منازلي، وهي أسْقَبُ - أَقْرَبُ - بيوت بني النجار بك، وإنما أنا ومالي لله ولرسوله ﷺ، والله يا رسول الله! المال الذي تأخذ مني أحب إليَّ من الذي تدع، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، بارك الله عليك»، فحوَّلها رسول الله ﷺ إلى بيت «حارثة»(١).

وأخرج «المحب» عن بريدة، قال: قال نفر من الأنصار لعلي: عليك «فاطمة» فأتى رسول الله ﷺ فقال: «ما حاجة علي؟» قال: يا رسول الله! ذكرت «فاطمة» بنت رسول الله ﷺ، فقال: «مرحباً وأهلاً» لم يزد عليها، فخرج على أولئك الرهط من الأنصار كانوا ينتظرونه، قالوا: ما وراءك؟ قال: لا أدري إلَّا أنه قال لي: «مرحباً وأهلاً»، قالوا: يكفيك من رسول الله ﷺ أحدهما، أعطاك الرحب، وأعطاك الأهل، فلما كان بعدما زَوَّجه، قالوا: يا علي! إنه لا بد للعرس من وليمة، فقال «سعد»: عندي كبش، وجمع له رهط من الأنصار آصعاً من ذرة، فلما كان ليلة البناء، قال النبي ﷺ: «لا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تلقاني»، فدعا رسول الله ﷺ بماء، فتوضأ منه، ثم أفرغه على «عليٍّ» وقال: «اللهم! بارك فيهما، وبارك لهما في شملهما»، قال أبو الحسين: الشمل: الجِمَاعُ، خرجه النسائي والدولابي(٢).

وعن ثوبان، قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر آخر عهده إتيان «فاطمة»، وأول من يدخل عليه إذا قدم «فاطمة» ﵂، خرجه أحمد.

---

(١) الطبقات (٨/ ٢٥٣ - ٢٥٤).
(٢) ذخائر العقبى، ص: ٣٣.

وعن أبي ثعلبة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من غزو أو سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم أتى «فاطمة»، ثم أتى أزواجه، خرجه أبو عمر[(١)].

ورب سائل يسأل: ألم يكن من خلاف يظهر بين هذين الزوجين الكريمين، «فاطمة» و«علي؟» بلى، ولكنه خلاف سريع الذوبان والانقشاع كسحابة الصيف، فقد ذكر «ابن سعد» في طبقاته: أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا جرير بن حازم، حدثنا عمرو بن سعيد، قال: كان في «عليّ» على «فاطمة» شدة، فقالت: والله! لأشكونَّك إلى رسول الله ﷺ! فانطلقت، وانطلق عليٌّ بأثرها، فقام حيث يسمع كلامهما، فشكت إلى رسول الله ﷺ غِلَظَ عليٍّ وشدته عليها، فقال: يا بنية! اسمعي واستمعي واعقلي، إنه لا إمرة بامرأة لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت، قال «عليٌّ»: فكففت عما كنت أصنع، وقلت: والله! لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً[(٢)].

ولكن ليس شيء أكره إزعاجاً للمرأة من أن يفكر زوجها، مجرد تفكير أن يخطب عليها أو يتزوج، وهذا ما أثار حفيظة «فاطمة» ﷺ حين بلغها أن «علياً» قد خطب عليها، فانطلقت إلى أبيها شاكية. وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، وقتيبة بن سعيد، كلاهما عن الليث بن سعد، قال ابن يونس: حدثنا ليث، حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة القرشي التيمي، أن المِسْوَرَ بن مَخْرَمَةَ حدثه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر، وهو يقول: **«إن بني هشام بن المُغِيرَة استأذنوا أن يُنْكِحوا ابنتَهم «عليَّ بن أبي طالب»، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلَّا أن يحب «ابن أبي طالب» أن يطلق ابنتي ويَنْكِح ابنتهم، فإنما ابنتي بضْعَةٌ مني، يَرِيبُني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»**[(٣)].

وروى مسلم أيضاً: حدثني أحمد بن حنبل «أخبرنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي عن الوليد بن كثير، حدثني محمد بن عمرو بن حلحلة الدُّؤَلِيُّ؛ أن ابن

---

(١) ذخائر العقبى، ص: ٣٧.
(٢) الطبقات (٨/ ٢٥٥).
(٣) صحيح مسلم (٩٣/ ٢٤٤٩).

شهاب حدثه؛ أن علي بن الحسين حدثه، أنهم حين قدموا المدينة، من عند «يزيدَ بنِ معاوية» مقتَلَ «الحسين بن علي» ﷺ، لقيه «المِسْوَرُ بن مَخْرَمة» فقال له: هل لك إليَّ من حاجة تأمرني بها؟ قال: فقلت له: لا، قال له: هل أنت مُعْطِيَّ سيف رسول الله ﷺ؟ فإني أخاف أن يغلبك القوم عليه، وأيم الله! لئن أعطيته لا يُخْلَصُ إليه أبداً حتى تَبْلُغَ نفسي.

إن «علي بن أبي طالب» خطب بنت «أبي جهل» على «فاطمة»، فسمعتُ رسول الله ﷺ، وهو يخطبُ الناس في ذلك، على منبره هذا، وأنا يومئذٍ محتلم، فقال: «**إن فاطمة مني، وإني أتخوَّف أن تُفْتَنَ في دينها**» ـ أي: بسبب الغيرة الصادرة عن البشر ـ قال: ثم ذكر صهراً له من بني عبد شمس، فأثنى عليه في مصاهرته إياه، فأحسن، قال: «**حدثني فَصَدَقَني، ووعدني فأوفى لي، وإني لستُ أُحَرِّمُ حلالاً ولا أُحِلُّ حراماً، ولكن، والله! لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله مكاناً واحداً أبداً**»[١].

وروى مسلم أيضاً: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمٰن الدارمي، أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيبٌ، عن الزهري، أخبرني علي بن حسين؛ أن المِسْوَرَ بن مَخْرَمَة أخبره؛ أن «علي بن أبي طالب» خطب بنت «أبي جهل»، وعنده «فاطمة بنت رسول الله ﷺ».

فلما سمعت بذلك «فاطمة» أتتِ النبي ﷺ فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا «عليٌّ» ناكحاً ابنة «أبي جهل».

قال المِسْوَرُ: فقام النبي ﷺ فسمعتُه حين تشهد، ثم قال: «**أما بعد، فإني أنكحت «أبا العاص بن الربيع»، فحدثني فصدقني، وإن «فاطمة بنت محمد» مُضْغَةٌ مني، وأنما أكره أن يفتنوها، وإنها، والله! لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحدٍ أبداً**»، قال: فترك «عليٌّ» الخطبة[٢].

وروى «ابن سعد» في طبقاته: أخبرنا عبيد بن موسى، أخبرنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: كان بين «علي» و«فاطمة» كلام، فدخل

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٤٩/٩٥).
(٢) صحيح مسلم (٢٤٤٩/٩٦).

رسول الله ﷺ، فألقى له مثالاً، فاضطجع عليه، فجاءت «فاطمة» فاضطجعت من جانب، وجاء «عليٌّ» فاضطجع من جانب، فأخذ رسول الله ﷺ بيد «عليٍّ» فوضعها على سرته، وأخذ بيد «فاطمة» فوضعها على سرته، ولم يزل حتى أصلح بينهما، ثم خرج، قال: فقيل له: دخلت وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك، فقال: «وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إليَّ»؟[(١)].

وروى المحب الطبري، عن علي: قلت: يا رسول الله! أنا أحب إليك أم هي؟ قال: «هي أحبُّ إليَّ منك، وأنت أعزُّ عليَّ منها»، أخرجه يحيى بن معين[(٢)].

وروى «المحب» أيضاً، عن محمد بن علي بن حسين، قال: دخلت «أم أيمن» على «فاطمة» فرأت في وجهها شيئاً فقالت: ما لك؟ فلم تذكرها شيئاً، فقالت: والله! ما كان أبوك يكتمني شيئاً، قالت: جارية أعطيها «علي»، قال: فخرجت «أم أيمن» رافعة صوتها، فقالت: أما رسول الله ﷺ ممن يحفظ في أهله، فقال لها «عليٌّ»: ما شأنها؟ قالت: تقول كذا، قال: فالجارية لها، خرجه أبو روق الهزاني[(٣)].

وكانت «فاطمة» شديدة البر بأبيها، وقد روى «المحب الطبري» في ذخائره، عن «علي» ﷺ، قال: كنا مع النبي ﷺ في حفر الخندق إذ جاءته «فاطمة» بِكِسْرةٍ من خبز فرفعتها إليه، فقال: «ما هذه؟ يا فاطمة»! قالت: من قرص اختبزته لابني جئتك منه بهذه الكِسْرة، فقال: «يا بنية! أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث»، خرجه الإمام علي بن موسى الرضا[(٤)].

وروى الحافظ ابن كثير في تفسيره، عن أبي يعلى، عن جابر ﷺ: أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شَقَّ ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه، فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فأتى «فاطمة»، فقال: «يا بنية! هل عندك شيء آكله، فإني جائع»؟ قالت: لا والله! بأبي أنت وأمي.

فلما خرج من عندها، بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته

---

(١) الطبقات (٧/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).
(٢) ذخائر العقبى، ص: ٢٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص: ٣٩.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص: ٤٧.

منها، فوضعته في جفنة لها، وقالت: والله! لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومَنْ عندي، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعةِ طعام.

فبعثت «حَسَناً» أو «حسيناً» إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها، فقالت: بأبي أنت وأمي، قد أتى الله بشيء فخبأته لكَ. قال: «هلمي يا بنية!» قالت: فأتيته بالجفنة، فكشفتُ عنها، فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرتُ إليها بُهِتُّ، وعرفتُ أنها بركة من الله، فحمِدتُ الله، وصليتُ على نبيه، وقدمته إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه حَمِدَ الله، وقال: «مِنْ أين لك هذا يا بنية!؟» قالت: يا أبت! ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ٣٧] .

فحمِد اللهَ وقال: «الحمد لله الذي جعلك يا بنية! شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل ـ أي مريم ـ فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً، وسئلت عنه، قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فبعث رسول الله ﷺ إلى «عليٍّ»، ثم أكل رسول الله ﷺ، وأكل «عليٌّ» و«فاطمة» و«حسن» و«حسين»، وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعاً، قالت: وبقيت الجفنة كما هي، قالت: فأوسعتُ ببقيتها على جميع الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً[1].

هذا وإن مناقب «الزهراء» تعز على الحصر والإحصاء، وشاركت منذ صغرها أباها في العنت والعناء، الذي يلقاه من أشقياء قريش والسفهاء.

وقد مرّت ذات مرة بكبيرهم «أبي جهل» عليه لعنة رب السماء، فرمقها بنظرة حاقدة خبيثة، ثم دنا منها ولطمَها لطمة قوية كادت تسقطها على الأرض، ولم تستطع أن تفعل شيئاً، فإن «أبا جهل» ضخم الجثة كأنه الثور، أما الزهراء، فتشبه الظبية في حسنها ولطفها ووداعتها إلى حدٍ بعيد، ومضت في سبيلها، ودموعها تنهمر على خديها من الألم، ولم تلبث أن رأت «أبا سفيان» في طريقها، فأخبرته بما فعل السفيه، فأخذته الحمية، ولم تطب نفسه بصنيع «أبي جهل» مع طفلة بريئة كزهرة الربيع، فقال لها: اتبعيني، حتى إذا قاما على رأس «أبي جهل» وهو في مجلسه مع بعض سفهاء قريش، قال لها: الطميه كما لطمك قبّحه الله.

---

(١) تفسير ابن كثير، ص: ٣١٦ ـ ٣١٧.

واستجمعت الصبية قوتها، وقبضت كفَّها، ثم ردَّت للمعتدي لطمته، وشفت صدرها، ثم انطلقت إلى أبيها تاركة عدو الله وراءها بين أصحابه، وقد مرَّغت كرامته في الوحل، ولما قَصَّتْ على أبيها ما جرى لها قال: «اللهم! لا تنسها لأبي سفيان»، ولم ينسها الرحيم الرحمٰن، فقد هدى «أبا سفيان»، وأدخله واحة الإيمان، إنها إحدى دعوات الحبيب، ومن المحال أن تخيب.

وكان آلم شيء شهدته الزهراء، حدثان جليلان، ومصابان عظيمان، الأول رحيل أمها الطاهرة «خديجة» في وقت هي أشد ما تكون من الحاجة إليها، مما دعاها لتحل محلها في خدمة أبيها والسهر على راحته ورعايته وهي لا تزال في عمر الورود، والثاني يوم التحق قرة عينها وعيون المسلمين بالرفيق الأعلى، ولكنه ﷺ لم يغمض عينيه لآخر مرة إلا على ضحكة رسمتها على شفتيها، ثم فارق الحياة، فكيف كان ذلك؟

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه، فقال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وحدثنا عبد الله بن نمير، عن زكرياء، وحدثنا ابن نمير، حدثنا أبي، حدثنا زكرياء عن فراس، عن عامر، عن مسروق، عن عائشة، قالت: اجتمع نساء النبي ﷺ فلم يغادر منهن امرأة، فجاءت «فاطمة» تمشي كأن مشيتَها مشيةُ رسول الله ﷺ، فقال: «مرحباً بابنتي» فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم إنه أسر إليها حديثاً فبكت «فاطمة»، ثم إنه سارَّها فضحكت أيضاً، فقلت لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما كنتُ لأُفشِيَ سرَّ رسول الله ﷺ، فقلتُ: ما رأيت كاليوم فَرَحاً أقربَ من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصَّكِ رسولُ الله ﷺ بحديثه دوننا، ثم تبكين؟ وسألتُها عما قال، فقالت: ما كنتُ لأُفشِيَ سرَّ رسول الله ﷺ، حتى إذا قُبِضَ سألتُها، فقالت: إنه كان حَدَّثني «أن «جبريل» كان يعارضه بالقرآن كلَّ عام مرة، وإنه عارضه به في العام مرتين، ولا أراني إلَّا قد حضر أجلي، وإنك أول أهلي لحوقاً بي، ونعمَ السلفُ أنا لك»، فبكيت لذلك، ثم إنه سارَّني، فقال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟» فَضَحِكْتُ لذلك[١].

---

(١) صحيح مسلم (٩٩/ ٢٤٥٠).

وكانت «الزهراء» ﵂ شديدة الثقة بالله، عظيمة الاتكال عليه، لا تعلق قلبها بغيره، فكان يرزقها بغير حساب، ويهدي ذهنها إلى الصواب.

وقد روى «المحب الطبري» في ذخائره، عن أبي سعيد، قال: قال «علي» ﵁ ذات يوم، فقال: يا فاطمة! هل عندك من شيء تُغَذِّينيه؟ قالت: لا والذي أكرم أبي بالنبوة! ما أصبح عندي شيء أغديكه، ولا أكلنا بعدك شيئاً، ولا كان لنا شيء بعدك منذ يومين إلا شيء أوثرك به على بطني وعلى ابنيَّ هذين.

قال: يا فاطمة! ألا أعلمتيني حتى أبغيكم شيئاً، قالت: إني أستحي من الله أن أكلفكَ ما لا تقدر عليه، فخرج من عندها، واثقاً بالله، حسن الظن به، فاستقرض ديناراً، فبينا الدينار في يده، أراد أن يبتاع لهم ما يصلح لهم، إذ عرض له «المقداد» في يوم شديد الحر قد لوحته الشمس من فوقه، وآذته من تحته، فلما رآه أنكره، فقال:

يا مقداد! ما أزعجك من رحلك هذه الساعة؟ قال: يا أبا حسن! خَلِّ سبيلي ولا تسألني عما ورائي، وقال: يابن أخي! إنه لا يحل لك أن تكتمني حالك، قال: أما إذا أبيتَ، فوالذي أكرم «محمداً» بالنبوة! ما أزعجني من رحلي إلَّا الجَهْد، ولقد تركتُ أهلي يبكون جوعاً، فلما سمعتُ بكاء العيال لم تحملني الأرض، فخرجتُ مَغْموماً راكباً رأسي، فهذه حالتي وقصتي، فهملت عينا «عليٍّ» بالبكاء حتى بلَّت دموعه لحيته، ثم قال: أحلف بالذي حلفت به، ما أزعجني غير الذي أزعجك، ولقد اقْتَرَضْت ديناراً، فهاكَ، وأوثرك به على نفسي، فدفع له الدينار ورجع، حتى دخل على النبي ﷺ فصلى الظهر والعصر والمغرب، فلما قضى النبي ﷺ صلاة المغرب، مَرَّ بعلي في الصف الأول، فغمزه برجله، فسار خلف النبي ﷺ حتى لحقه عند باب المسجد، ثم قال: **«يا أبا الحسن! هل عندك شيء تُعَشِّينا به؟»** فأطرق «علي» لا يحير جواباً حياء من النبي ﷺ. قد عرف الحال التي خرج عليها، فقال له النبي ﷺ: **«إما أن تقول: لا، فننصرف عنك، أو نعم فنجيء معك»** فقال له حباً وتكريماً: اذهب بنا.

وكان الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيه ﷺ أن تَعَشَّ عندهم، فأخذ النبي ﷺ بيده، فانطلقا حتى دخلا على «فاطمة» في مُصَلَّاها، وخلفها جفنة تفور

دخاناً، فلما سمعت كلام النبي ﷺ خرجت من المُصَلَّى، فسلَّمت عليه، وكانت أعز الناس عليه، فرد عليها السلام، ومسح بيده على رأسها، وقال: **«كيف أمسيتِ؟ عَشِّنا غفر الله لك، وقد فعل»**.

فأخذت الجفنة، فوضعتها بين يديه، فلما نظر «عليٌّ» ذلك، وشمَّ ريحه، رمى «فاطمة» ببصره رمياً شحيحاً، فقالت: ما أشحَّ نظرك وأشدَّه، سبحان الله! هل أذنبتُ فيما بيني وبينك ما أستوجب به السخطة؟ قال: وأي ذنب أعظم من ذنب أصبتيه اليوم؟ أليس عهدي بك اليوم وأنت تحلفين بالله مجتهدة، ما طعمت طعاماً يومين؟ فنظرت إلى السماء، فقالت: إلٰهي يعلم ما في سمائه، ويعلم ما في أرضه، إني لم أقل إلّا حقًّا، قال: فأنى لك هذا الذي لم أر مثله، ولم أشم مثل رائحته، ولم آكل أطيب منه؟

فوضع النبي ﷺ كفه المباركة بين كتفي «عليٍّ» ثم هزَّها، وقال: **«يا علي! هذا ثواب الدينار، وهذا جزاء الدينار، هذا من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»**، ثم استعبر النبي ﷺ باكياً، وقال: **«الحمد لله كما لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريكَ في المجرى الذي أجرى فيه «زكريا» ويجريكِ يا فاطمة! في المجرى الذي أجرى فيه «مريم»** ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عِمرَان، الآية: ٣٧] . خرجه الحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال[١].

وقد أخرج «أبو نعيم» في «حلية الأولياء»: حدثنا عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطي ثنا يعقوب بن إبراهيم بن عباد بن العوام، ثنا عمرو بن عون، ثنا هشيم، ثنا يونس، عن الحسن، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما خير للنساء؟»** فلم نَدْرِ ما نقول، فسار «علي» إلى «فاطمة» فأخبرها بذلك، فقالت: فهلا قلت له: خير لهن ألّا يرين الرجال ولا يرونهن!.

فرجع، فأخبره بذلك، فقال له: **«من علَّمك هذا؟»** قال: فَاطِمَة، قال: **«إنها بَضْعةٌ مني»**[٢]. أجل! وبَضْعَةُ النبي ﷺ لا يفوتها مثل هذا الجواب.

---

(١) ذخائر العقبى، ص: ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٤٥).

وبعد ستة أشهر من رحيل الحبيب الأعظم ﷺ لحقت «الزهراء» أم أبيها كما كان يكنيها، بسيد البشر، فكانت أول أهله لحوقاً به كما أخبرها الصادق الأمين، عليها وعليه رحمات رب العالمين، إلى يوم الدين.

ولم يتزوج «عليٌّ» ﷺ، على «فاطمة» في حياتها حتى ماتت، وكان قد خطب ابنة «أبي جهل» إلَّا أن رسول الله ﷺ لم يأذن لعلي بهذه الزيجة، إلا إذا أراد أن يطلق ابنته «فاطمة» ﵄، فترك «علي» الخطبة كما أسلفنا، أما زواجه من «أسماء بنت عميس» ﵄، وهي التي شهدت زفافه من ابنة رسول الله ﷺ «فاطمة» ﵄ وحظيت ليلتئذ من رسول الله ﷺ بدعاء كان أوثق عملها عندها، وهي التي شاركت «علي بن أبي طالب» في غسل «فاطمة» ﵄ ـ عشية وفاتها، ثم دارت الأيام فتزوجها.

كانت «أسماء» قد تزوجت «جعفر بن أبي طالب» وقد أسلما مبكرين، وحين رأى رسول الله ﷺ ما يلقاه أصحابه من تعذيب قريش لهم وأذاها، أذن لهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة ليعبدوا الله في أمان على أرض ملكها «النجاشي» الذي لا يظلم عنده أحد، وخرج «جعفر» و«أسماء» مع المهاجرين، حتى إذا نزلوا على أرض الحبشة، أكرمهم ملكها «النجاشي» غاية الإكرام، فأقاموا عنده بخير دار، مع خير جار.

وعلى أرض الحبشة ولدت «أسماء» لجعفر، ثلاثة ذكور هم: «عون» و«محمد» و«عبد الله»، ومكثوا في الحبشة ما زاد على عشر سنوات أمضوها في سعادة وهناء، ولما أذن الله لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، أجمع المهاجرون في الحبشة، على اللحاق برسول الله ﷺ، فلما بلغوا المدينة أُخبِروا بخروج الرسول ﷺ إلى خيبر لفتحها، وحين وصلوا خيبر كان الله قد فَتحها على رسول الله ﷺ وتقدم «جعفر» للسلام على رسول الله ﷺ فالتزمه وقبل بين عينيه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أَسَرُّ، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟» وأسهم لهم من الغنائم، ثم قفلوا عائدين إلى المدينة ـ حرسها الله تعالى ـ.

وأقام رسول الله ﷺ في المدينة شهري ربيع، وفي جمادى الأولى من سنة ثمان، بعث جيش الأمراء لقتال الروم في مؤتة.

وجعل رسول الله ﷺ على الجيش ثلاثة أمراء خلافاً لكل مرة يبعث فيها

بعثاً، وقال: «إن أصيب «زيد بن حارثة» فـ «جعفر بن أبي طالب» على الناس، فإن أصيب «جعفر» فـ«عبد الله بن رواحة» على الناس». فاقتحم «زيد» براية رسول الله ﷺ من فوق العدو فقتل، فأخذ الراية «جعفر» وعقر فرسه واقتحم فبتروا يديه، ثم قتل، فتقدم «ابن رواحة» فقاتل حتى قتل، وفي المدينة نعاهم رسول الله ﷺ للمسلمين واستغفر لهم، رحمهم الله تعالى.

وركنت «أسماء» إلى عدتها، فلما حلَّت خطبها شيخ المسلمين «أبو بكر الصديق» فزوجه إياها رسول الله ﷺ يوم حنين، فولدت له ابنه «محمد بن أبي بكر». وكانت كثيرة الصيام، فعزم عليها «أبو بكر» ﷺ أن تغسّله حال وفاته وأن تفطر إذا كانت صائمة ليكون أقوى لها، فلما توفي ذكرت يمينه من آخر النهار فدعت بماء فشربت وقالت: والله! لا أُتبعه اليوم حنثاً، وأعانها على غسله، «عبد الرحمٰن بن أبي بكر»، وهذا الثبت، ولا يصح قول من قال أعانها ابنها من أبي بكر «محمد» لأنه كان في الثالثة من عمره يوم وفاة أبيه[1].

واعتدَّت «أسماء» حتى إذا خرجت من عدتها خطبها فارس الإسلام «علي بن أبي طالب» وذكر ابن سعد في طبقاته أنها ولدت له «يحيى» و«غوثاً»، والله أعلم.

وأصبح «علي بن أبي طالب» مسؤولاً عنها وعن بنيها الثلاثة من «جعفر» أخيه، وابنها من «الصديق». وكانت «أسماء» ذات ذكاء فذ، وذهن وقَّاد، وذات يوم سمع زوجُها «عليٌّ» ﷺ ابنها «محمد بن جعفر» وأخاه «محمد بن أبي بكر»، يقول كل منهما للآخر: أنا أكرم منك وأبي خير من أبيك، فقال لها «عليٌّ»: اقضي بينهما يا أسماء! قالت: ما رأيت شاباً من العرب خيراً من «جعفر»، ولا رأيت كهلاً خيراً من «أبي بكر»، فقال «عليٌّ»: ما تركتِ لنا شيئاً، ولو قلت غير الذي لَمَقَتُّكِ، فقالت «أسماء»: إن ثلاثة أنت أخسُّهم لخيار[2].

فقلتُ في ذلك:

جمالٌ وأخلاقٌ أُتيحتْ لِفَذَّةٍ ... وجَوْدَةُ رأيٍ في ذكاءٍ وفِطْنَةِ
وحُبٌّ لمولاها تغلغل في الحَشَا ... هَداها به المولى لأحسن صحبةِ

---

(١) الطبقات (٨/ ٣٩١).
(٢) الطبقات (٨/ ٣٩٢).

لِبَعْلٍ وأبناءٍ وأهلٍ وجِيرةٍ ... وخيرِ كتابٍ مُرْسَلٍ للبشريَّةِ
تحلَّت بها أسماءُ من فضلِ ربِّها ... فَجَلَّ مُحَلِّيها بأجملِ حُلَّةِ
دَعَاهَا عليٌّ بَعْلُها ذاتَ مرةٍ ... لتصدر حكماً في أشَقِّ خصومةِ
غداةَ نزاعٍ قام بين ابن جعفرٍ ... ونَجْلِ أبي بكر أحبُّ الخليقةِ
إلى المصطفى أوفى البرايا جميعهم ... وأرأفِ مبعوثٍ ببِرٍّ ورحمةِ
فجاءت بحكمٍ زاد من حبه لها ... ودَلَّ على رُجْحانِ عقلٍ وحكمةِ
وقالت له منْ غير أدنى ترددٍ ... ومن دون إحراجٍ بتلك القضيةِ
لجعفرُ خير الناسِ حين شبابِه ... وخيرُهُمُ الصِّدِّيقُ عند الكهولةِ
فقال عليٌّ أين حَظِّيَ منهما؟ ... وأين نصيبيا يا أعزَّ حليلةِ؟
فقالت إذا ما كُنْتَ شر ثلاثةٍ ... فإنهم الأخيار من غير مريةِ
وأحرزتِ الإعجابَ فيما قضت به ... ونالت به مرضاةَ أقْضَى الصحابةِ
فأكرم بهما أماً لأكرم فتيةٍ! ... وأنعم بها زوجاً لِزَيْنِ الأئمةِ!
ولما دعاها الحق لَبَّتْ نداءه ... وخَفَّتْ إلى اللقيا بنفسٍ رَضِيَّةِ[1]

ولئن كانت مناقب «أسماء بنت عميس» جعلت الخُطَّاب يتنافسون لخطب ودها، وطلب يدها عند خروجها من عدتها، فهي بالمقابل لم تكن توافق على الزواج إلا ممن جلَّت مناقبه، وتعدَّدت مواهبه.

فَمَنْ مثل «أبي بكر» في حبِّه للهِ ولرسولهِ ﷺ، وبذلِ النفسِ والمالِ حتى ضَرَبَ الإسلام بِجِرَانه وقطعِ دابر المرتدين؟

ومَنْ مثل «أبي الحسن» في سبقه للإسلام، وبلائه في ساحات الوغى، وسداد قضائه بين المسلمين؟ وكان باب مدينة العلم كما وصفه رسول الله ﷺ.

قال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: قال «معاوية» لِضِرار الصُّدَائي: يا ضِرار! صف لي «علياً»، قال: اعفني، يا أمير المؤمنين! قال: لَتَصِفَنَّهُ، قال: أما إذ لا بد من وصفه، فكان والله! بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطِقُ الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنِسُ بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة،

(١) الأبيات للشاعر محمد راجي حسن كناس.

طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خَشُنَ، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله! مع تقريبه إيانا وقربه منا ـ لا نكاد نكلمه، هيبة له، يعظِّم أهل الدين، ويُقَرِّب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد أنه لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدولَه، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري! ألي تعرَّضتِ، أم إليَّ تشوَّفتِ؟ هيهات، هيهات! قد باينتُك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل، آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق!.

فبكى «معاوية» وقال: رحم اللهُ أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه؟ يا ضرار! قال: حزن من ذبح ولدها، وهو في حَجْرها ـ أي: حِضْنها ـ[1].

وروى «أبو عمر» عن طاوس: قيل لابن عباس: أخبرنا عن أصحاب رسول الله ﷺ، أخبرنا عن «أبي بكر»، قال: كان والله! خيراً كلَّه مع حِدَّة كانت فيه، قلنا: فعمر؟ قال: كان والله! كَيِّساً حَذِراً، كالطير الحَذِر الذي قد نُصِبَ له الشَّرَك، فهو يراه ويخشى أن يقع فيه، مع العنف وشدة السير، قلنا: فعثمان؟ قال: كان والله! صَوَّاماً قَوَّاماً من رجل غلبته رقدته، قلنا: فعَلِيٌّ؟ قال: كان والله! قد ملىء علماً وحِلماً، من رجل غَرَّته سابقته وقرابته، فقلما أشرف على شيء من الدنيا إلّا فاته.

فقيل: إنهم يقولون: كان محدوداً، فقال: أنتم تقولون ذلك.

وروى معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، قال: قال رسول الله ﷺ لوفد ثقيف حين جاءه: «**لَتُسْلِمُنَّ أو لأبعَثَنَّ رجلاً مني ـ أو قال: مثل نفسي ـ فليضرِبَنَّ أعناقكم، وليسبِيَنَّ ذراريَّكم، وليَأخُذَنَّ أموالكم**»، قال «عمر»: فوالله! ما تمنيتُ الإمارة إلّا يومئذ، وجعلتُ أنصب صدري له رجاء أن يقول: هو هذا، قال: فالتفت إلى «عليّ» ﷺ فأخذ بيده، ثم قال: «**هو هذا، هو هذا**».

---

(١) الاستيعاب (٣/١١٠٧ ـ ١١٠٨).

وروى «عمار الدُّهْني»، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: ما كنا نعرف المنافقين إلَّا ببغض «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه.

وسئل الحسن بن أبي الحسن البصري عن «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه فقال: كان «عليٌّ» والله! سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه، وربَّاني هذه الأمة، وذا فضلها، وذا قرابتها من رسول الله ﷺ، لم يكن بالنُّوَمَة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسروقة لمال الله أعطى القرآن عزائمه، ففاز منه برياضٍ مونقة، ذلك «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه يا لُكَعُ[(١)].

كان «عليٌّ» شديد الخشية لله، حريصاً أشد الحرص على طلب رضاه، فكيف لا تسعد «أسماء» بمثله، والعدل شيمتُه، وإرضاء الله غايتُه؟

وكان «عليٌّ» قد وَلَّى ابنها «محمد بن أبي بكر» على مصر، وكان «معاوية» يحمِّله تبعة قَتل «عثمان» رضي الله عنه، فأرسل «عمرو بن العاص» على رأس جيش لإخراجه من مصر، لكن «محمداً» تصدَّى لهم، وقاتل حتى قُتِلَ.

وذكر «ابن حَجَر العسقلاني» في «الإصابة»، عن «أسماء بنت عميس» حين نعي إليها ابنها «محمد» فقال: إنها لما بلغها قتل ولدها «محمد» بمصر، قامت إلى مسجد بيتها، وكظمت غيظها، حتى شَخَبَ ثدياها دماً[(٢)].

لقد ماتت غيظاً من فرط حزنها على ابنها ـ رحمها الله تعالى.

وقيل: إن «فاطمة الزهراء»، سيدة النساء حين حضرها الموت، أوصت زوجها «أبا الحسن» إذا أراد الزواج أن يتزوج من «أمامة بنت أبي العاص» ابنة أختها «زينب»، فَمَنْ «أمامة» هذه؟ وما كانت مكانتها حتى حظيت بمثل هذه التوصية الكريمة؟

كانت «زينب» بنت رسول الله ﷺ قد تزوجت بمكة من ابن خالتها «أبي العاص بن الربيع» التاجر الصادق الأمين، ذي السمعة الحسنة، والصيت الطيب بين أقرانه من تجار مكة ـ حرسها الله تعالى ـ، وفيما كان في الشام لبعض

---

(١) الاستيعاب (٣/١١٠٩ ـ ١١١٠).
(٢) الإصابة (٤/٢٤١٧).

تجارته، بُعِثَ رسول الله ﷺ، فآمنت به «خديجة» امرأته وبناتها جميعاً وصدَّقْته فيما جاء به من عند الله، ولما عاد «أبو العاص» إلى مكة فوجىء بإسلام امرأته «زينب» بيد أنه أبى متابعتها، وقال لها: إن أباك ليس عندي بمهتم، ولكني لا أرضى لنفسي أن يقال: لقد أسلم إرضاء لامرأته.

وبعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، واستقراره فيها، أرسل مِنْ أصحابه مَنْ يأتيه بأهله من مكة، وبقيت «زينب» عند زوجها على إسلامها، وبقي زوجها «أبو العاص» على ملة آبائه، فلمَّا كان يوم بدر، خرج مع المشركين، وتم أسره يومئذٍ، ولما أرسلت قريش الفداء في أسراها، دست «زينب» في الفداء قلادة كانت أمها «خديجة» ﷺ قد أهدتها إليها عشية زفافها على «أبي العاص» وحين بَصُرَ بها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة، وذكَّرته «خديجة» ﷺ، فقال لأصحابه: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا**»، ففعلوا، وشرط رسول الله ﷺ على «أبي العاص» أن يُسرِّح إليه ابنته «زينب» فوعده بذلك، ثم وفى له بما وعد بعد أن أخبرها أن الإسلام فَرَّق بينهما، وأنجبت «زينب» لأبي العاص، ولديه «علياً» و«أمامة».

ثم خرج «أبو العاص» في تجارة له، وأثناء عودته من الشام اعترض المسلمون قافلته فأخذوا المال والمتاع، وأما «أبو العاص» فأعجزهم هرباً، ثم إنه تسلَّل ليلاً إلى المدينة، ثم أتى «زينب» وطلب منها أن تسأل أباها ليرد عليه أموال الناس، وبينا رسول الله ﷺ والمسلمون في صلاة الفجر، خرج صوت قوي من صُفَّة النساء يقول: (أيها الناس! إني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع)، وحين سَلَّم رسول الله ﷺ من صلاته، قال: «**أيها الناس! هل سمعتم ماسمعت؟**» قالوا: نعم، يا رسول الله! قال: «**أما والذي نفس «محمد» بيده! ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم**»، ثم قال: «**إنه يجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرنا من أجارت**». ثم ردُّوا عليه المال، فانطلق به إلى مكة، وأعطى كل ذي حق حقه، ثم وقف وقال: يا معشر قريش! هل بقي لأحد منكم عندي شيء، قالوا: لا، وقد وجدناك وفياً كريماً، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قالوا: ما منعك أن تسلم قبلُ؟ قال: لقد خشيت أن تظنوا بي أني إنما أردتُ أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغتُ منها، أسلمتُ.

ولئن كان «أبو العاص» صادقاً مع الناس، فالله أولى بصدقه منهم، ولم يشأ

أن يبني إسلامه من أول يوم على الخيانة، فلما أدّى الأمانات إلى أهلها، ولم يبق للناس أي حق لديه، أسلم، وطار إلى المدينة ليعلن إسلامه أمام رسول الله ﷺ، فرحب به رسول الله ﷺ وأعاد إليه امرأته «زينب» بالنكاح الأول، ولم يحدث نكاحاً جديداً، وكان رسول الله ﷺ يشيد بصهره «أبي العاص» ويثني عليه ويقول: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي».

وعادت السعادة ترفرف على أسرة «أبي العاص» حتى إذا كانت السنة الثامنة جاء هازم اللذات، ومفرق الجماعات، واختار «زينب»، وترك رحيلها في قلب «أبي العاص» جرحاً لا يندمل. واستطاعت «أمامة» أن تحتل من قلب أبيها وقلب جدها رسول الله ﷺ مكاناً رحباً، وأن تحظى بأعظم الحب منهما.

وجاءت الأحاديث المتواترة لتدل على مدى حب رسول الله ﷺ لها، واهتمامه بها، وحظوتها عنده، فقد أخرج «ابن سعد» في طبقاته: أخبرنا هشام أبو الوليد الطيالسي، حدثنا ليث بن سعد، حدثنا سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن عمرو بن سليم الزرقي أنه سمع «أبا قتادة» يقول: بينا نحن على باب رسول الله ﷺ، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ يحمل «أمامة بنت أبي العاص بن الربيع» وأمها «زينب» بنت رسول الله ﷺ، وهي صبية، قال: فصلى رسول الله ﷺ، وهي على عاتقه، يضعها إذا ركع، ويعيدها على عاتقه، إذا قام، حتى قضى صلاته، يفعل ذلك بها(١).

وقال ابن سعد: أخبرنا عارم بن الفضل، حدثنا حماد بن زيد، عن علي بن زيد؛ أن رسول الله ﷺ، دخل على أهله ومعه قلادة جَزَع، فقال: «لأُعْطِيَنَّها أرحمكن»، فقلن: يدفعها إلى بنت «أبي بكر»، فدعا بابنة «أبي العاص» من «زينب» فعقدها بيده، وكان على عينها غَمَص فمسحه بيده، هكذا قال: غَمَص(٢).

وقال ابن سعد: أخبرنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نمير، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه،

(١) الطبقات (٨/ ٣٦٦).
(٢) الطبقات (٨/ ٣٦٦) والإصابة (٤/ ٢٤٢٤).

عن عائشة؛ أن «النجاشي» أهدى إلى رسول الله ﷺ حلية فيها خاتم من ذهب، فأخذه وإنه لَمُعْرِضٌ عنه، فأرسل به إلى ابنة ابنته «زينب» فقال: «تَحَلَّيْ بهذا يا بنية!»[(١)].

وروى «ابن حَجَر العسقلاني» في «الإصابة»: وأخرج أحمد من طريق ابن إسحاق، عن يحيى بن عباد، عن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة؛ أن «النجاشي» أهدى إلى النبي ﷺ حلية فيها خاتم من ذهب، فصه حبشي، فأعطاه «أمامة»[(٢)].

لقد رحلت «زينب» عن هذه الدنيا، في وقت كانت «أمامة» فيه في أمس الحاجة إلى وجودها بقربها، ولكن، ما تملك «أمامة» وقد حُمَّ القضاء، وحَلَّ الأجل الذي لا يقبل أي تأجيل؟ ولما أصبحت «أمامة» أهلاً للزواج، ذكر «علي» وصاة «الزهراء» له حين حضرتها الوفاة، بالزواج من ابنة أختها «أمامة»، وحين حضرت «أبا العاص بن الربيع» الوفاة في السنة الثانية عشرة للهجرة، أوصى ابن خاله «الزبير بن العوام» ﷺ ليكون وليًّا لأمامة.

وبعد وفاة «أبي العاص» خطبها «عليٌّ» من «الزبير» فزوجه إياها، إنفاذاً لوصية «فاطمة» ووصية «أبي العاص».

وكان «علي» يكرمها كثيراً لما يعلم من حب رسول الله ﷺ لها، ولم يكن أسعد منها بهذا الزواج، وكانت «أمامة» حادة الذكاء، فقد علمت بما يختزن زوجها من العلم الكثير في صدره فراحت تنهل منه، وتطلب المزيد.

وأسعفها القدر بالعيش مع «عليٍّ» ما نيَّف على ربع قرن، حتى أتاها نبأ طعنه واستشهاده على يد حاقد لئيم، أنزل بالمسلمين أعظم البلاء، وأورثهم الألم والشقاء. ولما علم «عليٌّ» أنه هالك لا محالة أوصى «أمامة»، فبأي شيء أوصاها أمير المؤمنين، وفارس المسلمين؟

قال «المحب الطبري» في ذخائره: إن «علياً» قال لها حين حضرته الوفاة:

---

(١) الطبقات (٨/ ٣٦٦).
(٢) الإصابة (٤/ ٢٤٢٤).

إني لا آمن أن يخطبك، يعني «معاوية» فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيتُ لك «المغيرة بن نوفل» عشيراً، فلما انقضت عدتها، كتب «معاوية» إلى «مروان» يأمره أن يخطبها عليه، ويبذل لها مائة ألف دينار.

فلما خطبها أرسلت إلى «المغيرة بن نوفل»: إن هذا أرسل يخطبني، فإن كان لك بنا حاجة فأَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، وخطبها إلى «الحسن بن علي» فتزوجها منه، خرجه «أبو عمر».

وذكر الدولابي؛ أن «علياً» لما أصيب ولَّت أمرها «المغيرة بن نوفل»، فقال «المغيرة بن نوفل»: اشهدوا أني قد تزوجتها، وأصدقتها كذا وكذا[١].

وفي رواية «ابن سعد» في طبقاته، قال: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن ابن أبي ذئب؛ أن «أمامة بنت أبي العاص» قالت للمغيرة بن نوفل: إن «معاوية» قد خطبني، فقال لها «المغيرة»: أتتزوجين ابن آكلة الأكباد؟ فلو جعلت ذلك إليَّ، قالت: نعم، قال: قد تزوجتك.

قال ابن أبي ذئب: فجاز نكاحه[٢].

ولا يعرف كم عاشت عند «المغيرة» إلا أنها توفيت في زمن «معاوية» وقيل، إنها ولدت لعلي «محمداً» وللمغيرة «يحيى»، وقيل: انقطع بموت «أمامة» عقب «زينب» بنت رسول الله ﷺ، وكذلك انقطع عقب أختيها «رقية» و«أم كلثوم» ولم يبق من تلك الذرية الطاهرة المطهرة إلّا عقب «فاطمة الزهراء» رضي الله عنهن أجمعين.

وأما الخبر عن سبب قتل «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه وكيف قُتِلَ، فقد أخرجه «أبو جعفر الطبري» في تاريخه، فقال:

حدثني موسى بن عثمان بن عبد الرحمٰن المسروقي، قال: حدثنا عبد الرحمٰن الحَرَّاني؛ أبو عبد الرحمٰن، قال: أخبرنا إسماعيل بن راشد، قال: كان من حديث «ابن مُلْجَم» وأصحابه أن «ابن مُلْجَم» و«البُرَكَ بن عبد الله»

(١) ذخائر العقبى، ص: ١٦١ ـ ١٦٢.
(٢) الطبقات (٨/ ٣٦٧).

و«عمرو بن بكر» التميمي، اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس، وعابوا على ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهر، فترحَّموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً! إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا، فأتينا أئمة الضلالة، فالتمسنا قتلهم، فأرحنا منهم البلاد، وثأرنا بهم إخواننا!

فقال «ابن مَلْجَم»: أنا أكفيكم «علي بن أبي طالب» ـ وكان من أهل مصر ـ، وقال «البُرَك بن عبد الله»: أنا أكفيكم «معاوية بن أبي سفيان»؛ وقال: «عمرو بن بكر»: أنا أكفيكم «عمرو بن العاص».

فتعاهدوا وتواثقوا بالله، لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسمُّوها، واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان، أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجَّه إليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب. فأما «ابن مُلْجَم» المرادي، فكان عداده في كِنْدَة، فخرج فلقي أصحابه بالكوفة، وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئاً من أمره، فإنه رأى ذاتَ يوم أصحاباً من «تيم الرِّباب» ـ وكان «عليٌّ» قتل منهم يوم النهر عشرة ـ فذكروا قتلاهم، ولقي من يومه ذلك امرأة من «تيم الرِّباب» يقال لها: قَطامُ بْنَة الشِّجْنة ـ وقد قتل أباها وأخاها يوم النهر، وكانت فائقة الجمال ـ فلما رآها التبست بعقله، ونسي حاجته التي جاء لها؛ ثم خطبها، فقالت: لا أتزوجك حتى تشفي لي، قال: وما يشفيك؟ قالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل «علي بن أبي طالب».

قال: هو مهر لك، فأما قتل «عليٍّ» فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدني، قالت: بلى، التمس غُرَّتَه، فإن أصبتَ شفيت نفسك ونفسي، ويهنئك العيش بلى، وإن قتلتَ فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها؛ قال: فوالله! ما جاء بي إلى هذا المصر إلَّا قتلُ «علي»، فلكِ ما سألت، قالت: إني أطلب لكَ من يُسنِدُ ظهرك، ويساعدُك على أمرك، فبعثت إلى رجل من قومها من «تيم الرِّباب» يقال له: «وَرْدَان» فكلمته فأجابها، وأتى «ابن مُلْجَم» رجلاً من أشجع، يقال له: «شبيب بن بَجْرَة» فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟

قال: قتلُ «علي بن أبي طالب»؛ قال: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! لقد جئتَ شيئاً إِدًّا، كيف تقدر على «عليٍّ»؟، قال: أكمن له في المسجد، فإذا خرج لصلاة الغد، شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا، وإن قُتِلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها، قال: ويحك! لو كان غير «عليٍّ» لكان أهون عليَّ، قد عرفت بلاءه في الإسلام، وسابقَته مع النبي ﷺ، وما أجدني أنشرح لقتله، قال: أما تعلم أنه قتل أهل النهر العُبَّاد الصالحين؟

قال: بلى، قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا، فأجابه ـ فجاءوا قَطَامِ ـ وهي في المسجد الأعظم معتكفة ـ فقالوا لها: قد أجمع رأينا على قتل «عليٍّ»، قالت: فإذا أردتم ذلك فَأْتوني، ثم عاد إليها «ابن مُلْجَم» في ليلة الجمعة التي قُتِلَ في صبيحتها «عليٌّ» سنة أربعين ـ فقال: هذه الليلة التي واعدتُ فيها صاحبيَّ أن يقتل كل منَّا صاحبه، فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به، وأخذوا أسيافهم، وجلسوا مقابل السُّدَّة التي يخرج منها «عليٌّ»، فلما خرج ضربه «شبيب» بالسيف، فوقع سيفه بعِضادة الباب أو الطاق، وضربه «ابن مُلْجَم» في قرنه بالسيف، وهرب «وَرْدان» حتى دخل منزله، فدخل عليه رجل من بني أبيه، وهو ينزع الحرير عن صدره، فقال: ما هذا الحرير والسيف؟ فأخبره بما كان وانصرف، فجاء بسيفه فعلا به «وردان» حتى قتله؛ وخرج «شبيب» نحو أبواب كِنْدَة في الغَلَس، وصاح الناس، فلحقه رجل من حضرموتَ، يقال له «عُوَيْمر» وفي يد «شبيب» السيف، فأخذه، وجثم عليه الحَضْرَمي، فلما رأى الناسَ قد أقبلوا في طلبه، وسيف «شبيب» في يده، خشي على نفسه، فتركه، ونجا «شبيب» في غُمار الناس، فشدُّوا على «ابن مُلْجَم» فأخذوه، إلَّا أن رجلاً من همْدان يكنى «أبا أَدْماء» أخذ سيفه، فضرب رجله فصرعه، وتأخَّر«عليٌّ»، ورفع في ظهره «جعدة بن هبيرة بن أبي وَهْب»، فصلَّى بالناس الغداة، ثم قال «عليٌّ»: عليَّ بالرجل فأُدخل عليه، ثم قال: أيْ عدو الله! ألم أُحسِنْ إليك؟ قال: بلى، قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحاً، وسألت الله أن يقتل به شَرَّ خلقه، فقال رضي الله عنه: لا أراك إلَّا مقتولاً به، ولا أراك إلَّا من شَرِّ خلقه.

وذكروا أن «ابن مُلْجَم» قال قبل أن يضرب «علياً» ـ وكان جالساً في بني بكر بن وائل، إذ مُرَّ عليه بجنازة «أبجر بن جابر العجلي، أبي حَجَّار» وكان

نصرانياً والنصارى حوله، وأناس مع «حَجّار» لمنزلته فيهم يمشون في جانب وفيهم «شقيق بن ثور» فقال «ابن مُلْجَم»: ما هؤلاء؟ فأخبر الخبر، فأنشأ يقول:

لئن كان حَجَّارُ بن أبجر مسلماً ... لقد بوعدت منه جنازة أبجرِ
وإن كان حَجَّارُ بن أبجر كافراً ... فما مثل هذا من كفور بمنكَرِ
أترضَوْن هذا أن قيساً ومسلماً ... جميعاً لدى نعشٍ فيا قبح منظَرِ!
فلولا الذي أنوي لَفرَّقت جمعهم ... بأبيضَ مصقول الذُّبَاسِ مُشَهَّرِ
ولكنني أنوي بذاك وسيلةً ... إلى الله أو هذا فخذ ذاك أو ذَرِ

وذكر أن «محمد ابن الحنفية»، قال: كنت والله! إني لأصلي تلك الليلة التي ضُرِبَ فيها «علي» في المسجد الأعظم، في رجال كثير من أهل المصر، يصلون قريباً من السدة، ما هم إلا قيام وركوع وسجود، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره، إذ خرج «عليٌّ» لصلاة الغداة، فجعل ينادي: أيها الناس! الصلاة الصلاة! فما أدري أخرج من السدَّة فتكلَّم بهذه الكلمات أم لا؟ فنظرتُ إلى بريق، وسمعتُ: الحكم لله يا علي! لا لك ولا لأصحابك، فرأيت سيفاً، ثم رأيت ثانياً، ثم سمعت «علياً» يقول: لا يفوتنَّكم الرجل، وشدَّ الناس عليه من كل جانب.

قال: فلم أبرح حتى أُخِذَ «ابن مُلْجَم» وأدخل على «عَلِيٍّ»، فدخلتُ فيما دخل من الناس، فسمعتُ «علياً» يقول: النفس بالنفس؛ إن أنا مِتُّ فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيتُ رأيتُ فيه رأيي.

وذكر أن الناس دخلوا على «الحسن» فزعين لما حدث من أمر «عليٍّ»، فبينما هم عنده، و«ابن مُلْجَم» مكتوف بين يديه، إذ نادته «أم كلثوم بنت عليٍّ» وهي تبكي: أيْ عدو الله! لا بأس على أبي، والله مخزيك، قال: فعلى من تبكين؟ والله! لقد اشتريتُه بألف، وسممتُه بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد. وذكر أن «جُنْدَب بن عبد الله» دخل على «عليٍّ» فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين إن فقدناك ـ ولا نفقدك ـ فنبايع «الحسن؟» فقال: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر، فرَدَّ عليها مثلها، فدعا «حسناً» و«حسيناً» فقال: أوصيكما بتقوى الله، وألَّا تبغيا الدنيا، وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء

زوي عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في الكتاب، ولا تأخذكما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى «محمد ابن الحنفية» فقال: هل حفظتَ ما أوصيتُ به أخويك؟ قال: نعم. قال: فإني موصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك، لعظيم حقهما عليك، فاتبع أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما، ثم قال: أوصيكما به، فإنه شقيقكما، وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكم كان يحبه.

وقال للحسن: أوصيك أيْ بني! بتقوى الله، وإقامِ الصلاةِ لوقتها، وإيتاءِ الزكاةِ عند مَحِلِّها، وحسنِ الوضُوء، فإنه لا صلاة إلا بطهور، ولا تُقْبَلُ صلاة من مانعِ زكاة، وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلةِ الرحم، والحلم عند الجهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش.

فلما حضرته الوفاة، أوصى، فكانت وصيته: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما أوصى به «علي بن أبي طالب»، أوصى أنه يشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم إن صلاتي ونسكي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرتُ وأنا من المسلمين؛ ثم أوصيك يا حسن! وجميع ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم، ولا تموتُنَّ إلَّا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، فإني سمعت «أبا القاسم» ﷺ يقول: «إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام»! انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوها يهوِّن الله عليكم الحساب، اللهَ اللهَ في الأيتام، ولا تُعنوا أفواههم، ولا يضيعُنَّ بحضرتكم، واللهَ اللهَ في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم ﷺ، ما زال يوصي به حتى ظَنَنَّا أنه سيورثه، واللهَ اللهَ في القرآن، فلا يسبقَنَّكم إلى العمل به غيرُكم، واللهَ اللهَ في الصلاة، فإنها عمود دينكم، واللهَ اللهَ في بيت ربكم فلا تُخَلُّوه ما بقيتُمْ، فإنه إن ترك لم يُنَاظَرْ، واللهَ اللهَ في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، واللهَ اللهَ في الزكاة، فإنها تطفىء غضب الرب، واللهَ اللهَ في ذمة نبيكم، فلا يُظْلَمُنَّ بين أظهركم، والله الله في أصحاب نبيكم ﷺ، فإن رسول الله ﷺ أوصى بهم، واللهَ

اللهَ في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم، واللهَ اللهَ فيما ملكت أيمانكم، الصلاةَ الصلاةَ، لا تخافُنَّ في الله لومة لائم، يكفيكم من أرادكم وبَغَى عليكم، وقولوا للناس حُسْناً كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولّي الأمر شراركم، ثم تَدْعُون فلا يُسْتجابُ لكم، وعليكم بالتواصل والتبادل، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب، حفظكم اللهُ من أهل بيت، وحفظ فيكم بنيكم، أستودعكم اللهَ، وأقرأ عليكم السلامَ ورحمةَ الله.

ثم لم ينطق إلَّا بلا إله إلَّا الله، حتى قُبِضَ رضي الله عنه وذلك في شهر رمضان سنة أربعين، وغسله ابناه «الحسن» و«الحسين» و«عبد الله بن جعفر» وكُفِّن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وكبَّر عليه «الحسن» تسع تكبيرات، ثم ولي «الحسن» ستة أشهر.

وقد كان «عليٌّ» نهى عن المُثْلَة، وقال: يا بني عبد المطلب! لا ألفيَنَّكم تخوضون دماء المسلمين، تقولون: قتل أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين! ألا لا تقتلنَّ إلا قاتلي، انظر يا حسن! إن أنا مِتُّ من ضربته هذه، فاضربة ضربةً بضربة، ولا تمثِّل بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إياكم والمُثْلَة، ولو أنها بالكلب العقور**». فلما قُبِضَ رضي الله عنه بعث «الحسن» إلى «ابن مُلْجَم» فقال للحسن:

هل لك في خصلة؟ إني والله! ما أعطيت الله عهداً إلَّا وفيت به، إني كنتُ قد أعطيتُ الله عهداً عند الحطيم أن أقتل «علياً» و«معاوية» أو أموت دونهما، فإن شئت خليت بيني وبينه، ولك الله عليَّ إن لم أقتله ـ أو قتلتُه، ثم بقيتُ ـ أن آتيك حتى أضع يدي في يدك.

فقال له الحسن: أما والله! حتى تعاين النار فلا، ثم قدمه فقتله، ثم أخذه الناس فأدرجوه في بواري، ثم أحرقوه بالنار.

وأما «البُرَك بن عبد الله» فإنه في تلك الليلة التي ضُرِبَ فيها «عليٌّ» قعد لمعاوية، فلما خرج ليصلي الغداة شَدّ عليه بسيفه، فوقع السيف في أليته، فأُخذ فقال: إن عندي خبراً أُسِرُّك به، فإن أخبرتُك فنافعي ذلك عندك؟ قال: نعم، قال: إن أخاً لي قتل «علياً» في مثل هذه الليلة، قال: فلعله لم يقدر على ذلك،

قال: بلى إن «علياً» يخرج ليس معه من يحرسه، فأمر به «معاوية» فقتل، وبعث «معاوية» إلى «الساعديّ» ـ وكان طبيباً ـ فلما نظر إليه قال: اختر إحدى خصلتين: إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد، وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة، فقال «معاوية»: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد، فإن في «يزيد» و«عبد الله» ما تقرُّ به عيني، فسقاه تلك الشربة فبرأ، ولم يولد له بعدها، وأمر «معاوية» عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد.

وأما «عمرو بن بكر» فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة، فلم يخرج، وكان اشتكى بطنَه، فأمر «خارجة بن حذافة» وكان صاحب شرطته، وكان من بني عامر بن لؤي، فخرج ليصلي، فشدَّ عليه وهو يرى أنه «عمرو» فضربه فقتله، فأخذه الناس، فانطلقوا به إلى «عمرو» يسلِّمون عليه بالإمرة، فقال: من هذا؟ قالوا: «عمرو»، قال: فمن قتلتُ؟ قالوا: «خارجة بن حذافة»، قال: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرَك، فقال «عمرو»: أردتني وأراد الله «خارجة»، فقدمه «عمرو» فقتله، فبلغ ذلك «معاوية» فكتب إليه:

وقتلٌ وأسباب المنايا كثيرة ... منية شيخ من لؤي بن غالبِ
فيا عمرو مهلاً إنما أنت عمه ... وصاحبه دون الرجال الأقاربِ
نجوتَ وقد بَلَّ المراديُّ سيفه ... من ابن أبي شيخ الأباطح طالبِ
ويضرب بالسيف آخرُ مثلُه ... فكانت علينا تلك ضربةَ لازبِ
وأنت تناغي كل يوم وليلة ... بمصرك بيضاً كالظباء السواربِ[1]

وهكذا مني المسلمون بقتل خير الثلاثة، عليه رحمة الله تعالى.

وروى «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب» قال: وروى ابن الهادي، عن عثمان بن صهيب، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «**من أشقى الأولين؟**» قال: الذي عقر الناقة ـ يعني ناقة صالح، قال: «**صدقت، فمن أشقى الآخرين؟**» قال: لا أدري، قال: «**الذي يضربك ـ يعني يافوخة ـ ويخضب هذه ـ يعني لحيته ـ**»[2].

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ١٤٣ ـ ١٥٠).
(٢) الاستيعاب (٣/ ١١٢٥).

وروى «أبو عمر» عن أبي عبد الرحمٰن السلمي، قال: أتيت «الحسن بن علي» في قصر أبيه، وكان يقرأ عليَّ، وذلك في اليوم الذي قتل فيه «علي» فقال لي: إنه سمع أباه في ذلك السحر يقول له: يا بني! رأيت رسول الله ﷺ في هذه الليلة في نومة نمتُها.

فقلتُ: يا رسول الله! ماذا لقيتُ من أمتك من الأَوَد واللَّدَد؟ قال: «ادعُ الله عليهم»، فقلت: اللهم! أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلني بي من هو شر مني، ثم أتيته وجاء مؤذنه يؤذنه بالصلاة، فخرج فاعتوره الرجلان، فأما أحدهما فوقعت ضربته في الطاق، وأما الآخر فضربه في رأسه، وذلك في صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان صبيحة بدر.

وروى «أبو عمرو» عن محمد بن كعب، عن عبد الله بن عمر، قال: قال «عمر» لأهل الشورى: لله درهم إن ولَّوْهَا الأصيلع! كيف يحملهم على الحق، ولو كان السيف على عنقه، فقلت: أتعلم ذلك منه ولا تُوَلِّيه؟ قال: إن لم أستخلف فأتركَهم، فقد تركهم مَنْ هو خير مني[1].

وروى ربيعة بن عثمان، عن محمد بن كعب القرظي، قال: كان ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ وهو حي «عثمان بن عفان» و«علي بن أبي طالب» و«عبد الله بن مسعود» من المهاجرين، و«سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة» مولى لهم ليس من المهاجرين[2].

وروى أبو أحمد الزبيري، وغيره، عن مالك بن مِغْوَل، عن أكيل، عن الشعبي، قال: قال لي علقمة: تدري ما مَثَلُ «عليٍّ» في هذه الأمة؟ قلت: ما مَثَلُهُ؟ قال: مثل «عيسى بن مريم» أحبه قوم حتى هلكوا في حبه، وأبغضه قوم حتى هلكوا في بغضه[3].

وقال أبو الأسود الدؤلي ـ وأكثرهم يرويها لأم الهيثم بنت العريان النخعية: أولها:

---

(١) الاستيعاب (٣/ ١١٣٠).
(٢) الاستيعاب (٣/ ١١٣٠).
(٣) الاستيعاب (٣/ ١١٣٠).

ألا يا عين ويحك أسعدينا ... ألا تبكي أمير المؤمنينا
تُبَكّي أم كلثوم عليه ... بعبرتها وقد رأتِ اليقينا
ألا قل للخوارج حيث كانوا ... فلا قَرَّت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ... وذلَّلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعالَ ومن حَذَاها ... ومن قرأ المثاني والمَثِينا
فكل مناقب الخيرات فيه ... وحب رسول رب العالمينا
لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنك خيرها حَسَباً ودينا
إذا استقبلت وجه أبي حسينٍ ... رأيت البدر فوق الناظرينا
وكنا قبل مقتله بخيرٍ ... نرى مولى رسول الله فينا
يقيم الحقَّ لا يرتاب فيه ... ويعدِلُ في العِدَى والأقربينا
وليس بكاتم علماً لديه ... ولم يُخْلَقْ من المُتَبَشِّرِينا
كأن الناسَ إذ فَقَدوا علياً ... نَعَامٌ حار في بلدٍ سنينا
فلا تشمت معاوية بن صخرٍ ... فإن بقية الخلفاء فينا

وقال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرفٌ ... عن هاشم ثم منها عن أبي الحَسَنِ
أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعلم الناس بالقرآن والسُّنَنِ

ورد أبو الفتح:

وآخر الناس عهداً بالنبي ومَنْ ... جبريل عونٌ له في الغُسْل والكَفَنِ
من فيه ما فيهم لا تمترون به ... وليس في القوم ما فيه من الحَسَنِ

وقال إسماعيل بن محمد الحميري من شعر له:

سائل قريشاً به إن كنت ذا عَمَهٍ ... مَنْ كان أثبتها في الدين أوتادَا
مَنْ كان أقدم إسلاماً وأكثرها ... علماً وأطهرها أهلاً وأولادَا
مَنْ وحَّدَ الله إذ كانت مكذِّبةً ... تدعو مع الله أوثاناً وأندادَا
مَنْ كان يقدم في الهيجاء إن نكلوا ... عنها وإن بخلوا في أزمةٍ جادَا
مَنْ كان أعدلها حكماً وأبسطها ... علماً وأصدقها وعداً وإيعادَا
إن يصدقوك فلن يعدوا أبا حَسَنٍ ... إن أنت لم تلقَ للأبرار حُسَّادَا

إن أنت لم تلق أقواماً ذوي صَلَفٍ وذا عنادٍ لحقِّ اللهِ جَحَّادا[١]

وقال خزيمة بن ثابت بصفِّين:

كل خير يزينهم فهو فيه وله دونهم خصالٌ تزينه

وذكر السيوطي عدداً من الأحاديث الواردة في فَضْل «علي» رضي الله عنه فقد أخرج الترمذي عن أبي سريحة، أو زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ، قال: **«من كنت مولاه فعلي مولاه»**. وزاد آخرون: **«اللهم! والِ من والاه، وعادِ من عاداه»**.

وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه، عن حبشي بن جنادة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«علي مني، وأنا من علي»**.

وأخرج الترمذي عن ابن عمر، قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاء «علي» تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله! آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال رسول الله ﷺ: **«أنت أخي في الدنيا والآخرة»**.

وأخرج مسلم عن علي، قال: والذي خلق الجنة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق.

وأخرج الحاكم وصححه، عن علي، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله! بعثتني وأنا شاب أقضي بينهم، ولا أدري ما القضاء، فضرب صدري بيده، ثم قال: **«اللهم! اهد قلبه، وثبت لسانه»** فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين.

وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ما أنزل الله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [البَقَرَة، الآية: ١٠٤] إلا و«عليٌّ» أميرها وشريفها، ولقد عاتب الله أصحاب «محمد» في غير مكان، وما ذكر «علياً» إلا بخير.

وأخرج ابن عساكر، عن ابن عباس: ما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في «علي»، وعنه أيضاً: قال: نزلت في «علي» ثلاثمائة آية.

---

(١) الاستيعاب (٣/ ١١٣٢ ـ ١١٣٣).

وأخرج الطبراني والحاكم عن ابن مسعود ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال: **«النظر إلى «عليّ» عبادة»**.

وأخرج البزار وأبو يعلى والحاكم عن عليٍّ، قال: دعاني رسول الله ﷺ، فقال: **«يا علي! إن فيك مثلاً من عيسى، أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به»**، ألا وإنه يهلك فِيَّ اثنان: محب مفرط يفرطني بما ليس فِيَّ، ومبغض فقد يحمله شَنَآني على أن يبهتني.

وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير، عن أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«عليٌّ مع القرآن، والقرآن مع عليٍّ، لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض»**.

وأخرج أبو يعلى، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال عمر بن الخطاب: لقد أعطيَ علي ثلاث خصال، لأن تكون لي خصلة منها أحب إليَّ من أن أعطى حُمُرَ النَّعَم، فسئل: وما هُنَّ؟ قال: تزوجُه ابنته «فاطمة»، وسكناه المسجد لا يحلّ لي فيه ما يحل له، والراية يوم خيبر.

وأخرج أبو يعلى والبزار، عن سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من آذى علياً فقد آذاني»**.

وأخرج الطبراني بسند صحيح، عن أم سلمة، عن رسول الله ﷺ: **«من أحبَّ علياً فقد أحبَّني، ومن أحبَّني فقد أحبَّ الله، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله»**[1]. اللهم! إني أحبك وأحب من تُحبُّ، وأحب نبيك وأحب من يُحبُّ، فأحِبني يا أعظم محبوب! واغفر لي بحبي جميع الذنوب.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ١٥١ ـ ١٥٤.

خلافة الحسن بن علي ﷺ وزواجه

بعد أن قتل «علي بن أبي طالب» ﷺ على يد «عبد الرحمٰن بن مُلْجَم» المرادي، أشقى الآخرين، عليه لعنة الله إلى يوم الدين، بويع لابنه «الحسن بن علي» ﷺ بالخلافة، وقيل: إن أول من بايعه «قيس بن سعد»، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، وقتال المُحِلِّين، فقال له «الحسن» ﷺ: على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط؛ فبايعه وسكت، وبايعه الناس. وذكره «أبو جعفر الطبري» في تاريخه: أن بعد استخلاف أهل العراق للحسن ﷺ، كان لا يرى القتال مع «معاوية» ولكنه كان يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من «معاوية» ثم يدخل في الجماعة، وعرف «الحسن» ﷺ ـ أن «قيس بن سعد» لا يوافقه على رأيه، فنزعه وأحلَّ «عبيد الله بن عباس» محلَّه.

وبعد أن بايع الناس «الحسن» ﷺ بالخلافة، خرج بالناس حتى نزل المدائن، وكان نزوله فيها في المقصورة البيضاء، وكان عم «المختار بن أبي عبيد» عاملاً على المدائن، واسمه «سعد بن مسعود»، فقال له المختار، وهو غلام شاب: هل لك في الغِنَى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: توثق «الحسن»، وتستأمن به إلى «معاوية»، فقال له «سعد»: عليك لعنةُ الله، أثب على ابن بنت رسول الله ﷺ فأُوثِقه؟ بئس الرجل أنت! فلما رأى «الحسن» ﷺ ـ تَفَرُّق الأمر عنه، بعث إلى «معاوية» يطلب الصلح، وبعث «معاوية» إليه «عبد الله بن عامر» و«عبد الرحمٰن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس» فقدما على «الحسن» ﷺ بالمدائن، فأعطياه ما أراد، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف في أشياء اشترطها.

ثم قام «الحسن ﷺ في أهل العراق فقال: يا أهل العراق! إنه سَخَّى بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي، وكانوا قد

نهبوا سرادقه ونازعوه بساطاً كان تحته.

ودخل الناس في طاعة «معاوية»، ودخل «معاوية» الكوفة، فبايعه الناس. وكان «الحسين» ﷺ، قد ناشد أخاه «الحسن» ﷺ ألَّا يركن إلى «معاوية» وألَّا يصدقه، إلَّا أن «الحسن» قال له: اسكت، فأنا أعلم بالأمر منك[١].

وقال «ابن عبد ربه الأندلسي» في «عقدة الفريد»: وَفَدَ «الحسن بن علي» على «معاوية»، فقال «عمرو» لمعاوية: يا أمير المؤمنين! إن «الحسن» لَفَهٌ، فلو حملتَه على المنبر، فتكلَّم، وسمع الناس كلامه عابوه، وسقط من عيونهم، ففعل، فصعد المنبر، وتكلَّم وأحسن، ثم قال: أيها الناس! لو طلبتم ابناً لنبيكم ما بين لابتيها لم تجدوه غيري وغير أخي، وإن أدري لعلهُ فتنةٌ لكم ومتاع إلى حين، فساء ذلك «عمراً»، وأراد أن يقطع كلامه، فقال له: أبا محمد! أتصف الرطب؟ فقال: أجل، تلحقه الشَّمال، وتخرجه الجَنوب، وتنضجه الشمس، ويصبغه القمر[٢].

وقال ابن عبد ربه: بينما «معاوية بن أبي سفيان» جالس في أصحابه إذ قيل له: «الحَسَنُ» بالباب؛ فقال «معاوية»: إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه؛ فقال له «مروان بن الحكم»: ائذن لي، فإني أسأله ما ليس عنده فيه جواب.

قال «معاوية»: لا تفعل، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام، وأذِن له. فلما دخل وجلس، قال له «مروان»: أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ويقال: إنَّ ذلك من الخُرْق، فقال «الحسن»: ليس كما بلغك، ولكنا ـ معشر بني هاشم ـ أفواهنا عذبة شفاهُها، فنساؤنا يُقبِلَن علينا بأنفاسهن وقُبَلِهِنَّ، وأنتم معشرَ بني أمية فيكم بَخَر شديد، فنساؤكم يصرفن أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصداغكم، فإنما يشيب منكم موضع العِذَار من أجل ذلك. قال «مروان»: إن فيكم يا بني هاشم خصلة سَوْء؛ قال: وما هي؟ قال: الغُلْمَة؛ قال: أجل، نزعت الغُلْمَة من نسائنا ووُضِعَتْ في رجالنا، ونزعت الغُلْمَة من رجالكم ووُضِعَتْ في نسائكم، فما قام لأُمويَّة إلَّا هاشميٌّ، فغضب «معاوية»، وقال: قد كنت أخبرتكم فأبيتم حتى

(١) تاريخ الطبري (٥/١٥٨ ـ ١٦٣) بتصرف يسير.
(٢) العقد الفريد (١٩/٤).

سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم، وأفسد عليكم مجلسكم، فخرج «الحسن»، وهو يقول:

ومارست هذا الدَّهرَ خمسين حِجَّةً ... وخمساً أُزجّي قائلاً بعد قائلِ
فلا أنا في الدنيا بلغتُ جَسيمَها ... ولا في الذي أهوى كدحت بطائلِ
وقد شَرَعتْ دوني المنايا أكفَّها ... وأيقنتُ أني رهن موتٍ معاجلِ(١)

وكانت للحسن ﵁ مناقب كثيرة، وكفاه من الفخر أن يشهد له ولأخيه «الحسين» ﵁ جدهما رسول الله ﷺ أنهما سيدا شباب أهل الجنة، وأنهما ريحانتاه من الدنيا، كما وصف النبي ﷺ «الحسن» ﵁ أنه سيد يصلح الله به بين فئتين، فقد روى «المحب الطبري» في ذخائره، عن أبي بكرة، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بنا، وكان «الحسن» يجيء وهو صغير، فكان كلما سجد رسول الله ﷺ وثب على رقبته وظهره، فيرفع النبي ﷺ رأسه رفعاً رفيقاً حتى يضعه فقالوا: يا رسول الله! رأيناك تَصْنَع بهذا الغلام شيئاً ما رأيناك تصنعه بأحد، قال: **«إنه ريحانتي من الدنيا، إن ابني هذا سيد، وعسى أن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين»**، خرجه أبو حاتم، وفي رواية السلفي: **«إن ابني هذا سيد وإن الله يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين»**(٢). وكان أشبه الناس بجده ﷺ.

وكان «الحسن» ﵁ ذا مناقب فذة، ومآثر فريدة، كان فيها منقطع القرين، فقد ورث الكرم والجود عن جده رسول الله ﷺ، أكرم الناس، وكان يكره الدخول في الفتن، ويبغض إراقة الدماء، وكان الحلم شيمته، والوقار حليته، موفور العقل، حسن الفهم، نافذ البصيرة، صاحب فصاحة وبيان، فقد أخرج «أبو نعيم» في حلية الأولياء عن شعبة بن الحجاج، عن أبي إسحاق همداني، عن الحارث، قال: سأل «علي» ابنه «الحسن» عن أشياء من أمر المروءة، فقال: يا بني ما السداد؟ قال: يا أبت! السداد دفع المنكر بالمعروف، قال: فما الشرف؟ قال: اصطناع العشيرة، وحمل الجريرة، قال: فما المروءة؟ قال: العفاف وإصلاح المال، قال: فما الرأفة؟ قال: النظر في اليسير، ومنع الحقير، قال:

---

(١) العقد الفريد (٤/ ١٩ ـ ٢٠).
(٢) ذخائر العقبى، ص: ١٢٥، وحلية الأولياء (٢/ ٤٠).

فما اللؤم؟ قال: إحراز المرء نفسه وبذله عرسه، قال: فما السماح؟ قال: البذل في العسر واليسر، قال: فما الشح؟ قال: أن ترى ما في يديك شرفاً، وما أنفقته تلفاً، قال: فما الإخاء؟ قال: المواساة في الشدة والرضاء، قال: فما الجبن؟ قال: الجرأة على الصَّديق، والنكول عن العدو، قال: فما الغنيمة؟ قال: الرغبة في التقوى، والزهادة في الدنيا هي الغنيمة الباردة، قال: فما الحلم؟ قال: كظم الغيظ، وملك النفس، قال: فما الغنى؟ قال: رضا النفس بما قسم الله تعالى لها وإن قَلَّ، وإنما الغنى غنى النفس، قال: فما الفقر؟ قال: شره النفس في كل شيء، قال: فما المنعة؟ قال: شدة اليأس، ومنازعة أعزاء الناس، قال: فما الذل؟ قال: الفزع عند المصدوقة، قال: فما العِيُّ؟ قال: العبث باللحية، وكثرة البزق عند المخاطبة، قال: فما الجرأة؟ قال: موافقة الأقران، قال: فما الكلفة؟ قال: كلامك فيما لا يعنيك، قال: فما المجد؟ قال: أن تعطي في الغرم، وتعفو عن الجرم، قال: فما العقل؟ قال: حفظ القلب كل ما استوعبته، قال: فما الخرق؟ قال: معاداتك إمامك، ورفعك عليه كلامك، قال: فما السناء؟ قال: إتيان الجميل، وترك القبيح، قال: فما الحزم؟ قال: طول الأناة، والرفق بالولاة، قال: فما السفه؟ قال: اتباع الدناة، ومصاحبة الغواة، قال: فما المفضلة؟ قال: ترك المُجِدِّ، وإطاعتك المفسد، قال: فما الحرمان؟ قال: تركك حظك وقد عرض عليك، قال: فما السيد؟ قال: الأحمق في ماله، والمتهاون في عِرْضه، يشتم فلا يجيب، والمتحزِّن في أمر عشيرته هو السيد، فقال «عليٌّ»: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل**»(١).

وأخرج «أبو نعيم» في حليته أيضاً: عن شعبة، قال: سمعت يزيد بن خمير يحدث، عن عبد الرحمٰن بن جبير بن نفير، عن أبيه، قال: قلت للحسن: إن الناس يقولون: إنك تريد الخلافة؟ فقال: قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت، ويسالمون من سالمت، فتركتها ابتغاء وجه الله، وحقن دماء أمة «محمد» ﷺ.

وعن الشعبي، قال: شهدت «الحسن بن علي» حين صالحه «معاوية»

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٤٠ ـ ٤١) ومجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٣) وكنز العمال (١٦/ ٤٤٢٣٧).

بالنخيلة، فقال «معاوية»: قم فأخبر الناس أنك تركت هذا الأمر، وسلَّمته إليَّ، فقام «الحسن» فحمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا و«معاوية»، إما أن يكون حق امرىء فهو أحق به مني، وإما أن يكون حقاً هو لي فقد تركته إرادة إصلاح الأمن وحقن دمائها، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين.

وعن أحمد بن محمد بن الحارث بن خلف؛ أبي بكر: ثنا أحمد بن محمد بن سعيد، ثنا محمد بن أحمد بن الحسن، سمعت أبان بن الطفيل، يقول: سمعت «علياً» يقول للحسن: كن في الدنيا ببدنك، وفي الآخرة بقلبك[1].

وذكر «أبو نعيم» أيضاً: أن «الحسن بن علي» قاسم الله ﷺ ماله مرتين حتى تصدق بفرد نعله، رواه عن شهاب بن عامر.

وعن علي بن زيد بن جدعان، قال: خرج «الحسن بن علي» من ماله مرتين، وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات حتى إنه كان ليعطي نعلاً، ويمسك نعلاً، ويعطي خفاً ويمسك خفاً[2].

وسأله رجل صدقة، ولم يكن عنده ما يسد به رمقه، فاستحى أن يرده، فقال له: ألا أدلك على شيء يحصل لك منه البر؟ قال: بلى، فما هو؟ قال: اذهب إلى الخليفة فإن ابنته توفيت، وانقطع عليها، وما سمع من أحد تعزية، فعزِّه بقولك له: «الحمد لله الذي سترها بجلوسك على قبرها، ولا هتكها بجلوسها على قبرك».

فذهب الرجل، وفعل ما قال له، فذهب عن الخليفة حزنه وأمر له بجائزة، وقال له: أكلامك هذا؟ قال: لا، بل كلام فلان، قال: صدقتَ، فإنه معدن الكلام الفصيح، وأمر له بجائزة أخرى[3].

وله في الجود والسخاء قصص لا تكاد تصدق، وليس لأحد أن ينفيها أو

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٤١).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٤٢).

(٣) الحسن والحسين، لمحمد رضا، ص: ٢٩.

يتعجب منها، وصاحبها ابن ابنة رسول الله ﷺ، وقد كان ﵁ يجيز الرجل الواحد بمائة ألف، فأنعم بتلك الذرية الطيبة الطاهرة!.

وذكر «ابن عبد ربه» في عقده الفريد: وقال «معاوية» يوماً لجلسائه: مَنْ أكرم الناس أباً وأماً، وجداً وجدة، وعماً وعمة، وخالاً وخالة؟

فقالوا: أمير المؤمنين أعلم، فأخذ بيد «الحسن بن عليٍّ» وقال: هذا، أبوه «علي بن أبي طالب»، وأمه «فاطمة بنت محمد ﷺ»، وجده رسول الله ﷺ، وجدته «خديجة»، وعمته «هالة بنت أبي طالب»[1]، وخاله «القاسم بن محمد»، وخالته «زينب بنت محمد ﷺ»[2].

وجاء في «تاريخ الخلفاء للسيوطي» قوله: «الحسن بن علي بن أبي طالب» ﵁: «أبو محمد»، سبط رسول الله ﷺ وريحانته.

ثم ذكر «السيوطي» ما أخرجه «ابن سعد» في طبقاته عن «الحسن» و«الحسين» ﵄، فقال: أخرج «ابن سعد»، عن عمران بن سليمان، قال: الحسن والحسين اسمان من أسماء أهل الجنة، ما سمعت العرب بهما في الجاهلية.

وعن عبد الله بن الزبير، قال: أشبه أهل النبي ﷺ به، وأحبهم إليه «الحسين بن علي»، رأيته يجيء وهو ساجد، فيركب رقبته ـ أو قال: ظهره ـ فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيته وهو راكع، فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، قال: كان رسول الله ﷺ يَدْلَعُ لسانه للحسن بن علي، فإذا رأى الصبي حمرة اللسان يهَشُّ إليه.

وعن عمير بن إسحاق، قال: ما تكلم عندي أحد كان أحب إذا تكلم ألا يسكت من «الحسن بن علي»، وما سمعت منه كلمة فحش قط إلا مرة، فإنه كان بين «الحسن» و«عمرو بن عثمان» خصومة في أرض، فعرض «الحسن» أمراً لم يرضه «عمرو»، فقال «الحسن»: فليس له عندنا إلا ما رغم أنفه، قال: فهذه أشد

(١) ليس في بنات أبي طالب «هالة» ولعلها أم هانىء (الطبقات ٨/ ٢٦٧).
(٢) العقد الفريد (٥/ ٨٧).

كلمة فحش سمعتها منه.

وعن عمير بن إسحاق، قال: كان «مروان» أميراً علينا، فكان يسبُّ «علياً» كل جمعة على المنبر، و«حسن» يسمع فلا يرد شيئاً، ثم أرسل إليه رجلاً، يقول له: بِعَليٍّ وبَعليٍّ وبِعَليٍّ، وبِكَ وبِكَ، وما وجدت مثلك إلا مثل البغلة، يقال لها: من أبوك؟ فتقول: أمي الفرس.

فقال له «الحسن»: ارجع إليه فقل له: إني والله! لا أمحو عنك شيئاً مِمَّا قلت بأن أسبَّك، ولكن موعدي وموعدك الله، فإن كنت صادقاً جزاك الله بصدقك، وإن كنت كاذباً فالله أشد نقمة.

وعن زريق بن سوار قال: كان بين «الحسن» وبين «مروان» كلام، فأقبل عليه «مروان» فجعل يغلظ له ـ و«الحسن» ساكت ـ فامتخط «مروان» بيمينه، فقال له «الحسن»: ويحك! أما علمت أن اليمين للوجه، والشمال للفرج؟ أُفٍّ لك! فسكت «مروان».

وعن أشعث بن سوار، عن رجل، قال: جلس رجل إلى «الحسن» فقال: إنك جلستَ إلينا على حين قيامٍ منا، أفتأذنُ؟

وعن عمران بن عبد الله بن طلحة، قال: رأى «الحسن» كأن بين عينيه مكتوباً قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص، الآية: ١] فاستبشر أهل بيته، فقصّوها على «سعيد بن المسيّب»، فقال: إن صدقت رؤياه فقَلَّ ما بقي من أجله، فما بقي إلَّا أيام حتى مات.

وقال العسكري عن «الحسن»: لم يكن هذا الاسم يعرف في الجاهلية.

وقال المفضل: إن الله حجب اسم «الحسن» و«الحسين» حتى سَمَّى بهما النبي ﷺ ابنيه.

وأخرج البخاري، عن أنس، قال: لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من «الحسن بن علي». وأخرج البخاري عن ابن عمر، قال: قال النبي ﷺ: «**هما ريحانتاي من الدنيا**»، يعني «الحسن» و«الحسين».

وأخرج الشيخان، عن البراء، قال: رأيت رسول الله ﷺ و«الحسن» على

عاتقه وهو يقول: «اللهم! إني أحبه» وكان شبيهاً بالنبي ﷺ، سماه النبي ﷺ «الحسن»، وعَقَّ عنه يوم سابعه، وحلق شعره، وأمر أن يتصدق بزنة شعره فضة، وهو خامس أهل الكساء.

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»**.

وأخرج الترمذي عن أسامة بن زيد، قال: رأيت النبي ﷺ والحسن والحسين على وركيه، فقال: **«هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم! إني أحبهما فأَحِبَّهما، وأَحِبَّ من يحبهما»**.

وأخرج عن أنس، قال: سئل رسول الله ﷺ: أي أهل بيتك أحب إليك؟

قال: **«الحسن والحسين»**.

وأخرج الحاكم عن ابن عباس، قال: أقبل النبي ﷺ، وقد حمل «الحسن» على رقبته، فلقيه رجل، فقال: نعم المركب ركبتَ يا غلام! فقال رسول الله ﷺ: **«ونعمَ الراكبُ هو»**.

وأخرج الحاكم عن زهير بن الأرقم، قال: قام «الحسن بن علي» يخطب، فقام رجل من أزد شنوءة، فقال: أشهد، لقد رأيت رسول الله ﷺ واضعه في حَبْوَتِهِ، وهو يقول: **«من أحبني فليحبه»**، وليبلِّغ الشاهد الغائب، ولولا كرامة رسول الله ﷺ ما حدثتُ به أحداً.

وأخرج الحاكم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: لقد حَجَّ «الحسن» خمساً وعشرين حجة ماشياً، وإن النجائب ـ خيار الإبل ـ لَتُقَادُ معه.

وقال له بعض أصحابه بعد تنازله لمعاوية: يا عار المؤمنين! فقال: العار خير من النار، وقال له رجل: السلام عليك، يا مُذِلَّ المؤمنين! فقال: لستُ بمذل المؤمنين، ولكني كرهتُ أن أقتلكم على الملك.

وأخرج ابن عساكر، عن المبرد، قال: قيل للحسن بن علي: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر! أما أنا فأقول: من اتَّكل على حسن اختيار الله لم يَتَمَنَّ أنه في غير الحالة

التي اختارها الله له، وهذا حَدُّ الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء[١].

وكان من أشهر أخباره التي اختلفت فيها الروايات، كثرة زيجاته، وطلاقاته، حتى إن أباه «علي بن أبي طالب» ضاق ذرعاً بتصرفاته تلك، وأهاب بالناس على المنبر ألّا يزوجوه، وقد روي أنه ربما طلّق أربعاً في يوم واحد، وبنى بأربع غيرهن، وقد ذكر بعضهم أنه أحْصَنَ من النساء ـ أي: تزوج وجعلهن في حصن الزوجية ـ أكثر من مائتي امرأة، وهذا ما حدا ببعض المستشرقين لانتقاده، والله أعلم بصحّة هذه المقولة.

وقد أخرج «أبو نعيم» في حليته: حدثنا سليمان بن أحمد، ثنا الحسين بن إسحاق، ثنا عثمان بن أبي شيبة، ثنا عبد الأعلى هشام بن حسان، عن ابن سيرين، قال: تزوج «الحسن بن علي» امرأة فأرسل إليها مائة جارية مع كل جارية ألف درهم[٢].

وعن سليمان بن أحمد، ثنا إسحاق بن إبراهيم، عن عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمٰن بن عبد الله، عن أبيه، عن الحسن بن سعد، عن أبيه، قال: مَتَّعَ «الحسن بن علي» على امرأتيه بعشرين ألفاً، وزِقاق من عسل، فقالت: إحداهما ـ وأراها الحنفية ـ متاع قليل من حبيب مفارق[٣].

وذكر «المصعب الزبيري» في كتابه» نسب قريش أن: «زيد بن الحسن»، «وأمَّ الخير» أمهما: «أم بِشْر بنت أبي مسعود»؛ عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة بن عَمِيرة بن عطيةٍ الأنصاري؛ وأخوهما لأمهما: «عمر بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، و«أم سعيد بنت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل».

و«عمرو بن الحسن» و«القاسم» و«أبا بكر»، لا عقب لهما، قتلا بالطَّفّ و«عبد الرحمٰن» لا عقب له، أمه أم ولد.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٦٦ ـ ١٦٩.
(٢) حلية الأولياء (٢/ ٤٢).
(٣) حلية الأولياء (٢/ ٤٢).

و«حسين بن الحسن» لأم ولد، انقرض.

و«طلحة بن الحسن» دَرَجَ، أمه «أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله» التيمي، وأختا أمه «فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب»، و«آمنة بنت عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق».

و«أمّ عبد الله» و«أمّ سلمة» و«رقية» «بَنَات» «الحسن» لأمهات أولاد شتى[(١)].

وأخرج ابن سعد، عن علي بن الحسين: قال: كان «الحسن مِطْلاقاً للنساء، وكان لا يفارق امرأة إلّا وهي تحبه، وأحصن تسعين امرأة.

وعن ابن سعد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: قال علي: يا أهل الكوفة! لا تزوجوا «الحسن» فإنه رجل مِطْلاق، فقال رجل من هَمْدان: والله! لنزوجَنَّه، فما رضي أمسك وما كره طلَّق.

وعن ابن سعد، عن عبد الله بن حسن، قال: كان «حسن» رجلاً كثيرَ نكاحِ النساء، وكُنَّ قَلَّما يَحْظَيْن عنده، وكان قَلَّ امرأةٌ تَزَوَّجها، إلا أحبته، وصَبَتْ إليه.

وعن ابن سعد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: كان «الحسن» يتزوج ويطلق، حتى خشيت أن يورثنا عداوة في القبائل[(٢)].

وكان من أشهر أزواجه اللائي دخل بهن، وورد اسمها في كتب السير امرأة يقال له «جعدة بنت الأشعث بن قيس» وجاءت شهرتها بسبب ما قيل عن أنها سَمَّته وكانت السبب الذي أفضى إلى وفاته، وقبل أن يجود ﷺ بأنفاسه سأله أخوه «الحسين بن علي» ﷺ عن اسم قاتله فأبى أن يسمي أحداً، وذهب بالسر معه.

قال «أبو نعيم» في الحلية: حدثنا محمد بن علي، ثنا أبو عروبة الحَرَّاني، ثنا سليمان بن عمر بن خالد، ثنا ابن علية، عن أبي عون، عن عمير بن إسحاق،

---

(١) نسب قريش، ص: ٤٩ ـ ٥٠.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ١٦٨.

قال: دخلتُ أنا ورجل على «الحسن بن علي» نعوده، فقال: يا فلان! سلني، قال: لا، والله! لا نسألك حتى يعافيك الله، ثم نسألك، قال: ثم دخل، ثم خرج إلينا، فقال: سلني قبل ألَّا تسألني، فقال: بل يعافيك الله، ثم أسألك، قال: لقد لَقِيتُ طائفة من كبدي، وإني سقيت السم مراراً فلم أُسْقَ مثل هَذه المرة، ثم دَخَلْتُ عليه من الغد، وهو يجود بنفسه، و«الحسين» عند رأسه، وقال: يا أخي! مَنْ تتهم؟ قال: لِمَ لتقتله؟ قال: نعم، قال: إن يكن الذي أظن فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وإلَّا يكن فما أحب أن يقتل بي بريء، ثم قضى رضوان الله تعالى عليه.

وروى «أبو نعيم» عن سفيان بن عيينة، عن رقبة بن مصقلة، قال: لما حُضِرَ «الحسن بن علي» قال: أَخرجُوني إلى الصحراء، لعلي أنظر في ملكوت السماء، فلما أخرج به قال: اللهم! إني احتسبت نفسي عندك، فإنها أعز الأنفس علي، فكان مِمَّا صنع الله ﷻ له أنه احتسب نفسه.

وقال الذين اتهموا زوجة «الحسن»، «جعدة بنت الأشعث» بتسميمه: إنها فعلت ما فعلت بطلب من «معاوية» ووعده لها بمبلغ من المال، وتزويجه لها من ولده «يزيد»، فلما فعلت، وفى لها بالمال، ولم يَفِ بوعد الزواج.

وذكر الواقدي: أن «معاوية» أوعز إلى بعض خدمه فدسَّ له السم، أما «أبو الفرج الأصبهاني» صاحب كتاب «الأغاني» فقد ذكر أن «معاوية» حَرَّض زوجة «الحسن»، «جعدة بنت الأشعث» على ذلك مقابل مال، كما أنه وعدها بأن يزوجها من ابنه «يزيد»، ووفى لها بالمال فقط.

غير أن «السيوطي» وهو الإمام الجليل القادر على التمييز بين غَثّ الروايات وسمينها، ذكر في «تاريخ الخلفاء» ما نصه:

توفي «الحسن» رضي الله عنه بالمدينة مسموماً، سمته زوجته «جعدة بنت الأشعث بن قيس» دَسَّ إليها «يزيد بن معاوية» أن تسمَّه فيتزوجها، ففعلت، فلما مات «الحسن» بعثت إلى «يزيد» تسأله الوفاء بما وعدها، فقال: إنا لم نَرْضَكِ للحسن، أفنرضاك لأنفسنا؟

وكانت وفاته سنة تسع وأربعين، وقيل: في خامس ربيع الأول سنة

خمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين.

وجَهَدَ به أخوه أن يخبره بمن سقاه، فلم يخبره، وقال: الله أشد نقمة إن كان الذي أظن، وإلّا فلا يقتل بي والله بريء!.

هذا ما ذكره «السيوطي» دون تشكيك أو تحفظ، والله أعلم.

وإذا صَحَّ أن «يزيد» كان قد وعدها بالزواج بعد قتل زوجها «الحسن» رضي الله عنه فلما فعلت حنث بوعده لها، فإنه يكون بذلك قد جازاها على عظيم جرمها، وقبيح خيانتها، ولعلَّه عَلِمَ أن التي تقدم على سَمِّ بعلها «الحسن بن علي» ابن بنت رسول الله ﷺ، المعروف أنه سيد شباب أهل الجنة، لن تتورع عن قتل أي إنسان سواه، فخشي «يزيد» على نفسه من أن تمكر به تلك الخائنة، ووجد أن خلفه لوعدها يمنحه السلامة، فكانت أهلاً لخسران الدنيا والآخرة، ويا له من خسران مبين! وجاء في «الطيوريات» عن سليم بن عيسى قارىء أهل الكوفة، قال: لما حضرت «الحسن» الوفاة جزع، فقال له «الحسين»، يا أخي، ما هذا الجزع؟ إنك ترد على رسول الله ﷺ، وعلى «عليّ» وهما أبواك، وعلى «خديجة» و«فاطمة» وهما أُمَّاك، وعلى «القاسم» و«الطاهر» وهما خالاك، وعلى «حمزة» و«جعفر» وهما عَمَّاك.

فقال له «الحسن»: أيْ أخي! إني داخل في أمر من أمر الله تعالى، لم أدخل في مثله، وأرى خلقاً من خلق الله لم أر مثله قط[١].

وكان «الحسن» و«الحسين» و«عبد الله بن جعفر» يتنافسون في الكرم، فخرجوا ذات مرة حَجَّاجاً، فلما كانوا بين الطر يق جاعوا وعطشوا وقد فاتتهم أثقالهم، فنظروا إلى خباء فقصدوه فإذا فيه عجوز، فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا بها، وليس عندها إلّا شويهة، فقالت: احلبوها واشربوا لبنها، ففعلوا ذلك، فقالوا لها: هل من طعام؟ قالت: هذه الشويهة، ما عندي غيرها، فأنا أقسم عليكم بالله إلّا ما ذبحها أحدكم، حتى أهيىء لكم الحطب، فاشووها وكلوا، ففعلوا ذلك، وأقاموا عندها حتى أبردوا ـ أي: دخلوا في آخر

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٧٠.

النهار ـ فلما ارتحلوا من عندها، قالوا لها: يا هذه! نحن نفر من قريش، نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين، فألِمّي بنا، فإنا صانعون بك خيراً، إن شاء الله تعالى، ثم ارتحلوا.

وأقبل زوجها، فأخبرته الخبر، فغضب، وقال: ويحك! تذبحين شاتنا لقوم لا نعرفهم، ثم تقولين: نفر من قريش.

وبعد زمن، أصابت المرأة وزوجها سَنَة ـ جَدْب وقحط ـ فاضطرتهم الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلا يلتقطان البَعْرَ، فمرَّت العجوز في بعض سكك المدينة، ومعها مكتلها تلتقط فيه البعر، و«الحسن» رضي الله عنه جالس على باب داره، فنظر إليها فعرفها، فناداها، وقال لها: يا أمة الله! هل تعرفينني؟ فقالت: لا، فقال: أنا أحد ضيوفك يوم كذا، سنة كذا، في المنزل الفلاني، فقالت: بأبي أنت وأمي! لست أعرفك، قال: فإن لم تعرفيني، فأنا أعرفك، فأمر غلامه فاشترى لها من غنم الصدقة ألف شاة وأعطاها ألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى أخيه «الحسين» رضي الله عنه.

فلما دخل بها الغلام على أخيه «الحسين» عرفها، وقال: بكم وصلها أخي «الحسن؟» فأخبره، فأمر لها بمثل ذلك، ثم بعث بها مع الغلام إلى «عبد الله بن جعفر» رضي الله عنهما، فقال: والله! لو بَدَأتِ بي لأتعبتهما، وأمر لها بألفي شاة وألفي دينار، فرجعت وهي من أغنى الناس.

ولما لامه بعض أصحابه على كثرة إنفاقه، قال: إن الله تعالى عودني عادة أن يفيض عليَّ نعمه، وعودته أن أفيض على الناس، فأخشى إن قطعت العادة أن يمنعني العادة.

وأخرج «السيوطي» عن البيهقي، وابن عساكر، عن طريق ابن المنذر، هشام بن محمد، عن أبيه، قال: أضاق «الحسن بن علي» وكان عطاؤه في كل سنة مائة ألف، فحبسها عنه «معاوية» في إحدى السنين، فأضاق إضاقة شديدة، قال: فدعوتُ بداوة لأكتب إلى «معاوية» لأذكره نفسي، ثم أمسكت، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقال: «كيف أنت يا حسن!؟» فقلت: بخير يا أبتِ! وشكوتُ إليه تأخر المال عني، فقال: «أدعوتَ بداوة لتكتب إلى مخلوقٍ مثلك

تذكره ذلك»؟ فقلت: نعم، يا رسول الله! فكيف أصنع؟ فقال: «قل: اللهم! اقذف في قلبي رجاءك، واقطع رجائي عمن سواك، حتى لا أرجو أحداً غيرك، اللهم! وما ضَعُفَت عنه قوتي، وقصر عنه عملي، ولم تنته إليه رغبتي، ولم تبلغه مسألتي، ولم يجر على لساني مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين، فخُصَّني به يا رب العالمين!» قال: فوالله! ما ألححتُ به أسبوعاً حتى بعث إليّ «معاوية» بألف ألف وخمسمائة ألف، فقلت: الحمد لله الذي لا ينسى مَنْ ذكره، ولا يُخَيِّب من دعاه، فرأيت النبي ﷺ، فقال: «يا حسن! كيف أنت؟» فقلت: بخير يا رسول الله! وحدثته بحديثي، فقال: «يا بني! هكذا من رجا الخالق، ولم يَرْجُ المخلوق»[١].

رحم الله الحسن والحسين وأباهما وأمهما وجدهما رحمة واسعة، وجمعني بهم على حوض المصطفى، لأحظى بشربة واحدة هنيئة مرئية وكفى!.

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٧٠.

١ ـ أزواج معاوية بن أبي سفيان

هو «معاوية بن أبي سفيان» «صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب» وأمه «هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب»، وكنيته «أبو عبد الرحمٰن».

أسلم مع أبيه يوم فتح مكة ـ حرسها الله تعالى ـ وأسلمت أمه وبايعت مع عدة من النساء، وقد ذكر «ابن عساكر» في «أعلام النساء»، عن حميد بن منهب، قال: كانت «هند بنت عتبة» تحت «الفاكه بن المغيرة» المخزومي، وكان «الفاكه» من فتيان قريش، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس عن غير إذن، فخلا ذلك البيت يوماً، فاضطجع «الفاكه» و«هند» في وقت القائلة، ثم خرج «الفاكه» لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشاه، فولج البيت، فلما رأى المرأة ولى هارباً، وأبصره «الفاكه» وهو خارج من البيت، فأقبل إلى «هند» فضربها برجله، وقال: من هذا الذي كان عندك؟

قالت: ما رأيت أحداً، ولا انتبهت حتى أنبهتني، قال لها: الحقي بأبيك، وتكلم فيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية! إن الناس قد أكثروا فيك، فأنبئيني نبأك، فإن يكن الرجل عليك صادقاً، دسستُ إليه من يقتله، فينقطع عنك القالة، وإن يكن كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن، فحلفتْ له بما كانوا يحلفون في الجاهلية إنه لكاذب عليها.

فقال «عتبة» للفاكه: يا هذا! إنك قد رميتَ ابنتي بأمر عظيم، فحاكمني إلى بعض كهان اليمن.

فخرج «الفاكه» في جماعة من بني مخزوم، وخرج «عتبة» في جماعة من بني عبد مناف، وخرجوا معهم بهند ونسوة معهم، فلما شارفوا البلاد قالوا: غداً نَرِدُ على الكاهن، تنكرت حال «هند»، وتغيَّر وجهها، فقال لها أبوها: إنه قد رأى ما

بك من تنكر الحال، وما ذاك عندك إلّا لمكروه، فألا كان هذا قبل أن يشتهر للناس مسيرنا؟ قالت: والله! يا أبتاه ما ذاكَ لمكروه، ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب، ولا آمنه أن يَسِمَني ميسماً يكون عليَّ سبةً في العرب.

قال: إني سوف أختبره قبل أن ينظر في أمرك، فصفَّر لفرسه حتى أدلى، ثم أخذ حبة من حنطة، فأدخلها في إحليله، وأوكأ عليها بِسَيْر ـ قطعة جلد ـ.

فلما وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فلما قعدوا، قال له «عتبة»: إنا قد جئناك في أمر، وإني قد خبأت لك خَبْأً أختبرك به، فانظر ما هو؟

قال: ثمرة في كمرة، قال: أريد أبين من هذا، قال: حبة من بُرٍّ، في إحليل مهر، قال: صدقتَ، انظر في أمر هؤلاء النسوة.

فجعل يدنو من إحداهن، فيضرب كتفها، ويقول: انهضي، حتى دنا من «هند» فضرب كتفها، قال: انهضي غير رسحاء، ولا زانية، ولتلِدِنَّ ملكاً يقال له «معاوية»، فوثب إليها «الفاكه»، فأخذ بيدها، فنثرت يدها من يده، وقالت: إليك، فوالله! لأحرِصَنَّ على أن يكون ذاك من غيرك، فتزوجها «أبو سفيان» فجاءت بمعاوية.

ولما أسلم «أبو سفيان» كَلَّم «هنداً» في متابعته، فأبت، ثم رجعت إلى الصواب، عن عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة بن هشام، عن عروة عن أبيه، قال: قالت «هند» لأبي سفيان: إني أريد أن أتابع «محمداً»، قال: قد رأيتك تكرهين هذا الحديث أمس، قالت: إني والله والله! ما رأيت الله عُبِدَ حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله! إن يأتوا إلّا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً.

قال: فإنك قد فعلت ما فعلت، فاذهبي برجل من قومك معك، فذهبت إلى «عثمان» فذهب معها، فاستأذن لها، ودخلت وهي منَقَّبة، فقال: **«تبايعيني على ألّا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقي، ولا تزني»**، فقالت: أو هل تزني الحرة؟ قال: **«لا، ولا تقتلي ولدك»** فقالت: إنا ربيناهم صغاراً، وقتلتهم كباراً، قال: **«قتلهم الله، يا هند!»**.

فلما فَرَغَ من الآية بايعته، فقالت: يا رسول الله! إني بايعتك على ألَّا أسرق، ولا أزني، وإن أبا سفيان رجل بخيل، ولا يعطيني ما يكفيني إلَّا ما أخذتُ منه من غير علمه، قال: «ما تقول يا أبا سفيان!؟» فقال «أبو سفيان»: أما يابساً فلا، وأما رطباً فأحله، قال: فحدثتني «عائشة» أن رسول الله ﷺ قال لها: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[1].

وتحققت نبوءة الكاهن، ووضعت «هند» لأبي سفيان ولده «معاوية»، وذات مرة كانت تمشي وهي ممسكة بيد ولدها، فقيل لها: إن عاش ولدك ساد قومه، فقالت: ثكلته إن لم يسد إلَّا قومه.

ولما كبر «معاوية» قال عن أمه «هند»: إنها في الجاهلية عظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخِيَر.

وشهدت يوم أحد، مع زوجها «أبي سفيان» وهما ـ يومئذ ـ مشركان، ووعدت «وحشي بن حرب» إن قتل لها «حمزة بن عبد المطلب» رضي الله عنه، بأبيها «عتبة» وعمها «شيبة» وأخيها «الوليد»، بجائزة قيمة، ولما تمكّن من قتله، وأخبرها بذلك نزعت حَلْيَ ساعديها وقدميها، وأعطتها إليه، ثم انطلقت بخنجرها، وبقرت بطن «حمزة» واستخرجت كبده، فقضمت قضمة ولاكتها إلَّا أنها لم تُسِغْها فلفظتها، وكان أهلها قد صرعوا يوم بدر مع نفر من زعماء قريش، وأكابر سفهائها.

وكانت «هند» قد ملكت ناصية الفصاحة والبيان، وكانت شاعرة، ومن أقوالها:

شفيتُ من حمزة نفسي بأحُدْ ... حتى بقرتُ بطنه على الكبدْ
أذهب عني ذاك ما كنتُ أجدْ ... من لذغة الحزن الشديد المعتمدْ

وقالت أيضاً:

نحن جزيناكم بيوم بدرِ ... والحرب بعد الحرب ذات سُعُرِ
ما كان عن عتبة لي من صبرِ ... ولا أخي وعمه وبكرِي

(١) أعلام النساء لابن عساكر، ص: ٣٥٢ ـ ٣٥٧ ط. دار الفكر.

شفيتُ نفسيَ ومضيتُ نذري ... شفيتَ وحشي غليل صَدْرِيَ
فشكر وحشي عليَّ عُمْرِي ... حتى تَرِمَّ أعظمي في قَبْرِي

ولكن الشاعرة المؤمنة «هند بنت أُثاثة» تصدَّت لها، وردَّت عليها، فقالت:

خزيتِ في بدرٍ وبعد بدرِ ... يا بنتَ وَقَّاع عظيم الكفرِ
صبَّحَكِ الله غداة الفجرِ ... مع الهاشميين الطوال الزُّهرِ
بكل قطَّاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي ... حمزةُ ليثي وعليُّ صقرِي
إذا رام شَيْبٌ وأبوكَ غدري ... فخضَّبا منه ضواحي النَّحْرِ

ولما كان الإسلام يَجُبُّ ما قبله، ولذا صفح رسول الله ﷺ عن الجريمة النكراء التي ارتكبتها «هند» بحق عمه «حمزة»، وإذ إنها بعد مبايعتها لرسول الله ﷺ حسرت نقابها وقالت: أنا «هند بنت عتبة» فقال لها رسول الله ﷺ «مرحباً بك»، فقالت: والله يا رسول الله! ما كان على الأرض من أهل خِباء أحب إليَّ أن يذلُّوا من أهلِ خبائك، ولقد أصبحت وما على وجه الأرض من أهل خِباء أحب إليَّ أن يعزُّوا من أهل خبائك، فما أعظم الإسلام وما أعز أهله! ومن يبتغ غيره ديناً فهو في الآخرة من الخاسرين.

وكان «معاوية» مضرب المثل في الحلم والدهاء، وقد لَخَّصَ نهجه في الحكم بالعبارة الشهيرة التي قالها: لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، فإذا شدوها أرخيتُها، وإذا أرخوها شددتُها.

وبعد مصرع «علي بن أبي طالب» ﵁ وتنازل ابنه «الحسن بن علي» ﵄ لمعاوية، أمكن لمعاوية ﵁ التخلص من خصومه الواحد تِلْوَ الآخر، وتوطيد دعائم ملكه، ثم طمح لعقد ولاية العهد لولده «يزيد بن معاوية» إلا أن هذه الرغبة كان لها معارضون لا يستهان بقدراتهم.

وقد أخرج «ابن جرير الطبري» في تاريخه، عن هشام بن محمد، عن أبي مخنف، قال: حدثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة؛ أن «معاوية» لما مرض مرضَته التي هلك فيها دعا «يزيد» ابنه، فقال: يا بني! إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطَّأتُ لك الأشياء، وذلَّلتُ لك الأعداء، وأخضعتُ لك أعناق العرب، وجمعتُ لك من جمعٍ واحد، وإني لا أتخوف أن ينازعك

هذا الأمر الذي استتبَّ لك إِلَّا أربعة نفر من قريش، «الحسين بن علي»، و«عبد الله بن عمر»، و«عبد الله بن الزبير»، و«عبد الرحمٰن بن أبي بكر».

فأما «عبد الله بن عمر» فرجلٌ قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما «الحسين بن علي» فإن أهل العراق لن يَدَعُوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرتَ به، فاصفح عنه، فإن له رَحِماً ماسَّة، وحقاً عظيماً.

وأما «ابن أبي بكر» فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس له همة إلا في النساء واللهو.

وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك «ابن الزبير»، فإن هو فعلها بك فَقَدرْتَ عليه، فقطِّعه إرباً إرباً.

قال هشام: قال عوانة: قد سمعنا في حديث آخر أن «معاوية» لما حضره الموت ـ وذلك في سنة ستين ـ وكان «يزيد» غائباً، فدعا بالضحَّاك بن قيس الفهري ـ وكان صاحب شرطته ـ و«مسلم بن عقبة المري»، فأوصى إليهما، فقال: بَلِّغا «يزيد» وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عَزْل عامل أحب إليَّ من أن تُشْهِرَ عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعَيْبَتَك، فإنْ نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريش إلَّا ثلاثة: «حسين بن علي»، و«عبد الله بن عمر»، و«عبد الله بن الزبير».

فأما «ابن عمر» فرجل قد وَقَذه الدِّين، فليس ملتمساً شيئاً قِبَلَكَ.

وأما «الحسين بن علي» فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رَحِماً ماسَّةً وحقاً عظيماً، وقرابةً من «محمد» ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرتَ عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه.

وأما «ابن الزبير» فإنه خَبٌّ ضَبٌّ، فإذا شخص لك فالْبُدْ له، إلَّا أن يلتمس

منك صلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت[١].

وقال الإمام «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: ثم حَجَّ «معاوية» سنة إحدى وخمسين، وأخذ البيعة لابنه، فبعث إلى «ابن عمر» فتشهد وقال: أما بعد، يابن عمر! إنك كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء، ليس عليك فيها أمير، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين أو تسعى في فساد ذات بينهم.

فحمِدَ «ابن عمر» الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنه قد كان قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار، وإنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين، ولم أكن لأفعل، وإنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم، فقال: يرحمك الله! فخرج «ابن عمر».

ثم أرسل إلى «ابن أبي بكر»، فتشهد، ثم أخذ في الكلام فقطع عليه كلامه، وقال: إنك لوددتَ أنا وَكَلْنَاك في أمر ابنك إلى الله، وإنا والله لا نفعل، والله! لتردَّنَّ هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لنُعيدَنّها عليك جَذَعة، ثم وثب ومضى.

فقال «معاوية»: اللهم! اكفنيه بما شئت، ثم قال: على رِسْلِكَ، أيها الرجل لا تُشْرِفَنَّ على أهل الشام، فإني أخاف أن يسبقوني بنفسك حتى أُخْبَرَ العشية أنك قد بايعتَ، ثم كن بعدُ على ما بدا لك من أمرك.

ثم أرسل إلى «ابن الزبير»، فقال: يابن الزبير! إنما أنت ثعلب روَّاغ، كلما خرج من جُحْر دخل في آخر، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين، فنفخت في مناخرهما، وحملتهما على غير رأيهما.

فقال «ابن الزبير»: إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها، وهَلُمَّ ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع ونطيع؟ لا تجتمع البيعة لكما أبداً، ثم راح فصَعِدَ «معاوية» المنبر، فحمِد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عَوَار، زعموا أن «ابن عمر» و«ابن أبي بكر» و«ابن الزبير» لن يبايعوا

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٤ ـ ٣٢٣).

«يزيد»، وقد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له، فقال أهل الشام: والله! لا نرضى حتى يبايعوا له على رؤوس الأشهاد، وإلّا ضربنا أعناقهم، فقال: سبحان الله! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر، لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم، ثم نزل فقال للناس: بايع «ابن عمر» و«ابن أبي بكر» و«ابن الزبير»، وهم يقولون: لا والله! ما بايعنا، فيقول الناس: بلى، وارتحل «معاوية» فلحق بالشام.

وعن «ابن المنكدر»: قال: قال «ابن عمر» حين بويع «يزيد»: إن كان خيراً رضينا، وإن كان بلاء صبرنا[1].

وكان «معاوية» إلى حلمه ودهائه بليغاً فصيحاً يزن الكلام بدقة تبدي عن حسن فهم، ويجزي على القول البديع بموفور الجزاء.

فقد جاء في «الطيوريات» عن سليمان المخزومي، قال: أذن «معاوية» للناس إذناً عاماً، فلما احتفل المجلس، قال: أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كل بيت قائم بمعناه، فسكتوا، ثم طلع «عبد الله بن الزبير»، فقال: هذا مِقْوالُ العرب وعَلّامتها «أبو خُبَيْب»، قال: مَهْيَمْ؟

قال: أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كل بيت قائم بمعناه، قال: بثلاثمائة ألف، قال: وتساوي؟ قال: أنت بالخيار، وأنت وافٍ كافٍ، قال: هات، فأنشده للأفوه الأودي، قال:

بلوتُ الناس قَرْناً بعد قَرْن ... فلم أر غير خَتّالٍ وقالِ

قال: صدق هيه، قال:

ولم أرقَ الخطوب أشدَّ وقعاً ... وأصعب من معاداة الرجالِ

قال: صدق هيه، قال:

وذُقتُ مرارة الأشياء طراً ... فما طعمٌ أمرُّ من السؤالِ

قال: صدق ثم أمر له بثلاثمائة ألف.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٧٤.

وأخرج ابن عساكر، عن حميد بن هلال أن «عقيل بن أبي طالب» سأل «علياً» فقال: إني محتاج وإني فقير فأعطني، فقال: اصبر حتى يخرج عطائي مع المسلمين فأعطيك معهم، فألَحَّ عليه، فقال لرجل: خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق، فقل: دق هذه الأقفال، وخذ ما في هذه الحوانيت، قال: تريد أن تتخذني سارقاً؟ قال: وأنت تريد أن تتخذني سارقاً؟ أن آخذ أموال المسلمين فأعطيكها دونهم، قال: لآتين «معاوية»، قال: أنت وذاك، فأتى «معاوية» فسأله، فأعطاه مائة ألف، ثم قال: اصعد على المنبر، فاذكر ما أولاك به «علي» وما أوليتك، فصَعِدَ، فَحَمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! إني أخبركم أني أردت «علياً» على دينه، فاختار دينه، وإني أردت «معاوية» على دينه، فاختارني على دينه[1].

وفي شهر رجب سنة (٦٠ هـ) مات «معاوية» رحمه الله تعالى، فصَعِدَ المنبر «الضحاك بن قيس» وأكفان «معاوية» على يديه، فحَمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن «معاوية» كان عود العرب، وحد العرب، وجد العرب، قطع الله به الفتنة، وملكه على العباد، وفتح البلاد، إلا أنه قد مات، وهذه أكفانه، ونحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومخلُّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، ولما وصل الخبر إلى ابنه «يزيد»، قال:

جاء البريد بقرطاسٍ يخُبُّ به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا في كتابكم؟ ... قالوا الخليفة أمسى مُثْبَتاً وجِعا
ثم انبعثنا إلى خوصٍ مرَمَّمةٍ ... نرمي الفجاج بها لا نأتلي سرعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسهُ توفي على شَرَفٍ ... توشكُ مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدارُ منصَفِقٌ ... وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئاً بعد طيرته ... والنفس تعلم أنه قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كانا جميعاً فماتا قاطنين معا
أغر أبلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٧٩ ـ ١٨٠.

وكان «يزيد» حين وفاة «معاوية» بحُوَّارين، فكتبوا إلى «يزيد»، فأقبل وقد دُفِنَ، فأتى قبره فصلى عليه، ودعا له، ثم أتى منزله، فقال الأبيات السابقة.

وجاء في سيرته: أنه تزوج أربع نسوة، هن:

ـ ميسون بنت بَحْدَل.

ـ فاختة بنت قرظة.

ـ نائلة بنت عمارة الكلبية.

ـ كتوة بنت قرظة.

وذكر «أبو جعفر الطبري» في تاريخه نساء «معاوية» وولده، فقال:

ـ من نسائه: «ميسون بنت بَحْدَل بن أنيف بن وَلجة بن مَنافة بن عدي بن زهير بن حارثة بن جناب الكلبي، ولدت له: «يزيد بن معاوية»، قال علي: ولدت «ميسون» لمعاوية مع «يزيد» أمَة ـ رب المشارق ـ فماتت صغيرة، ولم يذكرها «هشام» في أولاد «معاوية».

ـ ومنهن «فاختة بنْت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف»، ولدت له: «عبد الرحمٰن» و«عبد الله» ابني «معاوية».

وكان «عبد الله» محمقاً ضعيفاً، وكان يكنّى «أبا الخير»، حدثني أحمد، عن علي بن محمد، قال: مَرَّ «عبد الله بن معاوية» يوماً بطحّان، قد شدَّ بغله في الرحمٰن للطحن، وجعل في عنقه جَلاَجل ـ أجراس جمع جُلْجُل ـ، فقال له: لم جعلت في عنق بغلك هذه الجلاجل؟ فقال الطحان: جعلتُها في عنقه لأعلم إن قد قام فلم تدر الرحى، فقال له: أرأيت إن هو قام وحَرَّك رأسه، كيف تعلم أنه لا يدير الرحى؟ فقال له الطحان: إن بغلي هذا ـ أصلح الله الأمير ـ ليس له عقل مثل عقل الأمير! وأما «عبد الرحمٰن» فإنه مات صغيراً.

ـ ومنهن «نائلة بنت عمارة الكلبية» تزوَّجها، فحدثني أحمد، عن علي، قال: لما تزوج «معاوية» «نائلة» قال لميسون: انطلقي فانظري إلى ابنة عمك، فنظرت إليها، فقال: كيف رأيتها؟ فقالت: جميلة كاملة، ولكن رأيت تحت سرتها

خالاً ليوضعن رأس زوجها في حَجْرها، فطلقها «معاوية»، فتزوجها «حبيب بن مسلمة الفهري»، ثم خلف بعد «حبيب»، «النعمان بن بشير الأنصاري» فقتل، ووُضِع رأسه في حَجْرها.

ـ ومنهن «كَنْوَة» بنت قرظة» أخت «فاختة»، فغزا قبرص، وهي معه، فماتت هنالك(١).

وأخرج «ابن عساكر» في كتابه «أعلام النساء» في ترجمة «ميسون بنت بَحْدَل»، قال: هي «ميسون بنت بَحْدل بن أُنَيْف بن دُلْجَة بن قنافة بن عدي بن زهير بن حارثة بن جناب بن امرىء القيس بن حارثة»، ويقال: «ابن زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كاسب» الكلبية، زوج «معاوية بن أبي سفيان» وأم «يزيد بن معاوية» روت عن «معاوية»، روى عنها «محمد بن علي» وكانت امرأة لبيبة. بلغني أن «معاوية» دخل عليها، ومعه «حديج الخصي»، فاستترت منه، فقال لها «معاوية»: «إن هذا بمنزلة المرأة، فعلام تستترين منه؟ فقالت له: كأنك ترى أن المُثْلَة أحلَّت له مني ما حرم الله عليه.

عن «ميسون بنت بَحْدَل» امرأة «معاوية»، عن «معاوية» أن النبي ﷺ قال: «**سيكون قوم ينالهم الإخصاء فاستوصوا بهم خيراً**».

عن عبيد الله بن سعد الزهري، عن عمه قال: أم «يزيد بن معاوية»، «ميسون بنت بَحْدَل بن أنيف بن دُلْجة بن قنافة بن زهير بن حارثة بن جناب» وأمها «أسدة بنت أسيد بن ثعلبة بن سويد بن إسحاق بن حارثة بن هبل» وأمها «ابنة صامت بن قيس بن حارثة بن مبذول بن القين» كذا قال، و«قنافة» هو «ابن عدي بن زهير» كذلك قال «الزبير».

وعن محمد بن سعد، قال: «ميسون بنت بَحْدَل بن أنيف بن دُلْجة بن قنافة بن عدي بن زهير بن حارثة بن جناب بن ذهل بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب.

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٩).

وعن أبي الحسن الدارقطني، قال: وأما «ميسون» فهي «ميسون بنت بَحْدَل بن أنيف» الكلبية، أم «يزيد بن معاوية بن أبي سفيان».

قال «أبو بكر بن دريد» تزوج «معاوية بن أبي سفيان»، «ميسون بنت بَحْدَل» الكلبية، أم «يزيد» فبقيت عنده مديدة، فسئمته، فأنشأت تقول وحنّت إلى وطنها:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إليَّ من قصر منيفِ
وكلب ينبح الطُّرَّاق عني ... أحب إليَّ من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحب إلي من بغل زفوفِ
ولُبْسُ عباءة وتقر عيني ... أحب إليَّ من لبس الشفوفِ
وخرق من بني عمي نحيف ... أحب إليَّ من علج عَليفِ
وأصوات الرياح بكل فجٍّ ... أحب إليَّ من نقر الدفوفِ
خشونة عيشتي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العيش الطريفِ
فما أبغي سوى وطني بديلاً ... فحسبي ذاك من وطن شريفِ

فقال «معاوية»: جعلتني علجاً، وطلّقها وألحقها بأهلها[1].

ومن الأخبار الدالة على فضل رأي «معاوية بن أبي سفيان» وحلمه، أن أخته «جويرية بنت أبي سفيان» دخلت عليه، تشكو إليه الأرق، فقال: ولِمَ ذاك يا أخته! قالت: وايم الله!؟ إنه لمن غير ألم، وما هو إلا تفكر فيك وفي «علي بن أبي طالب» وتفضيل الناس «علياً» عليك، وأنت «ابن صخر بن حرب بن أمية»، وكان أمية ابن قريش لنابُها ـ أي: زعيمها ـ، الذي تقضي عنده آرابها، وأنت «ابن صخر بن حرب بن أمية» القائل الفاعل، ابن ماء المزن الحُلاحِل ـ أي: السيد الشجاع ـ، وأنت بعد ذلك كاتب رسول الله ﷺ، وذو صهره من أمته، ونجيبه من عترته.

فقال لها «معاوية»: فعلى «عليٍّ» تعولين بالشرف، وهو ابن «عبد المطلب»، المطعم في الكرب، الفراج للكرب، مع ما كان له من الفواضل والسوابق مع رسول الله ﷺ، أما إني سأريك التي حاولت وحاولت، حتى تعلمي فضل رأيي

(١) أعلام النساء لابن عساكر (٣٣٣ ـ ٣٣٥) ط. دار الفكر.

وحلمي، فادخلي القبة، وأرخي عليك السِّجْفَ، ثم قال لآذنه: انظر من بالباب، فإذا هو بأربعة من بني تميم: «الأحنف بن قيس» و«زيد بن جُلَبة» و«جارية بن قدامة» و«سماك بن مَخْرَمة»، فقال: إيذن للأحنف بن قيس، فدخل وقضى سلامه، فقال: إيهاً يا حنيفَ بُنَيَّ قيس! قال: مهلاً، يا أمير المؤمنين! بل «الأحنف بن قيس».

قال: أأنت المطلع غدراً، الناظر في عطفيه شزراً، تحمل قومك على مُذلَهِمَّات الفتن، وتذكرهم بقديمات الإحن، مع قتلك أمير المؤمنين «عثمان» وخذلانك أم المؤمنين «عائشة» وورودك عليَّ بالخيل يوم «صِفِّين»؟

فقال: والله يا أمير المؤمنين! إن منه ما أعرف، ومنه ما أنكر، فأما قولك: قتل أمير المؤمنين، فأنتم معشر قريش نحرتم وَدَجَه ـ عرق في العنق إذا قطع انتهت الحياة، وهو ينتفخ عند الغضب ـ، وسقيتم الأرض دمه.

وأما قولك: خذلاني أم المؤمنين «عائشة» فإني نظرتُ في كتاب الله، فلم أرَ لها عليَّ حقاً إلّا أن تقرَّ في بيتها وتستتر بسترها، فلما برزت عطَّلت ما كان لها عليَّ من حق، وأما قولك: ورودي عليك بالخيل يوم «صِفِّين»، حين أردت أن تقطع أعناقهم عطشاً، وتقتلهم غَرَثاً ـ جوعاً ـ، وايم الله! لو أحد الأعجمين غلب كانوا أنكى شوكة وأشد كلباً، قال: اخرج عني.

ثم قال: إيذنوا لزيد بن جُلَبَة، فدخل وقضى سلامه، فقال: إيهاً يا زيدُ بَنَيَّ جُليْبَة! قال: مهلاً، يا أمير المؤمنين! بل «زيد بن جُلَبَة» يا أمير المؤمنين!.

إنا فرزنا قريشاً كلها، فوجدناك آمنها عهداً، وأوفاها عقداً، فإن تَفِ فأهل الوفاء أنت، وإن تغدِرْ، فإنا خلَّفْنا خَلْفنا خيلاً جياداً، وأذرعة شداداً، وأسنَّةً حداداً، وإن شئت لَتُضفِيَنَّ روعة صدورها بفضل رأيك وحلمك، قال: إذن نفعل، قال: إذن نقبل، قال: اخرج عني.

ثم قال: إيذن لجارية بن قدامة، فدخل وقضى سلامه، فقال له: إيهاً يا جويرية بُنَيَّ قدامة! قال: مهلاً يا أمير المؤمنين! بل «جارية بن قدامة» يا أمير المؤمنين! إنا كنا نُصَّار حرب يوم الفجار، حين حزتم الغبار، وهَمَّت قريش بالفرار، فقال له: مَهْ، لا أرضى لك، أنت الذي قريتَ أهل الشام ظباة السيوف

وأطراف الرماح، قال: إي والله يا أمير المؤمنين! إني لأنا هو، ولو كنتَ بالمكان الذي كان فيه أهل الشام لقريتُك بمثل ما قريتهم به، قال: فحاجتك يا أبا فندش؟ قال: أما إنها إليك غير طويلة، تقر الناس في بيوتهم، فلا توفدهم إليك، إنما يوفد إليك الأغنياء وتذرون الفقراء.

قال: إيذن لسماك بن مَخْرَمة، فدخل وقضى سلامه، فقال: إيهاً، يا سُمَيْكُ بُنَيَّ مَخْرَمة! قال: مهلاً، يا أمير المؤمنين! بل «سماك بن مَخْرَمة»، والله! يا أمير المؤمنين! ما أحببناك منذ أبغضناك، ولا أبغضنا «علياً» منذ أحببناه، وإن السيوف التي ضربناك بها لعلى عواتقنا، وإن القلوب التي قاتلناك بها لبين جوانحنا، ولئن قدَّمت إلينا شبراً من غَدْر، لَنُقَدِّمَنَّ إليك باعاً من خَتْر ـ أقبح العذر ـ قال: اخرج عني.

ثم قال لأخته: الذي عانيت من قبيلة واحدة، فماذا رأيت؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين! لقد ضاق بي مجلسي حتى أردت أن أكلمهم لما كلموك به، قال: إذاً والله! كانوا إليكِ أسرع، وعليك أجرأ هم العرب لا تُقِرُّوها[(١)].

وكان «عمر بن الخطاب» متابعاً شديداً لعماله عياناً أو كتابة، فقد روى «أبو جعفر الطبري» في تاريخه: حدثني أحمد بن زهير، عن علي بن محمد، قال: حدثنا أبو محمد الأموي، قال: خرج «عمر بن الخطاب» إلى الشام، فرأى «معاوية» في موكبٍ يتلقّاه، وراح إليه في موكب.

فقال له «عمر»: يا معاوية! تروح في موكب، وتغدو في مثلِه؛ وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك!

قال: يا أمير المؤمنين! إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً.

فقال له «عمر»: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خُدْعة رجل أريب، فقال «معاوية»: يا أمير المؤمنين! مُرْني بما شئت أصِرْ إليه، قال: ويحك! ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك![(٢)].

وروى «السيوطي» عن ابن عساكر، عن الشعبي، قال: دهاة العرب أربعة:

---

(١) أعلام النساء لابن عساكر، ص: ١٢٩ ـ ١٣٢.
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٣٣١).

«معاوية» و«عمرو بن العاص» و«المغيرة بن شعبة» و«زياد»، فأما «معاوية» فللحلم والأناة، وأما «عمرو» فللمعضلات، وأما «المغيرة» فللمبادهة، وأما «زياد» فللكبير والصغير.

وأخرج أيضاً عنه، قال: كان القضاة أربعة، والدهاة أربعة، فأما القضاة: فعمر، وعلي، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأما الدهاة: فمعاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد.

وأخرج عن قبيصة وجابر، قال: صحبت «عمر بن الخطاب» فما رأيت أقرأ لكتاب الله، ولا أفقه في دين الله منه، وصحبت «طلحة بن عبيد الله» فما رأيت رجلاً أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه، وصحبت «معاوية» فما رأيت رجلاً أثقل حلماً، ولا أبطأ جهلاً، ولا أبعد أناة منه، وصحبت «عمرو بن العاص» فما رأيت رجلاً أنصع طرفاً، ولا أحلم جليساً منه، وصحبت «المغيرة بن شعبة»، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر، لخرج من أبوابها كلها.

وأخرج ابن عساكر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، أن عقيلاً دخل على «معاوية» فقال «معاوية»: هذا «عقيل» وعمه «أبو لهب»، فقال «عقيل»: هذا «معاوية» وعمته «حمالة الحطب».

وكان «معاوية» أول من أحدث ديوان الخاتم، قال ابن جرير الطبري في تاريخه: وكان أول من اتخذ ديوان الخاتم، قال: وكان سبب ذلك أن «معاوية» أمر لعمرو بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمائة ألف درهم، وكتب بذلك إلى «زياد بن سمية» وهو على الطرق، ففضَّ «عمرو» الكتاب و«صَيَّر المائة مائتين».

فلما رفع «زياد» حسابه، أنكرها «معاوية»، فأخذ «عَمْراً» وحبسه، فأداها عنه أخوه «عبد الله بن الزبير»، فأحدث «معاوية» عند ذلك ديوان الخاتم، وخزم الكتب، ولم تكن تخزم.

وعن جعفر بن بُرْقان، أن «المغيرة» كتب إلى «معاوية»: أما بعد، فإني قد كبرت سني، ودقَّ عظمي، وشَنِفَت لي قريش ـ أي: أبغضتني ـ، فإن رأيت أن تعزلني فاعزلني.

فكتب إليه «معاوية»: جاءني كتابك تذكر فيه أنه كبرت سنك، فلعمري ما أكل عمرَك غيرُك، وتذكُرُ أن قريشاً شَنِفَت لك، ولعمري ما أصبتَ خيراً إلا منهم، وتسألني أن أعزلك، فقد فعلت، فإن تك صادقاً فقد شفَّعتُك، وإن تك مخادعاً، فقد خدعتُك[١].

وعن سيد المقبري، قال «عمر بن الخطاب» ﷺ: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما، وعندكم «معاوية»! رحمه الله تعالى.

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

٢ ـ أزواج يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

هو «يزيد بن معاوية بن أبي سفيان؛ صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب» وأمه «ميسون بنت بَحْدَل» الكلبية.

أراد «معاوية بن أبي سفيان» أن يخلفه بعد وفاته ولده «يزيد بن معاوية»، بَيْدَ أن إرادته اصطدمت بمعارضة شديدة من أربعة نفر من قريش وهم: «الحسين بن علي» و«عبد الرحمٰن بن أبي بكر» و«عبد الله بن عمر» و«عبد الله بن الزبير» ﭬ.

وكان للمغيرة بن شعبة دور كبير في ترسيخ فكرة البيعة ليزيد في ذهن «معاوية»، ذلك أن «المغيرة» كان عامل «معاوية» على الكوفة، فكتب إليه «معاوية»: إذا قرأت كتابي فأقبِلْ معزولاً، فأبطأ عليه، فلما جاءه، قال: ما الذي أخَّرك؟ قال: أمر كنت أوطئة وأهيئه، قال: وما هو؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك! قال: أوَ قد فعلت؟ قال: نعم، قال: ارجع إلى عملك، فلما خرج قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت رجل «معاوية» في غَرْزِ غَيٍّ لا يزال فيه إلى يوم القيامة.

قال الحسن البصري ـ عليه الرحمة والرضوان ـ أفسد أمر الناس اثنان «عمرو بن العاص» يوم أشار على «معاوية» برفع المصاحف فحملت، ونال من القراء، فحكم الخوارج، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة، والمغيرة بن شعبة بشأن البيعة ليزيد، وقال «الحسن»: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة.

وروى «ابن جرير الطبري»، عن هشام بن محمد، عن أبي مخنف، ولي «يزيد» في هلال رجب سنة ستين، وأمير المدينة «الوليد بن عتبة بن أبي سفيان» وأمير الكوفة «النعمان بن بشير» الأنصاري، وأمير البصرة «عبيد الله بن زياد»، وأمير مكة «عمرو بن سعيد بن العاص» ولم يكن ليزيد هِمَّته حين ولي إلَّا بيعه

النفر الذين أَبَوْا على «معاوية» الإجابة إلى بيعة «يزيد» حين دعا الناس إلى بيعته، وأنه ولي عهده بعده، والفراغ من أمرهم، فكتب إلى الوليد: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من يزيد أمير المؤمنين إلى «الوليد بن عتبة»، أما بعد، فإن «معاوية» كان عبداً من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه، وخَوَّله، ومكَّن له، فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محموداً، ومات بَرًّا تَقياً، والسلام.

وكتب إليه في صحيفة كأنها أذن فأرة: أما بعد، فخذ «حسيناً» و«عبد الله بن عمر» و«عبد الله بن الزبير» بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام.

فلما أتاه نَعِيُّ «معاوية» فَظِعَ به، وكبُر عليه، فبعث إلى «مروان بن الحكم» فدعاه إليه ـ وكان «الوليد» يوم قدم المدينة قدمها «مروان» متكارهاً ـ فلما رأى ذلك «الوليد» منه شتمه عند جلسائه، فبلغ ذلك «مروان»، فجلس عنه وصرمه، فلم يزل كذلك حتى جاء نَعِيُّ «معاوية» إلى «الوليد»، فلما عظم على «الوليد» هلاك «معاوية» وما أمر به من أخذ هؤلاء الرهط بالبيعة، فزع عند ذلك إلى «مروان»، ودعاه، فلما قرأ عليه كتاب «يزيد»، استرجع وترحَّم عليه، واستشاره «الوليد» في الأمر، وقال: كيف ترى أن نصنع؟ قال: فإني أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة، والدخول في الطاعة، فإن فعلوا قبلت منهم، وكففت عنهم، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت «معاوية»، فإنهم إن علموا بموت «معاوية» وثَبَ كل امرىء منهم في جانب، وأظهر الخلاف والمنابذة، ودعا إلى نفسه لا أدري؛ أما «ابن عمر» فإني لا أراه يرى القتال، ولا يحب أن يولَّى على الناس، إلَّا أن يُدْفَعَ إليه هذا الأمر عفواً.

فأرسل «عبد الله بن عمرو بن عثمان» ـ وهو إذ ذاك غلام حدث ـ إليهما يدعوهما، فوجدهما في المسجد وهما جالسان، فأتاهما في ساعة لم يكن «الوليد» يجلس فيها للناس، ولا يأتيانه في مثلها، فقال: أجيبا الأمير يدعوكما، فقالا له: انصرف الآن نأتيه، ثم أقبل أحدهما على الآخر، فقال «عبد الله بن الزبير» للحسين: ظُنَّ فيما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها!

فقال «حسين»: قد ظننت، أرى طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر. فقال: وأنا ما أظن غيره، قال: فما تريد أن تصنع؟ قال: أجمع فتياني الساعة، ثم أمشي إليه، فإذا بلغتُ الباب احتبستهم عليه، ثم دخلت عليه، قال: فإني أخافه عليك إذا دخلت، قال: لا آتيه إلا وأنا على الامتناع قادر، فقام فجمع إليه مواليه وأهل بيته، ثم أقبل يمشي حتى انتهى إلى باب «الوليد»، وقال لأصحابه: إني داخل، فإن دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا، فاقتحموا عليَّ بأجمعكم، وإلّا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم، فدخل فسلَّم عليه بالإمرة، و«مروان» جالس عنده، فقال «حسين»؛ كأنه لا يظن ما يظن من موت «معاوية»: الصلة خير من القطيعة، أصلح الله ذات بينكما! فلم يجيباه في هذا بشيء، وجاء حتى جلس، فأقرأه «الوليد» الكتاب، ونعى له «معاوية»، ودعاه إلى البيعة، فقال «حسين»: وإنا لله وإنا إليه راجعون! ورحم الله «معاوية»، وعظَّم لك الأجر! أما ما سألتني من البيعة فإن مثلي لا يُعْطي بيعته سراً، ولا أراك تجتزىء بها مني سراً دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية، قال: أجَلْ، قال: فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس، فكان أمراً واحداً، فقال له «الوليد» ـ وكان يحب العافية ـ: فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس، فقال له «مروان»: والله! لئن فارقك الساعة، ولم يبايع، لا قدرتَ منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجلَ، ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه، فوثب عند ذلك «الحسين»، فقال: يابن الزرقاء! أنت تقتلني أم هو؟، فقال «مروان» للوليد: عصيتني، لا والله! لا يُمكِنُك من مثلها من نفسه أبداً، قال «الوليد»: وَبِّخْ غيرك يا مروان! إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني، والله! ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا ومُلكِها، وأني قتلت «حسيناً»، سبحان الله! أقتل «حسيناً» أن قال: لا أبايع! والله! إني لا أظن امرءاً يُحَاسَب بدم «حسين» لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة، فقال له «مروان»: فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت، يقول هذا له، وهو غير الحامد له على رأيه.

وأما «ابن الزبير»، فقال: الآن آتيكم، ثم أتى داره فكمن فيها، فبعث «الوليد» إليه فوجده مجتمعاً في أصحابه متحرزاً، فألحَّ عليه بكثرة الرسل والرجال

في إثر الرجال، فأما «حسين» فقال: كُفَّ حتى تنظر وننظر، وترى ونرى، وأما «ابن الزبير» فقال: لا تعجلوني فإني آتيكم، أمهلوني، فألَحُّوا عليهما عشيتهما تلك كلها وأول ليلهما، وكانوا على «حسين» أشد إبقاء، وبعث «الوليد» إلى «ابن الزبير» موالي له فشتموه، وصاحوا به: يابن الكاهلية! والله! لتأتيَنَّ الأمير أو ليقتُلَنَّكَ، فلبث بذلك نهاره كله وأول ليله يقول: الآن أجيء، فإذا استحثوه قال: والله! لقد استربت بكثرة الإرسال، وتتابع هذه الرجال، فلا تعجلوني حتى أبعث إلى الأمير من يأتيني برأيه وأمره، فبعث إليه أخاه «جعفر بن الزبير» فقال: رحمك الله! كُفَّ عن «عبد الله» فإنك قد أفزعته وذَعَرْتَه بكثرة رسلك، وهو آتيك غداً إن شاء الله، فَمُرْ رسلك فلينصرفوا عنا، فبعث إليهم فانصرفوا.

وخرج «ابن الزبير» من تحت الليل، فأخذ طريق «المُفْرع» هو وأخوه «جعفر»، ليس معهما ثالث، وتجنَّب الطريق الأعظم مخافة المطلب، وتوجَّه نحو مكة.

فلما أصبح بعث إليه «الوليد» فوجده قد خرج، فقال «مروان»: والله إنْ أخطأ ـ أي: ما أخطأ ـ مكة، فسرَّح في أثره الرجال، فبعث راكباً من موالي بني أمية في ثمانين راكباً، فطلبوه فلم يقدروا عليه، فرجعوا، فتشاغلوا عن «حسين» بطلب «عبد الله» يومهم ذلك حتى أمْسَوْا، ثم بعث الرجال إلى «حسين» عند المساء، فقال: أصبِحوا، ثم ترون ونرى، فكفُّوا عنه تلك الليلة، ولم يُلحُّوا عليه، فخرج «حسين» من تحت ليلته، وهي ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب سنة ستين، وكان مخرج «ابن الزبير» قبله بليلة، خرج ليلة السبت، فأخذ طريق «الفُرْع»، فبينا «عبد الله بن الزبير» يساير أخاه «جعفراً» إذ تمثل «جعفر» بقول «صَبِرَةَ الحنظليِّ»:

وكـل بـنـي أم سـيُـمْـسـون لـيـلـةً ... ولـم يـبـقَ مـن أعـقـابـهـم غـيـر واحـد

فقال «عبد الله»: سبحان الله! ما أردتَ إلى ما أسمعُ يا أخي!؟ قال: والله! يا أخي ما أردت به شيئاً مما تكره؛ فقال: فذاك والله! أكره إليَّ أن يكون جاء على لسانك من غير تعمُّد ـ قال: وكأنه تطيَّر منه ـ.

وأما «الحسين» فإنه خرج ببنيه وإخوته وبني أخيه، وجُلِّ أهل بيته، إلَّا «محمد بن الحنفية» فإنه قال له: يا أخي! أنت أحب الناس إليَّ، وأعزُّهم عليَّ،

ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك، تَنَحَّ بِتَبِعتك عن «يزيد بن معاوية» وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس، فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حَمِدتُ الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقصِ الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك، إني أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار، وتأتي جماعة من الناس، فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأول الأسِنَّة، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً، أضيعها دماً وأذلها أهلاً، قال له «الحسين»: فإني ذاهب يا أخي! قال: فانزل مكة، فإن اطمأنت بك الدار، فسبيلُ ذلك، وإن بنت بك لحقت بالرمال، وشعف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس، وتعرف عند ذلك الرأي، فإنك أصوب ما تكون رأياً وأحزمُه عملاً، حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً، قال: يا أخي! قد نصحت فأشفقت، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موفَّقاً.

ثم إن «الوليد» بعث إلى «عبد الله بن عمر» فقال: بايع ليزيد، فقال: إذا بايع الناس بايعتُ، فقال رجل: ما يمنعك أن تبايع؟ إنما تريد أن يختلف الناس فيقتتلوا ويتفانوا، فإذا جَهَدهم ذلك، قالوا: عليكم بعبد الله بن عمر، لم يبقَ غيره، بايعوه! قال «عبد الله»: ما أحب أن يقتتلوا ولا يختلفوا ولا يتفانوا، ولكن إذا بايع الناس، ولم يبقَ غيري بايعتُ، قال: فتركوه وكانوا لا يتخوفونه.

قال: ومضى «ابن الزبير» حتى أتى مكة، وعليها «عمرو بن سعيد»، فلما دخل مكة، قال: إنما أنا عائذ، ولم يكن يصلي بصلاتهم، ولا يفيض بإفاضتهم، كان يقف هو وأصحابه ناحية، ثم يفيض بهم وحده، ويصلي بهم وحده.

قال: فلما سار «الحسين» نحو مكة، قال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص، الآية: ٢١]، فلما دخل مكة قال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص، الآية: ٢٢][(1)]. ثم التقى «ابن الزبير» و«الحسين» بـ«ابن عباس» و«ابن عمر» آتيين من

(١) تاريخ الطبري (٥/٢٣٨ ـ ٢٤٣).

مكة، فقالا: ما وراءكما؟ قالا: موت «معاوية» والبيعة ليزيد، فقال لهما «ابن عمر»: اتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين، وبعد أن جاءت البيعة من البلدان، تقدم «ابن عمر» إلى «الوليد بن عتبة» فبايعه، ثم بايعه «ابن عباس».

وأما «الحسين بن علي» ﷺ فقد أرسل إليه أهل الكوفة بالكتب حتى يسير إليهم، ولما أجمع أمره على إجابتهم نصح له «عمرو بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام» ألا يفعل، ثم طلب منه «ابن عباس» ذلك أيضاً، وقال: أعيذك بالله من ذلك، خبرني ـ رحمك الله ـ أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم، فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم، فإنما دعوك إلى الحرب، ولا آمن عليك أن يَغُرُّوك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك، فقال «الحسين»: فإني أستخير الله وأنظر ما يكون. ثم أتاه «ابن عباس» في اليوم الثاني وألح عليه ألَّا يخرج، فأبى نصحه له، فلما رأى ذلك قال له: فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فإني لخائف أن تقتل كما قتل «عثمان» ونساؤه وأهله ينظرون إليه، فلم يقبل هذه أيضاً.

وفي الطريق ـ عند الثعلبية ـ أتاه نبأ مصرع «مسلم بن عقيل» فقال له بعض أصحابه: ننشدك الله إلَّا ما رجعت، فإنه ليس لك في الكوفة من ظهير ولا ناصر، فهبَّ بنو عقيل وقالوا: لا نبرح حتى نأخذ ثأرنا أو نذوق ما ذاق «مسلم».

ثم لقيه «الحر بن يزيد التميمي» في ألف فارس، فقال للحسين ﷺ: لقد أُمِرْنا ألَّا نفارقك حتى تقدم معنا على «عبيد الله بن زياد»، فقال «الحسين»: الموت أدنى إليك من ذلك، ثم صار يراقبه حتى لا ينصرف «الحسين» إلى المدينة، واتجه «الحسين» شمالاً حتى بلغ نينوى، فلقي «عمر بن سعد بن أبي وقاص» ومعه جيش عدته أربعة آلاف سيَّره «ابن زياد» لقتاله، فأخبره «الحسين» أنه قدم بناء كتب أهل العراق، فإن لم يكن لديهم رغبة به عاد من حيث أتى، فكتب «عمر بن سعد» إلى «ابن زياد» بذلك، فقال:

الآن إذ علقت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولات حين مناصِ

ثم أرسل إلى «عمر» ليطلب من «الحسين» وصحبه البيعة ليزيد، فإن أبوا

منعهم الماء وعطشهم كما فُعِلَ بعثمان غداة قتله يوم الدار.

واستعدوا للهجوم على «الحسين» وصحبه، فقال رجل يدعى «المهاجر بن أوس» للحر بن يزيد، وقد أخذ يوجه فرسه وجهة «الحسين»: أتريد أن تحمل؟ يابن يزيد! ثم أخذته العُرَوَاء - الرِّعْدة - فقال له: ما بك؟ إن أمرك لمريب؟ ليس في الكوفة من هو أشجع منك، فما الذي أصابك؟ فقال له «الحر»: إني أختار، بين الجنة والنار، ووالله! لا أختار شيئاً على الجنة، ثم ضرب فرسه، ولحق بالحسين، وقاتل دونه، حتى استُشْهِدَ بين يديه، بعد أن قبَّل يده وسلَّم عليه.

وعطش «الحسين» حتى اشتد عليه العطش، فدنا ليشرب من الماء فرماه رجل يدعى «حصين بن تميم» بسهم، فوقع في فمه، فجعل يتلقَّى الدم من فمه، ويرمي به إلى السماء، ثم حمِدَ الله وأثنى عليه، ثم جمع يديه، فقال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تذر على الأرض منهم أحداً.

وحاول رجل من بني أبان منع «الحسين» من الوصول إلى الماء، فقال: اللهم! أَظْمِهِ، فرماه الأبانيُّ بسهم، فأثبته في فك «الحسين» فانتزع «الحسين» السهم، ثم بسط كفيه فامتلأتا دماً، ثم قال «الحسين»: اللهم! إني أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك، فما مكث الرجل إلا يسيراً حتى صَبَّ الله عليه الظمأ فجعل لا يروى، وكانوا يأتونه بِعِسَاسِ اللبن، وقِلاَلِ الماء، فيشربها، ثم يقول: اسقوني، وظل يشرب حتى انقدَّ بطنه انقداد بطن البعير.

وسُمِعَ «الحسين» يومئذ، وهو يقول: اللهم! أمسك عنهم قَطْرَ السماء، وامنعهم بركاتِ الأرض، اللهم! فإن متعتهم إلى حين ففرِّقهم فِرَقاً، واجعلهم طرائق قِدَداً، ولا تُرْضِ عنهم الولاة أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا، فَعَدَوْا علينا فقتلونا.

وروى ابن جرير الطبري، عن حميد بن مسلم، قال: كانت عليه جبة من خز، وكان مُعْتَمًّا، وكان مخضوباً بالوَسِمَة، قال: وسمعته يقول قبل أن يقتل، وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع يتقي الرمية، ويفترص - ينتهز - العورة، ويشد على الخيل، وهو يقول: أعلى قتلي تحاثُّون؟ أما والله! لا تقتلون بعدي عبداً من عباد اللهِ، اللهُ أسخط عليكم لقتله مني، وايم الله! إني لأرجو أن

يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله! لو قد قتلتموني، لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم.

قال: ولقد مكث طويلاً من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء، قال: فنادى «شَمَرَ» في الناس: ويحكم! ماذا تنظرون بالرجل؟ اقتلوه، ثكلتكم أمهاتكم! قال: فَحُمِلَ عليه من كل جانب، فضربت كفه اليسرى ضربة، ضربها «زُرْعَة بن شريك التميمي» وضرب على عاتقه، ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو؛ قال: وحمل عليه في تلك الحال «سنان بن أنس بن عمرو» النخعي، فطعنه بالرمح، فوقع، ثم قال لِخَوَلِي بن يزيد الأصبحي: احتز رأسه، فأراد أن يفعل، فضَعُف فأُرْعِدَ، فقال له «سنان بن أنس»: فَتَّ الله عضديك، وأبان يديك! فنزل إليه فذبحه واحتَزَّ رأسه، ثم دُفِعَ إلى «خَوَلِيّ بن يزيد»، وقد ضُرِبَ قبل ذلك بالسيوف[(١)].

وذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: (وبعث أهل العراق إلى «الحسين» الرسل والكتب يدعونه إليهم، فخرج من مكة إلى العراق في عشر ذي الحجة، ومعه طائفة من أهل بيته رجالاً ونساء وصبياناً، فكتب «يزيد» إلى واليه بالعراق «عبيد الله بن زياد» بقتاله، فوجَّه إليه جيشاً أربعة آلاف عليهم «عمرو بن سعد بن أبي وقاص»، فخذله أهل الكوفة، كما هو شأنهم مع أبيه من قبله، فلما رهقه السلاح، عرض عليه الاستسلام والرجوع والمضي إلى «يزيد» فيضع يده في يده، فأبوا إلَّا قتله، فقتل، وجيء برأسه في طست حتى وضع بين يدي «ابن زياد»، لعن الله قاتلَه و«ابنَ زياد» معه، و«يزيد» أيضاً، وكان قتله بكربلاء، وفي قتله قصة فيها طول، لا يحتمل القلب ذكرها، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقتل معه ستة عشر رجلاً من أهل بيته (عليهم رحمة الله تعالى).

ولما قتل «الحسين»، مكثت الدنيا سبعة أيام، والشمس على الحيطان، كالملاحف المصفرة، والكواكب يضرب بعضها بعضاً، وكان قتله يوم «عاشوراء»، وكسفت الشمس ذلك اليوم، واحمرَّت آفاق السماء ستة أشهر بعد

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).

قتله، ثم لا زالت الحمرة ترى فيها بعد ذلك ولم تكن ترى فيها قبله.

وقيل: إنه لم يقلب حجر في بيت المقدس يومئذ إلّا وجد تحته دم عبيط ـ طري ـ، وصار الورس الذي في عسكرهم رماداً، ونحروا ناقة في عسكرهم، فكانوا يرون في لحمها مثل النيران، وطبخوها فصارت مثل العلقم، وتكلم رجل في «الحسين» بكلمة، فرماه الله بكوكبين من السماء فطمس بصره)[1].

وتابع «السيوطي» قوله: (وأخرج الترمذي عن سلمى، قالت: دخلت على «أم سلمة» وهي تبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قالت: رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام ـ وعلى رأسه ولحيته التراب ـ فقلت: ما لك يا رسول الله!؟ قال: «**شهدت قتل «الحسين» آنفاً**».

وأخرج البيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ﷺ، قال: رأيت رسول الله ﷺ بنصف النهار أشعث أغبر ـ وبيده قارورة فيها دم ـ فقلت: بأبي أنت وأمي، يا رسول الله! ما هذا؟ قال: «**هذا دم «الحسين» وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم**» فأحصي ذلك اليوم فوجدوه قتل يومئذ.

وأخرج أبو نعيم في «الدلائل»، عن أم سلمة، قالت: سمعت الجن تبكي على «حسين» وتنوح عليه.

وأخرج «ثعلب» في «أماليه» عن أبي ضباب الكلبي، قال: أتيت «كربلاء» فقلت لرجل من أشراف العرب: أخبرني بما بلغني أنكم تسمعون نَوْح الجن، فقال: ما تلقى أحداً إلّا أخبرك أنه سمع ذلك، قلت: فأخبرني بما سمعت أنت، قال: سمعتهم يقولون:

مسح الرسولُ جبينَه فله بريقٌ في الخدودْ
أبواه من عليا قريش وَجدُّه خير الجدودْ

ولما قتل «الحسين» وبنو أبيه بعث «ابن زياد» برؤوسهم إلى «يزيد»، فسُرَّ بقتلهم أولاً، ثم ندم لَمَّا مقته المسلمون على ذلك، وأبغضه الناس، وحُقَّ لهم أن يبغضوه.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي» ص: ١٨٣ ـ ١٨٤، ط. دار المعرفة.

وأخرج أبو يعلى في مسنده ـ بسند ضعيف ـ عن أبي عبيدة، قال، قال رسول الله ﷺ: **«لا يزال أمر أمتي بالقسط، حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية، يقال له «يزيد»**.

وقال نوفل بن أبي الفرات: كنت عند «عمر بن عبد العزيز»، فذكر رجلٌ «يزيدَ» فقال: قال أمير المؤمنين «يزيد بن معاوية» فقال: تقول أمير المؤمنين؟ وأمر به، فضُرِبَ عشرين سوطاً.

وفي سنة ثلاث وستين، بلغه أن أهل المدينة خرجوا عليه، وخلعوه، فأرسل إليهم جيشاً كثيفاً، وأمرهم بقتالهم، ثم المسير إلى مكة لقتال «ابن الزبير»، فجاءوا وكانت وقعة «الحَرَّة» على باب «طيبة»، وما أدراك ما وقعة «الحرة؟».

ذكرها «الحسن» مرة، فقال: والله! ما كاد ينجو منهم أحد، قتل فيها خلق من الصحابة ﷺ ومن غيرهم، ونُهِبَت المدينة، وافتُضَّ فيه ألفُ عذراء، فإنا لله وإنا إليه راجعون، قال ﷺ: **«من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»**[1].

وتابع «السيوطي» قوله: وكان سبب خلع أهل المدينة له؛ أن «يزيد» أسرف في المعاصي، وأخرج الواقدي من طرق أن «عبد الله بن حنظلة الغسيل»، قال: والله! ما خرجنا على «يزيد» حتى خفنا أن يرمى بالحجارة من السماء! إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة.

قال الذهبي: ولما فعل «يزيد» بأهل المدينة ما فعل ـ مع شربه الخمر، وإتيانه المنكرات ـ اشتد عليه الناس، وخرج عليه غير واحد، ولم يبارك الله في عمره، وسار جيش الحَرَّة إلى مكة لقتال «ابن الزبير»، فمات أمير الجيش بالطريق، فاستُخلِفَ عليهم أميرٌ، وأتوا مكة فحاصروا «ابن الزبير» وقاتلوه، ورموه بالمنجنيق، وذلك في صفر سنة أربع وستين، واحترقت من شرارة نيرانهم أستار الكعبة وسَقْفُها وقرنا الكبش الذي فَدَى الله به «إسماعيل»، وكانا في السقف،

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٨٤ ـ ١٨٥.

وأهلك الله «يزيد» في نصف شهر ربيع الأول من هذا العام، فجاء الخبر بوفاته، والقتال مستمر.

فنادى «ابن الزبير»: يا أهل الشام! إن طاغيتكم قد هلك، فانفلُّوا، وذلُّوا، وتخطَّفهم الناس، ودعا «ابن الزبير» إلى بيعة نفسه، وتسمَّى بالخلافة، وأما أهل الشام فبايعوا «معاوية بن يزيد»، ولم تطل مدته[1].

وقلت في مصرع «الحسين» واستشهاده يوم كربلاء:

لهفي على زين الشباب أبي علي ... قتلوه في شرخ الشباب الأولِ
خفروا بذمته وذمة آله ... من غير مُكْتَرَثٍ لأعظم مرسَلِ
ورووا بحقدهمُ اللئيم سيوفهم ... حين استباحوا له دماً لم يَحْلِلِ
فتبادروا سَخَطَ الإلهِ بما جنوا ... وبجهلهم سوءَ المصير الأرذلِ
ونسوا عذاباً في غدٍ سينالهم ... عند العزيز الأكرم المتفضِّلِ
ولَوَ انَّهم عَقَلوا لقال كبيرهم ... من دون أي تردد: لا تفعلِ
لكنهم ذبحوا حبيبَ المصطفى ... وتناوشوه وأهلَه بالمُنْصُلِ
بِجَراءةٍ لم تعرف الدنيا لها ... شبهاً ولم تتلقَّها بِتَقَبُّلِ
فجرى دم شهر الإله بطهره ... في آية نزلت بأحكم مُنْزَلِ
في سورة الأحزاب قد دلَّت على ... أسمى بيوتات الأنَام وأكملِ
وأحب من نزل القُرآنُ بذكرهم ... وَغَدا بِهم للعز أحصنُ مَعْقِلِ
يا ويلهم من والديه إذا التقوا ... بهما لدى قاضي السماء الأعدلِ!
يا ويلهم حين اللقاء بجَدِّه ... من هول يوم قمطريرٍ مُقْبِلِ!
وسؤالهم ماذا جَنَى ريحانتي ... حتى علوتم رأسه بالمِقْصَلِ؟
أتُرى يطيقون الإجابة حينها ... أم أن أفصحهم عَيِيُّ المِقْوَلِ؟
ولئن أساءوا حين زرع غراسهم ... فحصادهم سيكون مُرَّ الحَنْظَلِ
يوم الحساب إذا الصحائف نُشِّرَتْ ... وسوادها قد فاق كحلَ المِكْحَلِ
وإذا الشهادة نالها أحدٌ فقد ... فاز ابن فاطِم بالوسام الأمثلِ
وعلى طريق أبيه سار مُشَيَّعاً ... بعزيمةٍ شَمَّاءَ لم يتحوَّلِ
عن نهج جَدٌّ لم يجِدْ أهل الوغى ... عن وصف ما أبلى به بالأفضلِ

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٨٥.

أحسينُ إن ظن البغاة بأنهم ... بلغوا برأسك غايةَ المتأمِّلِ
لكنَّهم وهَموا وفيَّلَ رأيهم ... ما جَرَّ جريُهمُ وراء مُضَلَّلِ
وأراهم إن أفسدوا دنياك قد ... أفسدت أخراهم بغير تَمَحُّلِ
ويقتل مثلك قد أصابوا مَغرماً ... وتحملوا وزراً عظيم المَحْمِلِ
فالنجح في الدنيا عديم نفعه ... إن ضاعت الأخرى ولم يُتَوَصَّلِ
لنعيمها بجميلِ فعلٍ يبتغى ... وجه الإله به بكل تَعَقُّلِ
والخاسرون نفوسَهم من أسرفوا ... في زَجِّها برضائهم في مَوْحِلِ
فلينظر الإنسان أين نجاته ... وهلاكه قبل الوصولِ لأسْفَلِ؟
وأوانُها ما للندامة من غِنًى ... وإذا توسَّلَ لات حين توسُّلِ
فاختر بقاءك في ضياء غامرٍ ... وإذا أبيت ففي ظلامٍ مُسْدَلِ
واختار من قتلوا الحسينَ مصيرهم ... في شر منقَلبٍ وأخزى منزلِ
يا أيها السفهاء إن حُسَيْنَنا ... حيٌّ ورزقه عند رب مُفضلِ
وإخالُ فاطم أرضعته إباءها ... فأبى الهوانَ ولم يعش بتزلُّلِ
ولئن أبى عيش الهوانِ فقبله ... لا جَدُّه قَبِلَ الهوانَ ولا علي

رحم الله «الحسين» و«الحسن» أخاه، ورحم الله أمه وأباه، ورحم الله الحبيب الأعظم، وجدهما الأكرم، ﷺ، وجزى من آذاهم وأساء إليهم، وأبغضهم وحقد عليهم، سوء المصير، إنه بالإجابة جدير.

وروى «أبو جعفر الطبري» في تاريخه، عن حميد بن مسلم، قال: انتهيت إلى «علي بن الحسين بن علي الأصغر» وهو منبسط على فراش له، وهو مريض، وإذا «شَمِر بن ذِي الجوشن» في رجَّالة معه، يقولون: ألا نقتل هذا؟ قال: فقلت: سبحان الله! أنقتل الصبيان؟ إنما هذا صبي، قال: فما زال ذلك دأبي أدفع عنه كل من جاء، حتى جاء «عمر بن سعد» فقال: ألا لا يدخلَنَّ بيت هؤلاء النسوة أحد، ولا يَعْرِضَنَّ لهذا الغلام، ومن أخذ من متاعهم شيئاً فَلْيَرُدَّه عليهم، قال: فوالله! ما ردَّ أحد شيئاً.

قال: فقال «علي بن الحسين»: جزيت من رجل خيراً! فوالله! لقد دفع الله عني بمقالتك شراً، قال: فقال الناس لسنان بن أنس: قتلت «حسين بن علي» وابن «فاطمة» ابنة رسول الله ﷺ، قتلت أعظم العرب خطراً، جاء إلى هؤلاء يريد

أن يزيلهم عن ملكهم، فاتِ أمراءك، فاطلب ثوابك منهم، لو أعطوك بيوت أموالهم في قتل «الحسين» كان قليلاً، فأقبل على فرسه، وكان شجاعاً شاعراً، وكانت به لُوثَة، فأقبل حتى وقف على باب فسطاط «عمر بن سعد»، ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركابي فضة وذهبَا ... أنا قتلت الملك المحجَّبا
قتلت خير الناس أمًّا وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبَا

فقال «عمر بن سعد»: أشهد أنك لمجنون ما صححت قط، أدخلوه عليَّ، فلما أدخل حذفه بالقضيب، ثم قال: يا مجنون! أتتكلم بهذا الكلام؟ أما والله! لو سمعك «ابن زياد» لضرب عنقك.

قال: وأخذ «عمر بن سعد»، «عُقْبة بن سِمْعان» ـ وكان مولى للرباب بنت امرىء القين الكلبية، هي أم «سكينة بنت الحسين» ـ فقال له: ما أنت؟ قال: أنا عبد مملوك، فخلّى سبيله، فلم ينج منهم أحد غيره، إلّا أن «المُرَقَّع بن ثمامة» الأسدي، كان قد نَثَر نبله، وجثا على ركبتيه فقاتل، فجاءه نفر من قومه، فقالوا له: أنت آمن، اخرج إلينا، فخرج إليهم، فلما قدم بهم «عمر بن سعد» على «ابن زياد» وأخبرهُ خبرَه سيره إلى الزارة، قال: ثم إن «عمر بن سعد» نادى في أصحابه: من ينتدب للحسين ويوطئه فرسَه؟ فانتدب عشرة: منهم «إسحاق بن حَيْوَة» العثرمي، وهو الذي سلب قميص «الحسين» ـ فبرص بعدُ ـ و«أحبش بن مرثد بن علقمة بن سلامة» الحضرمي، فأتوا فداسوا «الحسين» بخيولهم حتى رضُّوا ظهره وصدره، فبلغني أن «أحبش بن مرثد» بعد ذلك بزمان أتاه سهم غَرْي، وهو واقف في قتال فَفَلَقَ قلبه، فمات.

قال: فقتل من أصحاب «الحسين» ﷺ اثنان وسبعون رجلاً، ودَفَنَ «الحسين» وأصحابه أهل الغاضرية من بني أسد بعدما قتلوا بيوم، وقتل من أصحاب «عمر بن سعد» ثمانية رجلاً سوى الجرحى، فصلّى عليهم «عمر بن سعد» ودفنهم.

قال: وما هو إلا أن قتل «الحسين»، فسرَّح برأسه من يومه ذلك مع «خَوَليّ بن يزيد» و«حميد بن سالم» الأزدي إلى «عبيد الله بن زياد»، فأقبل به

«خَوَلي» فأراد القصر، فوجد باب القصر مغلقاً، فأتى منزله فوضعه تحت إجَّانة[١] في منزله، وله امرأتان: امرأة من بني أسد، والأخرى من الحضرميين، يقال لها: «النوار بْنَة مالك بن عقرب»، وكانت تلك الليلة ليلة الحضرمية.

قال هشام: فحدثني أبي، عن «النوار بنت مالك»، قالت: أقبل «خَوَلي» برأس «الحسين» فوضعه تحت إجَّانة في الدار، ثم دخل البيت، فأوى إلى فراشه، فقلت له: ما الخبر؟ ما عندك؟ قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس «الحسين» معك في الدار، قالت: فقلت: ويلك ـ جاء الناس بالذهب والفضة، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ! لا والله! لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً.

قالت: فقمت من فراشي، فخرجت إلى الدار، فدعا الأسدية، فأدخلها إليه، وجلست أنظر، قالت: فوالله! ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجّانة، ورأيت طيراً بيضاً ترفرف حولها، قال: فلما أصبح غدا بالرأس إلى «عبيد الله بن زياد»، وأقام «عمر بن سعد» يومه ذاك والغد، ثم أمر «حميد بن بكير» الأحمري، فأذن في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات «الحسين» وأخواته ومن كان معه من الصبيان، و«علي بن الحسين» مريض.

وعن «قُرَّة بن قيس» التميمي، قال: نظرت إلى تلك النسوة لما مررت بحسين وأهله وولده صِحْن ولطمن وجوههن، قال: فاعترضتُهن على فرس، فما رأيت منظراً من نسوة قط كان أحسن من منظر رأيته منهن ذلك اليوم، والله! لهن أحسن من مَهَا «يبرين».

قال: فما نسيت من الأشياء لا أنسى قول «زينب بْنَة فاطمة» حين مرت بأخيها «الحسين» صريعاً، وهي تقول: يا محمداه! يا محمداه! صلى عليك ملائكة السماء، هذا «الحسين» بالعراء، مُرَمَّل بالدماء، مقطَّع الأعضاء، يا محمداه! وبناتك سبايا، وذريتك مقتَّلة، تسفي عليها الصَّبَا.

قال: فأبكت والله! كل عدو وصديق، قال: وقطف رؤوس الباقين، فَسُرِّح باثنين وسبعين رأساً مع «شِمر بن ذي الجَوْشن» و«قيس بن الأشعث» و«عمرو بن

(١) إجَّانة: إناء تغسل فيه الثياب.

الحجاج» و«عزرة بن قيس»، فأقبلوا حتى قدموا بها على «عبيد الله بن زياد».

وعن «حميد بن مسلم» قال: دعاني «عمر بن سعد» فسرَّحني إلى أهله لأبشرهم بفتح الله عليه وبعافيته، فأقبلت حتى أتيت أهله، فأعلمتهم ذلك، ثم أقبلت حتى أدخل فأجد «ابن زياد» قد جلس للناس، وأجد الوفد قد قدموا عليه، فأدخلهم، وأذن للناس، فدخلت فيمن دخل، فإذا رأس «الحسين» موضوع بين يديه، وإذا هو ينكُت بقضيب بين ثنيتيه ساعة، فلما رآه «زيد بن أرقم» لا ينجم عن نكته بالقضيب، قال له: اعْلُ بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فوالذي لا إلّه غيره! لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم انفضح الشيخ يبكي.

فقال له «ابن زياد»: أبكى الله عينيك! فوالله! لولا أنك شيخ قد خرفت، وذهب عقلك لضربت عنقك، قال: فنهض، فخرج، فلما خرج سمعت الناس يقولون: والله! لقد قال «زيد بن أرقم» قولاً لو سمعه «ابن زياد» لقتله؛ قال: فقلت: ما قال؟ قالوا: مر بنا وهو يقول: مَلَّكَ عبدٌ عبداً، فاتخذهم تُلْداً؛ أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم! قتلتم «ابن فاطمة»، وأمَّرتم «ابن مرجانة»، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضي بالذل.

قال: فلما دُخِلَ برأس «حسين» وأخواته ونسائه على «عبيد الله بن زياد» لبست زينب ابنةُ فاطمة «أرذل ثيابها» وتنكرت وحفَّت بها إماؤها، فلما دخلت جلست.

فقال «عبيد الله بن زياد»: من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه، فقال ذلك ثلاثاً، قال: فقال لها «عبيد الله»: الحمد لله الذي فضحكم وقتَّلكم وأكذب أحدوثتكم! فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وطَهَّرنا تطهيراً، لا كما تقول أنت، إنما يفتضح الفاسق، ويكذّب الفاجر، قال: فكيف رأيتِ صُنْعَ الله بأهل بيتك؟ قالت: كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بَيْنَك وبينهم، فتَحاجُون إليه وتَخاصمون عنده.

قال: فغضب «ابن زياد» واستشاط، قال: فقال له «عمرو بن حريث»: أصلح الله الأمير! إنما هي امرأة، وهل تؤخذ المرأة بشيء من منطقها؟ إنها لا

تؤاخذ بقول، ولا تُلاَمُ على خَطَل، فقال لها «ابن زياد»: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك.

قال: فبكت، ثم قالت: لعمري، لقد قتلتَ كهلي، وأَبَرْتَ أهلي، وقطَّعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت، فقال لها «عبيد الله»: هذه شجاعة، قد لعمري كان أبوك شاعراً شجاعاً.

قالت: ما للمرأة الشجاعة! إن لي عن الشجاعة لشغلاً، ولكن نَفْثي ما أقول.

وعن المجالد بن سعيد: إن «عبيد الله بن زياد» لما نظر إلى «علي بن الحسين» قال لشرطي: أنظر هل أدرك ما يدرك الرجال؟ فكشط إزاره عنه، فقال: نعم، قال: فانطلِقُوا فاضربوا عنقه، فقال له «علي»: إن كان بَيْنَك وبين هؤلاء النسوة قرابة فابعث معهن رجلاً يحافظ عليهن، فقال له «ابن زياد»: تعال أنت، فبعثه معهن.

وعن حميد بن مسلم، قال: إني لقائم عند «ابن زياد» حين عرض عليه «علي بن الحسين» فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا «علي بن الحسين» قال: أو لم يقتل الله «علي بن الحسين؟». فسكت، فقال له «ابن زياد»: ما لك لا تتكلم؟ قال: قد كان لي أخ يقال له أيضاً: «عليٌّ»، فقتله الناس، قال: إن الله قد قتله، قال: فسكت «عليٌّ» فقال له: ما لك لا تتكلم؟ قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر، الآية: ٤٢]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ١٤٥]. قال: أنت والله! منهم، ويحك! انظروا، هل أدرك؟ والله! إني لأحسبه رجلاً.

قال: فكشف عنه «مُرَيُّ بن معاذ» الأحمري، فقال: نعم قد أدرك، فقال: اقتله، فقال «علي بن الحسين»: من توكَّل بهؤلاء النسوة؟

وتعلقت به «زينب» عمته، فقالت: يابن زياد! حَسْبُك منا، أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحداً؟

قال: فاعتنقَتْه، فقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمناً إن قتلته لمَّا قتلتني معه،

قال: وناداه «عليٌّ» فقال: يابن زياد! إن كانت بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبة الإسلام.

قال: فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلى القوم فقال: عجباً للرحم! والله! إني لأظنها ودَّت لو أني قتلتُه أني قتلتُها معه، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك.

قال حميد بن مسلم: لما دخل «عبيد الله» القصر، ودخل الناس، نودي: الصلاة جامعة! فاجتمع الناس في المسجد الأعظم، فصَعِدَ المنبر «ابن زياد» فقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين «يزيد بن معاوية» وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب «الحسين بن علي» وشيعته، فلم يفرغ «ابن زياد» من مقالته حتى وثب إليه «عبد الله بن عفيف» الأزديُّ، ثم الغامديُّ، ثم أحد بني والبة ـ وكان من شيعة «عليٍّ» كرم الله وجهه، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع «عليٍّ»، فلما كان يوم «صِفِّين» ضرب على رأسه ضربة، وأخرى على حاجبه، فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم يصلي فيه إلى الليل، ثم ينصرف ـ قال: فلما سمع مقالة «ابن زياد»، قال: يابن مرجانة! إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاَّك وأبوه، يابن مرجانة! أتقتلون أبناء النبيين، وَتكلَّمون بكلام الصدِّيقين؟ فقال «ابن زياد»: عليَّ به، فوثبت عليه الجلاوزة، فأخذوه.

قال: فنادى بشعار الأزد: يا مبرور! ـ قال: و«عبد الرحمٰن بن مخنف» الأزديُّ جالس ـ فقال: ويح غيرك! أهلكت نفسك، وأهلكت قومك.

قال: وحاضر الكوفة يومئذٍ من الأزد سبعمائة مقاتل، قال: فوثب إليه فتية من الأزد فانتزعوه، فأتوا به أهله، فأرسل إليه من أتاه به، فقتله وأمر بصلبه في السَّبَخَة، فصلب هنالك.

قال أبو جعفر الطبري، عن الغاز بن ربيعة الجُرَشِيِّ، من حمير، قال: والله! إنا لعند «يزيد بن معاوية» بدمشق إذ أقبل «زَحْر بن قيس» حتى دخل على «يزيد بن معاوية» فقال له «يزيد»: ويلك! ما وراءك؟ وما عندك؟ فقال: أبشر، يا أمير المؤمنين! بفتح الله ونصره، ورد علينا «الحسين بن علي» في ثمانية عشر من أهل بيته، وستين من شيعته، فسرنا إليهم، فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على

حكم الأمير «عبيد الله بن زياد» أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام، فعدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، يهربون إلى غير وَزَر، ويلوذون منا بالآكام والحضر، لِواذاً كما لاذ الحمائم من صقر، فوالله! يا أمير المؤمنين! ما كان إلّا جَزْرَ جَزُور، أو نومة قائل، حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم مُرَمَّلة ـ أي: ملطخة بالدم ـ، وخدودهم معفَّرة، تصهرهم الشمس، وتسقي عليهم الريح، زوادهم العقبان والرَّخَم بِقِيٍّ سَبْسَب ـ القِيُّ: الأرض القفر الخالية، والسبسب: المَفازة ـ قال: فدمعت عين «يزيد»، وقال: قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل «الحسين»، لعن الله ابن سمية! أما والله! لو أني صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله «الحسين!» ولم يصله بشيء.

قال: ثم إن «عبيد الله» أمر أبناء «الحسين» وصبيانه فَجُهِّزْنَ، وأمر بعلي بن الحسين فغُلَّ بِغُلٍّ إلى عنقه، ثم سَرَّح بهم مع «محفِّز بن ثعلبة» العائذي، عائذة قريش، ومع «شِمر بن ذي الجوشَنِ»، فانطلقا بهم حتى قدموا على «يزيد».

فلم يكن «علي بن الحسين» يكلم أحداً نهما في الطريق كلمة حتى بلغوا، فلما انتهوا إلى باب «يزيد» رفع «مُحَفِّز بن ثعلبة» صوته، فقال: هذا «محفز بن ثعلبة» أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة. قال: فأجابه «يزيد بن معاوية»: ما ولدت «أم مُحَفِّز» شر وألأم.

وعن القاسم بن عبد الرحمٰن مولى «يزيد بن معاوية»، قال: لما وضعت الرؤوس بين يدي «يزيد» ـ رأس «الحسين» وأهل بيته وأصحابه ـ قال «يزيد»:

يفلِّقن هاماً من رجال أعِزَّةٍ علينا وهم كانوا أعَقَّ وأظلما

أما والله! يا حسين! لو أنا صاحبك ما قتلتُك.

وقال «أبو جعفر الطبري» عن الحارث بن كعب، عن «فاطمة بنت علي»، قالت: لما أجلسنا بين يدي «يزيد بن معاوية» رقَّ لنا، وأمر لنا بشيء، وألطفنا، قالت: ثم إن رجلاً من أهل الشام أحمر، قام إلى «يزيد»، فقال: يا أمير المؤمنين! هب لي هذه يغنيني، وكنت جارية وضيئة ـ، فأُرْعِدْتُ وفَرِقْتُ، وظننت أن ذلك جائز لهم، وأخذت بثياب أختي «زينب»، قالت: وكانت أختي «زينب»

أكبر مني وأعقل، وكانت تعلم أن ذلك لا يكون، فقالت: كذبتَ واللهِ! ولَؤُمتَ! ما ذلك لك وله[١]، فغضب «يزيد» فقال: كذبتِ والله! إن ذلك لي، ولو شئتُ أن أفعله لفعلتُ، قالت: كلا والله! ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا، وتدين بغير ديننا، قالت: فغضب «يزيد» واستطار، ثم قال: إياي تستقبلين بهذا؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك، فقالت «زينب»: بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك، قال: كذبتِ يا عدوة الله!.

قالت: أنت أمير مسلَّط، تشتم ظالماً، وتقهر بسلطانك، قالت: فوالله! لكأنه استحيا، فسكت، ثم عاد الشامي، فقال: يا أمير المؤمنين! هب لي هذه الجارية؛ قال: اعزُبْ، وهَبَ الله لك حَتفاً قاضياً!.

قالت: ثم قال «يزيد بن معاوية»: يا نعمان بن بشير! جهزهم بما يصلحهم، وابعث معهم رجلاً من أهل الشام أميناً صالحاً، وابعث معه خيلاً وأعياناً فيسير بهم إلى المدينة، ثم أمر بالنسوة أن يُنْزلْنَ في دار على حدة، معهن ما يصلحهن، وأخوهن معهن «علي بن الحسين» في الدار التي هن فيها.

ولما أرادوا أن يخرجوا دعا «يزيد»، «علي بن الحسين» ثم قال له: لعن اللهُ «ابنَ مرجانة»، أما والله! لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيتها إياه، ولدفعتُ الحتف عنه بكل ما استطعت، ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى ما رأيت، كاتبني وأَنْهِ كل حاجة تكون لك، قال: وكساهم وأوصى بهم ذلك الرسول.

وقال «الحارث بن كعب»: فقالت لي «فاطمة بنت عليّ»: قلت لأختي «زينب»: يا أخية! لقد أحسن هذا الرجل الشامي إلينا في صحبتنا، فهل لك أن نصله؟ فقالت: والله! ما معنا شيء نصله به إلّا حلينا، قالت لها: فنعطيه حلينا، قالت: فأخذتُ سواري ودُمْلُجي، وأخذتْ أختي سوارها ودملجها، فبعثنا بذلك إليه، واعتذرنا إليه، وقلنا له: هذا جزاؤك بصحبتك إيانا بالحسن من الفعل، قال: فقال: لو كان الذي صنعت إنما هو للدنيا كان في حليكُنَّ ما يرضيني ودونه، ولكن والله! ما فعلته إلا لله، ولقرابتكم من رسول الله ﷺ. وقال «أبو

---

(١) عند ابن الأثير: «ولا له»، وهو أولى.

جعفر»، قال «هشام»: حدثني بعض أصحابنا، عن عمرو بن أبي المقدام، قال: حدثني عمرو بن عكرمة، قال: أصبحنا صبيحة قتل «الحسين» بالمدينة، فإذا مولى لنا يحدثنا، قال: سمعت البارحة منادياً ينادي، وهو يقول:

أيها القاتلون جهلاً حسيناً ... أبشروا بالعذاب والتنكيلِ
كل أهل السماء يدعو عليكم ... من نبي ومَلأكٍ وقبيلِ
قد لعنتم على لسان ابن داو ... دَ وموسى وحامل الإنجيلِ

قال «هشام»: حدثني عمرو بن حيزوم الكلبي، عن أبيه، قال: سمعتُ هذا الصوت.

قال أبو جعفر: قال هشام، عن أبي مخنف، عن سليمان بن أبي راشد، عن عبد الرحمٰن بن عبيد أبي المكنود، قال: لما بلغ «عبد الله بن جعفر بن أبي طالب» مقتل ابنيه مع «الحسين»، دخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه ـ قال: ولا أظن مولاه ذلك إلّا «أبا اللّسْلاس ـ» فقال: هذا ما لقينا، ودخل علينا من «الحسين!» قال: فحذفه «عبد الله بن جعفر» بنعله، ثم قال: يابن اللخناء! أللحسين تقول هذا؟ والله! لو شهدتُه لأحببت ألّا أفارقَه حتى أقتلَ معه، والله! إنه لمما يُسَخِّي بنفسي عنهما، ويهون عليَّ المصاب بهما، أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي مواسيَيْن له، صابرَيْن معه، ثم أقبل على جلسائه فقال: الحمد لله ﷻ على مصرع «الحسين»، إلّا تكن آستْ «حسيناً» يدي، فقد آساه وَلَدي.

قال: ولما أتى أهل المدينة مقتل «الحسين» خرجت «ابنة عقيل بن أبي طالب» ومعها نساؤها، وهي حاسرة تلوي ثوبها، وهي تقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم؟ ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم؟
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى ومنهم ضُرِّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تُخْلِفُوني بسوء في ذوي رحمي[1]

أما عن أزواج «يزيد بن معاوية» فقد ذكر «ابن عساكر» في كتابه أعلام النساء:

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٥٤ ـ ٤٦٧) بتصرف يسير.

ـ «أم حبيب بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشية»، العبشمية، ولدت له «معاوية» و«عبد الله»، وقال: كتبت إلى «النعمان بن بشير» تسأله عن قصة «زيد بن خارجة» الأنصاري الذي تكلم بعد موته، فكتب إليها بذلك: وكانت تكنى «أم عبد الله».

قال أبو بكر بن البرقي: ولد لِـ «أبي هاشم بن عتبة»: «عبد الله» و«أم حبيب» و«أم خالد».

وكانت «أم حبيب» عند «يزيد بن معاوية» فولدت له «معاوية» و«عبد الله»، ثم خلف «يزيد» على أختها «أم خالد بنت أبي هاشم» فولدت له «خالد بن يزيد بن معاوية»[1].

ـ «أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن عبد مناف بن قصي بن كلاب»، امرأة عاقلة.

عن الزبير قال: فولد «عبد الله بن عامر» فذكر أولاده، ثم قال: و«أم كلثوم بنت عبد الله» ولدت يزيد بن معاوية، وأمها: «أمة بنت عبد الوارث بن الحارث بن ربيعة بن خويلد بن نُفَيْل بن عمرو بن كلاب».

وقال: ولأم كلثوم بنت عبد الله يقول «يزيد بن معاوية»، وكان «معاوية» وجهه يغزو الروم، فأقام بدير سمعان ووجَّه الجنود، وتلك غزوة «الطُّوَانة»، فأصابهم الوباء، فقال «يزيد بن معاوية»:

أهون علي بما لاقت جموعهمُ ... يوم الطُّوَانة من حمى ومن مُومِ
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير سمعان عندي أم كلثومِ

فبلغ «معاوية» ما قال، فقال: أقسم بالله لتلحقَنَّ بهم حتى يصيبك ما أصابهم فألحقه بهم.

ـ عن مفتي بن عبد الله بن عنبسة، عن أبيه، قال: تزوج «الأسوار عبد الله بن يزيد بن معاوية؛ أم عثمان بنت سعيد بن العاص» فولدت له «أبا

(١) أعلام النساء، ص: ٤٥، ط. دار الفكر.

سفيان» و«أبا عتبة»، وهي «أم سعيد» و«رملة» ابني «خالد بن عمرو بن عثمان»، فقيل لسعيد بن خالد: اخطب أمه، فأتى أمه «أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر» يخطبها، وهي بادية بظهر ذنبة ـ اسم موضع من أعمال دمشق ـ عليها قبة، قد اشترت غشاءها بألف دينار، فأتاها، وهو غلام يُرْعَد، فقال: أُحِبُّ أن تزوجيني نفسك، وهي يومئذٍ كبيرة قد قيدت فاها بالذهب، فقالت: مرحباً بابن أخي، لو كنتُ متزوجة أحداً من قريش لتزوجتك، إن أمك امرأة شابة، وأنا عجوز كبيرة، وإن هذا شيء لا يصنعه نساء قريش أبداً، قيل لك: تزوج أمه كما تزوج أمك، انطلق يابن أخي[1].

ـ تزوج «أم محمد بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف». عن الزبير، قال: في تسمية ولد «عبد الله بن جعفر» قال: و«يحيى» و«هارون» و«صالح الأكبر» و«موى» و«أم محمد» كانت عند «يزيد بن معاوية بن أبي سفيان» وأمهم جميعاً و«ليلى بنت مسعود بن خالد بن مالك بن ربعي بن سُلَمي بن جَنْدَل بن أبير بن نهشل».

وعن «مصعب بن عبد الله الزبيري» قال: خطب «يزيد بن معاوية» بنت «عبد الله بن جعفر» ذي الجناحين، إلى أبيها فزوَّجه، فلما أهديت إليه من المدينة إلى الشام، خرج يتلقَّاها، وأنشأ يقول:

جاءت بها وهم البغال وشبهها ... مُسَيَّرة في جوف مَرٍّ مستَّرِ
مقابلة بين النبي محمدٍ ... وبين علي والجواد ابن جعفرِ
مَنَافيَّة غرَّاء جادت بودِّها ... لعبدِ مَنافِيٍّ أغرٍّ مُشَهَّرِ

فلما بلغت أبياته «عبد الله بن جعفر» قال: ما أراه ينسى نفسه في كل حال[2].

ـ تزوج «أم مسكين بنت عمر بن عاصم بن عمر بن الخطاب بن نفيل» «العدوية».

---

(١) أعلام النساء، ص: ٧٥ ـ ٧٦، ط. دار الفكر.
(٢) أعلام النساء، ص: ٧٧، ط. دار الفكر.

عن مصعب الزبيري، قال: وتزوج «يزيد بن معاوية»، «أم مسكين بنت عمر بن عاصم بن عمر بن الخطاب» فغارت امرأته «أم هاشم» وقعدت تبكي، فقال «يزيد»:

مــالــك أم هــاشــم تــبــكــيــنْ؟
بــاعــت عــلــى بــيــعــك أم مــســكــيــنْ
مــيــمــونــة مــن نــســوة مــيــامــيــنْ
زارتــكِ مــن يــثــربَ فــي حُــوّاريــنْ
فــي مــنــزل كــنــتِ بــه تــكــونــيــنْ

أخبرنا أبو الحسين بن الفراء، وأبو غالب، وأبو عبد الله، قالوا: أَخْبَرَنا محمد بن أحمد، عن الزبير، قال: وقدم المدينة ـ يعني: «يزيد بن معاوية» ـ فتزوج «أم مسكين بنت عمر بن عاصم بن عمر بن الخطاب» فحُمِلت إليه بالشام، فأعجب بها، وجفا «أم خالد»، فدخل عليها يوماً وهي تبكي، فقال:

مــالــك أم خــالــد تــبــكــيــنْ؟
مــن قَــدَر حَــلَّ بــكــم تــصــيــحــيــنْ
بــاعــت عــلــى بــيــعــك أم مــســكــيــنْ
مــيــمــونــة مــن نــســوة مــيــامــيــنْ
حَــلَّــت مــحــلــك الــذي تــحــلــيــنْ
زارتــك مــن يــثــربَ فــي حُــوَّارِيــنْ　　فــي مــنــزل كــنــتِ بــه تــكــونــيــنْ[1]

ـ تزوَّج «فاختة بنت عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس»، «أم كلثوم العبشمية».

كانت عنده بدمشق، وله فيها شعر، ولما قتل «الحسين بن علي» أكبرت مقتَله، وأقامت عليه المناحة[2].

ـ تزوج «هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن

(١) أعلام النساء، ص: ٧٨ ـ ٧٩، ط. دار الفكر.
(٢) أعلام النساء، ص: ٢٧١، ط. دار الفكر.

عبد شمس» العبشمية، القرشية، لها ذكر في حديث «مقتل الحسين»[(١)].

وأما «أبو جعفر»؛ ابن جرير الطبري، فقد ذكر أولاد «يزيد بن معاوية» فقال: فمنهم «معاوية بن يزيد بن معاوية» يكنى «أبا ليلى»، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

إنـي أرى فـتـنـة قـد حـان أولـهـا والـمـلـك بـعـد أبي لـيـلى لـمـن غَلَبَا

و«خالد بن يزيد» وكان يكنَّى «أبا هاشم». ـ وكان يقال: إنه أصاب عمل الكيمياء ـ و«أبو سفيان»، وأمهما «أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس»، تزوجها بعد «يزيد»، «مزوان»، وهي التي يقول لها الشاعر:

انـعَـمِـي أم خـالـدِ ربَّ سـاعٍ لـقـاعـدِ

و«عبد الله بن يزيد»، قيل: إنه من أرمى العرب في زمانه، وأمه «أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر»، وهو «الأُسوار»، وله يقول الشاعر:

زعـم الـنـاس أن خـيـر قـريـش كـلـهـم حـيـن يـذكـر الأُسْـوارُ

و«عبد الله الأصغر»، و«عمر»، و«أبو بكر»، و«عتبة»، و«حرب»، و«عبد الرحمٰن»، و«الربيع»، و«محمد»؛ بالأمهات أولاد شتى[(٢)].

وذكر «ابن جرير الطبري» أن «يزيد بن معاوية» هلك سنة أربع وستين للهجرة، وكانت وفاته بقرية من قرى حمص، يقال لها: «حُوَّارين» من أرض الشام، لأربع عشرة ليلة من ربيع الأول، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة في قول بعضهم.

وقال: إن الزهري كتب لجده أسنان الخلفاء، فكان فيما كتب من ذلك: ومات «يزيد بن معاوية» وهو ابن تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر في قول بعضهم، ويقال: ثمانية أشهر.

وقال أبو جعفر: وحدثني أحمد بن ثابت، عمن حدثه، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، أنه قال: توفي «يزيد بن معاوية» يوم الثلاثاء لأربع عشرة

---

(١) أعلام النساء، ص: ٣٤٩.

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٥٠٠).

ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر، إلَّا ثمان ليال، وصلَّى على «يزيد» ابنه «معاوية بن يزيد»[(١)].

وخلف بعد «يزيد» ولده «معاوية» وأمه «أم حبيب بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف» القرشية العبشمية.

وذكره «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»، فقال: «معاوية بن يزيد بن معاوية»؛ أبو عبد الرحمٰن، ويقال له: أبو يزيد، ويقال: أبو ليلى، استخلف بعهد من أبيه في ربيع الأول سنة أربع وستين، وكان شاباً صالحاً، ولما استخلف كان مريضاً، فاستمر مريضاً إلى أن مات، ولم يخرج إلى الباب، ولا فعل شيئاً من الأمور، ولا صلى بالناس. وكانت مدة خلافته أربعين يوماً، وقيل: شهرين، وقيل: ثلاثة أشهر، ومات وله إحدى وعشرون سنة، وقيل: عشرون سنة، ولما احْتُضِرَ قيل له: ألا تستخلِفُ؟ قال: ما أصبت من حلاوتها، فَلِمَ أتحمَّل مرارتها؟

وكان «ابن الزبير» محمد أبى البيعة ليزيد، وفر إلى مكة، ولم يدعُ إلى نفسه لكن لم يبايع، فوجد عليه «يزيد» وجداً شديداً، فلما مات «يزيد» بويع له بالخلافة، وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان، ولم يبق خارجاً عنه إلَّا الشام ومصر، فإنه بويع بهما «معاوية بن يزيد» فلم تطل مدته، فلما مات أطاع أهلهما «ابن الزبير» وبايعوه.

ثم خرج «مروان بن الحكم» فغلب على الشام ومصر، واستمر إلى أن مات سنة خمس وستين، وقد عهد إلى ابنه «عبد الملك».

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٩).

٣ ـ خلافة عبد الله بن الزبير وزواجه

قال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: (والأصح ما قاله الذهبي أن «مروان» لا يُعَدُّ في أمراء المؤمنين، بل هو باغٍ خارج على «ابن الزبير»، ولا عهده إلى ابنه بصحيح، وإنما صحَّت خلافة «عبد الملك» من حين قُتِلَ «ابن الزبير».

وأما «ابن الزبير» فإنه استمر بمكة خليفة إلى أن تغلَّب «عبد الملك» فجهز لقتاله «الحجاج» في أربعين ألفاً، فحصره بمكة أشهراً، ورمى عليه بالمنجنيق، وخذل «ابنَ الزبير» أصحابُه، وتسللوا إلى «الحجاج»، فظفر به وقتله وصلبه، وذلك يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى ـ وقيل: الآخرة ـ سنة ثلاث وسبعين)[١].

وكان «ابن الزبير» فارس قريش في زمانه، فقد كان أبوه «الزبير بن العوام» ﷺ يُرْدِفُه خلفه حين يخرج إلى القتال ليدربه على الفروسية وقراع الأبطال، وهذا ما جعل منه الفارس المغوار، الذي لا يُشَقُّ له غبار.

وقد أخرج أبو يعلى في مسنده، عن ابن الزبير؛ أن النبي ﷺ احتجم، فلما فرغ، قال له: **«يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد»**، فلما ذهب شربه، فلما رجع، قال: **«ما صنعت بالدم؟»** قال: عمدت إلى أخفى موضع فجعلته فيه، قال: **«لعلك شربته!»** قال: نعم. قال: **«ويل للناس منك، وويل لك من الناس»**، فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم.

وكان «ابن الزبير» ذا مناقب جَمَّة، ذكر «السيوطي» بعضها: قال «عمرو بن دينار»: ما رأيت مصلياً أحسن صلاة من «ابن الزبير»، وكان يصلي في الحِجْر ـ والمنجنيق يصيب طرف ثوبه ـ فما يلتفت إليه.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٧٨.

وقال «مجاهد»: ما كان باب من العبادة يعجز الناس عنه إلَّا تكلفه «ابن الزبير»، ولقد جاء سيل طبق البيت، فجعل يطوف سباحة.

وقال «عثمان بن طلحة»: كان «ابن الزبير» لا ينازع في ثلاثة: لا شجاعة، ولا عبادة، ولا بلاغة، وكان صَيِّتاً إذا خطب تجاوبه الجبال.

وأخرج ابن عساكر، عن عروة؛ أن «النابغة الجعدي» أنشد «عبد الله بن الزبير»:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح معدِمُ
وسويت بين الناس في الحق فاستوى فعاد صباحاً حالك اللون أسحَمُ

وعن هشام بن عروة، وخبيب، قالا: أول من كسا الكعبة الديباج «عبد الله بن الزبير»، وكانت كسوتها المسوح والأنطاع.

وعن هشام بن عروة، قال: كان أول ما أفصح به عمي «عبد الله بن الزبير» ـ وهو صغير ـ السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله! ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام.

وأخرج «السيوطي» عن عمر بن قيس، قال: كان لابن الزبير مائة غلام، يتكلم كل غلام منهم بلغة، وكان «ابن الزبير» يكلم كل أحد منهم بلغته، وكنتَ إذا نظرتَ إليه في أمر دنياه قلتَ: هذا رجل لم يرد الله طرفةً عين، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته، قلتَ: هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين.

وعن أبي عبيدة، قال: جاء «عبد الله بن الزبير» الأسديُّ، إلى «عبد الله بن الزبير بن العوام» فقال: يا أمير المؤمنين! إن بيني وبينك رحماً من قبل فلانة، فقال «ابن الزبير»: نعم، هذا كما ذكرتَ، وإن فكرتَ في هذا أصبتَ، الناس بأسرهم يرجعون إلى أب واحد، وإلى أم واحدة.

فقال: يا أمير المؤمنين! إن نَفَقَتي نفدت، قال: ما كنتُ ضمنتُ لأهلك أنها تكفيك إلى أن ترجع إليهم، قال: يا أمير المؤمنين! ناقتي قد نَقِبَتْ ـ أي: رَقَّ خُفُّها من كثرة السير ـ، قال: أنجد بها تبرد خفها، وارفعها بسبت، واخفضها بهلب، وسر عليها البَرْدَيْن ـ أي: الغداة والعشي ـ، قال: يا أمير المؤمنين! إنما

جئتك مستحملاً ولم آتك مستوصفاً، لعن اللهُ ناقةً حملتني إليك! فقال «ابن الزبير»: إِنَّ وراكبَها ـ أي: نعم وراكبتها أيضاً ـ، فخرج الأسدي يقول:

أرى الحاجات عند أبي خُبَيْبٍ نَكِدْنَ ولا أميةَ في البلادِ
من الأعياص أو من آل حربٍ أغر كغرّة الفرس الجوادِ
وقلت لصحبتي أدنوا ركابي أفارقْ بطن مكة في سَوَادِ
وما لي حين أقطع ذاتَ عرقٍ إلى ابن الكاهلية من مَعَادِ

وأخرج عبد الرزاق في مصنفه، عن الزهري، قال: لم يحمل إلى رسول الله ﷺ رأس إلى المدينة قط، ولا يوم بدر، وحمل إلى «أبي بكر» رأس فكره ذلك، وأول من حملت إليه الرؤوس «عبد الله بن الزبير»[1].

وقد حاصر «الحجاجُ» لمدة ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة «عبد الله بن الزبير» ثم قتله، وصلبه، ثم أمر بإلقائه في مقابر اليهود[2]، وكان قد تفرَّق عنه أصحابه، وخذله بنوه.

قال «أبو جعفر الطبري» في تاريخه: وذُكِرَ أنه كان ممن فارقه وخرج إلى «الحجاج» ابناه «حمزة» و«خُبَيْب»، فأخذا منه لأنفسهما أماناً، فدخل على أمه «أسماء» ـ كما ذكر محمد بن عمر، عن أبي الزناد، عن مخرمة بن سليمان الوالبي، قال: دخل «ابن الزبير» على أمه حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم، فقال: يا أُمَّهْ! خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردتُ من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنتَ تعلم أنك على حق، وإليه تدعو، فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكِّن من رقبتك يتلَعَّب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت من قُتِلَ معك، وإن قلتَ: كنتُ على حق، فلما وَهَن أصحابي ضعفتُ، فهذا ليس فعلَ الأحرار، ولا أهل الدين، وكم خلودُك في الدنيا؟ القتل أحسن.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٨٩.
(٢) صحيح مسلم رقم (٢٢٩/ ٢٥٤٥).

فدنا ابن الزبير فقبَّل رأسها، وقال: هذا والله! رأيي، والذي قمتُ به داعياً إلى يومي هذا ما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلَّا الغضب لله أن تُسْتَحَل حُرَمُه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة مع بصيرتي. فانظري يا أمه! فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلِّمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمَّدْ إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجُر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمَّدْ ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيتُ به بل أنكرتُه، ولم يكن شيءٌ آثَرَ عندي من رضا ربي، اللهم! إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدَّمْتني، وإن تَقدَّمتك ففي نفسي، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك.

قال: جزاكِ اللهُ يا أمَّهْ! خيراً، فلا تَدَعي الدعاء لي قبلُ وبعدُ، فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قُتِلَ على باطل فقد قُتِلْتَ على حق، ثم قالت: اللهم! ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبِرَّهُ بأبيه وبي، اللهم! قد سلَّمتُه لأمرك فيه، ورضيتُ لما قضيتَ، فأثبني في «عبد الله» ثواب الصابرين الشاكرين.

قال «مصعب بن ثابت»: فما مكَثَتْ بعده إلا عَشْراً، ويقال: خمسة أيام.

قال «محمد بن عمر»: حدثني موسى بن يعقوب بن عبد الله، عن عمه، قال: دخل «ابن الزبير» على أمه، وعليه الدرع والمِغْفَر، فوقف فسلَّم، ثم دنا فتناول يدها فقبَّلها، فقالت: هذا وداع فلا تبعَد، قال «ابن الزبير»: جئت مُوَدِّعاً، إني لأرى هذا آخر يوم من الدنيا يمر بي، واعلمي يا أُمَّهْ! أني إن قتلتُ فإنما أنا لحم لا يضرني ما صُنِعَ بي، قالت: صدقتَ يا بني! أتْمِمْ على بصيرتك، ولا تمكِّن «ابن أبي عقيل» منك، وادنُ مني أودعكَ، فدنا منها فقبلها وعانقها.

وقالت حين مسَّت الدرع: ـ وكانت قد عميت ـ: ما هذا صنيع من يريد ما تريد!

قال: ما لبستُ هذا الدرع إلَّا لأَشُدَّ منك، قالت العجوز: فإنه لا يشد مني، فنزعها ثم أدرج كميه، وشد أسفل قميصه، وجبةُ خَزٍّ تحت القميص،

فأدخلَ أسفلها في المِنْطَقة، وأمه تقول: البس ثيابك مُشَمَّرة، ثم انصرف «ابن الزبير» وهو يقول:

إنـــي إذا أعـــرف يـــومـــي أصـــبِـــرْ   إذْ بـعـضـهـم يـعـرف ثـم يُـنْـكِـرْ

فسمعت العجوز قوله، فقالت: تصبَّر والله! إن شاء الله، أبواك «أبو بكر» و«الزبير» وأمك «صفية بنت عبد المطلب».

وقال «أبو جعفر»: حدثني الحارث، قال: حدثني ابن سعد، قال: أخبرني عن محمد بن عمر، قال: أخبرنا ثور بن يزيد، عن شيخ من أهل حمص شهد وقعة «ابن الزبير» مع أهل الشام، قال: رأيته يوم الثلاثاء، وإنا لنطلع عليه أهل حمص خمسمائة خمسمائة من باب لنا ندخله، لا يدخله غيرنا، فيخرج إلينا وحده في أثرنا، ونحن منهزمون منه، فما أنسى أرجوزةً له:

إنـــي إذا أعـــرف يـــومـــي أصـــبِـــرْ   وإنـــمـــا يـــعـــرف يـــومـــيـــه الـــحُـــرُّ
إذ بـــعـــضـــهـــم يـــعـــرف ثـــم يـــنـــكِـــرْ

فأقول: أنت والله! الحر الشريف، فلقد رأيته يقف في الأبطح ما يدنو منه أحد حتى ظننَّا أنه لا يُقْتل، وتابع «ابن جرير» يقول:

حدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنا «مصعب بن ثابت»، عن نافع مولى بني أسد، قال: رأيت الأبواب قد شحنت من أهل الشام، يوم الثلاثاء، وأسلم أصحابُ «ابن الزبير» الممارس، وكثرهم القومُ فأقاموا على كل باب رجالاً وقائداً وأهل بلد، فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جُمَح، ولأهل قِنَّسْرِينَ باب بني سهم.

وكان «الحجاج» و«طارق بن عمرو» جميعاً في ناحية الأبطح إلى المروة، فمرة يحمل «ابن الزبير» في هذه الناحية، ومرة في هذه الناحية، فلكأنه أسد في أجَمَة ما يقدم عليه الرجال، فيعدو في أثر القوم، وهم على الباب حتى يخرجهم، وهو يرتجز:

إنـــي إذا أعـــرف يـــومـــي اصـــبِـــرْ   وإنـــمـــا يـــعـــرف يـــومـــيـــه الـــحُـــرّ

ثم يصيح: يا أبا صفوان! ويلُ أمّه فتحاً لو كان له رجال!

لو كان قِرْني واحداً كَفَيْتُهُ

قال «ابن صفوان»: إي والله! وألف. ثم تابع ابن جرير يقول:

حدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: فحدثني ابن أبي الزناد، وأبو بكر بن عبد الله بن مصعب، عن أبي المنذر، وحدثنا نافع مولى بني أسد، قالا: لما كان يوم الثلاثاء صبيحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وقد أخذ «الحجاج» على «ابن الزبير» بالأبواب، بات «ابن الزبير» يصلي عامة الليل، ثم احتبى بحمائل سيفه فأغفى، ثم انتبه بالفجر، فقال: أذِّن يا سعد! فأذَّن عند المقام، وتوضأ «ابن الزبير»، وركع ركعتي الفجر، ثم تقدم، وأقام المؤذن، فصلَّى بأصحابه، فقرأ ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القَلَم، الآية: ١] حرفاً حرفاً، ثم سلَّم، فقام، فحمِد الله، وأثنى عليه، ثم قال: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر، وعليهم المغافر والعمائم، فكشفوا وجوههم، فقال: يا آل الزبير! لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطُلِمْنَا في الله لم تُصِبْنا زبَّاء تبَّةً، أما بعد يا آل الزبير، فلا يَرُعْكُم وقع السيوف، فإني لم أحضر موطناً قط إلا ارْتُثِثْتُ فيه من القتل، وما أجد من أدواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم امرءاً كسر سيفه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل، غُضُّوا أبصاركم عن البارقة، وليَشْغَلْ كل امرىء قِرْنَه، ولا يُلْهِيَنَّكُمُ السؤال عني، ولا تقولُنَّ: أين «عبد الله بن الزبير؟» ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول:

أبى لابن سَلْمى أنه غير خالدٍ ... مُلاَقي المنايا أيَّ صرفٍ تَيَمَّمَا
فلستُ بمتاع الحياة بِسُبَّةٍ ... ولا مُرتقٍ من خشية الموت سُلَّمَا

احملوا على بركة الله. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرُمِيَ بآجُرَّةٍ فأصابته في وجهه فأُرْعِشَ لها، ودَمِيَ وجهُه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته، قال:

فلسنا على أعقابنا تَدْمَى كلومُنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدِّمَا

وتغاوَوْا عليه ـ أي: تجمعوا وتعاونوا عليه فقتلوه أو لم يقتلوه ـ.

قالا: وصاحت مولاة لنا مجنونة: واأمير المؤمنيناه! قالا: وقد رأته حيث هوى، فأشارت لهم إليه، فقتل وإن عليه ثياب خز، وجاء الخبر إلى «الحجاج»، فسجد وسار حتى وقف عليه و«طارق بن عمرو»، فقال «طارق»: ما ولدت النساء أذكر من هذا.

فقال «الحجاج»: تمدح مَنْ يخالف طاعة أمير المؤمنين! قال: نعم، هو أعذر لنا، ولولا هذا ما كان لنا عذر، إنا محاصروه، وهو في غير خندق ولا حصن ولا منعة منذ سبعة أشهر ينتصف منا، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو، فبلغ كلامهما «عبد الملك» فَصوَّب «طارقاً».

وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، قال: بعث «الحجاج» برأس «ابن الزبير» ورأس «عبد الله بن صفوان» ورأس «عُمَارة بن عمرو بن حزم» إلى المدينة، فتعبت بها، ثم ذهب بها إلى «عبد الملك بن مروان» ثم دخل «الحجاج» مكة، فبايع من بها من قريش لعبد الملك بن مروان[1].

وقال «المصعب الزبيري» في كتابه «نسب قريش»: (و«عبد الله بن الزبير» أَسَنُّ ولد «الزبير»، وهو أول مولود ولد بالمدينة من المسلمين، ويقال: بل من المهاجرين، وكان «ابن الزبير» يقول: هاجرت مع أمي، وأنا حَمْلٌ في بطنها؛ فما أصابها من مخمصة ولا وَصَب إلَّا قد أصابني، وحنَّكه رسول الله ﷺ بريقه ويده؛ وله يقول العقيلي:

بَرٌّ يبيِّن ما قال الرسول له ... من الصلاة بضاحي وجهه عَلَمُ
حمامةٌ من حمام البيت قاطنةٌ ... لا يتبعُ الناسَ إن جاروا وإن ظلموا

وقالت «عائشة» لرسول الله ﷺ: اكْنِني، قال: «**تكنَّيْ بابنك عبد الله بن الزبير**» وهي خالته أخت أمه؛ وكانت كنيتها «أمّ عبد الله».

وكان النبي ﷺ قد جمع المهاجرين والأنصار الذين ولدوا في الإسلام حين ترعرعوا، فبايعهم فكان منهم «عبد الله بن الزبير»، وسمع من النبي ﷺ شيئاً

(١) تاريخ الطبري (٦/ ١٨٨ ـ ١٩٢).

حَدَّث به، وتوفي النبي ﷺ و«عبد الله» ابن عشر سنين، ويحدِّث أن «عمر بن الخطاب» مَرَّ بأبي لؤلؤة، و«عمر» يتكيء على يد «عبد الله بن الزبير»؛ فقام إليه «أبو لؤلؤة»، ومعه فأس كان يعمل بها؛ فجعل يدنو من «عمر» ويكلمه، قال «ابن الزبير»: فأنكرته، فصحت عليه، فتأخَّر، فأقبل عليَّ «عمر»، فقال: إنه لَيَهُمُّ بشر.

وغزا «عبد الله بن الزبير»، «أفريقيَّة» مع «عبد الله بن أبي سرح» العامري، قال «ابن الزبير»: هجم علينا «جُرْجير» ملك إفرنجة في عشرين ألفاً، فأحاطوا بنا، والمسلمون في عشرين ألفاً، فاختلف الناس على «ابن أبي سرح»، فدخل فُسْطاطاً له، فخلا فيه، ورأيت غِرَّةً من «جُرْجير»، بَصُرْتُ به خلف عساكره على بِرْذونٍ أشهبَ، معه جاريتان تُظلِّلان عليه بريش الطواويس، بينه وبين جنده أرض بيضاء ليس فيها أحد، فخرجتُ أطلب الإذن على «ابن أبي سرح»، لأُخبره بغِرَّته؛ فأتيت حاجبه، فأبى أن يأذن لي عليه، فدُرْتُ من كِسْرِ ـ جانب ـ الفُسْطاط، فدخلتُ عليه؛ فوجدته مستلقياً على ظهره يفكر؛ ففزع واستوى جالساً؛ فقلت: إيهِ، كلَّ أَزَبَّ نَفُور، قال: ما أدخلك عليَّ يابن الزبير بغير إذن؟ قلت: رأيت عورةً من العدو؛ فاخرج فانتدب الناس: قال، وما هي؟ فأخبرته؛ فخرج معي مسرعاً، فقال: يا أيها الناس! انتدبوا مع «عبد الله بن الزبير»، فاخترت ثلاثين فارساً، فقلت: احموا لي ظهري، وحملتُ في الوجه الذي رأيت فيه «جُرْجير»، فما كان إلَّا أن خرقتُ الصف إليه، فخرجتُ صامداً إليه؛ ما يحسب هو وأصحابه إلَّا أني رسولٌ، حتى دنوت منه؛ فعَرف الشرَّ، فقَبَل ـ استقبل ـ برذونَه مُوَلِّياً، وأدركته فطعنته فسقط، وسقطت الجاريتان عليه، وأهويتُ إليه، فضربتُه بالسيف، فأصبتُ يد إحدى الجاريتين فقطعتها، وذَفَّفْتُ ـ أجهزتُ ـ عليه؛ ثم احتَزَزت رأسه، وجعلتُه على رمحي، وكبَّرتُ، ورفعتُ الرمح، وحمل المسلحون في الوجه الذي كنت فيه، وارفضَّ العدو من كل وجه، ومنح الله أكتافهم، فوجَّهني «ابن أبي سرح» بشيراً إلى «عثمان بن عفان»؛ فقدمتُ عليه، فأخبرته بفتح الله ونصره، ووصفتُ أمرَنا كيف كان، فلما فرغتُ من ذلك، قال: هل تستطيع أن تؤدي هذا إلى الناس؟.

قال: قلت: وما يمنعني من ذلك؟ أنت أهيب عندي منهم، قال: فاخرج إلى المسجد، فأخبرهم، فخرجتُ حتى أتيتُ المنبر، فاستقبلت الناس، فتلقَّاني

وجه أبي «الزبير بن العوام»؛ فدخلتني له هيبة؛ فعرفها مني؛ فقبض قبضته من حَصًى، وجمع وجهه في وجهي، وهَمَّ أن يحصبني؛ فاعترفتُ، فتكلمتُ، قال أبي «الزبير» حين فرغتُ: كأني سمعت كلام «أبي بكر الصديق»، فمن أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى أبيها أو أخيها، فإنها تأتيه بأحدهما)[١].

وتزوج «عبد الله بن الزبير»، «تُمَاضِر بنت منظور بن زَبَّان بن سَيَّار بن عمرو بن جابر بن عقيل بن هلال بن مازن بن فزارة» وأمها «مُلَيْكة بنت سنان بن أبي حارثة» المُرِّي، زوَّجه إياها «الزبير بن العوام». فولدت له: «خبيباً» و«حمزة» و«عباداً» و«ثابتاً»، رحم الله «ابن الزبير» رحمة واسعة.

(١) نسب قريش، ص: ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

٤ ـــ أزواج عبد الملك بن مروان

جاء في «تاريخ الخلفاء» للإمام «السيوطي»: «عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب»، أبو الوليد، ولد سنة ست وعشرين، بويع بعهد من أبيه في خلافة «ابن الزبير» فلم تصح خلافته، وبقي متغلباً على مصر والشام، ثم غلب على العراق، وما والاها، إلى أن قُتِلَ «ابن الزبير» سنة ثلاث وسبعين، فصحَّت خلافته من يومئذ، واستوثق له الأمر، ففي هذا العام هدم «الحجاج» الكعبة، وأعادها على ما هي عليه الآن، ودَسَّ على «ابن عمر» من طعنة بحربة مسمومة، فمرض منها ومات، وفي سنة خمس وسبعين، سار «الحجاج» إلى المدينة، وأخذ يتعنَّت على أهلها، ويستخفُّ ببقايا مَنْ فيها من صحابة رسول الله ﷺ، وخَتَم في أعناقهم وأيديهم، يذلُّهم بذلك ـ أذلَّه الله يوم يعرض عليه ـ كأنس، وجابر بن عبد الله، وسهل بن سعد الساعدي، فإنا لله وإنا إليه راجعون[(١)].

كان «عبد الملك» معدوداً في فقهاء المدينة المرموقين، كسعيد بن المسيَّب، وعروة بن الزبير.

وقال عنه الشعبي: ما ذاكرْتُ أحداً إلَّا وجدت لي الفضل عليه، إلَّا «عبد الملك» فإني ما ذاكرته حديثاً إلَّا زادني فيه، ولا شعراً إلَّا زادني فيه.

تسلَّم الخلافة والبلاد الإسلامية تسودها الفرقة والفوضى والخلافات والاضطرابات، إلَّا أنه استطاع بقوة عزيمته، وشدة بأسه أن يجمع الناس على كلمة سواء، وقضى على «مصعب بن الزبير» فدانت له العراق، ثم أرسل «الحجاج» إلى قتال «عبد الله بن الزبير» في الحجاز، فتمكن من قتله وصلبه، وغدر بعمر وسعيد بعد أن أمَّنه وكان ذلك أول غدر في الإسلام، وقضى على خصومه أجمعين.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٠.

وذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وفي «الأوائل للعسكري» بسنده: كان «عبد الملك» أول من كتب في صدور الطوامير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص، الآية: ١] وذكر النبي ﷺ مع التاريخ، فكتب ملك الروم: إنكم أحدثتم في طواميركم شيئاً من ذكر نبيكم، فاتركوه، وإلّا أتاكم من دنانيرنا ذكر ما تكرهون، فعظم ذلك على «عبد الملك» فأرسل إلى «خالد بن يزيد بن معاوية» فشاوره، فقال: حَرِّمْ دنانيرهم، واضرب للناس سِكَكاً فيها ذكر الله وذكر رسول الله ﷺ، ولا تعفهم مما يكرهون في الطوامير، فضرب الدنانير للناس سنة خمس وسبعين.

قال «العسكري»: وأول خليفة بَخِلَ «عبد الملك» وكان يسمى «رَشْحَ الحجارة» لبخله، ويكنى «أبا الذِّبَّانِ» لِبَخْرِهِ.

قال: وهو أول من غدر في الإسلام، وأول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف، ثم أخرج بسنده عن ابن الكلبي، قال: كان «مروان بن الحكم» ولّى العهد «عمرو بن سعيد بن العاص» بعد ابنه، فقتله «عبد الملك» وكان قتله أول غدر في الإسلام، فقال بعضهم:

يا قوم لا تُغلبوا عن رأيكم فلقد ... جَرَّبتُم الغدر من أبناء مروانَا
أمسوا وقد قتلوا عَمْراً وما رشدوا ... يدعون غدراً بعهد الله كَيْسانَا
ويقتلون الرجال البُزْلَ ضاحيةً ... لكي يولُّوا أمور الناس ولدانَا
تلاعبوا بكتاب الله فاتخذوا ... هواهُمُ في معاصي الله قرآنَا

وأخرج بإسناد فيه الكديمي، وهو متهم بالكذب، عن ابن جريج، عن أبيه، قال: خطبنا «عبد الملك بن مروان» بالمدينة بعد قتل «ابن الزبير» عام حج سنة خمس وسبعين، فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

أما بعد، فلست بالخليفة المستضعف ـ يعني «عثمان» ـ ولا الخليفة المداهن ـ يعني «معاوية» ـ، ولا الخليفة المأفون ـ الناقص العقل ـ يعني «يزيد» ـ، ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمّة، إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، تكلفوننا أعمال المهاجرين، ولا تعملون مثل أعمالهم، فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم، هذا «عمرو بن سعيد» قرابتُه قرابتُه، ومَوْضِعُه مَوْضِعُه، قال

برأسه هكذا، فقلنا بأسيافنا هكذا، ألاَ وإنا نحمل لكم كل شيء إلا وثوباً على أمير أو نصبَ راية، ألا وإن الجامعة التي جعلتُها في عنق «عمرو بن سعيد» عندي، والله! لا يفعل أحد فعله إلّا جعلتها في عنقه.

والله! لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا، إلا ضربتُ عنقه، ثم نزل.

ثم قال «العسكري»: و«عبد الملك» أول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وأول من رفع يديه على المنبر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف بسنده، عن محمد بن سيرين، قال: أول من أحدث الأذان في الفطر والأضحى بنو مروان، فإما أن يكون «عبد الملك» أو أحداً من أولاده.

وقال «يوسف بن الماجشون»: كان «عبد الملك» إذا قعد للحكم قيم على رأسه بالسيوف.

وقال «الأصمعي»: قيل لعبد الملك: يا أمير المؤمنين! عجل عليك الشيب، فقال: وكيف لا، وأنا أعرض عقلي على الناس كل جمعة؟

وقال ابن عائشة: كان «عبد الملك» إذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق، قال: اعفني من أربع وقل بعدها ما شئت: لا تكذبنني فإن الكذبوب لا رأي له، ولا تجبني فيما لا أسألك فإن فيما أسألك عنه شغلاً، ولا تُطْرِني فإني أعلم بنفسي منك، ولا تحملني على الرَّعية فإني إلى الرفق بهم أحوج[١].

وقال ابن أبي عائشة: أفضي الأمر إلى «عبد الملك»، والمصحف في حَجْره، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك[٢].

وقال يحيى الغساني: كان «عبد الملك بن مروان» كثيراً ما يجلس إلى «أم الدرداء» فقالت له مرة: بلغني يا أمير المؤمنين! أنك شربت الطلاء بعد النسك والعبادة، قال: إي والله! والدماء قد شربتها[٣].

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٢.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩١.

قال «أحمد بن عبد الله بن العجلي»: كان «عبد الملك» أبخر الفم ـ له رائحة نتنة ـ، وإنه ولد لستة أشهر(١).

قال السيوطي: قلتُ: لو لم يكن من مساوىء «عبد الملك» إلَّا «الحجاج» وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة ﷺ، يهينهم ويذلهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً، وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى فضلاً عن غيرهم، وختم في عنق «أنس» وغيره من الصحابة ختماً يريد بذلك ذُلَّهم، فلا رحمه الله ولا عفا عنه(٢).

ومن فخرياته المشينة تكريمه للشاعر «الأخطل» الكافر الفاجر المتطاول حتى عليه وهو أمير للمؤمنين، فقد روى السيوطي عن أبي عبيدة: لا أنشد «الأخطل» كلمته لعبد الملك التي يقول فيها:

شُمْسُ العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

قال: خذ بيده، يا غلام! فأخرجه، ثم أَلْقِ عليه من الخِلَعِ ما يغمره، ثم قال: إن لكل قوم شاعراً، وشاعر بني أمية «الأخطل».

وقال «الأصمعي»: دخل «الأخطل» على «عبد الملك» فقال: ويحك! صف لي السُّكْرَ، قال: أوله لذة، وآخره صداع، وبين ذلك حالة لا أصف لك مبلغها، فقال: ما مبلغها؟ قال: لَمُلْكُكَ يا أمير المؤمنين! عندها أهون عليَّ من شِسْعِ نعلي، وأنشأ يقول:

إذا ما ينمني عَلَّني ثم عَلَّني ثلاثٌ زجاجات لهن هديرُ
خرجتُ أجر الذيلَ تيهاً كأنني عليك أميرَ المؤمنين أميرُ(٣)

فما أشقى الرعية التي يسوسها أمير كعبد الملك بن مروان!

وأما عن نسائه وأبنائه فذكر «ابن عساكر» في «أعلام النساء»: «عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله» التيمية، فولدت له «بكار بن عبد الملك»(٤).

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩١.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٥.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٦.
(٤) أعلام النساء، ص: ٢٤٢.

ثم «عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية» أم البنين الأموية، وأمها: «أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كريز» روى عنها «مهاجر» والد «عمرو بن مهاجر» الأنصاري، وقد ولدت لعبد الملك ولديه «مروان» و«يزيد» ابني «عبد الملك»، وزاد الطبري: «معاوية» و«أم كلثوم».

وعن عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: لما أراد «عبد الملك» الخروج إلى «مصعب بن الزبير» ناشت ـ تعلقت ـ به امرأته «عاتكة بنت يزيد» وبكت، فبكى جواريها معها، فجلس، ثم قال: الله قاتل ابن أبي جمعة ـ وهو الشاعر كُثيرٌ عَزَّة ـ حين يقول:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حَصان عليها نظم دُرٌ يزينُها
نهته فلما لم تر النهي عاقه بكت فبكى مما عراها قَطِينُها

القطين ـ الخدم والحشم ـ، ثم مضى.

وعن محمد بن حبيب، قال: كانت «عاتكة بنت يزيد بن معاوية» تضع خمارها بين يدي اثني عشر خليفة كلهم لها مَحْرَم.

أبوها «يزيد بن معاوية» وأخوها «معاوية بن أبي سفيان»، وزوجها «عبد الملك بن مروان، وأبو زوجها «مروان بن الحكم» وابنها «يزيد بن عبد الملك»، وبنو زوجها «الوليد» و«سليمان» و«هشام»، وابن ابنها «الوليد بن يزيد»، وابن ابن زوجها «يزيد بن الوليد بن عبد الملك»، و«إبراهيم بن الوليد المخلوع»، وهو ابن ابن زوجها أيضاً(١).

وعن ابن جندب قال: استأذنت «ابنة يزيد بن معاوية»، «عبد الملك بن مروان» في الحج، فأذن لها، وقال: ارفعي حوائجك، واستظهري، فإن «عائشة بنت طلحة» تحج، وإن أقمت كان أحب إليَّ، فأبت، فرفعت حوائجها، وتهيأت وَجهَّزها.

فلما كانت بين مكة والمدينة ـ حرسهما الله تعالى ـ أقبل ركب في جماعة،

(١) المحبر لابن حبيب، ص: ٤٠٤.

فضعضعها وفرَّق جماعتها، فقالوا: «عائشة بنت طلحة»، فإذا ذلك مع جارية من جواريها، ثم جاء ركب في موكب مثله، فقال: ماشطتها، ثم جاء موكب أعظم من ذلك، في ثلاثمائة راحلة، فقالت «عاتكة»: ما عند الله خير وأبقى.

عن الزهري، قال: دعاني «عبد الملك» في قراء من قراء أهل دمشق، قال: فدخلنا عليه، وإذا امرأته «عاتكة بنت يزيد بن معاوية» جالسة، وابن لها صغير مريض. قال: فأخذنا ندعو، وأخذ هو يدعو فقال: بحق مكاني الذي وضعتني، قال: فلم يبرح حتى مات، قال: وكان هو أشد جزعاً من أم الصبي، فلما مات صبر، قال: قلت: يا أمير المؤمنين! إن كنت أشد جزعاً منها، وهي الساعة أشد جزعاً منك، فقال: إنا نجزع من الأمر ما لم يقع، فإذا وقع صبرنا.

بلغني أن «عاتكة بنت يزيد» بقيت حتى أدركت قتل ابن ابنها «الوليد بن يزيد بن عبد الملك»[١].

ـ تزوج «وَلَّادة بنت العباس بن جَزْء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض» أم الوليد العبسية[٢]، وعندالطبري:

«الوليد» و«سليمان» و«مروان الأكبر» ـ درج ـ و«عائشة» أمهم «ولَّادة».

ـ و«أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان» ولدت له «الحكم» ـ دَرَج ـ.

ـ و«أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص» ولدت له «فاطمة». وعبد الله ومسلمة المنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج، لأمهات أولاد.

ـ وشقراء بنت سلمة، وابنة لعلي بن أبي طالب ﷺ، وأم أبيها بنت عبد الله بن جعفر. وكانت وفاة «عبد الملك» منتصف شوال سنة «٨٦ هـ»[٣].

---

(١) أعلام النساء، ص: ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص: ٣٦٧.
(٣) تاريخ الطبري (٦/٤١٨ ـ ٤٢٠).

٥ ـ أزواج الوليد بن عبد الملك

هو «الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب»، أبو العباس، وأمه «ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض» العبسية.

قال الإمام «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: «الوليد بن عبد الملك»، أبو العباس، قال الشعبي: كان أبواه يترفانه، فشبَّ بلا أدب.

قال روح بن زنباع: دخلت يوماً على «عبد الملك» ـ وهو مهموم ـ فقال: فكرتُ فيمن أوليه أمر العرب، فلم أجده، فقلت: أين أنت من «الوليد؟» قال: إنه لا يحسن النحو، فسمع ذلك «الوليدُ» فقام من ساعته، وجمع أصحاب النحو، وجلس معهم في بيت ستة أشهر، ثم خرج وهو أجهل مما كان، فقال «عبد الملك»: أما إنه قد أَعْذَرَ.

وقال أبو الزناد: كان «الوليد» لَحَّاناً، قال على منبر المسجد النبوي: يا أهلُ المدينة.

وقال أبو عكرمة الضبي: قرأ «الوليد» على المنبر»: يا ليتُها كانت القاضية، وتحت المنبر «عمر بن عبد العزيز» و«سليمان بن عبد الملك»، فقال «سليمان»: وددتها والله!. وكان «الوليد» جباراً ظالماً[(١)].

وشهد عهده الكثير من الفتوحات الإسلامية، فأشبه ما تَمَّ في عهد «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، وأمر بختن الأيتام، ورتَّب لهم المؤدبين، كما جعل للزَّمْنَى من يرعاهم، وحَجَر على المجذومين، وجعل للعميان من يقودهم، وحدَّد للفقهاء

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٧.

والفقراء والضعفاء عطاءات، تغطي معايشهم ليحول بينهم وبين مسألة الناس، وضبط أمور الناس على أتم وجه وأكمل صورة، وأمر بعمارة المسجد النبوي الشريف وتوسعته، وبنى مسجد بني أمية في دمشق، وشيَّد المسجد الأقصى، وكتب إلى «عمر بن عبد العزيز» والي المدينة في تسهيل الثنايا وحفر الآبار فيها وفي غيرها من البلدان.

وبرز في عهده عدد من قواد المسلمين العظام «كموسى بن نصير» و«طارق بن زياد» و«قتيبة بن مسلم الباهلي» و«محمد بن القاسم الثقفي» و«مسلمة بن عبد الملك»، وغيرهم.

أما عن نسائه وأبنائه، فقد قال «المصعب الزبيري» في «نسب قريش»: فوَلَد «الوليدُ بن عبد الملك»: «عَبد العزيز» و«محمداً»، و«عائشة» أمهم «أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان». و«عَبد الرحمٰن بن الوليد» وأمه «أم عبد الله بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان» و«العباسَ بن الوليد» هو أكبر ولده، به كان يكنى، و«عمرَ» و«بشراً» و«روحاً» و«خالداً» و«تَمّاماً» و«مُبَشِّراً» و«جَزْءاً» و«يزيد» و«يحيى» و«إبراهيم» و«أبا عبيدة» و«مسروراً» و«صَدَقَة»، لأمهات أولاد[1].

وذكر ابن عساكر في أعلام النساء أن «زينب بنت الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كانت زوجاً للوليد[2]. وأن «فاطمة بنت عبد الله بن مطيع بن الأسود بن حارثة بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عويج بن كعب بن لؤي، كانت زوجاً للوليد[3]. وتزوج نفيسة بنت زيد بن حسن وهو خليفة، ففارقها[4].

وكانت وفاته سنة ست وتسعين في قول أهل السير.

(١) نسب قريش، ص: ١٦٥.
(٢) أعلام النساء، ص: ١٨٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص: ٢٨١.
(٤) نسب قريش ص: ٣٢.

٦ ـ أزواج سليمان بن عبد الملك

«سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب» وأمه «ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض» العبسية.

قال السيوطي في «تاريخ الخلفاء»: «سليمان بن عبد الملك» أبو أيوب، كان من خيار ملوك بني أمية. ولي الخلافة بعهد من أبيه بعد أخيه في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، روى قليلاً عن أبيه، وعبد الرحمٰن بن هُبَيْرة، روى عنه ابنه عبد الواحد والزهري، وكان فصيحاً، مفوَّهاً، مؤثراً للعدل، محباً للغزو، ومولده سنة ستين.

من محاسنه: أن «عمر بن عبد العزيز» كان له كالوزير، فكان يمتثل أوامره في الخير، فعزل عمال «الحجاج»، وأخرج من كان في سجن العراق، وأحيا الصلاة لأول مواقيتها. وكان بنو أمية أماتوها بالتأخير.

قال «ابن سيرين»: يرحم الله «سليمان»! افتتح خلافته بإحيائه الصلاة لمواقيتها، واختتمها باستخلافه «عمر بن عبد العزيز».

وكان «سليمان» ينهى عن الغناء، وكان من الأَكَلَة المذكورين، أكل في مجلس سبعين رمانة، وخروفاً، وست دجاجات، ومَكُّوكَ زبيب طائفي[1].

وكان «الوليد بن عبد الملك» قد أراد عزل أخيه «سليمان» عن ولاية العهد، وإحلال ابنه «عبد العزيز» محله، وقد وافقه على ذلك «قتيبة بن مسلم الباهلي» والي خراسان، و«الحجاج» فاضطغنها «سليمان» عليهما، ولما ولي «سليمان» كان

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٩.

الموت قد أخذ «الحجاج» فأفلت من سخطه، واتجهت الأنظار إلى «قتيبة». وقد ذكر «ابن جرير الطبري» في تاريخه: عن السكن بن قتادة؛ أن «قتيبة» لما أتاه موت «الوليد بن عبد الملك» وقيام «سليمان» أشفق من «سليمان» لأنه كان يسعى في بيعة «عبد العزيز بن الوليد» مع «الحجاج»، وخاف أن يولي «سليمان»، «يزيد بن المهلب» خُراسان، قال: فكتب إليه كتاباً يهنئه بالخلافة، ويعزيه على «الوليد»، ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد، وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان، وكتب إليه كتاباً آخر يعلمه فيه فتوحه ونِكايَتَه، وعِظَمَ قدره عند ملوك العجم، وهيبته في صدورهم، وعظم صوته فيهم، ويذم «المهلب» و«آل المهلب»، ويحلف بالله لئن استعمل «يزيد» على خراسان ليخلعنه، وكتب كتاباً ثالثاً فيه خَلْعُه، وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة، وقال له: ادفع إليه هذا الكتاب، فإن كان «يزيد بن المهلب» حاضراً، فقرأه، ثم ألقاه إليه، فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأه وألقاه إلى «يزيد» فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأ الأول، ولم يدفعه إلى «يزيد» فاحتبس الكتابين الآخرين.

قال: فقدم رسول «قتيبة» فدخل على «سليمان» وعنده «يزيد بن المهلب»، فدفع إليه الكتاب، فقرأه، ثم ألقاه إلى «يزيد» فدفع إليه كتاباً آخر، فقرأه، ثم رمى به إلى «يزيد»، فأعطاه الكتاب الثالث، فقرأه، فتمعَّر لونه ـ تَغَيَّر ـ، ثم دعا بطين فختمه ثم أمسكه بيده.

وأما «أبو عبيدة»؛ معمر بن المثنى «فإنه قال ـ فيما حدثت عنه: كان في الكتاب الأول: وقيعة في «يزيد بن المهلب»، وذكر غدره وكفره وقلة شكره، وكان في الثاني: ثناء على «يزيد»، وفي الثالث: لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعَنَّكَ خلع النعل، ولأملأنها عليك خيلاً ورجالاً.

وقال أيضاً: لما قرأ «سليمان» الكتاب الثالث، وضعه بين مثالين من المُثُل التي تحته، ولم يُحِرْ في ذلك مرجوعاً[1].

وثار «وكيع» سيد بني تميم، مع نفر من أصحابه، على «قتيبة» فقتلوه هو

(١) تاريخ الطبري (٦/٥٠٧ ـ ٥٠٨).

وإخوته وأكثر بنيه، فقال أحد الأعاجم سمع بقتل «قتيبة»: يا معشر العرب! قتلتم «قتيبة»، والله! لو كان منا فمات فينا جعلناه في تابوت، فكنا نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع «قتيبة».

وقال عبد الرحمٰن بن جمانة الباهلي:

كأن أبا حفص قتيبة لم يَسِرْ ... بجيش إلى جيش ولم يَعْلُ منبَرا
ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوفٌ ولم يشهد له الناس عسكَرا
دعته المنايا فاستجاب لربِّه ... وراح إلى الجنات عفًّا مطهَّرًا
فما رزىء الإسلام بعد محمدٍ ... بمثل أبي حفصٍ فبَكِّيهِ عَبْهَرَا

يعني: أمَّ ولد له.

وقال الأصم بن الحجاج يرثي قتيبة:

ألم يأْنِ للأحياء أن يعرفوا لنا ... بلى نحن أولى الناس بالمجد والفخرِ
نقود تميماً والموالي وفد حجاً ... وأزدَ وعبدَ القيس والحيَّ من بكرِ
نقتِّل من شئنا بعزة مُلكنا ... ونَجْبُر من شئنا على الخَسْف والقَسْرِ
سليمان كم من عسكر قد حوت لكم ... أسنتنا والمُقْربَاتُ بنا تجري
وكم من حصونٍ قد أبَحْنَا منيعةٍ ... ومن بلد سهل ومن جبل وعرِ
ومن بلدة لم يغزها الناس قبلنا ... غزونا نقود الخيلَ شهراً إلى شهرِ
مَرَنَّ على الغزو الجرور ووقِّرت ... على النَّفر حتى ما تُهالُ من النفْرِ
وحتى لَوَ انَّ شُبِّبت وأكرهت ... على النار خاضت في الوغى لهب الجمرِ
تُلاعِبُ أطراف الأسنة والقَنَا ... بِلُبَّاتِها والموت في لُجَجٍ خُضرِ
بهن أبحنا كل أهل كل مدينةٍ ... من الشرك حتى جاوزت مطلعَ الفجرِ
ولو لم تُعَجِّلْنا المنايا لَجَاوَزَتْ ... بنا رَدْمَ ذي القرنين ذا الصخر والقطرِ
ولكن آجالاً قُضِينَ ومدةً ... تناهى إليها الطيبون بنو عمرِ [(١)]

وأَحَلَّ «سليمان» بعد مقتل «قتيبة» على خُراسان «يزيد بن المهلب».

وذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: قال يحيى الغساني: نظر سليمان في

(١) تاريخ الطبري (٦/ ٥٢١ ـ ٥٢٢).

المرآة، فأعجبه شبابه وجماله، فقال: كان «محمد ﷺ» نبياً، وكان «أبو بكر» صِدِّيقاً، وكان «عمر» فاروقاً، وكان «عثمان» حَيِيًّا، وكان «معاوية» حليماً، وكان «يزيد» صبوراً، وكان «عبد الملك» سائساً، وكان «الوليد» جَبَّاراً، وأنا الملك الشاب، فما دار عليه الشهر حتى مات[1].

وقال «أبو جعفر الطبري» حُدِّثت عن علي بن محمد قال: كان الناس يقولون: «سليمان» مفتاح الخير، ذهب عنهم «الحجاج»، فولي «سليمان» فأطلق الأسارى، وخَلَّى أهل السجون، وأحسن إلى الناس، واستخلف «عمر بن عبد العزيز»، فقال «ابن بيض»:

حاز الخلافة والداك كلاهما ... من بين سخطة ساخط أو طائعِ
أبواك ثم أخوك أصبح ثالثاً ... على جبينك نور مُلْكِ الرابعِ

وقال علي: قال الفضل بن المهلب: دخلت على «سليمان» بدابق، يوم جمعة، فدعا بثياب فلبسها، فلم تعجبه، فدعا بغيرها بثياب خضر سُوسِيَّة بعث بها «يزيد بن المهلب»، فلبسها واعْتَمَّ، وقال: يابن المهلب! أعجبتك؟ قلت: نعم، فحَسَرَ عن ذراعيه، ثم قال: أنا الملك الفتى، فصلى الجمعة، ثم لم يُجَمِّعْ بعدها، وكتب وصيته، ودعا «ابن أبي نُعَيْم» صاحب الخاتم فختمه.

قال علي، قال بعض أهل العلم: إن «سليمان» لبس يوماً حلة خضراء، وعمامة خضراء، ونظر في المرآة، فقال: أنا الملك الفتى، فما عاش بعد ذلك إلا أسبوعاً.

قال علي: وحدثنا «سحيم بن حفص»، قال: نظرت إلى «سليمان» جارية له يوماً، فقال: ما تنظرين؟ فقالت:

أنت خير المتاع لو كنت تبقى ... غير أنْ لا بقاء للإنسانِ
ليس فيما علمتُه فيك عيبٌ ... كان في الناس غير أنك فانِ

فنفض عمامته[2].

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٠٠.

(٢) تاريخ الطبري (٦/٥٤٦ ـ ٥٤٧).

وذكر الإمام «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: قال «عبد الرحمٰن بن حسان الكناني»: مات «سليمان» غازياً بدابق، فلما مرض قال لرجاء بن حَيْوَة: من لهذا الأمر بعدي؟ أستخلف ابني؟ قال: ابنك غائب، قال: فابغي الآخر؟ قال: صغير، قال: فمن ترى؟ قال: أرى أن تستخلف «عمر بن عبد العزيز»، قال: أتخوَّف إخوتي لا يرضون، قال: تولي «عمر» ومن بعده «يزيد بن عبد الملك»، وتكتب كتاباً، وتختم عليه، وتدعوهم إلى بيعته مختوماً، قال: لقد رأيت، فدعا بقرطاس، فكتب فيه العهد، ودفعه إلى «رجاء»، وقال: اخرج إلى الناس فليبايعوا على ما فيه مختوماً، فخرج، فقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب، قالوا: ومن فيه؟ قال: هو مختوم، لا تُخْبَروا بمن فيه حتى يموت، قالوا: لا نبايع، فرجع إليه فأخبره، فقال: انطلق إلى صاحب الشرط والحرس، فاجمع الناس، ومرهم بالبيعة، فمن أبى فاضرب عنقه، فبايعوا.

قال «رجاء»: فبينما أنا راجع إذا «هشام» فقال لي: يا رجاء! قد علمت موقعك منا، وأن أمير المؤمنين قد صنع شيئاً ما أدري ما هو؟ وإني تخوفت أن يكون قد أزالها عني، فإن يكن قد عدلها عني فأعلمني ما دام في الأمر نفس حتى أنظر، فقلت: سبحان الله! يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه؟ لا يكون ذلك أبداً، ثم لقيتُ «عمر بن عبد العزيز» فقال لي: يا رجاء! إنه قد وقع في نفسي أمر كبير من هذا الرجل، أتخوَّف أن يكون قد جعلها إليَّ، ولست أقوم بهذا الشأن، فأعلمني ما دام في الأمر نفس لعلي أتخلص منه ما دام حياً، قلت: سبحان الله! يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه؟

ثم مات «سليمان» وفتح الكتاب، فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيَّرت وجوه بني «عبد الملك»، فلما سمعوا: وبعده «يزيد بن عبد الملك» تراجعوا، فأتوا «عمر»، فسلموا عليه بالخلافة، فعُقِر به، فلم يستطع النهوض حتى أخذوا بضَبْعَيْه، ـ الضَّبْع ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها ـ، فدنوا به إلى المنبر، وأصعدوه، فجلس طويلاً لا يتكلم، فقال لهم «رجاء»: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين فتبايعوه؟ فبايعوه، ومد يده إليهم، ثم قام، فَحمِدَ الله، وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس! إني لست بفارض، ولكني منقذ، ولست بمبتدع، ولكني مُتَّبع، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلستُ لكم بوالٍ، ثم نزل، فأتاه صاحب المراكب، فقال: ما هذا؟ قال: مركب الخليفة، قال: لا حاجة لي فيه، ائتوني بدابتي، فأتوه بدابته، وانطلق إلى منزله، ثم دعا بدواة، وكتب بيده إلى عمال الأمصار.

قال «رجاء»: كنت أظن أنه سيضعف، فلما رأيت صنعه في الكتاب، علمت أنه سيقوى.

وأضاف «السيوطي»: يروى أن «مروان بن عبد الملك» وقع بينه وبين «سليمان» في خلافته كلام، فقال له «سليمان»: يابن اللَّخْناء! ففتح «مروان» فاه ليجيبه، فأمسك «عمر بن عبد العزيز» بفيه، وقال: أنشدك الله! إمامُك وأخوك وله السِّنُّ، فسكت، وقال: قتلتني، والله! لقد زدت في جوفي أحَرَّ من النار، فما أمسى حتى مات[١].

وذكر «أبو جعفر الطبري» في تاريخه، فقال: حدثني عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني سليمان، قال: حدثي عبد الله بن محمد بن عيينة، قال: أخبرني أبو بكر بن عبد العزيز الضحاك بن قيس، قال:

شهد «سليمان بن عبد الملك» جنازة بدابق، فدُفِنَتْ في حقل، فجعل «سليمان» يأخذ من تلك التربة، فيقول:

ما أحسن هذه التربة! ما أطيبها! فما أتى عليه جمعة ـ أو كما قال ـ حتى دفن، إلى جنب ذلك القبر[٢].

وأما عن أزواجه وأبنائه، فقد ذكر «المصعب الزبيري» في «نسب قريش»: وولَدَ «سليمانُ بن عبد الملك بن مروان»، «أيوب»، كان يرشحه لولاية العهد، فمات في حياته، وأمه «أم أبان بنت أبان بن الحكم بن أبي العاصي»، و«يزيدَ بن سليمان»، و«القاسمَ» و«سعيداً» دَرَج، وأمهم: «أم يزيد بنت عبد الله بن يزيد بن

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٢) تاريخ الطبري (٦/٥٤٩).

معاوية بن أبي سفيان» و«يحيى» و«عبيد الله»، أمهما: «عائشة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان»، و«عبدَ الواحد بن سليمان»، قتله «صالح بن علي»، وكان والياً لمروان بن محمد على المدينة ومكة ـ حرسهما الله تعالى ـ.

وولي الحج عام الحرورية أصحاب «عبد الله بن يحيى»، لم يدر بهم «عبد الواحد» وهو واقف بعرفة، حتى تدلَّوا عليه من جبال «عرفة» من طريق الطائف، فوجَّه إليهم رجالاً من قريش، فيهم: «عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب»، و«أمية بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان» و«عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب»، فكلموهم وسألوهم أن يكفوا حتى يفرغ الناس من حجهم ففعلوا، فلما كان يوم النفر الأول، خرج «عبد الواحد» كأنه يفيض؛ فمضى على وجهه إلى المدينة، وترك ثَقَلَه ونساطيطه بمِنًى، فقال أبو الكوسج:

زار الحَجيجَ عصابة قد خالفوا دين الرسول ففر عبد الواحدِ
ترك القتال وما به من علةٍ إلا الوهونَ وعرقه من خالدِ

وأمُّ عبد الواحد: أم عمرو بنتُ عبد الله بن خالد بن أَسِيد بن أبي العيص، و«الحارثَ بن سليمان» و«عَمْراً وعمر وعبد الرحمٰن وداود، لأمهات أولاد شتى[1]. وتوفي «سليمان» لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين يوم الجمعة. رحمه الله تعالى.

---

(١) نسب قريش، ص: ١٦٥ ـ ١٦٦.

٧ ـ أزواج عمر بن عبد العزيز

أخرج «ابن الجوزي» في كتابه «سيرة عمر بن عبد العزيز»: قال ابن سعد: وهو «عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس».

أمه «أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب»، ويكنَّى «أبا حفص»، ويقال له: «أشجّ بني أمية».

وقال: حدثنا عبد الله بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده أسلم، قال: بينا أنا مع «عمر بن الخطاب»، وهو يعُسُّ بالمدينة، إذ أعيا فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا ابنتاه! قومي إلى ذلك اللبن فامْذُقيه بالماء، فقالت لها: يا أمتاه! أو ما علمت بما كان من عَزْمَة أمير المؤمنين اليوم؟

فقالت: وما كان من عَزْمته يا بنية!؟ قالت: إنه أمر مناديَه، فنادى ألَّا يُشَابَ اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنتاه! قومي إلى اللبن فَامْذُقيه بالماء، فإنك بوضع لا يراك «عمر»، ولا منادي «عمر»، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه! والله! ما كنت لأطيعه في الملإ وأعصي في الخلا.

و«عمر» يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم! علِّم الباب، واعرف الموضع، ثم مضى في عسسه، فلما أصبح قال: يا أسلم! امض إلى ذلك الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهم من بعل؟

فأتيت الموضع فنظرت، فإذا الجارية أَيِّمٌ لا بعل لها، وإذا تِيك أمها، وإذا ليس لهما رجل، فأتيت «عمر بن الخطاب» فأخبرته، فدعا «عمر» ولده فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أو زوجة؟ ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء، ما سبقه أحد منكم إلى هذه الجارية.

فقال «عبد الله»: لي زوجة، وقال «عبد الرحمٰن»: لي زوجة، وقال

«عاصم»: يا أبتاه! لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية، فزوجها من «عاصم» فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت بنتاً، وولدت الابنة «عمر بن عبد العزيز» ـ رحمه الله ـ.

قلت: هكذا وقع في رواية الآجري، فلا أدري ممن الغلط، وإنما الصواب: فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت «عمر بن عبد العزيز»، كذلك نسبه العلماء، كما ذكرنا عن «محمد بن سعد» وغيره[(١)].

لقد كان «عمر بن عبد العزيز» نسمة صالحة من ذرية طيبة، وكان إذا أراد أحداً ليستعمله على الناس، يقول: لا حاجة بي إلى رجل صبغ يده بدماء المسلمين. وكان «عمر» ﷺ لا يخفي سخطه على «الحجاج» وصنائعه، ويكره التأسي به، والاستنان بسننه.

قال ابن الجوزي: حدثنا محمد بن حمزة، قال: حدثنا الثقة أن «عمر بن عبد العزيز» كتب إلى «عدي بن أرطاة»: أما بعد، فإني كتبت إليك بكتب كثيرة أرجو بذلك الخير من الله تعالى، والثواب عليه، وأنهاك فيها عن أمور «الحجاج بن يوسف»، وأرغب عنها، وعن اقتدائك بها، فإن «الحجاج» كان بلاءً، وافق خطيئة قوم بأعمالهم، فبلغ الله ﷻ في مدته ما أحب من ذلك، ثم انقطع ذلك، وأقبلت عاقبة الله ﷻ، فلو لم يكن ذلك إلّا يوماً واحداً، أو جمعة واحدة، كان ذلك عطاء من الله ﷻ، ونهيتك عن فعله في الصلاة، فإنه كان يؤخرها تأخيراً لا يحل له، ونهيتك عن فعله في الزكاة، فإنه كان يأخذها في غير حقها، ثم يسيء مواقعها، فاجتنب ذلك منه، واحذر العمل به، فإن الله ﷻ قد أراح منه، وطَهَّرَ العباد والبلاد من شره، والسلام.

قال: حدثنا عمرو بن عثمان، قال: حدثنا أبي، قال: سمعت جدي، قال: كتب «عمر بن عبد العزيز» إلى «عدي بن أرطاة»: بلغني أنك تستن بسنن «الحجاج»، فلا تستَنَّ بسننه، فإنه كان يصلي الصلاة لغير وقتها، ويأخذ الزكاة لغير حقها، وكان لما سوى ذلك أضيع.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: ١٢ ـ ١٣.

قال: حدثنا مبشر بن أبي الفرات، قال: كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز، فكنت أختم على بيادر أهل الذمَّة، فجاءني كتاب «عمر بن عبد العزيز»: ألَّا تفعل، فإنه بلغني أنها كانت من صنائع «الحجاج»، وأنا أكره أن أتأسى به[١].

وكان رضي الله عنه يمتحن الولاة قبل استعمالهم ليكون من أمرهم على بصيرة، ولئلا يختار من لا يصلح للعمل الذي سيعهد به إليه.

قال ابن الجوزي: حدثنا ابن عائشة، عن جويرية بن أسماء، قال: لما ولي «عمر بن عبد العزيز» الخلافة، وفد عليه «بلال بن أبي بردة»، فهنَّأه، فقال: من كانت الخلافة يا أمير المؤمنين شرَّفَتْه فقد شرَّفْتَها، ومن كانت زانته فقد زِنْتَها، وأنت والله! كما قال «مالك بن أسماء»:

وتزيدين طيِّب الطِّيب طيباً ... إن تمسِّيه أين مثلك أينَا؟
وإذا الدر زان حسنَ وجوهٍ ... كان للدر حسن وجهك زَيْنَا

فجزاه «عمر» خيراً، ولزم بلال «المسجد» يصلي، ويقرأ ليله ونهاره، فهَمَّ «عمر» أن يوليه العراق، ثم قال: هذا رجل له فضل، فدسَّ إليه ثقة له، فقال له: إن عملت لك في ولاية في العراق، ما تعطيني؟ فضمن له مالاً جليلاً، فأخبر بذلك «عمر»، فنفاه وأخرجه، وقال:

يا أهل العراق! إن صاحبكم أعطي مقولاً، ولم يعط معقولاً، وزادت بلاغته، ونقصت زهادته[٢].

وصدق الذي قال:

من تحلَّى بغير ما هو فيه ... فضح الامتحان ما يدعيه

وقال «الدميري» في «حياة الحيوان الكبرى»، في ترجمته لعمر بن عبد العزيز: وروي أنه وقع في زمانه غلاء عظيم، فقدم عليه وفد من العرب، فاختاروا رجلاً منهم لخطابه، فتقدم إليه، وقال: يا أمير المؤمنين! إنا وفدنا إليك

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: ١١١.
(٢) سرة عمر بن عبد العزيز، ص: ١١٧.

من ضرورة عظيمة، وراحتنا في بيت المال وماله لا يَخْلُو من أن يكون لله أو لعباده أو لك، فإن كان لله فالله غني عنه، وإن كان لعباده فآتهم إياه، وإن كان لك فتصدق به علينا إن الله يجزي المتصدقين. فتغرغرت عينا «عمر» ـ رضي الله تعالى عنه ـ بالدموع، وقال: هو كما ذكرت، وأمر بحوائجهم فقضيت، فهَمَّ الأعرابي بالانصراف، فقال «عمر»: أيها الرجل! كما أوصلت حوائج عباد الله إليَّ فأوصل حاجتي، وارفع فاقتي إلى الله، فقال الأعرابي: إلٰهي! اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنيعه في عبادك، فما استتمَّ كلامه حتى ارتفع غيم عظيم، وأمطرت السماء مطراً كثيراً، فجاء في المطر بردة كبيرة، فوقعت على جرَّة، فانكسرت، فخرج منها كاغَد ـ صحيفة ـ مكتوب فيه: هذه براءة من الله العزيز الجبار، لعمر بن عبد العزيز من النار.

قال رجاء بن حيوة: كان «عمر بن عبد العزيز» رضي الله تعالى عنه، من أعظم الناس، وأكيس الناس، وأجملهم في مشيته ولبسه، فلما استخلف قومت ثيابه وعمامته وقميصه وقَباؤه وخفاه ورداؤه، فإذا هن يعدلن اثني عشر درهماً[1].

ووصلت سيرته في العدل إلى سيرة جده «عمر بن الخطاب» ﷺ، واغتنى الناس حتى إنهم لم يجدوا من يقبل منهم زكاة أموالهم، فَجُعِلَتْ في بيت المال.

وأما عن نسائه وأبنائه، فقد روى «ابن عساكر» في «أعلام النساء» عن رجاء بن حيوة، قال: إن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، قال: دخلت على أمي حين بويع لعمر بن عبد العزيز بالخلافة، وهي التي كانت تلي خدمة «عمر» ومعي أخي «يزيد بن عمر»، فرأت فينا سروراً، وذلك من الغد، فقالت: ما يسركما من خلافة أبيكما؟ فوالله! لا تريان في خلافته من الدنيا شيئاً يسركما، فقلت: وفيم ذاك؟ قالت: دخل عليَّ «عمر» حين صلى العشاء بالناس، وهو يبكي، فأتى مسجده، فوالله! ما دنا من فراشه، ولا ثنى له جنباً، ولا زال يبكي راكعاً وساجداً حتى خرج من عندي إلى صلاة الفجر[2]. وأم عبد العزيز هذه أم ولد كانت لعمر.

---

(١) حياة الحيوان الكبرى (١/ ٦٩).
(٢) أعلام النساء، ص: ٨٣.

وتزوج «فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية».

وعن أبي هاشم القرشي، قال: قال «عبد الملك بن مروان» لعمر بن عبد العزيز: قد زوجك أمير المؤمنين «فاطمة بنت عبد الملك» فقال: وصلك الله يا أمير المؤمنين! فقد كفيتَ المسألة، وأجزلتَ العطية، فأعجب به، فقال بعض ولد «عبد الملك»: هذا كلام تعلَّمه فأدَّاه، فدخل على «عبد الملك» فقال: يا عمر! كيف نفقتك؟ قال: بين الحسبتين، قال: وما هما؟ قال: قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان، الآية: ٦٧] ، فقال عبد الملك: من علمه هذا؟

عن عمارة بن غزية، قال: لما بنى «عمر بن عبد العزيز» بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان، فكانوا يسرجون القناديل بالغالية مكان الزيت.

عن خليد بن عجلان، قال: كان عند «فاطمة بنت عبد الملك» جوهر، فقال لها «عمر»: من أين صار هذا إليك؟ قالت: أعطانيه أمير المؤمنين، قال: إما أن ترديه إلى بيت المال، وإما أن تأذني في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت، قالت: لا بل أختارك على أضعافه لو كان لي، فوَضَعَته في بيت المال، فلما وَلِيَ «يزيد بن عبد الملك» قال لها: إن شئت رددته عليك أو قيِّمته؟ قالت: لا أريده، طبت به نفساً في حياته، فأرجع فيه بعد موته! لا حاجة لي فيه، فقسمه «يزيد» بين أهله وولده.

وأخرج «الدميري» في «حياة الحيوان الكبرى»، عن ابن عساكر وغيره أن «عمر بن عبد العزيز» رضي الله تعالى عنه، كان قد شَدَّد على أقاربه، وانتزع كثيراً مما في أيديهم فتبرموا به وسَمُّوه، ويروى أنه دعا بخادمه الذي سمه، فقال له: ويحك! ما حملك على أن سقيتني السم؟ قال: ألف دينار، أعطيتها، قال: هاتها، فجاء بها، فأمر بطرحها في بيت مال المسلمين، وقال لخادمه: اخرج بحيث لا يراك أحد[١].

(١) حياة الحيوان الكبرى (١/ ٧٠).

وكان «عمر» رضي الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

نــهــارك يــا مــغــرور ســهــو وغــفــلــة ... ولــيــلــك نــوم والــردى لــك لازمُ
يــغــرك مــا يــفــنــى وتــفــرح بــالــمــنــى ... كــمــا غُــرَّ بــالــلــذات فــي الــنــوم حــالــمُ
وشــغــلــك فــيــمــا ســوف تــكــره غِــبَّــه ... كــذلــك فــي الــدنــيــا تــعــيــش الــبــهــائــم

وأخرج «ابن عساكر» في «أعلام النساء»، عن المغيرة بن حكيم، عن فاطمة بنت عبد الملك أنها أخبرته: أن «عمر بن عبد العزيز» كان قد ضجر على جارية من جواريها في مرضه الذي هلك فيه، فكان لا يراها إلا انتهرها، وقال: أخرجوها، فلما كان يوم، ونزلنا بعض الشام، قال: دخلت علينا فانتهرها، ثم قال: اخرجوا عني، ثم شخص ببصره إلى كوة في القيطون ـ المخدع ـ فقال: مرحباً وأهلاً! والله! إني لأرى وجوهاً ما هي بوجوه إنس ولا جن، فارتفعوا عني، وقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص، الآية: ٨٣] قالت: فخرجنا كلنا ملياً، ثم قال «مسلمة» لي: يا أخية! والله! لقد طال مكثنا عن أمير المؤمنين، قالت: فدخلنا عليه، فإذا هو مسجّى بثوبه، وقد استقبل به القبلة، والله! ما كان على القبلة[1]. وتوفي سنة / ١٠١ هـ/ لعشر ليالٍ بقين من رجب، رحمه الله تعالى.

(١) أعلام النساء، ص: ٢٨٤.

٨ ـ أزواج يزيد بن عبد الملك

«يزيد بن عبد الملك بن أبي الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب» أبو خالد الأموي، الدمشقي. وأمه «عاتكة بنت يزيد بن معاوية»، ذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وقال قتادة: كتب «عمر بن عبد العزيز» إلى ولي العهد من بعده: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله «عمر» إلى «يزيد بن عبد الملك» سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلَّا هو، أما بعد، فإني كتبتُ وأنا دَنِفٌ ـ مريض ـ من وجعي، وقد علمت أني مسؤول عما وليت، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولستُ أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً، فإن رضي عني فقد أفلحتُ ونجوتُ من الهوان الطويل، وإن سخط عليَّ فيا ويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الله الذي لا إلٰه إلا هو أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمن عليَّ برضوانه والجنة، فعليك بتقوى الله، الرعيَّة الرعيَّة فإنك لن تبقي بعدي، إلا قليلاً، والسلام(١).

وقال سليم بن بشير: كتب «عمر بن عبد العزيز» إلى «يزيد بن عبد الملك» حين احتضر: سلام عليك، أما بعد، فإني لا أراني إلَّا لما بي، فالله الله في أمة «محمد» ﷺ، فإنك تدع الدنيا لمن لا يحمدك، وتفضي إلى من لا يعذِرك، والسلام(٢).

وقال ابن الماجشون: لما مات «عمر بن عبد العزيز»، قال «يزيد»: والله! ما «عمر» بأحوجَ إلى الله مني، فأقام أربعين يوماً يسير بسيرة «عمر بن عبد العزيز»، ثم عَدَل عن ذلك(٣).

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢١٦.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢١٧.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ٢١٧.

وتزوج «يزيد بن عبد الملك» من «أم عمرو»، فقد روى «ابن عساكر» في «أعلام النساء»، فقال: «أم عمرو» زوج «يزيد بن عبد الملك»، اسْتَفْتَتْ «سالم بن عبد الله»، وعن «عمرو بن دينار الأعور»، قال: كنت مع «سالم بن عبد الله» بين مكة والمدينة، قال: فسمع صوت جَرَسٍ، فقال: ما هذا؟ فقلت: هذه «أم عمرو» امرأة «يزيد بن عبد الملك»، قال: اذهب إليها، فأقرئها السلام، وأخبرها أن أبي أخبرني عن أبيه، أن رسول الله ﷺ واعد «جبريل» عليه السلام موعداً، فأبطأ عليه «جبريل»، فقال: «ما حبسك يا جبريل!؟» فقال: إنا لا نقرب مكاناً فيه جَرَسٌ ولا صورة»، فقل لها: فلتقطعه أو لِتَحُشَّه ـ أي: لتقطعه ـ فأتيتها، فأخبرتها بذلك، قال: فقطعته أو حَشَّتْه.

قالت: قل له: إن عندنا وسائد فيها تصاوير، فكيف نصنع بها؟ فأتيته فأخبرته بذلك، فنظر هُنَيَّة، فقال: كانوا لا يرون بما يوطأ بأساً[١].

وجاء في «نسب قريش» للمصعب الزبيري: وتزوج «أمَّ سعيد بنت عبد الله بن عمرو»، «يزيدُ بن عبد الملك بن مروان» فولدت له: «عَبد الله» و«عائشةَ» و«أم عمرو»؛ ثم توفي عنها، فخلف عليها «هشام بن عبد الملك بن مروان»، ففارقها، ولم تلد له، ولم تتزوج بعده[٢].

وولَدَ «يزيدُ بن عبد الملك»: «الوليدَ بن يزيد» كان خليفة، وقتله «يزيدُ بن الوليد بن عبد الملك» الذي يقال له: «يزيدُ الناقص» و«يحيى» و«عاتكةَ»، تزوجها «محمدُ بن الوليد بن عبد الملك» وأمهم: «أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعَتِّب»؛ و«عبدَ الله بن يزيد بن عبد الملك»، و«عائشةَ» وأمُّهما: سعدةُ بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان» و«الغمرَ بن يزيد» و«عبدَ الجبار» و«سليمانَ» و«أبا سفيان» و«هشاماً» لا بقية لهم، و«داودَ» و«العَوَّامَ» لا عقب لهما؛ و«أمَّ كلثوم» تزوجها «عبد الرحمٰن بن سليمان بن عبد الملك» وهم لأمهات أولاد شتى[٣].

---

(١) أعلام النساء، ص: ٧٤ ـ ٧٥.
(٢) نسب قريش، ص: ١١٥.
(٣) نسب قريش، ص: ١٦٦ ـ ١٦٧.

وأخرج «ابن جرير الطبري» في تاريخه، عن عمر بن شبة، قال: حدثنا علي، قال: كان «يزيد بن عاتكة» من فتيانهم، فقال يوماً وقد طرب، وعنده «حَبَّابة» و«سَلَّامة»: دعوني أطير، فقالت «حَبَّابة»: إلى من تدعُ الأمَّة؟ فلما مات قالت «سلاَّمة القَسِّ»:

لا تــلُــمــنــا إن خــشــعــنــا ... أو هَــمَــمْــنــا بــالــخــشــوعِ
قــد لــعــمــري بــت لــيــلــي ... كــأخــي الــداء الــوجــيــعِ
ثــم بــات الــهــمُّ مــنــي ... دون مَــنْ لــي مِــنْ ضــجــيــعِ
لــلَّــذي حَــلَّ بــنــا الــيــو ... مَ مــن الأمــر الــفــظــيــعِ
كــلــمــا أبــصــرت ربــعــاً ... خــالــيــاً فــاضــت دمــوعــي
قــد خــلا مــن ســيــد كــا ... ن لــنــا غــيــرَ مُــضِــيــعِ

ثم نادت: وأمير المؤمنيناه! والشعر لبعض الأنصار.

قال «علي»: حج «يزيد بن عبد الملك» في خلافة «سليمان بن عبد الملك» فاشترى «حَبَّابة» ـ وكان اسمها «العالية» ـ بأربعة آلاف دينار، من «عثمان بن سهل بن حُنَيْف»، فقال «سليمان»: هممتُ أن أحجر على «يزيد» فردَّ «يزيد»، «حَبَّابة» فاشتراها رجل من أهل مصر.

فقالت «سعدة» لـ«يزيد»: يا أمير المؤمنين! هل بقي من الدنيا شيء تتمناه بعد؟ قال: نعم، «حَبَّابَة»، فأرسلت «سعدة» رجلاً فاشتراها بأربعة آلاف دينار، وصنَّعتها ـ أي: زيَّنتها ـ حتى ذهب عنها كلال السفر، فأتت بها «يزيد»، فأجلستها من وراء الستر، فقالت: يا أمير المؤمنين! أبقي شيء من الدنيا تتمنَّاه؟ قال: ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك؟ فرفعتِ الستر، وقالت: هذه «حَبَّابَة»، وقامت وخلَّتها عنده، فحظيت «سعدة» عند «يزيد» وأكرمها وحباها، و«سعدة» امرأة «يزيد»، وهي من آل «عثمان بن عفان»[1]. وكانت وفاة «يزيد» يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة.

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٢٢ ـ ٢٣).

٩ ـ أزواج هشام بن عبد الملك

«هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب» أبو الوليد، استخلف بعهد من أخيه «يزيد». وأمه «أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة».

قال «المصعب الزبيري» في كتابه «نسب قريش»: و«هشام بن عبد الملك»، استخلفه «يزيد بن عبد الملك»، وجعل ابنَه «الوليدَ بن يزيد» ولي عهده، وأخذ على «هشام» العهد لا يغيره عن ولاية عهده، وهو «الأحول» له يقول «الوليد بن يزيد»:

هلك الأحول المشؤ ... مُ فقد أُرسِلَ المَطَرْ

وعلى «هشام» خرج «زيد بن علي» بالكوفة، و«هشام» الرابع من ولد «عبد الملك بن مروان» كانوا خلفاء، زعموا أن «عبد الملك» رأى في منامه أنه بال في المحرب أربع مرات؛ فدَسَّ مَنْ يسأل «سعيد بن المسيَّب»، وكان «سعيد» يعبِّر الرؤيا، وكانت قد عَظُمَت على «عبد الملك» فقال «سعيد»: يملك من ولده لصلبه أربعة، فكان «هشام» آخِرَهم، وكان يجمع المال، ويُبَخَّل، ويوصف بالحزم، فقدَّم شاعراً فأنشده:

رجاؤك أنساني تذكر إخواني ... ومالك أنساني بِجَرْسَيْن ماليا

فقال «هشام»: ذلك أحمق لك، وهو الذي حفر «الهَنِيَّ وعَمِلَه»[1].

وكان قد اتخذ طرزاً له قَدْرٌ[2]، واستكثر منه، حتى كان يحمل طرازه على سبعمائة جمل؛ وحمله على ذلك أن «عمر بن عبد العزيز» لما مَدَّ يده إلى بعض

---

(١) الهنِيُّ والمَرِيُّ: نهران بإزاء الرقة والرافعة، حفرهما «هشام بن عبد الملك».

(٢) الطِّراز: ثياب السلطان.

أموال بني أمية، لم يعرض لما قطعوا من الثياب ولَبِسُوا، تركها لهم؛ فرأى «هشام» أن «عمر» إمام عدل، وأن مَنْ يأتي بعده مِن أهل العدل يقتدي به، فجعل يتخذ المتاع الجيد، ويؤثِر فيه ويلبسه، ثم يدخره لولده، وكان يستجيده ويغالي بثمنه(١).

قال «السيوطي»: وكان «هشام» حازماً عاقلاً، كان لا يُدْخِلُ بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون قسامة لقد أخذ من حقه، ولقد أعطى لكل ذي حق حقه، وقال «الأصمعي»: أسمع رجل مرة «هشاماً» كلاماً، فقال له: يا هذا! ليس لك أن تسمع خليفتك.

قال: وغضب مرة على رجل، فقال: والله! لقد هممت أن أضربك سوطاً.

وقال «سحبل بن محمد»: ما رأيت أحداً من الخلفاء أكره إليه الدماء ولا أشد عليه من «هشام».

وقال «الشافعي»: لما بنى «هشام» الرُّصافة «بقِنَّسْرِين» أحب أن يخلو يوماً لا يأتيه فيه غم، فما انتصف النهار حتى أتته ريشة بدم بعض الثغور، فأوصلت إليه، فقال: ولا يوماً واحداً(٢).

وذكر له بيت من الشعر لم يحفظ له سواه، وهو:

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى ... إلى بعض ما فيه عليك مقال

وعنه أنه قال: ما بقي شيء من لَذَّات الدنيا إلا وقد نلته، إلا شيئاً واحداً، أخاً أرفع مئونة التحفظ فيما بيني وبينه.

وذكر «السيوطي» بعض أخباره، فقال: أخرج «ابن عساكر» عن إبراهيم بن أبي عبلة، قال: أراد «هشام بن عبد الملك» أن يوليني خراج مصر، فأبيت، فغضب حتى اختلج وجهه، وكان في عينيه حَوَل، فنظر إليَّ نظرة منكرة، وقال: لَتَلِينَّ طائعاً، أو لَتَلِيَنَّ كارهاً، فأَسْكَتُّ عن الكلام، حتى سكن غضبه، فقلت: يا أمير المؤمنين أتكلم؟! قال: نعم، قلت: إن الله قال في كتابه العزيز: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا

(١) نسب قريش، ص: ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

﴿ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب، الآية: ٧٢] الآية، فوالله! يا أمير المؤمنين! ما غضب عليهن إذ أبين، ولا أكرههن إذ كرههن، وما أنا بحقيق أن تغضب عليَّ إذ أبيت، وتكرهني إذ كرهت، فضحك وأعفاني.

وأخرج عن خالد بن صفوان، قال: وفدت على «هشام بن عبد الملك» فقال: هاتِ يابن صفوان! قلت: إن ملكاً من الملوك خرج متنزهاً إلى الخَوَرْنَق ـ قصر للنعمان بالحيرة ـ، وكان ذا علم مع الكثرة والغلبة، فنظر وقال لجلسائه: لمن هذا؟ قالوا: للملك، قال: فهل رأيتم أحداً أعطي مثل ما أعطيت؟ وكان عنده رجل من بقايا حَمَلة الحجة، فقال: إنك قد سألت عن أمر، أفتأذن لي بالجواب؟ قال: نعم، قال: أرأيت ما أنت فيه، أشيء لم تزل فيه، أم شيء صار إليك ميراثاً وهو زائل عنك إلى غيرك كما صار إليك؟ قال: كذا هو، قال: فتعجب بشيء يسير لا تكون فيه إلّا قليلاً، وتنقل عنه طويلاً، فيكون عليك حساباً، قال: ويحك! فأين المهرب؟ وأين المطلب؟ وأخذته قُشَعْرِيرَة ـ رِعْدَة ـ، قال: إما أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة الله بما ساءك وسرَّك، وإما أن تنخلع من ملك، وتضع تاجك، وتلقي عنك أطمارك، وتعبد ربك، قال: إني مفكر الليلة، وأوافيك السحر، فلما كان السحر، قرع عليه بابه، فقال: إني اخترت هذا الجبل، وفلوات الأرض، وقد لبست عليَّ أَمْسَاحي، فإن كنت لي رفيقاً لا تخالف، فلزما الجبل حتى ماتا، وفيه يقول «عدي بن زيد» العبادي:

أيها الشامت المعير بالدهـ ... ـر أأنت المبرأ الموفورُ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ... ـام؟ بل أنت جاهل مغرورُ
مَنْ رأيت المنون خَلَّدن؟ أم مَنْ ... ذا عليه من أن يضامَ خفيرُ؟
أين كسرى؟ كسرى الملوك أبو سا ... سانَ أم أين قبله سابورُ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ ... رُوم لم يبق منهمُ مذكورُ
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دِجْـ ... ـلَةُ يُجْبَى إليه والخابورُ
شاده مرمراً وجلَّله كِلْـ ... ـساً فللطير في ذراه وُكُورُ
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ... ـمُلْكُ عنه فبابه مهجورُ
وتذكر رب الخورنق إذ أشـ ... ـرَفَ يوماً وللهدى تذكيرُ

سَـــرَّه مـــالُـــه وكـــثـــرة مـــا يَـــمْـــ لِـكُ والـبـحـر مـعـرضٌ والـسـديـرُ
فـارعـوى قـلـبـه وقـال ومـا غِـبْـ طـةُ حَـيٍّ إلـى الـمـمـات يـصـيـرُ
ثـم بـعـد الـفـلاح والـمـلـك والأمْـ ـمَـة وارتـهـم هـنـاك الـقـبـورُ
ثـم صـاروا كـأنـهـم وَرَقٌ جَـفْـ فَ فـألْـوَتْ بـه الـصَّـبَـا والـدَّبُـورُ

قال: فبكى «هشام» حتى اخضلَّت لحيته، وأمر بابنتيه، وطوي فرشه، ولزم قصره، فأقبلت الموالي والحَشَم على «خالد بن صفوان» وقالوا: ما أردت إلى أمير المؤمنين؟ أفسدت عليه لذته، فقال: إليكم عني، فإني عاهدت الله ألَّا أخلو بملكٍ إلَّا ذكَّرته الله تعالى[١].

وأما عن نسائه وأبنائه، فقد ذكر «المصعب الزبيري» في «نسب قريش»: وولَدَ «هشامُ بن عبد الملك»: «مروانَ»، وهو أبو شاكر، و«يزيدَ» و«محمداً» و«أمَّ يحيى» و«أمَّ هشام»، تزوَّجها «يزيد بن الوليد بن عبد الملك» فلم يدخل بها، فخلف عليها «عبد الملك بن عبد العزيز بن الوليد» ثم خلف عليها «عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم» وأمهم «أم حكيم بنت يحيى بن أبي العاصي»، و«عبدَ الله بن هشام» و«عائشةَ بنت هشام» تزوجها «عبيد الله بن مروان بن الحكم» وأمهما «عبدة بنت الأُسوار بن يزيد بن معاوية»، و«مروانَ بن هشام» وأمه «أم عثمان بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان» و«معاويةَ» و«سعيداً» ابني «هشام» لأم ولد؛ و«سليمانَ بن هشام» لأم ولد، قَتَلَتْهُ المُسَوِّدة، وكان خالف «مروان بن محمد» ولحق بالضحاك الحروري، قال:

أعـائـشُ لـو أبْـصَـرْتِـنَـا لـتـحـدَّرت دمـوعُـكِ لـمـا خـفَّ أهـل الـبـصـائـرِ
عـشـيـةَ رُحْـنـا والـلـواء كـأنـه إذا زعـزعـتـه الـريـحُ أشـلاء طـائـرِ

و«عبدَ الرحمٰن» و«قُرَيشاً» لأم ولد، و«زينبَ» «تزوجها «محمد بن عبد الله بن عبد الملك» فولدت له، و«أمَّ سلمة» تزوجها «عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك» وهما لأم ولد[٢].

قال «ابن عساكر» في «أعلام النساء»:

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٢) نسب قريش، ص: ١٦٧ ـ ١٦٨.

«أم حكيم» بنت يحيى، ويقال: بنت يوسف بن يحيى بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمها «زينب بنت عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام» المخزومية، امرأة شاعرة، تزوجها «عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك» فطلّقها، ثم تزوجها «هشام بن عبد الملك» فولدت له «يزيد بن هشام» وإلى «أم حكيم» هذه ينسب سوق «أم حكيم»، وهو سوق القلائين، وقصر «أم حكيم» الذي عند «مرج الصفر».

روى «أبو بكر بن يزيد بن عياض»، عن أبيه، قال: ولدت «زينب بنت عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام ليحيى بن الحكم»؛ أم حكيم بنت يحيى، فتزوج «أم حكيم»، «عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك» ثم تزوج عليها «ابنة لأبي بكر بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر» فحظيت «ابنة أبي بكر» عنده، فطلّق عنها «أم حكيم»، فتزوجها «هشام بن عبد الملك» فلما مات «عبد العزيز بن الوليد»، تزوج «هشام بن عبد الملك» ابنة أبي بكر، فجمعهما، ثم طلّق «ابنة أبي بكر» عن «أم حكيم» وقال لها: أرضيتكِ، أقدتكِ منها، طلقتها عنك كما طلقك «عبد العزيز» عنها، فولدت «أم حكيم» لهشام بن عبد الملك: «مسلمة» و«محمداً» و«يزيد»[1].

وقال ابن عساكر: «أم سعيد بنت سعيد بن عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس» الأموية، قال القاسم بن معن: كانت «أم سعيد بنت سعيد بن عثمان بن عفان، عند «هشام بن عبد الملك» ثم طلقها، فندم على طلاقها، فتزوجها «العباس بن الوليد بن عبد الملك» ثم طلقها وندم على طلاقها، فتزوجها «عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز» فدسَّ إليها «العباس»، «أشعب» بأبيات قالها، قال له: إن أنشدتها إياها، فلك ألف دينار.

قال: فأتاها فأنشدها، فقالت له: دسَّك «العباس» وجعل لك ألف دينار، فأخبره عني ولك ألف دينار، ثم قالت: وما قال؟ فقال: قال:

أسعدة هل إليك لنا سبيل؟ ولا حتى القيامة من تلاقِ

(١) أعلام النساء، ص: ٥٦.

فقالت: إن شاء الله، فقال:

بلى ولعل دارك أن تواتي بموتٍ من حليلك أو فراق

قالت: بفيك الحجر، قال:

فأرجع شامتاً وتقر عيني ويجمع شملنا بعد الشقاق

قالت: بل يشمت بك، إن شاء الله(١).

وقال ابن عساكر: عن أبي مسلم عبد الله بن مسلم، عن أبيه، قال: بصرت أم ولد لهشام بن عبد الملك بوَلَد لها لهشام، فرأتهم على غاية البهاء والطَّلَل - المنظر الحسن -، وكانت الجارية شاعرة أديبة، فأنشأت تقول:

إذا خلطنا ماءنا بمائهم جاءوك كالياقوت في صفائهم

وحمدوا في فعلِهم ورائِهم ونسبوا بعد إلى آبائهم

فهذه الصفة من أنبائهم(٢)

وقال ابن عساكر: «سلمى بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية»، أم سلمة، زوج «هشام بن عبد الملك»، ثم خلف عليها «الوليد بن يزيد بن عبد الملك»، وهي التي حلف بطلاقها قبل دخوله بها، واستقدم فقهاء المدينة ليفتوه في أمرها، وكانت عنده أختها لأبيها، وأختها «أم عبد الملك بنت سعيد بن خالد».

عن صدقة بن عبد الله الدمشقي، قال: جئت محمد بن المنكدر، وأنا مغضب، فقلت: آالله، أنت أملك للوليد بن يزيد «أمَّ سلمة»؟ قال: أنا؟ ولكن رسول الله ﷺ، حدثني جابر بن عبد الله الأنصاري؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا طلاق لمن لا يملك، ولا عتق لما لا يملك**».

وروي أن «هشام بن عبد الملك» أرسل إلى «سعيد بن خالد» ينهاه عن تزويج «الوليد بن يزيد»، ويقول له: أتريد أن تتخذ «الوليد» فحلاً؟ فلم يزوجه إياها، فلما امتنع من تزويجه أنف، وحلف بطلاقها إن تزوجها، وقيل: إنه لم

---

(١) أعلام النساء، ص: ٦٢ - ٦٣.

(٢) أعلام النساء، ص: ٨٣ - ٨٤.

يُزَوِّجْها لسبب آخر، وهو أنه دخل دار أبيها يوم مات، وهي بدمشق، وكانت تحته أختها «أم عبد الملك بنت سعيد» فخرجت في ثياب بياض مسفرة، فقالت له وهي لا تعرفه: ويلك! مات أبي، فوقعت في نفسه، فطلَّق أختها، وخطبها، فلم يزوجوه إياها، فالله أعلم بالصحيح من القولين، وللوليد فيها أشعار كثيرة.

قال «الوليد» لسلمى بعد أن دخل بها: خطبتك إلى أبيك وأنا ولي عهد، فلم يزوجني وأطاع «هشاماً»، أكان أبوك يطمع في الخلافة، وقال «الوليد»:

وإنــك والــخــلافــة يــا ســعــيــد لــكــالــحــادي ولــيــس لــه بــعــيــر

فماتت «سلمى» بعدما دخل بها «الوليد» بأربعين يوماً فبكاها «الوليد»(١).

وقال ابن عساكر: كانت «عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية» عند «هشام بن عبد الملك»، وكانت من أجمل النساء، فدخل عليها يوماً وعليها ثياب سود رقاق من هذه التي يلبسها النصارى يوم عيدهم فملأته سروراً حين نظر إليها، ثم تأملها فقطب، ففطنت، فقالت: ما لك يا أمير المؤمنين!؟ أكرهت هذه؟ ألبس غيرها؟ قال: لا، ولكن رأيت هذه الشامة التي على كشحك من فوق الثياب، وبك تذبح النساء ـ وكان بها شامة في ذلك الموضع ـ أما إنهم سينزلونك عن بغلة شهباء وردَه ـ يعني بني العباس ـ ثم يذبحونك ذبحاً(٢).

وبالفعل قبض عليها «عبد الله بن علي» بحمص ودفعها إلى «الكاملي» ليذبحها بامرأة «زيد بن علي» ففعل.

وشتم «هشام» مرة رجلاً من الأشراف فقال له: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض، فاستحيا «هشام» وقال: اقتص مني، قال: ما أنا بسفيه مثلك، قال: فَخُذْ مني عوضاً من المال، قال: ما كنت لأفعل ذلك، قال: فهبها لله، قال: هي لله، ثم لك، فنكس «هشام» رأسه واستحيا، وقال: والله! لا أعود لمثلها أبداً. وكانت وفاة «هشام» لست خلت من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة.

---

(١) أعلام النساء، ص: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

١٠ ـــ أزواج الوليد بن يزيد

قال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: «الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم» الخليفة الفاسق، أبو العباس، ولد سنة تسعين، فلما احتضر أبوه لم يمكنه أن يستخلفه لأنه صبي، فعقد لأخيه «هشام» وجعل هذا ولي العهد من بعد «هشام»، فتسلم الأمر عند موت «هشام» في ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، وكان فاسقاً، شريباً للخمر، منتهكاً حرمات الله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة، فمقته الناس لفسقه، وخرجوا عليه، فقتل في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين.

وعنه أنه لما حوصر قال: ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع عنكم المؤن، ألم أعط فقراءكم؟ فقالوا: ما ننقم عليك من أنفسنا، لكن ننقم عليك انتهاك ما حرَّم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله.

ولما قتل وقطع رأسه وجيء به «يزيد الناقص» نصبه على رمح، فنظر إليه أخوه «سليمان بن يزيد» فقال: بُعْداً له، أشهد أنه كان شروباً للخمر، ماجناً، فاسقاً، ولقد راودني على نفسي[(١)].

وحكى «الماوردي» في كتاب «أدب الدنيا والدين» عنه أنه تفاءل يوماً في المصحف، فخرج له قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم، الآية: ١٥]، فمزَّق المصحف وأنشأ يقول:

أتُوعِد كل جبارٍ عنيدٍ ... فها أنا ذاك جبار عنيدُ

إذا ما جئت ربك يوم حشرٍ ... فقل يا رب مَزَّقني الوليدُ

فلم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٠ ـ ٢٢١.

على أعلى سور بلده[١].

وذكره «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وقد ورد في مسند أحمد حديث: «**ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له «الوليد» لهو أشد على الأمة من فرعون لقومه**».

وقال «ابن فضل» في «المسالك»: «الوليد بن يزيد»، الجبار العنيد، لقباً ما عداه، ولقماً سلكه فما هداه، فرعون ذلك العصر الذاهب، والدهر المملوء بالمعائب، يأتي يوم القيامة يقدم قومه فيوردهم النار، ويرديهم العار، وبئس الورد المورود، والمورد المردي في ذلك الموقف المشهود، وشق المصحف بالسهام، وفسق ولم يخف الآثام[٢].

وأما عن نسائه وأولاده فقد ذكر «المصعب الزبيري» في «نسب قريش»: فوَلَدَ «الوليد بن يزيد بن عبد الملك»؛ «عثمانَ» المذبوحَ في السجن، وأمه «عاتكة بنت عثمان بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية»، و«يزيدَ» و«الحكمُ»، المذبوحَ في السجن؛ و«العباسَ» وبه كان يكنى، و«فِهْراً» و«لؤياً» و«العاصيَ» و«موسى» و«قُصَيًّا» و«واسطاً» و«ذؤابة» و«فتحاً» و«الوليد» و«أمَّ الحجاج»، تزوجها «محمد بن يزيد بن الوليد بن عبد الملك»، ثم خلف عليها «يحيى بن عبد الله بن مروان بن الحكم» و«أمة الله بنت الوليد» تزوجها «عبد العزيز بن الوليدَ بن عبد الملك»، وبنو الوليد هؤلاء لأمهات أولاد شتى، و«سعيدَ بن الوليد» وأمه «أم عبد الملك بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان».

وكان «يزيد بن الوليد بن عبد الملك» الملقَّب بالناقص هو الذي قتل ابن عمه «الوليد بن يزيد» وتملَّك، وأمه «شاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد»، وأم فيروز بنت شيرويه بن كسرى، وأم شيرويه بنت خاقان ملك الترك، وأم أم فيرون بنت قيصر عظيم الروم، فلهذا قال «يزيد» يفتخر:

---

(١) انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري، (١/ ٧٢).
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٢.

أنـــا ابــن كـســرى وأبــي مــروان وقــيــصــر جــدي وجــدي خــاقــان

قال الثعالبي: أعرقُ الناس في الملك والخلافة من طرفيه.

ولما قتل «يزيدُ» الوليد، قام خطيباً، فقال: أما بعد، إني والله! ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا طمعاً، ولا حرصاً على الدنيا، لا رغبة في الملك، وإني لظلوم نفسي إن لم يرحمني ربي، ولكن خرجت غضباً لله ولدينه، وداعياً إلى كتابه وسنة نبيه ﷺ حين دَرَسَتْ معالم الهدى، وطفىء نور أهل التقوى، وظهر الجبار المستحل للحرقه، والراكب البدعة، فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم على كثرة من ذنوبكم، وقسوة من قلوبكم، وأشفقت أن يدعوَ كثيراً من الناس إلى ما هو عليه فيجيبه، فاستخرتُ الله في أمري، ودعوتُ مَنْ أجابني من أهلي وأهل ولايتي، فأراح الله منه البلاد والعباد، ولاية من الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أيها الناس! إن لكم عندي إن وليتُ أموركم ألّا أضع لَبِنة على لَبِنة، ولا حجراً على حجر، ولا أنقل مالاً من بلد حتى أسد ثغره، وأقسم بين مصالحه ما تقوون به، فإن فضَلَ فضلٌ رددته إلى البلد الذي يليه، حتى تَسْتقيم المعيشة، وتكونوا فيه سواء، فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم، وإن مِلْتُ فلا بيعة لي عليكم، وإن رأيتم أحداً أقوى مني عليها فأردتم بيعته فأنا أول من يبايعه، ويدخل في طاعته، وأستغفر الله لي ولكم.

وقال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي ؒ يقول: لما ولي «يزيد بن الوليد» دعا الناس إلى القدر وحَمَلَهم عليه، وقَرَّب أصحاب غيلان.

ولم يكمل ستة أشهر في خلافته، وتوفي سنة ست وعشرين ومائة.

ثم بويع أخوه «إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك» فما تعدَّى حكمه السبعين يوماً، ثم خلفه «مروان بن محمد» بعد أن خلع نفسه وسلمه الأمر، وتم قتله مع مَن قتل من بني أمية، وظهر «أبو العباس السفاح» في الكوفة، وبويع له بالخلافة فجهز جيشاً بقيادة عمه «عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس» لقتال «مروان بن محمد» فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم «مروان» وقتل من عسكره وغرق كثيرون، وهرب «مروان» إلى مصر، فتبعه

«صالح بن علي» عم السفاح وأخو «عبد الله بن علي»، وتمكن من قتل «مروان بن محمد» بأبي صير، إحدى قرى الصعيد، فقال حين قتل: لقد انقرضت دولتنا، وكان «مروان» قد عرف بالشجاعة والشدة والحزم، وبموته أفلت شمس دولة بني أمية.

١ ـ أزواج أبو العباس السفَّاح

ذكر «ابن عبد ربه الأندلسي» في «العقد الفريد»: ولد «أبو العباس؛ عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب» مستهَلَّ رجب سنة أربع ومائة، وبويع له بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وتوفي بالأنبار لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، فكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر.

وأمه «ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المَدَان»[(١)].

وقال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: «السفاح» أول خلفاء بني العباس «أبو العباس؛ عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم».

ولد سنة ثمان ومائة ـ وقيل: سنة أربع ـ بالحميمة من ناحية البلقاء، ونشأ بها، وبويع بالكوفة، وأمه «ريطة الحارثية»، حدث عن أخيه «إبراهيم بن محمد» الإمام. وروى عنه عمه «عيسى بن علي» وكان أصغر من أخيه «المنصور».

أخرج أحمد في مسنده، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان، وظهور الفتن، يقال له السفاح، فيكون إعطاؤه المال حَثياً**».

وقال عبيد الله العيشي: قال أبي: سمعت الأشياخ يقولون: والله! لقد أفضت الخلافة إلى بني العباس، وما في الأرض أحد أكثر قارئاً للقرآن، ولا أفضل عابداً ولا ناسكاً منهم[(٢)].

---

(١) العقد الفريد (٥/١١٣).

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٦.

وروى المدائني، عن جماعة؛ أن الإمام محمَّد بن علي بن عبد الله بن عباس، قال: لنا ثلاثة أوقات: موت «يزيد بن معاوية»، ورأس المائة، وفتقٌ بإفريقيَّة، فعند ذلك تدعو لنا دُعَاة، ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترِدَ خيولُهم المغرب، فلما قتل «يزيد بن أبي مسلم» بإفريقيَّة، ونقضت البربر، بعث «محمد الإمامُ» رجلاً إلى خراسان، وأمره أن يدعو إلى الرضا من آل «محمد» ﷺ ولا يسمي أحداً، ثم وجه «أبا مسلم الخراساني» وغيره، وكتب إلى النقباء فقبلوا كتبه، ثم لم ينشَب أن مات «محمد»، فعهد إلى ابنه «إبراهيم»، فبلغ خبره «مروانَ» فسجنه، ثم قتله، فعهد إلى أخيه «عبد الله» وهو السفاح، فاجتمع إليه شيعتهم، وبويع بالخلافة في ثالث ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وصلى بالناس الجمعة، وقال في الخطبة: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، فكَرَّمه وشَرَّفه وعَظَّمه، واختاره لنا، وأَيَّدَه بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه، والقُوَّام به، والذَّابِّين عنه، ثم ذكر قرابتهم في آيات القرآن، إلى أن قال: فلما قبض الله نبيه ﷺ قام بالأمر أصحابه، إلى أن وثب بنو حرب، و«مروان»، فجاروا واستأثروا، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فانتقم منه بأيدينا، ورَدَّ علينا حقنا ليمُنَّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وخَتَم بنا كما افتتح بنا، وما توفيقنا أهل البيت إلّا بالله، يا أهل الكوفة! أنتم محل محبتنا، ومنزل مودتنا، لم تَفْتُروا عن ذلك، ولم يُثْنِكُم عنه تحامُلُ أهل الجور، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتُ في أعطياتكم مائة مائة، فاستعدوا فأنا السفَّاح المبيح، والثائر المبير.

وكان «عيسى بن علي» إذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة، يقول: إن أربعة عشر رجلاً خرجوا من دارهم يطلبون ما طَلبنا لعظيمةٌ هممهُم، شديدة قلوبهم، ولما بلغ «مروان» مبايعة السفَّاح، خرج لقتاله، فانكسر، ثم قتل، وقتل في مبايعة السفاح من بني أمية وجندهم ما لا يُحْصى من الخلائق، وتوطَّدت له الممالك إلى أقصى المغرب.

قال الذهبي: بدولته تَفَرَّقت الجماعة، وخرج عن الطاعة ما بين تاهرت وطبنة إلى بلاد السودان، وجميع مملكة الأندلس، وخرج بهذه البلاد من تغلَّب عليها، واستمرَّ ذلك.

مات السفَّاح بالجُدَري في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وكان قد عهد إلى أخيه «أبي جعفر»، وكان في سنة أربع وثلاثين، قد انتقل إلى الأنبار، وصيَّرها دار الخلافة(١).

وروى «ابن عساكر» في كتابه «أعلام النساء» في ترجمته لأم سلمة بنت يعقوب، قال: هي «أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم» القرشية المخزومية. امرأة حازمة، كانت تحت «عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك»، ثم خلف عليها «مسلمة بن هشام بن عبد الملك»، ثم تزوجها «أبو العباس السفاح».

وعن الزُّبَيْر، قال: ومن ولد «سلمة بن عبد الله»: «أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله»، كانت عند «مسلمة بن هشام بن عبد الملك» ثم خلف عليها «أبو العباس» أمير المؤمنين «عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس»، فولدت له «محمداً» و«ريطة» ابني «أبي العباس».

كانت «ريطة بنت أبي العباس» عند «المهدي» أمير المؤمنين، ولدت له «علياً» و«عبيد الله» ابني «المهدي»، وأمُّ أمّ سلمة بنت يعقوب «هند بنت عبد الله بن جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر بن كلاب»، ولأخيها «حبيب بن جبار» يقول «الأعور بن براء» الكلبي:

لقد علم ابن جبار بن سلمى ... حبيب إنما الدنيا مَتَاعُ
وألّا يخلد الإبل الصفايا ... ولا طول الإهابة والشِّبَاعُ(٢)

قال المدائني: إن «العباس بن الوليد بن عبد الملك» لما وجهه «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» لإحصاء ما في خزائن «هشام» أمره ألّا يعرِض لمسلمة بن هشام، لأنه كان يكفُّ أباه عن «الوليد»، وكان «مسلمة» يشرب، فلما قدم «العباس» كتبت إليه «أم سلمة»: إن «مسلمة» ما يضيق من الشراب، ولا يهتم بشيء مما فيه إخوته، ولا لموت أبيه، فلما راح «مسلمة» إلى «العباس» قال له:

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٧.
(٢) الإهابة والشِّباع: الصياح بالإبل ودعاؤها.

يا مسلمة! كان أبوك يرشحك للخلافة، ونحن نرجوك لغير ما بلغني عنك، وأنَّبَهُ وعاتبه على الشراب، فأنكر «مسلمة» ذلك، وقال: من أخبرك بهذا؟ قال: كتب إليَّ «أم سلمة»، فطلَّقها في ذلك المجلس، فخرجت إلى «فلسطين» وبها كانت تنزل، فتزوجها «أبو العباس» السفاح هناك.

قال «أبو عبد الله الزبيري»: كانت أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد بن المغيرة عند «عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك» ثم خلف عليها «أبو شاكر؛ مسلمة بن هشام بن عبد الملك»، فإما فارقها وإما مات عنها، فخرجت مع جواريها وحشمها مبتدية نحو الشَّراة ـ موضع بين دمشق والمدينة ـ.

فبينا هي ذات يوم جالسة، إذ مَرَّ بها «أبو العباس؛ عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس» وهو يومئذ عَزَب، فأرسلت إليه مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها، فجاءته الجارية، فأبلغته السلام، وأدَّت إليه الرسالة، فقال: أبلغيها السلام، وأخبريها برغبتي فيها، وقولي لها: لو كان عندي من المال ما أرضاه لك فعلت، فقالت لها: قولي له: هذه سبعمائة دينار، أبعث بها إليك، وكان لها مال عظيم وجوهر، وحشم كثير، فأتته المرأة فعرضت ذلك عليه، فأنعم لها، فدفعت إليه المال، فأقبل إلى أخيها فخطبها إليه فزوَّجه إياها، فأرسل إليها بصَدَاقها خمسمائة دينار، وأهدى إليها مائتي دينار، ثم دخل عليها فإذا هي على منصة، فصَعِدَ إليها، فذكر خبراً.

قال «إسحاق» ـ يعني ابن إبراهيم الموصلي ـ: قال «شبيب بن شيبة»: دخل «خالد بن صفوان» التيمي على «أبي العباس» وليس عنده أحد، فقال: يا أمير المؤمنين! إني والله ما زلتُ منذ قلَّدك الله خلافته أطلب أن أصير إلى مثل هذا الموقف في الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفرغ فعل.

قال: فأمر الحاجب بذلك، فقال: يا أمير المؤمنين! إني فكرت في أمرك، وأجلت الفكر فيك فلم أرَ أحداً له مثلُ ما قلَّدك، أقل اتساعاً في الاستمتاع بالنساء منك، ولا أضيق فيهن عيشاً، إنك ملكت امرأة من نساء العالمين،

واقتصرت عليها، فإن مرضتْ مرضتَ، وإن غابت غبتَ، وإن عَرَكتْ ـ حاضت ـ عركتَ وحرمت نفسك، يا أمير المؤمنين التلذُّذَ باستطراف الجواري، وبمعرفة اختلاف أحوالهن، والتلذُّذ بما يُشْتَهَى منهن.

إن منهن يا أمير المؤمنين الطويلةَ التي تشتهى لجسمها، والبيضاء التي تستَحَبُّ للونها، والسمراء اللَّعْسَاء، والصفراء العجزاء، ومولَّدات المدينة، والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك، ما يشتهي من نظافتهن وحسن أنسهنَّ، وتحلَّل بلسانه، فأطنب في صفات ضروب الجواري وشوَّقه إليهن.

فلما فرغ «خالد» قال: ويحك! ما سلك مسامعي والله كلام قط أحسن من هذا، فأعد عليَّ كلامك، فقد وقع مني موقعاً.

فأعاد عليه «خالد» كلامه بأحسن مما ابتدأه، ثم قال: انصرف.

وبقي «أبو العباس» يفكر فيما سمع من «خالد» يقسِّم أمره، فبينا هو يفكر، إذ دخلت عليه «أم سلمة»، وقد كان «أبو العباس» حَلَفَ ألَّا يتَّخِذَ عليها ووفَّى لها، فلما رأته مفكِّراً متغيِّراً، قالت له: إني لأُنكِرُكَ يا أمير المؤمنين! فهل حدث أمر تكرهه، أو أتاك خبرٌ ارتَعْتَ له؟ فقال: لا، والحمد لله، ثم لم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة «خالد».

قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ فقال لها: ينصحني فتشتمينه، فخرجت إلى مواليها من «البُخَاريَّة»، فأمرتهم بضرب «خالد».

قال «خالد»: فخرجت إلى الدار مسروراً بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، ولم أشُكَّ في الصِّلَة، فبينا مع الصحابة واقفاً، إذ أقبلت «البُخَارِيَّة» تسأل عني، فحققتُ الجائزة والصلة، فقلت لهم: ها أنذا، فاستبق إليَّ أحدهم بخشبة فلما أهوى إليَّ غمزتُ بِرْذَوْني ولحقني فضرب كَفَلَه، وتنادى إليَّ الباقون، وغمزت البِرْذَوْن فأسرع، ثم راكضتهم ففُتُّهم، واختبأت في منزلي أياماً، ووقع في قلبي أني أُتيتُ من قبل «أم سلمة»، فطلبني «أبو العباس» فلم يجدني، فلم أشعر إلَّا بقوم قد هجموا عليَّ، وقالوا: أَجِبْ أمير المؤمنين، فَسَبَقَ إلى قلبي أنه الموت، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لم أرَ دَمَ شيخ أضيع.

فركبت إلى دار أمير المؤمنين، ثم لم ألبث أن أُذِن لي فأصبته خالياً، فرجع إليَّ عقلي، ونظرتُ في المجلس، وبيت عليه ستور رقاق، فقال: يا خالد! لم أرك، قلت: كنتُ عليلاً.

قال: ويحك! إنك وضعت لأمير المؤمنين في آخر دخلة دخلَتها عليَّ من أمور النساء والجواري صفة لم يخرق مسامعي كلام قط أحسن منه، فأعده عليَّ، قال: وسمعت حساً خلف الستر ـ فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين! أعلمُتك أن العرب إنما اشتَقَّت اسم الضَّرَّتين من الضُّر، وإن أحداً لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلّا كان في ضُرّ وتنغيص.

قال له «أبو العباس»: لم يكن هذا في الحديث، قال: بلى، والله يا أمير المؤمنين! قال: فأُنْسِيتَ إذاً، فأتمم الحديث، قال: وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر يغلي عليهن.

قال: برئت قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنتُ سمعتُ هذا منك، ولا مَرَّ في حديثك، قال: وأخبرتك أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبه يشيِّبنه ويهرمنه ويحقرنه ويقسمنه، قال: لا، والله! ما سمعتُ هذا منك ولا من غيرك، قلت: بلى، والله يا أمير المؤمنين! قال: أفتكذبني؟ قلت: أفتقتلني؟ نعم، والله يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن أبكار الإماء رجال، إلّا أنهن ليست لهن خُصًى.

قال «خالد»: فسمعتُ ضحكاً من خلف السِّتر، ثم قلت: نعم، وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش، وأنك تطمح بعينك إلى النساء والجواري، قال: فقيل من وراء السِّتر: صدقتَ والله يا عماه! وبهذا حدثتَه، ولكنه غيَّر حديثك، ونطق عن لسانك، فقال «أبو العباس»: ما لك؟ قاتلك الله وفعل بك وفعل.

قال: فَانْسَلَلْتُ، قال: فبعثت إليَّ «أم سلمة» بعشرة آلاف درهم، وبِرذون وتخت، قال القاضي «أبو الفرج»: قوله في هذا الخبر: السمراء اللَّعْساء: التي في شفتها سمرة وسواد، ومن ذلك قول ذي الرُّمة:

لمياء في شفتيها حوة لعسٌ وفي اللثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ

اللَّمَى: مقصور، سمرة في الشفة، والحوة: الحمرة إلى السواد شبيه به، واللَّعَس: مثل ذلك، والشَّنَب: برد وعذوبة في الأسنان[١].

قال «السيوطي»: قال الصولي: وكان «السفَّاح» أسخى الناس، ما وعد عِدَةً فأخَّرها عن وقتها، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها.

وقال له «عبد الله بن حسن» مرة: سمعت بألف ألف درهم، وما رأيتها قط، فأمر له بها، فأُحْضِرَت، وأمر بحملها معه إلى منزله.

قالوا: وكان «السفاح» سريعاً إلى سفك الدماء، فأتبعه في ذلك عماله[٢].

ولعل الكرم يُغَطِّي الكثير من العيوب، وبه تمحى الخطايا والذنوب، وتقع في أسر أهله القلوب، وصدق القائل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

---

(١) أعلام النساء، ص: ٦٤ ـ ٦٧.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٨.

٢ ـ أبو جعفر المنصور

«عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس»، وأمه «سلامة البربرية» أم ولد.

ولي الخلافة بعد وفاة أخيه «أبي العباس» المعروف بالسفَّاح، مؤسس دولة بني العباس، وبويع «أبو جعفر» بالخلافة سنة ست وثلاثين ومائة، يوم وفاة أخيه، وكان «أبو جعفر» بمكة يومئذ، وقد أخذ له البيعة بالعراق «عيسى بن موسى»، وأرسل «عيسى بن موسى» إليه «محمد بن الحصين» العبدي، يعلمه بموت «أبي العباس» والبيعة له، فلقيه في الطريق في موضع يقال له: «زكيَّة»، فلما جاءه الكتاب، دعا الناس فبايعوه، وبايعه «أبو مسلم الخراساني»، فقال «أبو جعفر»: أين موضعنا هذا؟ قالوا «زَكيَّة»، فقال: أمر يزكي لنا، إن شاء الله تعالى، وقال بعضهم: ورد على «أبي جعفر» البيعة له بعدما صدر من الحج، في منزل من منازل طريق مكة، يقال له «صفيَّة» فتفاءل باسمه، وقال: صَفَتْ لنا إن شاء الله تعالى.

وقال «ابن جرير الطبري»: إن «أبا مسلم» عرف الخبر قبله فكتب إلى «أبي جعفر»:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، عافاك الله وأمتع بك، وإنه أتاني أمر أفظعني، وبلغ مني مبلغاً لم يبلغه شيء قط؛ لقيني «محمد بن الحصين» بكتاب من «عيسى بن موسى» إليك بوفاة «أبي العباس» أمير المؤمنين ﷺ، فنسأل الله أن يعظم أجرك، ويحسن الخلافة عليك، ويبارك لك فيما أنت فيه، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيماً لحقك، وأصفى نصيحة لك، وحرصاً على ما يسرُّك مني.

وأنفذ الكتاب إليه، ثم مكث «أبو مسلم» يومه ومن الغد، ثم بعث إلى «أبي جعفر» بالبيعة؛ وإنما أراد ترهيب «أبي جعفر» بتأخيرها ـ قال علي بن محمد: فلما جلس «أبو مسلم» ألقى إليه الكتاب، فقرأه وبكى واسترجع، قال: ونظر «أبو

مسلم» إلى «أبي جعفر» وقد جزع جزعاً شديداً، فقال: ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة؟ فقال: أتخوَّف شرَّ «عبد الله بن علي» وشيعة «عليّ» فقال: لا تخفه، فأنا أكفيك أمره إن شاء الله؛ إنما عامة جنده ومن معه أهل خراسان، وهم لا يعصونني، فسُرِّيَ عن «أبي جعفر» ما كان فيه، وبايع له «أبو مسلم» وبايع الناس، وأقبلا حتى قدما الكوفة(١).

وسرَّح «أبو جعفر» لقتال «عبد الله بن علي» أبا مسلم، فهُزِم «عبد الله»، ثم كافأ «المنصور» أبا مسلم، فقتله.

وذكر «الدميري» في «حياة الحيوان الكبرى» أن «أبا جعفر المنصور» حين حج ثانية، ولما قرب من مكة رأى على جدار سطرين مكتوبين وهما:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم لك اليوم من ريب المنية دافع

فلما قرأهما تيقَّن انقضاء أجله، فمات بعد ثلاثة أيام، وكان قد رأى في نومه قبل موته قائلاً يقول:

كأني بهذا القصر قد باد أهله وعُرِّيَ منه أهلُه ومنازلُهْ
وصار رئيس القوم من بعد بهجةٍ إلى جدث تبنى عليه جنادِلُهْ(٢)

وقال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: بويع بالخلافة بعهد من أخيه، وكان فَحْل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً، جَمَّاعاً للمال، تاركاً للهو واللعب، كامل العقل، جيِّد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس، قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه، وهو الذي ضرب «أبا حنيفة» رحمه الله على القضاء، ثم سجنه فمات بعد أيام، وقيل: إنه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه.

وكان فصيحاً بليغاً مفوَّهاً خليقاً للإمارة، وكان غاية في الحرص والبخل، فلقِّب «أبا الدوانيق» لمحاسبته العمال والصُّنَّاع على الدوانيق والحبات.

أخرج الخطيب، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «منا

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٧١ ـ ٤٧٢).
(٢) حياة الحيوان الكبرى (١/ ٧٤).

السفَّاح، ومنا المنصور، ومنا المهدي»، قال الذهبي: منكر منقطع.

وأخرج الخطيب وابن عساكر وغيرهما، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «منا السفَّاح، ومنا المنصور، ومنا المهدي»، قال الذهبي: إسناده صالح.

وأخرج ابن عساكر، من طريق ابن أبي إسرائيل، عن محمد بن جابر، عن الأعمش، عن أبي الودَّاك، عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «منا القائم، ومنا المنصور، ومنا السفاح، ومنا المهدي، فأما القائم فتأتيه الخلافة ولم يهرق فيها محجمة من دم، وأما المنصور فلا ترد له راية، وأما السفاح فهو يسفح المال والدم، وأما المهدي فيملؤها عدلاً كما ملئت ظلماً».

وعن «المنصور» قال: رأيت كأني في الحرم، وكأن رسول الله ﷺ في الكعبة، وبابها مفتوح، فنادى مناد: أين عبد الله؟ فقام أخي أبو العباس، حتى صار على الدرجة فأُدْخِلَ، فما لبث أن خرج ومعه قناة عليها لواء أسود قدر أربعة أذرع، ثم نودي: أين عبد الله؟ فقمت على الدرجة، فأُصعِدْتُ، وإذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وبلال، فعقد لي وأوصاني بأمته، وعممني بعمامة، فكان كورها ثلاثة وعشرين، وقال: «**خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة**».

وأضاف «السيوطي» يقول: تولى «المنصور» الخلافة في أول سنة سبع وثلاثين ومائة، فأول ما فعل أن قتل «أبا مسلم الخراساني» صاحب دعوتهم وممهد مملكتهم.

قال أبو المظفر الأبيوردي: فكانوا يقولون: ملك الدنيا ابنا بربريتين: «المنصور» و«عبد الرحمٰن بن معاوية».

وفي سنة أربعين ومائة شرع في بناء مدينة «بغداد».

وفي سنة إحدى وأربعين ومائة كان ظهور الراوندية القائلين بالتناسخ، فقتلهم «المنصور» وفيها فتحت «طبرستان».

قال الذهبي: في سنة ثلاث وأربعين ومائة شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث، والفقه، والتفسير، فصنَّف ابن جُرَيْج بمكة، و«مالك»

الموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة، وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنَّف ابن إسحاق المغازي، وصنَّف أبو حنيفة ﷺ الفقه والرأي، ثم بعد يسير صنَّف هُشَيْم، والليث، وابن لهيعة، ثم ابن المبارك، وأبو يوسف، وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية، واللغة، والتاريخ، وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة.

وفي سنة خمس وأربعين ومائة، كان خروج الأخوين «محمد» و«إبراهيم» ابني «عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب» فظفر بهما «المنصور» فقتلهما، وجماعة كثيرة من آل البيت، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان «المنصور» أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين، وكانوا قبل شيئاً واحداً، وآذى «المنصور» خلقاً من العلماء ممن خرج معهما، أو أمر بالخروج قتلاً وضرباً وغير ذلك، منهم «أبو حنيفة» و«عبد الحميد بن جعفر» و«ابن عجلان»، وممن أفتى بجواز الخروج مع «محمد» على «المنصور»، «مالك بن أنس» ﷺ، وقيل له: إن في أعناقنا بيعة للمنصور، فقال: إنما بايعتم مكرهين، وليس على مُكْرَهٍ يمين.

وفي سنة ست وأربعين ومائة، كانت غزوة «قبرص».

وفي سنة سبع وأربعين ومائة، خلع «المنصور» عمه «عيسى بن موسى» من ولاية العهد، وكان «السفاح» عهد إليه من بعد «المنصور»، وكان «عيسى» هو الذي حارب له الأخوين فظفر بهما، فكافأه بأن خلعه مكرهاً، وعهد إلى ولده «المهدي».

وفي سنة ثمان وأربعين ومائة توطدت الممالك كلها للمنصور، وعظمت هيبته في النفوس، ودانت له الأمصار، ولم يبق خارجاً عنه سوى جزيرة الأندلس فقط، فإنها غلب عليها «عبد الرحمٰن بن معاوية» الأموي المرواني، لكنه لم يتلقَّب بأمير المؤمنين، بل بالأمير فقط، وكذلك بنوه.

وفي سنة تسع وأربعين ومائة، فرغ من بناء بغداد.

وفي سنة خمسين ومائة، خرجت الجيوش الخراسانية، عن الطاعة مع الأمير أستاذ «سيس» واستولى على أكثر مدن خراسان، وعظم الخطب، واستفحل الشر، واشتَدَّ على المنصور الأمر، وبلغت ضريبة الجيش الخراساني ثلاثمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل، فعمل معهم، «أجشم» المروزي مصافاً، فقتل «أجشم» واستبيح عسكره، فتجهز لحربهم «خازم بن خزيمة» في جيش عَرَمْرَم يسد الفضاء، فالتقى الجمعان، وصبر الفريقان، وكانت وقعة مشهورة، يقال: قتل فيها سبعون ألفاً، وانهزم أستاذ «سيس»، فالتجأ إلى جبل، وأمر الأمير «خازم» في العام الآتي بالأسرى، فضربت أعناقهم، وكانوا أربعة عشر ألفاً، ثم حاصروا أستاذ «سيس» مدة، ثم سلم نفسه فقيدوه وأطلقوا أجناده، وكان عددهم ثلاثين ألفاً.

وفي سنة إحدى وخمسين ومائة، بنى «الرصافة» وشيَّدها.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومائة، ألزم «المنصور» رعيته بلبس القلانس الطوال، فكانوا يعملونها بالقصب والوَرِق، ويلبسونها السواد، فقال «أبو دلامة»:

وكنا نرجّي من إمام زيادةً ... فزاد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها ... دِنانُ يهودٍ جُلِّلت بالبرانس

وفي سنة ثمان وخمسين ومائة، أمر «المنصور» نائب مكة بحبس «سفيان الثوري»، و«عباد بن كثير»، فحبسا، وتخوَّف الناس أن يقتلهما «المنصور» إذا ورد الحج، فلم يوصله الله مكة سالماً، بل قدم مريضاً ومات، وكفاهما الله شره، وكانت وفاته بالبطن في ذي الحجة، ودفن بين الحجون وبين بئر ميمون، وقال سَلْمُ الخاسر:

قفل الحجيج وخلَّفوا ابن محمد ... رهناً بمكة في الضريح الملحدِ
شهدوا المناسك كلها وإمامهم ... تحت الصفائح محرماً لم يشهدِ[1]

أما خبر «المنصور» مع الراوندية فقد ذكر ابن جرير الطبري، في تاريخه، فقال: والراوندية قوم ـ فيما ذكر عن علي بن محمد ـ كانوا من أهل خراسان، على رأي «أبي مسلم» صاحب دعوة بني هاشم: يقولون ـ فيما زعم ـ بتناسخ

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٩ ـ ٢٣٢.

الأرواح، ويزعمون أن روح «آدم» في «عثمان بن نهيك» وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم، هو «أبو جعفر المنصور»، وأن «الهيثم بن معاوية» جَبْرَائيل.

قال: وأتوا قصرَ «المنصور» فجعلوا يطوفون به، ويقولون: هذا قصر ربنا، فأرسل «المنصور» إلى رؤسائهم، فحبس منهم مائتين، فغضب أصحابهم، وقالوا: عَلامَ حُبِسوا؟ وأمر «المنصور» ألّا يجتمعوا، فأعدوا نعشاً، وحملوا السرير ـ وليس في النعش أحد ـ ثم مرُّوا في المدينة، حتى صاروا على باب السجن، فرموا بالنعش وشَدُّوا على الناس ـ ودخلوا السجن، فأخرجوا أصحابهم، وقصدوا نحو «المنصور» وهم يومئذٍ ستمائة رجل، فتنادى الناس، وغُلِّقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد، فخرج «المنصور» من القصر ماشياً، ولم يكن في القصر دابة، فجعل بعد ذلك اليوم يرتبط فرساً يكون في دار الخلافة معه في قصره.

قال: ولما خرج «المنصور» أُتِيَ بدابة فركبها، وهو يريدهم، وجاء «معن بن زائدة»، فانتهى إلى «أبي جعفر»، فرمى بنفسه وترجَّل، وأدخل بركة قَبائه في مِنْطَقَته، وأخذ بلجام دابة «المنصور»، وقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين! إلّا رجعتَ؛ فإنكَ تُكْفَى.

وجاء «أبو نصر»؛ مالك بن الهيثم، فوقف على باب القصر، وقال: أنا اليوم بواب، ونُودِيَ في أهل السوق، فَرَمَوْهُمْ وقاتلوهم حتى أثخنوهم، وفتح باب المدينة، فدخل الناس،

وجاء «خازم بن خزيمة» على فرس محذوف ـ مقصوص شعر الذَّنب ـ، فقال: يا أمير المؤمنين! أقتُلهم؟ قال: نعم فحمِل عليهم حتى ألجأهم إلى ظهر حائط، ثم كَرُّوا على «خازم» فكشفوه وأصحابه، ثم كَرَّ «خازم» عليهم، فاضطرهم إلى حائط المدينة، وقال للهيثم بن شعبة: إذا كرُّوا علينا فاسبقهم إلى الحائط، فإذا رجعوا فاقتلهم، فحملوا على «خازم»، فاطَّرَدَ لهم، وصار «الهيثم بن شعبة» من ورائهم، فقتلوا جميعاً.

وجاءهم يومئذ «عثمان بن نهيك»، فكلمهم، فرجع فرموه بنشابة، فوقعت بين كتفيه؛ فمرض أياماً ومات منها، فصلى عليه «أبو جعفر»، وقام على قبره حتى دُفِنَ، وقال: رحمك الله «أبا يزيد!»، وصيَّر مكانه على حرسه «عيسى بن نهيك»،

فكان على الحرس حتى مات؛ فجعل على الحرس «أبا العباس الطوسي».

وجاء يومئذ «إسماعيل بن علي»، وقد أغلقت الأبواب، فقال للبواب: افتح ولك ألف درهم؛ فأبى، وكان «القعقاع بن ضرار» يومئذ بالمدينة، وهو على شُرَط «عيسى بن موسى»، فأبلى يومئذ؛ وكان ذلك كله في المدينة الهاشمية بالكوفة. قال: وجاء يومئذ «الربيع» ليأخذ بلجام «المنصور»، فقال له «معن»: ليس هذا من أيامك، فأبلى «أبرويز بن المَصْمُغَان» ملك دُنْبَاوَنْدَ ـ وكان خالف أخاه، فقدم على «أبي جعفر» فأكرمه، وأجرى عليه رزقاً؛ فلما كان يومئذ أتى «المنصور» فكفَّر له، وقال: أقاتل هؤلاء؟ قال له: نعم، فقاتلَهم، فكان إذا ضرب رجلاً فصرعه تأخر عنه ـ فلما قُتِلوا وصَلَّى «المنصور» الظهر دعا بالعشاء، وقال: أطلعوا «معن بن زائدة»، وأمسك عن الطعام حتى جاءه «معن»، فقال لقُثَم: تحوَّل إلى هذا الموضع، وأجلسْ «مَعْناً» فكان «قُثَم»، فلما فرغوا من العشاء، قال لعيسى بن علي: يا أبا العباس! أسمعت بأشد الرجال؟ قال: نعم، قال: لو رأيت اليوم «مَعْناً» علمت أنه من تلك الآساد.

قال «معن»: والله يا أمير المؤمنين! لقد أتيتك وإني لوجل القلب، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم، وشدة الإقدام عليهم، رأيت أمراً لم أره من خَلْق في حرب، فشدَّ ذلك من قلبي، وحملني على ما رأيت مني.

وقال «أبو خزيمة»: يا أمير المؤمنين! إن لهم بقية، قال: فقد ولَّيتُك أمرهم فاقتلهم، قال: فأقتل «رِزاماً» فإنه منهم، فعاذ «رِزام» بجعفر بن أبي جعفر، فطُلِبَ فيه فأمنه.

وقال «علي» عند «أبي بكر الهذلي»، قال: إني لواقف بباب أمير المؤمنين، إذ طلع، فقال رجل إلى جانبي: هذا رب العزة! هذا الذي يطعمنا ويسقينا؛ فلما رجع أمير المؤمنين، ودخل عليه الناس دخلتُ وخلا وجهه، فقلت له: سمعتُ اليوم عجباً، وحدَّثته؛ فنكت في الأرض، وقال: يا هُذَلي! يدخلهم الله النار في طاعتنا ويَعْتِلُهم، أحب إليَّ من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا. وتابع «أبو جعفر الطبري» قوله:

وذكر عن «جعفر بن عبد الله» قال: حدثني الفضل بن الربيع، قال: حدثني

أبي، قال: سمعت «المنصور» يقول: أخطأتُ ثلاث خَطِيَّات وقاني الله شرَّها: قتلت «أبا مسلم» وأنا في خرق، ومَنْ حولي يقدِّم طاعته ويؤثرها، ولو هُتِكت الخرق لذهبتُ ضَياعاً، وخرجت يوم الراوندية ولو أصابني سهم غَرْب لذهبتُ ضَياعاً، وخرجت إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق ذهبت الخلافة ضَياعاً.

وذكر أن «معن بن زائدة» كان مختفياً من «أبي جعفر» لِمَا كان منه من قتاله المُسَوَّدة مع «ابن هبيرة» مرة بعد مرة، وكان اختفاؤه عند «مرزوق أبي الخصيب»، وكان على أن يطلب له الأمان، فلما خرج الراوندية أتى الباب فقام عليه، فسأل «المنصور»، «أبا الخطيب» ـ وكان يلي حجابةَ «المنصور» يومئذ ـ مَنْ بالباب؟ فقال: «معن بن زائدة»، فقال «المنصور»: رجل من العرب، شديد النفس، عالم بالحرب، كريم الحسب، أدخله، فلما دخل قال: إيه يا معن! ما الرأي؟ قال: الرأي أن تنادي في الناس، وتأمر لهم بالأموال، قال: وأين الناس والأموال؟ ومَنْ يقدم على أن يُعَرِّضَ نفسه لهؤلاء العلوج؟ لم تصنع شيئاً يا مَعْنَ! الرأي أن أخرج فأقف؛ فإن الناس إذا رأوني قاتلوا وأَبْلَوْا وتابوا إليَّ، وتراجعوا، وإن أقمت تخاذلوا وتهاونوا، فأخذ «معن» بيده، وقال: يا أمير المؤمنين! إذاً والله؟ تقتل الساعة، فأنشدك الله في نفسك، فأتاه «أبو الخصيب» فقال مثلها، فاجتذب ثوبه منهما، ثم دعا بدابته، فركب ووثب عليها من غير ركاب، ثم سوَّى ثيابه، وخرج و«معن» آخذ بلجامه، و«أبو الخصيب» مع ركابه، فوقف، وتوجه إليه رجل، فقال: يا معن! دونك العلج، فشَدَّ عليه «معن» فقتله، ثم والى بين أربعة، وثاب إليه الناس وتراجعوا، ولم يكن إلا ساعة حتى أفنوهم، وتغيَّب «معن» بعد ذلك، فقال «أبو جعفر» لأبي الخصيب: ويلك! أين «معن؟» قال: والله! ما أدري أين هو من الأرض!

فقال: أيظن أن أمير المؤمنين لا يغفر ذنبه بعدما كان من بلائه؟ أعطه الأمان وأدخله عليَّ، فأدخله، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وولاه اليمن، فقال له «أبو الخصيب»: قد فرَّق صلته وما يقدر على شيء، قال: لو أراد مثل ثمنك ألف مرة لقدر عليه[1].

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٥٠٥ ـ ٥٠٨).

أخرج ابن عساكر بسنده أن «أبا جعفر المنصور» كان يرحل في طلب العلم قبل الخلافة، فبينا هو يدخل منزلاً من المنازل قبض عليه صاحب الرصد، فقال: زِنْ درهمين قبل أن تدخل، قال: خَلِّ عني فإني رجل من بني هاشم، قال: زِنْ درهمين، فقال: خَلِّ عني فإني من بني عم رسول الله ﷺ، قال: زِنْ درهمين، قال: خَلِّ عني فإني رجل قارىء كتاب الله، قال: زِنْ درهمين، قال: خَلِّ عني فإني رجل عالم بالفقه والفرائض، قال: زِنْ درهمين، فلما أعياه أَمْرُهُ وَزَنَ الدرهمين، فرجع ولزم جمع المال والتدنُّق فيه حتى لُقِّبَ بأبي الدوانيق.

وأخرج عن الربيع بن يونس الحاجب، قال: سمعت «المنصور» يقول: الخلفاء أربعة: «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان» و«علي» والملوك أربعة: «معاوية» و«عبد الملك» و«هشام» وأنا.

وأخرج عن مالك بن أنس، قال: دخلتُ على «أبي جعفر المنصور» فقال: مَنْ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ قلت: «أبو بكر» و«عمر»، قال: أصبت، وذلك رأي أمير المؤمنين.

وأخرج عن إسماعيل الفهري، قال: سمعت «المنصور» في يوم عرفة على منبر عرفة يقول في خطبته: أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على فيئه، أقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قفلاً: إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم، وإذا شاء أن يُقْفِلَني عليه أقفلني، فارغَبوا إلى الله أيها الناس! وسلوه في هذا البيت الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم في كتابه، إذ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية: ٣] أن يوفقني للصواب، ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم، والإحسان إليكم، ويفتحني لإعطائكم، وقسم أرزاقكم بالعدل، فإنه سميع مجيب.

وأخرجه «الصولي»، وزاد في أوله أن سبب هذه الخطبة أن الناس بَخَّلُوه، وزاد في آخره. فقال بعض الناس: أحال أمير المؤمنين بالمنع على ربه.

وأخرج عن الأصمعي وغيره: أن «المنصور» صَعَد المنبر، فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا

شريك له، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين! اذكر مَنْ أنت في ذكرِه، فقال: مرحباً مرحباً، لقد ذكرت جليلاً، وخوَّفت عظيماً، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له: اتَّقِ الله أخذته العزة بالإثم، والموعظة مِنَّا بدت، ومن عندنا خرجت، وأنتَ يا قائلها، فأحلف باللهِ ما اللهَ أردت بها، وإنما أردت أن يقال: قام فقال فعوقب فصبر، فأهون بها مِنْ قائلها! واهتبلها من الله، ويلك! إني قد غفرتها، وإياكم معشر الناس! وأمثالها، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فعاد إلى خطبته فكأنما يقرؤها من قِرْطَاس.

قال «المنصور» لابنه «المهدي»: يا أبا عبد الله! الخليفة لا يصلحه إلَّا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلَّا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلَّا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه.

وقال: لا تُبْرِمَنَّ أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تريه قبيحه وحسنه،، وقال: أيْ بُنَيَّ! استدم النعمة بالشكر، والمقدرة بالعفو، والطاعة بالتألُّف والنصر بالتواضع، والرحمة للناس.

وأخرج عن مبارك بن فضالة، قال: كنا عند «المنصور»، فدعا برجل، ودعا بالسيف، فقال المبارك: يا أمير المؤمنين! سمعت «الحسن» يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة، قام مناد من عند الله ينادي: لِيَقُم الَّذين أجرهم على الله، فلا يقوم إلَّا مَنْ عفا»**، فقال «المنصور»: خَلُّوا سبيله.

وأخرج عن الأصمعي، قال: أُتِيَ «المنصور» برجل يعاقبه، فقال: يا أمير المؤمنين! الانتقام عدل، والتجاوز فضل، ونحن نعيذُ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه أوكس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين، فعفا عنه.

وأخرج عن الأصمعي، قال: لقي «المنصور» أعرابياً بالشام، فقال: احمد الله يا أعرابي! الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت، قال: إن الله لا يجمع علينا حَشَفاً وسُوءَ كيل: ولايتكم والطاعون.

وكان «المنصور» يقبل الموعظة، ويستجيب لمن يعظه، قال «السيوطي»: وأخرج عن محمد بن منصور البغدادي قال: قام بعض الزهاد بين يدي «المنصور»، فقال: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك ببعضها، واذكر ليلة

تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده، فأفحم «المنصور» وأمر له بمال، فقال: لو احتجت إلى مالك ما وعظتك.

وأخرج عن عبد السلام بن حرب، أن «المنصور» بعث إلى «عمرو بن عبيد» فجاءه، فأمر له بمال، فأبى أن يقبله، فقال «المنصور»: والله لتقبَلَنَّه، فقال: والله! لا أقبله، فقال له «المهدي»: قد حلف أمير المؤمنين، فقال: أمير المؤمنين أقوى على كفَّارة اليمين من عمك، فقال له «المنصور»: سل حاجتك، قال: أسألك ألَّا تدعوني حتى آتيك، ولا تعطيني حتى أسألك، فقال: علمت أني جعلت هذا ولي عهدي، فقال: يأتيه الأمر يوم يأتيه وأنت مشغول.

وأخرج عن عبد الله بن صالح، قال: كتب «المنصور» إلى «سوار بن عبد الله» قاضي البصرة: انظر الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر فادفعها إلى القائد، فكتب إليه «سوار» إن البينة قد قامت عندي أنها للتاجر، فلست أخرجها من يده إلَّا ببيِّنَة، فكتب إليه «المنصور»: والله! الذي لا إله إلَّا هو لتدفَعنَّها إلى القائد، فكتب إليه «سوار» والله الذي لا إله إلَّا هو لا أخرجنها من يد التاجر إلَّا بحق، فلما جاءه الكتاب، قال: ملأتُها والله! عدلاً، وصار قضاتي تردني إلى الحق.

وأخرج من وجه آخر: أن «المنصور» وُشِيَ إليه بسوار، فاستقدمه، فعطس «المنصور»، فلم يُشَمِّتْه «سوار»، فقال: ما يمنعك من التشميت؟ قال: لأنك لم تحمد الله، فقال: قد حمدتُ اللهَ في نفسي، قال: شَمَّتُّك في نفسي، قال: ارجع إلى عملك، فإنك إذا لم تُحابني لم تُحَابِ غيري[1].

أجَل، إن القاضي الذي يخشى الله، لا يخشى سواه، ومن خشي الله مَنَعَه ممن يريد أذاه.

ومن قول ابن هَرْمَة في المنصور:

له لحظات عن حِفافَيْ سريره ... إذا كَرَّها فيها عِقاب ونائلُ
كريم له وجهان وجه لدى الرضا ... أسيل ووجه في الكريمة باسلُ

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٣٢ ـ ٢٣٩.

فَأُمُّ الذي آمنتَ آمنةُ الردى وأُمُّ الذي أوعدت بالثكل ثاكلُ
وليس بمعطي العفو من غير قدرة ويعفو إذا ما مكّنته المقاتلُ[(١)]

وروى «ابن عبد ربه الأندلسي» في «العقد الفريد» عن: زياد، عن مالك بن أنس، قال: بعث «أبو جعفر المنصور» إليَّ وإلى «ابن طاوس»، فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فُرُشٍ قد نُضِّدت، وبين يديه أنطاع قد بُسِطت، وجَلاَوزة ـ شُرَط ـ بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن: اجلسا، فجلسنا فأطرق عنا طويلاً، ثم رفع رأسه والتفت إلى «ابن طاوس» فقال له: حدثني عن أبيك، قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجَوْر في عدله**»، فأمسك ساعة.

قال مالك: فضممتُ ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه، ثم التفت إليه «أبو جعفر» فقال: عظني يابن طاوس! قال: نعم، يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾ [الفجر، الآيات: ٦-١٤] . قال مالك: فضممتُ ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأ ثيابي من دمه، فأمسك ساعة حتى اسودَّ ما بيننا وبينه، ثم قال: يابن طاوس! ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه، ثم قال: ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصية لله فأكون شريكك فيها، فلما سمع ذلك قال: قوما عني، قال «ابن طاوس»: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم. قال «مالك»: فما زلت أعرف لابن طاوس فضلَه[(٢)] .

وقال صاحب «العقد الفريد»: وأرسل «أبو جعفر» إلى «سفيان الثوري»، فلما دخل عليه قال: عظني أبا عبد الله! قال: وما عملتَ يا أمير المؤمنين فيما علمتَ فأعظك فيما جهلتَ؟ فما وجد له «المنصور» جواباً[(٣)] .

---

(١) العقد الفريد (١/ ٣٧).
(٢) العقد الفريد (١/ ٥٤ ـ ٥٥).
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٥٧).

وروى أيضاً عن المدائني، قال: لما كتب «أبو جعفر» أمان «ابن هبيرة»، واختلف فيه الشهود أربعين يوماً، ركب في رجال معه، حتى دخل على «المنصور»، فقال له: يا أمير المؤمنين! إن دولتكم هذه جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها، وجنِّبوهم مرارتها، لتسرع محبتكم إلى قلوبكم، ويعذب ذكركم على ألسنتكم، وما زلتُ مُنْتظراً لهذه الدعوة.

فأمر «أبو جعفر» برفع الستر بينه وبينه، فنظر إلى وجهه، وباسطه بالقول حتى اطمأن قلبه، فلما خرج قال «أبو جعفر» لأصحابه: عجباً لمن يأمرني بقتل مثل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدراً[١].

وجاء في «العقد الفريد»: ودخل «معن بن زائدة» على «أبي جعفر»، فقال له كبرتَ يا معن! قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين! قال: وإنك لجَلْد، قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين! قال: وإن فيك لبقية، قال: هي لك، يا أمير المؤمنين! قال: أي الدولتين أحب إليك أو أبغض؟ أدولتنا أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك، يا أمير المؤمنين! وإن زاد بِرُّك على بِرِّهم كانت دولتك أحب إليَّ، وإن زاد بِرُّهُمْ على بِرِّك كانت دولتهم أحب إليَّ، قال: صدقت.

وجاء في «العقد» أيضاً: وأقبل «المنصور» يوماً راكباً، والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب، فقام الناس إليه، ولم يقم، فاستشاط «المنصور» غيظاً وغضباً ودعا به فقال: ما منعك من القيام مع الناس حين رأيتني؟ قال: خفت أن يسألني الله تعالى: لِمَ فعلت؟ ويسألك عنه: لِمَ رضيتَ؟ وقد كرهه رسول الله ﷺ، فسكن غضبه، وقرَّبه، وقضى حوائجه[٢].

وروى ابن عبد ربه، عن أبي الحسن المدائني، قال: لما حجَّ «المنصور» مرَّ بالمدينة، فقال للربيع الحاجب: عليَّ بجعفر بن محمد، قتلني الله إن لم أقتله، فَمُطِلَ به، ثم ألَحَّ عليه فحضَر، فلما كشف الستر بينه وبينه، همس «جعفر» بشفتيه؛ ثم تقرَّب وسلَّم، فقال: لا سلَّم الله عليك، يا عدو الله! تُعْمِلُ عليَّ الغوائل في مُلكي، قتلني الله إن لم أقتلك، قال: يا أمير المؤمنين! إن «سليمان»

---

(١) العقد الفريد (١/ ٧٩ ـ ٨٠).

(٢) العقد الفريد (٢/ ١٤٦).

صلى الله على «محمد» وعليه، أعطي فشكر، وإن «أيوب» عليه السلام ابتُلِيَ فصبر، وإن «يوسف» عليه السلام ظُلِمَ فغفر، وأنت على إرث منهم، وأحقُّ من تأسى بهم، فنكّس «أبو جعفر» رأسه مَلِيًّا، و«جعفر» واقف، ثم رفع رأسه فقال:

إليَّ أبا عبد الله! فأنت القريب القرابة، وذو الرحم الواشجة، السليم الناحية، القليل الغائلة، ثم صافحه بيمينه، وعانقه بشماله، وأجلسه معه على فراشه، وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسائله، ثم قال: يا ربيع! عَجِّل لأبي عبد الله كُسْوته وجائزته وإذْنَه.

قال «الربيع»: فلما حال الستر بيني وبينه أمسكت بثوبه، فقال: ما أُرانا يا ربيع إلَّا وقد حُبِسْنا؛ فقلت: لا عليك، هذه مني لا منه؛ فقال: هذه أيسر، سل حاجتك، فقلت له: إني منذ ثلاث أدفع عنك، وأداري عليك، ورأيتك إذ دخلت همست بشفتيك، ثم رأيتُ الأمر انجلى عنك، وأنا خادم سلطان، ولا غنًى لي عنه فأحب منك أن تُعَلِّمَنيه، قال: نعم، قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنُفْني بحفظك الذي لا يُرام، ولا أَهلِكُ وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها عليَّ قلَّ لك عندها شكري فلم تحرمني، وكم من بلية ابتُلِيتُ بها قلَّ عندها صبري فلم تخذلني، اللهم! بك أدرأ في نحره، وأستعيذ بخيركَ من شره، فإنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا «محمد» وآله وسلم[(١)].

وورد في «العقد الفريد»: وقال «المنصور» لمعن بن زائدة: ما أظن ما قيل عنك من ظلمك أهل اليمن، واعتسافِك عليهم إلَّا حقاً؟ قال: كيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: بلغني عنك أنك أعطيت شاعراً لبيت قاله ألف دينار، وأنشده البيت، وهو:

معن بن زائدة الذي زيدت به ... فخراً إلى فخر بنو شيبانِ

قال: نعم، يا أمير المؤمنين! قد أعطيته ألف دينار، ليس على هذا البيت، ولكن على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية مُعْلِماً ... بالسيف دون خليفة الرحمٰنِ

---

(١) العقد الفريد (٢/١٥٩ ـ ١٦٠).

فـمـنـعـت حَـوْزَتـه وكـنـت وِقـاءَه مـن وقـع كـل مـهـنَّـد وسِـنـانِ

قال: فاستحيا «المنصور»، وجعل ينكت بالمخصرة، ثم رفع رأسه وقال: اجلس أبا الوليد!(١).

وقال «أبو جعفر» لعمرو بن عبيد: أعني بأصحابك، يا أبا عثمان! قال: ارفع علم الحق يتبعك أهله(٢).

وذكر ابن عبد ربه: بينما «المنصور» في الطواف بالبيت ليلاً، إذ سمع قائلاً يقول: اللهم! إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فخرج «المنصور» فجلس في ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلى ركعتين، واستلم الركن، وأقبل مع الرسول، فسلَّم عليه بالخلافة، فقال «المنصور»: ما الذي سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض؟ وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله! لقد حشوتَ مسامعي ما أرْمَضني ـ آلمني ـ، فقال: إن أمَّنتني يا أمير المؤمنين! أعلمتك بالأمور من أصولها، وإلَّا احتجزت منك، واقتصرتُ على نفسي فلي فيها شغل، قال: فأنت آمِنٌ على نفسك فقُلْ، فقال: يا أمير المؤمنين! إن الذي دخله الطمع وحال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنت؛ فقال: فكيف ذلك؟ ويحك! يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟ قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك؟ إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بَينك وبينهم حجاباً من الجص والآجُر، وأبواباً من الحديد، وحراساً معهم السلاح، ثم سجنت نفسك عنهم فيها، وبعثت عمالك في جبايات الأموال وجمعها، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع، وأمَرْتَ ألَّا يدخل عليك من الرجال إلَّا فلان وفلان نفراً سمَّيتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري، ولا الضعيف الفقير إليك، ولا أحد إلَّا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرت ألَّا يحجبوا دونك،

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٧٤).

تجبي الأموال وتجمعها، قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه؟ فائتمروا ألَّا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، ولا يخرجَ لك عامل فيخالف أمرهم إلا خَوَّنوه عندك ونَفَوْه حتى تسقط منزلته، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم مَنْ دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء فتظلم حيل بينك وبينه، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك، وجدَك قد نهيت عن ذلك، ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلِّم، فبلغ بطانتَك خَبَرُه، سألوا صاحب المظالم، ألَّا يرفع مَظْلِمَته إليك، فإن المتظلِّم منه له بهم حُرْمَة، فأجابهم خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه، ويلوذ به، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه، فإذا أُجْهِد وأُخرِج ثم ظهرتَ صرخ بين يديك، فيُضرب ضرباً مبرِّحاً يكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر فما تُنْكِر، فما بقاء الإسلام على هذا؟ وقد كنتُ يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين، فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكى بكاء شديداً، فحثه جلساؤه على الصبر، فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة بي، ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته. ثم قال: أما إذا قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس ألَّا يلبس ثوباً أحمر إلَّا متظلم، ثمَّ كان يركب الفيل طرفي النهار وينظر هل يرى مظلوماً؟

فهذا يا أمير المؤمنين! مشرك بالله، بلغت رأفتُه بالمشركين هذا المبلغ، وأنت مؤمن بالله، من أهل بيت نبيه، لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك، فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض مال، وما من مال إلَّا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولستَ الذي تعطي، بل الله الذي يعطي من يشاء ما يشاء، فإن قلت: إنما تجمع المال لتشُدَّ به السلطان، فقد أراك الله عبراً في بني أمية، ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكُراع، حين أراد الله بهم ما أراد، وإن قلت: إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله! ما فوق

ما أنت فيه إلَّا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه، يا أمير المؤمنين! هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ فقال «المنصور»: لا، فقال: فكيف تصنع بالمَلِكِ الذي خوَّلك مُلْك الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن بالخلود في العذاب الأليم؟ قد رأى ما عُقِدَ عليه قلبك، وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك، هل يغني عنك ما شَحِمْت عليه من مُلْك الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب؟

قال: فبكى «المنصور»، ثم قال: ليتني لم أُخلَق، ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم، ويرضَوْن بهم في دنياهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يُسَدِّدوك؛ قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني، قال: خافوك أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهِّل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات من جلِّها، واقسمها بالحق والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة، وجاء المؤذنون فسلَّموا عليه، فصلى وعاد إلى مجلسه، وطُلِبَ الرجل فلم يُوجَدْ[1].

وروى أيضاً عن الأوزاعي، قال: دخلتُ عليه فقال لي: ما الذي بَطَّأَ بك عني؟ قلتُ: وما تريد مني يا أمير المؤمنين!؟ قال: الاقتباس منك، قلت: يا أمير المؤمنين! انظر ما تقول، فإن «مكحولاً» حدثني عن «عطية بن بشر»؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ بلغته عن الله نصيحة في دينه، فهي رحمة من الله سيقت إليه، فإن قَبِلها من الله بشكر، وإلَّا فهي حجة من الله عليه، ليزداد إثماً، ويزداد الله عليه غضباً، وإن بلغه شيء من الحق فرضي فله الرضا، وإن سخط فله السخط، ومن كرهه فقد كره الله ﷻ، لأن الله هو الحق المبين**».

ثم قلت: يا أمير المؤمنين! إنك تحملت أمانة هذه الأمة، وقد عرضت على السمٰوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وقد جاء عن جدك «عبد الله بن عباس» في تفسير قول الله ﷻ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف، الآية: ٤٩] قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك، فما ظنك بالقول

(١) العقد الفريد (٣/ ١٥٩ ـ ١٦١).

والعمل؟ فأُعيذك بالله، يا أمير المؤمنين أن ترى أن قرابتك من رسول الله ﷺ تنفعك مع المخالفة لأمره، فقد قال ﷺ: «**يا صفية» عمة «محمد»، ويا «فاطمة» بنت محمد «استوهبا أنفسكما من الله، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً»**، وكذلك جدك «العباس» سأل إمارة من النبي ﷺ، فقال: «**أيْ عم! نفس تحييها، خير لك من إمارة لا تحصيها**» نظراً لعمه، وشفقة عليه من أن يلي فيحيد عن سنته جناح بعوضة، فلا يستطيع له نفعاً، ولا عنه دفعاً، وقال ﷺ: «**ما من راع يبيت غاشًا لرعيته إلَّا حرَّم الله عليه رائحة الجنة**»، وحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظراً، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً، وبالحق فيهم قائماً، فلا يتخوف محسنهم منه رهقاً، ولا مسيئهم عدواناً، فقد كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها، ويردع المنافقين عنه، فأتاه «جبريل»، فقال: يا محمد! ما هذه الجريدة التي معك؟ اتركها لا تملأ قلوبهم رعباً، فما ظنك بمن سفك دماءهم، وقطّع أستارهم، ونهب أموالهم؟

يا أمير المؤمنين! إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، دعا إلى القصاص من نفسه بَخدش خدشه أعرابياً لم يتعمَّده، فقال «جبريل»: يا محمد! إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك، واعلم يا أمير المؤمنين! أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة، ولا ثمرة من ثمارها، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار عُلِّق بين السماء والأرض لأهلك الناسَ رائحته، فكيف بمن تقمّصه؟ ولو أن ذَنوباً من صديد أهل النار صُبَّ على ماء الدنيا لأحَمَّه ـ لسخَّنه ـ فكيف بمن تجرَّعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جَبَل لأذابته، فكيف بمن يُسْلَكُ فيها، ويُرَدُّ فَضْلُها على عاتقه؟[(١)]

وذكر صاحب «العقد الفريد» أن «أبا جعفر» لقي «سفيان الثوري» في الطواف، فقال: ما الذي يمنعك «أبا عبد الله أن تأتينا؟» قال: إن الله نهانا عنكم، فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود، الآية: ١١٣]، وقدم «هشام بن عبد الملك» المدينة لزيارة القبر، فدخل عليه «أبو حازم الأعرج»، فقال: ما يمنعك «أبا حازم!» أن تأتينا؟ فقال: وما أَصْنَعُ بإتيانك يا أمير المؤمنين!؟ إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني أخزيتني، وليس عندي ما أخافك

---

(١) العقد الفريد (٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

عليه، ولا عندك ما أرجوك له[١].

وروى «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» عن غير المدني، قال: قدم «المنصور» المدينة، و«محمد بن عمران الطلحي» على قضائه، وأنا كاتبه، فاستعدى الجمَّالون على «المنصور» في شيء، فأمرني أن أكتب إليه بالحضور وإنصافهم، فاستعفيت، فلم يعفني، فكتبت الكتاب، ثم ختمته، وقال: والله! لا يمضي به غيرك، فمضيت به إلى «الربيع»، فدخلت عليه، ثم خرج، فقال للناس: إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد دُعيتُ إلى مجلس الحكم، فلا يقومَنَّ معي أحد، ثم جاء هو و«الربيع»، فلم يقم له القاضي، بل حَلَّ رداءه، واحتبى به، ثم دعا بالخصوم، فادَّعَوْا، فقضى لهم على الخليفة، فلما فرغ، قال له «المنصور»: جزاك الله عن دينك أحسن الجزاء، قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار.

وروى «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وأخرج محمد بن سلام الجمحي، قال: قيل للمنصور: هل بقي من لَذَّات الدنيا شيء لم تنله؟ قال: بقيت خصلة، أن أقعد في مصطبة، وحولي أصحاب الحديث.

يقول المستملي: من ذكرت رحمك الله، فغدا عليه الندماء وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر، فقال: لست بهم، إنما هم الدَّنِسَةُ ثيابهم، المشقَّقةُ أرجلهم، الطويلةُ شعورهم، بُرُدُ الآفاق، ونقلة الحديث.

وأخرج عن محمد بن سلام، قال: رأت جارية «المنصور» قميصه مرقوعاً، فقالت: خليفة وقميصه مرقوع! فقال: ويحك! أما سمعت قول «ابن هَرْمَة»:

قد يدرك الشرفَ الفتى ورداؤه ... خَلَقٌ وجيبُ قميصه مرقوعُ[٢]

وذكر «السيوطي»: روي أن «المنصور» أَلَحَّ عليه ذُباب، فطلب «مقاتل بن سليمان»، فسأله: لِمَ خلق الله الذباب؟ قال: لِيُذِلَّ به الجبارين[٣].

ومن كلام «المنصور»: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاث خلال: إفشاء

---

(١) العقد الفريد (٣/ ٢٠٠).
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٣٥.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص: ٢٣٧.

السر، والتعرض للحرم، والقدح في الملك، أسنده الصولي[١].

ووافت «أبا جعفر المنصور» المنية سنة ثمان وخمسين ومائة يوم السبت قبل يوم التروية بيوم واحد.

وأما نساء وأبناء «المنصور» فقد ذكرهم «أبو جعفر الطبري» في تاريخه، فقال: فمن ولده «المهدي» ـ واسمه محمد ـ، و«جعفر الأكبر» وأمهما «أروى بنت منصور «أخت» يزيد بن منصور الحميري، وكانت تكنى «أم موسى»، وهلك «جعفر» هذا قبل «المنصور».

و«سليمان» و«عيسى» و«يعقوب» وأمهم «فاطمة بنت محمد» من ولد «طلحة بن عبيد الله».

و«جعفر الأصغر» أمه أم ولد كردية، كان «المنصور» اشتراها فتَسَرَّاها، وكان يقال لابنها: ابن الكردية.

و«صالح المسكين» أمه أم ولد رومية، يقال لها: «قالي الفَرَّاشة».

و«القاسم» مات قبل «المنصور»، وهو ابن عشر سنين، وأمه أم ولد تعرف بِـ«أم القاسم»، ولها بباب الشام بستان يعرف إلى اليوم ببستان «أم القاسم». و«العالية» أمها امرأة من بني أمية، زوجها «المنصور» من «إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس».

وذكر عن «إسحاق بن سليمان» أنه قال: قال لي أبي: زوجتك يا بني أشرف الناس، «العالية» بنت أمير المؤمنين، قال: فقلت: يا أبتاه! مَنْ أكفاؤنا؟ قال: أعداؤنا من بني أمية[٢].

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٣٧.

(٢) تاريخ الطبري (٨/ ١٠٢).

٣ ــ المهــدي

وهو «محمد بن المنصور» أبي جعفر؛ عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عباس وأمه «أروى بنت منصور» الحميرية، وكنيتها «أم موسى».

ذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» في ترجمته للمهدي: وكان جواداً ممدحاً، مليح الشكل، محبباً إلى الرعية، حسن الاعتقاد، تتبَّع الزنادقة، وأفنى منهم خلقاً كثيراً، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين، روى الحديث عن أبيه، ثم تابع «السيوطي» قوله: ولما شب «المهدي» أمَّره أبوه على طبرستان وما والاها، وتأدَّب، وجالس العلماء، وتميَّز، ثم إن أباه عهد إليه، فلما مات بويع بالخلافة، ووصل الخبر إليه ببغداد، فخطب الناس، فقال: إن أمير المؤمنين عبد دُعِيَ فأجاب، وأمر فأطاع، واغرورقت عيناه، فقال: قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيماً، وقُلِّدتُ جسيماً، فعند الله أحتسب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين، أيها الناس! أسرُّوا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك، والله! لأُفْنِيَنَّ عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم.

قال «نفطويه»: لما حصلت الخزائن في يد «المهدي» أخذ في رد المظالم، فأخرج أكثر الذخائر ففرَّقها، وبر أهله ومواليه[1]، وفي سنة أربع وأربعين ومائة تزوج «المهدي» من «ريطة بنت أبي العباس» السفَّاح فأولدها «علياً» و«عبيد الله»، وكانت له جارية يقال لها: «رحيم»، ولدت له «العباسية»، وتزوج «أم عبد الله بنت صالح بن علي» أخت «الفضل» و«عبد الله». واشترى جارية تدعى «الخيزران» فولدت له ابنيه «الهادي» و«الرشيد» و«البانوقة»، وفي سنة تسع

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٠.

وخمسين ومائة أعتقها وتزوجها، ونالت عنده حظوة عظيمة، وتحولت من الرق إلى الملك، وأصلها من «جُرَش» في اليمن، وكانت امرأة خليفة هو «المهدي» وأم خليفتين هما «الهادي» و«الرشيد» وكانت إلى جانب جمالها الفريد، تتمتع بذكاء حاد مَهَّد لها دخول ميدان الأدب والشعر، وتتلمذت على الإمام «الأوزاعي» فنهلت من فقهه حتى أصبحت إحدى فقيهات نساء عصرها، مما حدا بالمهدي إلى تقديمها على جميع نسائه، وكانت مسموعة الكلمة عند زوجها «المهدي»، وكان لا يرد لها طلباً لشدة ولعه بها، وإذا غابت كان يراسلها ويتبادل معها الأشواق والأشعار، وقد استأذنته مرة للذهاب إلى الحج فأذن لها، وبينما هي في مكة، استوحش لها فأرسل إليها بهذه الأبيات:

نحن في غاية السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرورُ
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غُيَّب ونحن حُضُورُ
فأجِدُّوا في السير بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيرُوا

فردَّت على أبياته بهذه الأبيات:

قد أتانا الذي وصفت من الشو ... قِ فكدنا وما قَدَرنا نطيرُ
ليت أن الرياح كُنَّ يُؤدّيـ ... نَ إليكم ما قد يُكِنُّ الضميرُ
لم أزل صَبَّةً فإن كنت بعدي ... في سرور فدام ذاك السرورُ

وعلى الرغم من أن كلاً من «موسى الهادي» و«هارون الرشيد» ولداها إلا أنها كانت تميل إلى «الرشيد» أكثر، وكانت للمهدي ابنة تدعى «البانوقة» توفيت في حياته. واختلفت الروايات في وفاة المهدي، فقد أخرج «ابن جرير الطبري» في تاريخه: ذكر أن «المهدي» كان في آخر أمره قد غرم على تقديم «هارون» ابنه، على ابنه «موسى الهادي»، وبعث إليه وهو بجُرجان بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة، ويقدم «الرشيد» فلم يفعل، فبعث إليه «المهدي» بعض الموالي، فامتنع عليه «موسى» من القدوم، وضرب الرسول فخرج «المهدي» بسبب «موسى» وهو يريده بجُرْجان، فأصابه ما أصابه.

وذكر «الباهلي» أن «أبا شاكر» أخبره ـ وكان من كُتَّاب «المهدي» على بعض دواوينه ـ قال: سأل «علي بن يقطين» «المهدي» أن يتغدَّى عنده، فوعده أن يفعل، ثم اعتزم على إتيان «ماسَبَذان»؛ فوالله! لقد أمر بالرحيل كأنه يُساق إليها

سوقاً، فقال له «علي»: يا أمير المؤمنين! إنك قد وعدتني أن تتغدَّى عندي غداً، قال: فَاحْمِلْ غداءك إلى «النهروان»، قال: فحمله فتغدَّى بالنهروان، ثم انطلق، وفيها توفي «المهدي».

وقال ابن جرير: عن واضح قهرمان «المهدي»، قال: خرج «المهدي» يتصيَّد بقرية يقال لها الردُّ بماسَبَذَان، فلم أزل معه إلى بعد العصر.

وانصرفت إلى مضربي ـ وكان بعيداً من مضربه ـ فلما كان في السحر الأكبر، ركبت لإقامة الوظائف، فإني لأسير في برية، قد انفردت عمن كان معي من غلماني وأصحابي؛ إذ لقيني أسود عريان على قَتَدَ رَحْل، فدنا مني، ثمّ قال لي: أبا سهل!، عظَّم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين، فهممت أن أعلوه بالسوط، فغاب من بين يديَّ، فلما انتهيت إلى الرواق لقيني «مسرور» فقال لي: أبا سهل! عظَّم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين، فدخلت فإذا أنا به مسجًّى في قبة، فقلت: فارقتكم بعد صلاة العصر، وهو أَسَرُّ ما كان حالاً وأصحه بدناً، فما كان الخبر؟

قال: طردت الكلاب خلفه، واقتحم الفرس خلف الكلاب، فَدُقَّ ظهره في باب الخربة، فمات من ساعته.

وذكر أن «علي بن أبي نعيم المروزي»، قال: بعثت جارية من جواري «المهدي» إلى ضَرَّة لها بلَبَإٍ فيه سم ـ اللبأ: أول اللبن ـ وهو قاعد في البستان، بعد خروجه من عيساباذ، فدعا به فأكل منه، فَفَرِقَتِ الجارية أن تقول له: إنه مسموم. وحدثني أحمد بن محمد الرازي أن «المهدي» كان جالساً في عُلِّيَّة في مَصر بماسَبَذان، يشرف من منظرة فيها على سفله، وكانت جاريته «حسنة» قد عمدت إلى كمثراتين كبيرتين، فجعلتهما في صينية، وسَمَّتْ واحدة منهما، وهي أحسنهما وأنضجهما في أسفلها، وردت القمع فيها، ووضعتها في أعلى الصينية ـ وكان «المهدي» يعجبه الكمثري ـ وأرسلت بذلك مع وصيفة لها إلى جارية للمهدي ـ وكان يتحظَّاها ـ تريد بذلك قتلها، فمرت الوصيفة بالصينية التي فيها تلك الكمثري، تريد دفعها إلى الجارية التي أرسلتها «حسنة» إليها، بحيث يراها «المهدي» من المنظرة، فلما رآها ورأى معها الكمثري، دعا بها، فمد يده إلى

الكمثراة التي في أعلى الصينية، وهي المسمومة فأكلها، فلما وصلت إلى جوفه صرخ: جوفي، وسمعت «حسنة» الصوت، وأخبرت الخبر، فجاءت تلطُم وجهها وتبكي، وتقول: أردتُ أن أنفرد بك، فقتلتُك يا سيدي! فهلك من يومه.

وذكر «عبد الله بن إسماعيل» صاحب المراكب، قال: لما صرنا إلى ماسَبَذان دنوتُ إلى عنانه فأمسكت به، وما به علة؛ فوالله! ما أصبح إلا ميتاً، فرأيت «حسنة» وقد رجعت؛ وإن على قبتها المُسُوح، فقال «أبو العتاهية» في ذلك:

رُحْنَ في الوَشْيِ وأصبَحْـ ... ـنَ عليهن المُسُوحُ
كل نطَّاح من الدَّهْـ ... ـرِ له يوم نَطُوحُ
لستَ بالباقي ولو عُمِّـ ... ـرْتَ ما عُمِّرَ نُوحُ
فعلى نفسك نُحْ إن ... كنت لا بد تَنُوحُ

وذكر «صالح القارىء» أن «علي بن يقطين»، قال: كنا مع «المهدي» بماسَبَذَان، فأصبح يوماً، فقال: إني أصبحتُ جائعاً، فأُتي بأرغفة ولحم بارد مطبوخ بالخل، فأكل منه، ثم قال: إني داخل إلى البَهْوِ ونائم فيه، فلا تنبهوني حتى أكون أنا الذي أنتبه، ودخل البهو فنام، ونمنا نحن في الدار في الرواق، فانتبهنا ببكائه، فقمنا إليه مسرعين، فقال: أما رأيتم ما رأيت؟ قلنا: ما رأينا شيئاً، قال: وقف على الباب رجل، لو كان في ألف أو في مائة ألف رجل ما خَفِيَ عليَّ، فأنشد يقول:

كأني بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه ربعه ومنازلُهْ
وصار عميد القوم من بعد بهجةٍ ... ومُلْكٍ إلى قبر عليه جنادلُهْ
فلم يبقَ إلا ذكره وحديثه ... تنادي عليه مُعْوِلاتٍ حلائلُهْ

قالت: فما أتت عاشرة حتى مات، وكانت وفاته ـ فيما قال أبو معشر والواقدي ـ في سنة تسع وستين ومائة ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم[١].

---

(١) تاريخ الطبري (٨/ ١٦٨ ـ ١٧١).

٤ ـ موسى الهادي وأمهات أولاده

«موسى بن محمد المهدي بن المنصور» وأمه «الخيزران بنت عطاء» وأخوه لأمه وأبيه «هارون الرشيد»، ويكنى «أبا محمد»، ولد بالري سنة سبع وأربعين ومائة، وبويع له بالخلافة إثر وفاة أبيه «المهدي» وبعهد منه.

ونقل «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: قال الخطيب: ولم يل الخلافة قبله أحد في سنه، فأقام فيها سنة وشهراً، وكان أبوه أوصاه بقتل الزنادقة، فَجَدَّ في أمرهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وكان يسمى «موسى أطْبِقْ» لأن شفته العليا كانت تقلص، فكان أبوه وكَّل به في صغره خادماً كلما رآه مفتوح الفم قال: «موسى أطبِقْ»، فيضيق على نفسه، ويضم شفتيه، فَشُهِر بذلك.

قال الذهبي: وكان يتناول المسكر، ويلعب، ويركب حماراً فارهاً، ولا يقيم أبهة الخلافة، وكان مع ذلك فصيحاً، قادراً على الكلام، أديباً تعلوه هيبة، وله سطوة وشهامة.

وقال غيره: كان جباراً، وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المُرْهَفَة، والأعمدة، والقسي المُوتَرة، فاتَّبعه عماله في ذلك، وكثر السلاح في عصره[1]. ومن أخباره، أخرج الخطيب، عن الفضل، قال: غضب «الهادي» على رجل، فكلم فيه، فرضي، فطهب يعتذر، فقال له «الهادي» إن الرضا قد كفاك مؤونة الاعتذار.

وعن عبد الله بن مصعب، قال: دخل «مروان بن أبي حفصة» على «الهادي»، فأنشده مديحاً له، حتى إذا بلغ قوله:

تشابه يوماً بأسه ونواله ... فما أحد يدري لأيهما الفضل

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٦.

فقال له «الهادي»: أيُّما أحب إليك ثلاثون ألف مُعَجَّلة، أو مائة ألف تدور في الديوان؟ قال: تُعَجِّل الثلاثون ألفاً، وتدور المائة ألف، قال: بل تعجَّلان لك جميعاً، فحُمِلَ له ذلك[(١)].

وكان «الهادي» قد اتخذ عدداً من أمهات الأولاد، وقد ذكر «ابن جرير» في تاريخه: وكان له من الأولاد تسعة؛ سبعة ذكور وابنتان، فأما الذكور فأحدهم «جعفر» ـ وهو الذي كان يرشحه للخلافة ـ و«العباس» و«عبد الله» و«إسحاق» و«إسماعيل» و«سليمان» و«موسى بن موسى» الأعمى؛ كلهم من أمهات أولاد.

وكان الأعمى ـ وهو «موسى» ـ ولد بعد موت أبيه، والابنتان إحداهما «أم عيسى» كانت عند «المأمون»؛ والأخرى «أم العباس بنت موسى»، تلقب «نُونة»[(٢)].

وفي «العقد الفريد»: تزوج «أمة العزيز» فأولدها «عيسى»، ثم «رحيم» فأولدها «جعفراً» ثم «سعوف» فأولدها «العباس»[(٣)].

وكانت أمه «الخيزران» تتدخَّل في شؤون عمله، وتفرض رأيها عليه، كما كان حالها أيام والده «المهدي»، وكان «الهادي» يلبي لها جميع مطالبها، ولما أراد «الهادي» أن يقصي أخاه «الرشيد» عن ولاية العهد ويجعلها لابنه «جعفر» عارضته أمه «الخيزران» فاستفحل الشر بينهما، وبات لا يقضي لها حاجاتها ومطالبها، وفكَّر كل منهما بالتخلص من الآخر، فأي ملك هذا الذي يغري الأم بقتل ابنها، والابن بالتخلص من أمه؟

قال «ابن جرير الطبري» في تاريخه: عن يحيى بن الحسن؛ إن «الهادي» نابذ أمه ونافرها، لما صارت إليه الخلافة، فصارت «خالصةُ» إليه يوماً، فقالت: إن أمك تستكسيك، فأمر لها بخزانة مملوءة كسوة، قال: ووجد للخيزران في منزلها من قراقر الوَشي ثمانية عشر ألف قرقر ـ من لباس المرأة ـ.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٧.
(٢) تاريخ الطبري (٨/ ٢١٤).
(٣) العقد الفريد (٥/ ١١٦).

قال: وكانت «الخيزران» في أول خلافة «موسى» تفتات عليه في أموره - أي: تنفرد وتستبدُّ -، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألَّا تخرجي من خفَر الكفاية إلى بَذَاذة التبذُّل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر المُلْك، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتُّلِك، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك.

قال: وكانت «الخيزران» في خلافة «موسى» كثيراً ما تكلمه في الحوائج، فكان يجيبها إلى كل ما تسأله، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته، وانْثَالَ الناس عليها، وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها؛ قال: فكلَّمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً، فاعتلَّ بعلة، فقالت: لا بد من إجابتي، قال: لا أفعل، قالت: وإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، قال: فغضب «موسى» وقال: ويل على ابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها، والله! لاَ قَضَيْتُها لك، قالت: إذاً، والله! لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذاً، والله! لا أبالي، وحمي وغضب، فقامت مُغْضَبَة، فقال: مكانك تستوعي كلامي، والله! وإلَّا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله ﷺ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي، أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربَنَّ عنقه، ولأقبِضَنَّ ماله؛ فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مِغْزَلٌ يشغلك، أو مصحفٌ يُذكرك، أو بيتٌ يصُونك؟ إياك، ثم إياك، ما فتحت بابك لِمِلِّيٍّ أو لذِمِّيٍّ، فانصرفت ما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلوة ولا مُرَّة بعدها.

قال يحيى بن الحسن: وحدثني أبي، قال: سمعت «خالصة» تقول للعباس بن الفضل بن الربيع: بعث «موسى» إلى أمه «الخيزران» بأرزَّة، وقال: استطبتُها فأكلتُ منها، فكلي منها.

قالت «خالصة»: فقلت لها: أمسكي حتى تنظري، فإني أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه، فجاءوا بكلب فأكل منها، فتساقط لحمه؛ فأرسل إليها بعد ذلك: كيف رأيتِ الأرزَّة؟ فقالت: وجدتُها طيبة، فقال: لم تأكلي، ولو أكلتِ لكنتُ قد استرحتُ منك، متى أفلح خليفة له أم؟

قال: وحدثني بعض الهاشميين، أن سبب موت «الهادي» كان أنه لمَّا جَدَّ في خلع «هارون» والبيعة لابنه «جعفر»، وخافت «الخيزران» على «هارون» منه، دسَّت إليه من جواريها لمَّا مرض مَنْ قتله بالغم والجلوس على وجهه، ووجهت إلى «يحيى بن خالد»: إن الرجل قد تُوُفِّي، فاجْدُدْ في أمرك ولا تقصِّر.

وذكر محمد بن عبد الرحمٰن بن بشار أن «الفضل بن سعيد» حدثه، عن أبيه، قال: كان يتصل بموسى وصول القواد إلى أمه «الخيزران» يؤملون بكلامها في قضاء حوائجهم عنه، قال: وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلبت على أمر المهدي؛ فكان يمنعها من ذلك، ويقول: ما للنساء والكلام في أمر الرجال؟ فلما كثر عليه مصير من يصير إليها من قواده، قال يوماً وقد جمعهم: أيُّما خير؟ أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين!

قال: فأيما خير، أمي أو أمهاتكم؟ قالوا: بل أمك، يا أمير المؤمنين، قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقولوا: فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحد منا يحب ذلك، قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها أَلْبَتَّةَ، فشَقَّ عليها ذلك فاعتزلته، وحلفت ألَّا تكلمه؛ فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة.

وكان السبب في إرادة «موسى الهادي» خلع أخيه «هارون» حتى اشتد عليه في ذلك وجَدَّ ـ فيما ذكر «صالح بن سليمان» ـ أن «الهادي» لما أفضت إليه الخلافة أقرَّ «يحيى بن خالد» على ما كان يلي «هارون» من عمل المغرب؛ فأراد «الهادي» خلع «هارون الرشيد» والبيعة لابنه «جعفر بن موسى الهادي»، وتابعه على ذلك القواد، منهم «يزيد بن مزيد» و«عبد الله بن مالك» و«علي بن عيسى» ومن أشبههم، فخلعوا «هارون»، وبايعوا لجعفر بن موسى، ودسُّوا إلى الشيعة، فتكلموا في أمره، وتنقَّصوه في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى ظهر، وأمر «الهادي» ألَّا يُسَارَ قُدَّام «الرشيد» بِحَرْبَة، فاجتنبه الناس وتركوه، فلم يكن أحد يجترئ أن يسلِّم عليه ولا يقربه.

وكان «يحيى بن خالد» يقوم بإنزال «الرشيد» ولا يفارقه هو وولده ـ فيما

ذكر ـ قال «صالح» وكان «إسماعيل بن صبيح» كاتب «يحيى بن خالد»، فأحب أن يضعه موضعاً يستعلم له فيه الأخبار، وكان «إبراهيم الحَرَّاني» في موضع الوزارة لموسى، فاستكتب «إسماعيل»، ورفع الخبر إلى «الهادي»، وبلغ ذلك «يحيى بن خالد» فأمر «إسماعيل» أن يشخص إلى حرَّان، فسار إليها، فلما كان بعد أشهر، سأل «الهادي»، «إبراهيم الحراني»: مَنْ كاتبُك؟ قال: فلان كاتب، وسَمَّاه، فقال: أليس بلغني أن «إسماعيل بن صُبَيْح» كاتبك؟ قال: باطل، يا أمير المؤمنين «إسماعيل» بحرَّان.

قال: وسُعي إلى «الهادي» بيحيى بن خالد، وقيل له: إنه ليس عليك من «هارون» خلاف، وإنما يفسده «يحيى بن خالد» فابعث إلى «يحيى» وتهدده بالقتل، ارمه بالكفر؛ فأغضب ذلك «موسى الهادي» على «يحيى بن خالد».

وذكر «أبو حفص الكرماني» أن «محمد بن يحيى بن خالد» حدثه، قال: بعث «الهادي» إلى «يحيى» ليلاً، فأيس من نفسه، وودَّع أهله، وتحنَّط، وجدَّد ثيابه، ولم يشك أنه يقتله، فلما أدخل عليه، قال: يا يحيى! ما لي ولك؟ قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين! فما يكون من العبد إلى مولاه إلَّا طاعتُه، قال: فلِمَ تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليَّ؟ قال: يا أمير المؤمنين! من أنا حتى أدخل بينكما؟ إنما صيَّرني «المهدي» معه، وأمرني بالقيام بأمره، فقمت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك، فانتهيتُ إلى أمرك.

قال: فما الذي صنع «هارون؟» قال: ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده، قال: فسكن غضبه، وقد كان «هارون» طَابَ نفساً بالخلع، فقال له «يحيى»: لا تفعل، فقال: أليس يترك الهنيء والمريء، فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي؟ وكان «هارون» يجد بأم جعفر وجداً شديداً، فقال له «يحيى»: وأين هذا من الخلافة؟ ولعلك أن يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع؛ ومنعه من الإجابة.

قال الكرماني: فحدثني صالح بن سليمان، قال: بعث «الهادي» إلى «يحيى بن خالد» وهو بعيساباذ ليلاً، فراغه ذلك، فدخل عليه وهو في خَلْوة، فأُمِرَ بطلب رجل كان أخافه، فتغيَّب عنه، وكان «الهادي» يريد أن ينادمه، ويمنعه

مكانه من «هارون» فنادمه وكلمه «يحيى» فيه، فآمنه وأعطاه خاتم ياقوت أحمر في يده، وقال: هذا أمانه، وخرج «يحيى» فطلب الرجل، وأتى «الهادي» فسُرَّ بذلك. قال: وحدثني غير واحد أن الرجل الذي طلبه كان «إبراهيم الموصلي».

قال «صالح بن سليمان»: قال «الهادي» يوماً للربيع: لا يدخل عليَّ «يحيى بن خالد» إلَّا تأخر الناس، قال: فبعث إليه «الربيع»، وتفرَّغ له، قال: فلما جلس من غدٍ، أذن حتى لم يبقَ أحد، ودخل عليه «يحيى» وعنده «عبد الصمد بن علي» و«العباس بن محمد»، وجِلَّةُ أهله وقواده، فما زال يدنيه حتى أجلسه بين يديه، وقال له: إني كنت أظلمك وأكفرك، فاجعلني في حِلٍّ، فتعجب الناس من إكرامه إياه، وقوله، فقبل «يحيى» يده وشكر له، فقال له «الهادي»: مَنِ الذي يقول فيك يا يحيى:

لو يَمَسُّ البخيل راحة يحيى   لسَخَت نفسُه ببذل النوال

قال: تلك راحتك يا أمير المؤمنين! لا راحة عبدك.

قال: وقال «يحيى» للهادي في خلع «الرشيد» لما كلمه فيه: يا أمير المؤمنين! إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك، ثم بايعت لجعفر من بعده، كان ذلك أوكد لبيعته، فقال: صدقت ونصحت؛ ولي في هذا تدبير.

ثم قال «أبو جعفر الطبري»:

قال الكرماني: فحدثني «يزيد» مولى «يحيى بن خالد»، قال: بعثت «الخيزران»، «عاتكة» ـ ظئراً كانت لهارون ـ، إلى «يحيى»، فشقَّت جيبها بين يديه، وتبكي إليه وتقول له: قالت لك السيدة: الله الله في ابني لا تقتله، ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله ويريده منه، فبقاؤه أحب إليَّ من الدنيا بِجُمْع ما فيها، قال: فصاح بها، وقال لها: وما أنت وهذا؟ إن يكن ما تقولين فإني وولدي وأهلي سنُقْتَل قبله، فإن اتُّهِمْتُ عليه، فلست بمتَّهم على نفسي ولا عليهم، قال: ولما لم ير «الهادي»، «يحيى بن خالد» يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من إكرام وإقطاع وصلة، بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكفَّ عنه.

قال: فلم تزل تلك الحال من الخوف والخطر، وماتت «أم يحيى» وهو في «الخلد» ببغداد، لأن «هارون» كان ينزل «الخلد»، و«يحيى» معه، وهو ولي العهد، نازل في داره، يلقاه في ليله ونهاره.

وذكر «محمد بن القاسم بن الربيع»، قال: أخبرني محمد بن عمرو الرومي، قال: حدثني أبي، قال: جلس «موسى الهادي» بعدما ملك في أول خلافته جلوساً خاصاً، ودعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر، و«إبراهيم بن سالم بن قتيبة والحَرَّاني»، فجلسوا عن يساره، ومعهم خادم له أسود يقال له: «أسلم»، ويكنَّى «أبا سليمان» وكان يثق به ويقدمه، فبينا هو كذلك، إذ دخل «صالح» صاحب المصلَّى، فقال: «هارون بن المهدي» فقال: ائذن له، فدخل فسلَّم عليه، وقبَّل يديه، وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية، فأطرق «موسى» ينظر إليه، وأدمن ذلك، ثم التفت إليه، فقال: يا هارون! كأني بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا، وتؤمل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خَرْط العَتَّاد ـ يضرب للشيء لا ينال إلا بمشقة عظيمة ـ تؤمّل الخلافة؟ قال: فبرك «هارون» على ركبتيه، وقال: يا موسى! إنك إن تجبَّرت وَضُعْتَ، وإن تواضعت رُفِعْتَ، وإن ظلمتَ خُتِلْتَ، وإني لأرجو أن يفضي الأمر إليَّ، فأُنصِفَ من ظلمتَ، وأصل من قطعت، وأُصيِّر أولادك أعلى من أولادي، وأزوجهم بناتي، وأبلغ ما يجب من حق الإمام «المهدي».

قال: فقال «موسى»: ذلك الظن بك، يا أبا جعفر! ادْنُ مني، فدنا منه، فقبَّل يديه، ثم ذهب يعود إلى مجلسه، فقال له: لا، والشيخ الجليل، والملك النبيل ـ أعني أباك «المنصور» ـ لا جلست إلَّا معي، وأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال: يا حرَّاني! احمل إلى أخي ألف ألف دينار؛ وإن افْتُتِحَ الخراج فاحمل إليه النصف منه، واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا، وما أخذ من أهل بيت اللعنة، فيأخذ جميع ما أراد، قال: ففعل ذلك.

ولما قام قال لصالح: ادن دابته إلى البساط، قال «عمرو الرومي»: وكان «هارون» يأنس بي، فقمت إليه فقلت: يا سيدي! ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين؟ قال: قال «المهدي»: أُريتُ في منامي كأني دفعتُ إلى «موسى» قضيباً،

وإلى «هارون» قضيباً، فأورق من قضيب «موسى» أعلاه قليلاً، فأما «هارون» فأورق قضيبه من أوله إلى آخره، فدعا «المهدي» الحاكم بن موسى الضمريَّ ـ وكان يكنى أبا سفيان ـ فقال له: عَبِّرْ هذه الرؤيا، فقال: يملكان جميعاً، فأما «موسى» فتقل أيامه، وأما «هارون» فيبلغ مدى ما عاش خليفته، وتكون أيامه أحسن أيام، ودهره أحسن دهر، قال: ولم يلبث إلّا أياماً يسيرة، ثم اعتلَّ «موسى» ومات، وكانت علته ثلاثة أيام.

قال «عمرو الرومي»: أفضت الخلافة إلى «هارون»، فزوج «حمدونة» من «جعفر بن موسى» و«فاطمة» من «إسماعيل بن موسى» ووفَّى بكل ما قال، وكان دهره أحسن الدهور.

وذكر أن «الهادي» كان قد خرج إلى الحديثة ـ حديثة الموصل ـ فمرض بها، واشتد مرضه، فانصرف، فذكر «عمرو اليشكري» ـ وكان في الخدم ـ قال: انصرف «الهادي» من الحديثة بعدما كتب إلى جميع عماله شرقاً وغرباً بالقدوم عليه، فلما ثقل اجتمع القوم الذين كانوا بايعوا لجعفر ابنه، فقالوا: إن صار الأمر إلى «يحيى» قَتَلَنا ولم يَسْتَبْقِنَا، فتآمروا على أن يذهب بعضهم إلى «يحيى» بأمر «الهادي» فيضرب عنقه، ثم قالوا: لعل أمير المؤمنين يفيق من مرضه، فما عذرنا عنده؟ فأمسكوا.

ثم بعثت «الخيزران» إلى «يحيى» تعلمه أن الرجل لمآبه، وتأمره بالاستعداد لما ينبغي؛ وكانت المستولية على أمر «الرشيد» وتدبير الخلافة إلى أن هلك، فأُحْضِر الكتابُ، وجُمِعُوا في منزل «الفضل بن يحيى»، فكتبوا لليلتهم كتباً من «الرشيد» إلى العمال بوفاة «الهادي»، وأنهم قد وَلَّاهم «الرشيد» ما كانوا يلُون، فلما مات «الهادي» أنفذوها على البُرُد.

وذكر «الفضل بن سعيد»، أن أباه حدثه أن «الخيزران» كانت قد حلفت أَلَّا تكلِّم «موسى الهادي»، وانتقلت عنه، فلما حضرته الوفاة، وأتاها الرسول فأخبرها بذلك، فقالت: وما أصنع به؟ فقالت لها «خالصة»: قومي إلى ابنك أيتها الحرة! فليس هذا وقت تعتُّب ولا تغضُّب. فقالت: أعطوني ماء أتوضأ للصلاة، ثم قالت: أَمَا إنا كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة، ويملك خليفة، ويولد

خليفة، قال: فمات «موسى»، وملك «هارون»، وولد «المأمون».

قال «الفضل»: فحدثت بهذا الحديث «عبد الله بن عبيد الله»، فساقه لي مثل ما حدثنيه أبي، فقلت: فمن أين كان للخيزران هذا العلم؟ قال: إنها كانت قد سمعت من «الأوزاعي».

ذكر «يحيى بن الحسن» أن «محمد بن سليمان بن علي» حدثه، قال: حدثتني عمتي «زينب بِنْتُ سليمان»، قالت: لما مات «موسى» بعيساباذ، أخبرتنا «الخيزران» الخبر، ونحن أربع نسوة، أنا وأختي و«أم الحسن» و«عائشة»، بُنَيَّات «سليمان»، ومعنا «ريطة أم علي»، فجاءت «خالصة»، فقالت لها: ما فعل الناس؟ قالت: يا سيدتي مات «موسى» ودفنوه، قالت: إن كان مات «موسى» فقد بقي «هارون»، هات لي سويقاً، فجاءت بسويق، فشربت وسقتنا، ثم قالت: هات لساداتي أربعمائة ألف دينار، ثم قالت: ما فعل ابني «هارون؟».

قالت: حلف ألَّا يصلي الظهر إِلَّا ببغداد، قالت: هاتوا الرحائل، فما جلوسي ههُنا، وقد مضى؟ فلحقته ببغداد[1].

ولما كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة، وافى «الخيرزانَ» أجلُها فخرج ابنها أمير المؤمنين «هارون الرشيد» في جنازتها، وقد أخذ بقائمة سريرها، وكان يعدو حافياً في الطين، فلما بلغوا بها مقابر قريش، غسل رجليه، ثم دعا بخف وصلى عليها، ودخل قبرها، وأفل نجم «الخيزران» امرأة الخليفة «المهدي» وأم الخليفتين «موسى» و«هارون».

---

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٢٠٥ ـ ٢١٣).

٥ ـ أزواج هارون الرشيد

قال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: «الرشيد»: «هارون؛ أبو جعفر بن المهدي بن محمد بن المنصور بن عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن العباس» استخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه «الهادي» ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة.

قال الصولي: هذه الليلة، ولد له فيها «عبد الله المأمون» ولم يكن في سائر الزمان ليلة مات فيها خليفة، وقام خليفة، وولد خليفة، إلا هذه الليلة، وكان يكنى «أبا موسى» فتكنى بأبي جعفر، حدث عن أبيه وجده، و«مبارك بن فضالة»، وروى عنه ابنه «المأمون» وغيره، وكان من أمْيَز الخلفاء، وأجلّ ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج، كما قال فيه «أبو المعالي الكلابي»:

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغورِ
ففي أرض العدو على طِمِرٍّ وفي أرض الترفه فوق كورِ

مولده بالري، حين كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان ـ وفي سنة ثمان وأربعين ومائة. وأمه أم ولد، تسمى «الخيزران»، وهي أم «الهادي» وفيها يقول «مروان بن أبي حفصة»:

يا خيزران هَنَاكِ ثم هَنَاكِ أمسى يسوس العالمين ابناك

وكان أبيض، طويلاً، جميلاً، مليحاً، فصيحاً، له نظر في العلم والأدب، وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات، لا يتركها إلا لعلة، ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم.

وكان يحب العلم وأهله، ويعظم حرمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين، والكلام في معارضة النص.

ثم قال «السيوطي»: وكان يبكي على نفسه، وعلى إسرافه وذنوبه، سيَّما إذا

وعظ، وكان يحب المديح، ويجيز عليه الأموال الجزيلة، وله شعر(١).

وكان كثير الإجلال للعلم والعلماء، فكان يأتي «الفُضَيْل بن عياض» بنفسه إلى بيته، وكان جَمَّ التواضع.

وهذا «أبو معاوية» الضرير، يروي لنا ما جرى بينه وبين «هارون»، يقول «أبو معاوية»: أكلت مع «الرشيد» يوماً، ثم صَبَّ على يدي رجل لا أعرفه، ثم قال «الرشيد»: أتدري من يصب عليك؟ قلت: لا، قال: أنا، إجلالاً للعلم.

وقد نزع الله تعالى من قلبه المهابة لأعداء الله الذين يعتدون على بلاد المسلمين، ويتربصون بأهلها الشر والأذى، يقول «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وفي سنة سبع وثمانية ومائة أتاه كتاب من ملك الروم «نقفور» بنقض الهدنة التي كانت عقدت بين المسلمين وبين الملكة «ريني» ملكة الروم.

وصورة الكتاب: من «نقفور» ملك الروم إلى «هارون» ملك العرب: أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي كانت أقامتك مقام الرُّخِّ، وأقامت نفسها مقام البيذق، فحملت إليك من أموالها أحمالاً، وذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي، فاردد ما حصل قِبَلَك من أموالها، وإلَّا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ «الرشيد» الكتاب استشاط غضباً حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إلى وجهه، دون أن يخاطبه، وتفرَّق جلساؤه من الخوف، واستعجم الرأي على الوزير، فدعا «الرشيد» بدواة، وكتب على ظهر كتابه:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم من «هارون» أمير المؤمنين، إلى «نقفور» كلب الروم. قد قرأت كتابك يابن الكافرة! والجواب ما تراه لا ما تسمعه».

ثم سار ليومه، فلم يزل حتى نزل مدينة «هرقل»، وكانت غزوة مشهورة، وفتحاً مبيناً، فطلب «نقفور» الموادعة، والتزم بخراج يحمله كل سنة، فأجيب، فلما رجع «الرشيد» إلى الرقة، نقض الكلب العهد لإياسه من كرّة «الرشيد» في البرد، فلم يجترىء أحد أن يبلغ «الرشيد» نقضه، بل قال «عبد الله بن يوسف» التيمي:

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدورُ
أبشر أمير المؤمنين فإنه غُنْمٌ أتاك به الإلٰه كبيرُ

وقال «أبو العتاهية» أبياتاً، وعرضت على «الرشيد» فقال: أو قد فعلها؟ فكرَّ راجعاً في مشقة شديدة حتى أناخ بفِنائه، فلم يبرحْ حتى بلغ مراده، وحاز جهاده، وفي ذلك يقول «أبو العتاهية»:

ألا نادت هرقلة بالخرابِ من الملك الموفق للصوابِ
غداً هارون يرعد بالمنايا ويبرق بالمذكَّرة القضابِ
ورايات يحل النصر فيها تمر كأنها قطع السحابِ

وفي سنة تسع وثمانين ومائة، فادى الرومَ، حتى لم يبق بممالكهم في الأسر مسلم، وفي سنة تسعين ومائة فتح «هرقلة»، وبثَّ جيوشه بأرض الروم، فافتتح «شراحيل بن معن بن زائدة» حصن الصقالبة، وافتتح «يزيد بن مخلد» ملقونية، وسار «حميد بن معيوف» إلى قبرص، فهدم وحرق، وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً.

وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة، توجَّه «الرشيد» نحو خراسان، فذكر «محمد بن الصباح الطبري»؛ أن أباه شيَّع «الرشيد» إلى النهروان، فجعل يحادثه في الطريق إلى أن قال: يا صباح! لا أحسبك تراني بعدها، فقلت: بل يردك الله سالماً، ثم قال: ولا أحسبك تدري ما أجِدُ، فقلت: لا، والله! فقال: تعال حتى أريك، وانحرف عن الطريق، وأومأ إلى الخواص فتنحَّوْا، ثم قال: أمانة الله، يا صباح أن تكتم عليَّ، وكشف عن بطنه، فإذا عصابة حرير حوالي بطنه، فقال: هذه علة أكتمها الناس كلهم، ولكل واحد من ولدي عليَّ رقيب، فمسرور رقيب «المأمون» و«جبريل بن بَخْتيشُوع» رقيب «الأمين»، ونسيت الثالث.

ما منهم من أحد إلَّا ويحصي عليَّ أنفاسي، ويعدُّ أيامي، ويستطيل دهري، فإن أردت أن تعرف ذلك، فالساعة أدعو ببرذون، فيجيئون به أعجف ليزيد في علتي، ثم دعا ببرذون، فجاءوا به كما وصف، فنظر إليَّ، ثم ركبه، وودعني، وسار إلى جرجان، ثم رحل منها في صفر سنة ثلاث وتسعين ومائة، وهو عليل إلى طوس، فلم يزل بها إلى أن مات.

وكان «الرشيد» بايع بولاية العهد لابنه «محمد» في سنة خمس وسبعين ومائة، ولقبه «الأمين»، وله يومئذ خمس سنين، لحرص أمه «زبيدة» على ذلك.

قال الذهبي: فكان هذا أول وَهْن جرى في دولة الإسلام من حيث الإمامة، ثم بايع لابنه «عبد الله» من بعد «الأمين» في سنة اثنتين وثمانين، ولقبه «المأمون»، وولاه ممالك خراسان بأسرها، ثم بايع لابنه «القاسم» من بعد الأخوين في سنة ست وثمانين ومائة، ولقبه «المؤتمن»، وولّاه الجزيرة والثغور، وهو صبي، فلما قسَّم الدنيا من هؤلاء الثلاثة، قال بعض العقلاء: لقد ألقى بأسهم بينهم، وغائلة ذلك نفر بالرعية، وقالت الشعراء في البيعة المدائح، ثم إنه علَّق نسخة البيعة في البيت العتيق، وفي ذلك يقول «إبراهيم الموصلي»:

خير الأمور مغبة وأحق أمرٍ بالتمام
أمر قضى إحكامه الرحمن في البيت الحرام

وقال «عبد الملك بن صالح» في ذلك:

حب الخليفة حب لا يدين له عاصي الإله وشارٍ يُلْقِحُ الفِتَنَا
الله قلَّد هاروناً سياسته لما اصطفاه فأحيا الدين والسُّنَنَا
وقلَّد الأرضَ هارون لرأفته بنا أميناً ومأموناً ومُؤتَمَنا

قال بعضهم: وقد منع الرشيد الخلافة عن ولده المعتصم لكونه أمياً، فساقها الله إليه، وجعل الخلفاء بعده كلهم من ذريته، ولم يجعل من نسل غيره من أولاد «الرشيد» خليفة[1].

وكان للرشيد خاتمان، نقش على أحدهما «لا إله إلا الله» وخاتم آخر نقش عليه «كن من الله على حذر».

وذكر «ابن جرير الطبري» في تاريخه نساء «الرشيد» وأولاده، فقال: قيل إنه ـ تزوج «زبيدة» وهي «أم جعفر بنت جعفر بن المنصور» وأعرس بها في سنة خمس وستين ومائة، في خلافة «المهدي» ببغداد، في دار «محمد بن سليمان» ـ التي صارت بعد للعباسة، ثم صارت للمعتصم بالله ـ فولدت له «محمداً الأمين»

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٥٣ ـ ٢٥٥.

وماتت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين.

- وتزوج «أمة العزيز» أم ولد موسى، فولدت له «علي بن الرشيد».

- وتزوج «أم محمد بنة صالح المسكين» وأعرس بها في الرقّة في ذي الحجة، سنة سبع وثمانين ومائة، وأمها «أم عبد الله بَنَة عيسى بن عليّ» صاحبة دار «أم عبد الله» بالكرخ التي فيها أصحاب الدبس، كانت أملكت من «إبراهيم بن المهدي» ثم خلعت منه، فتزوجها «الرشيد».

- وتزوج «العباسة بَنَة سليمان بن أبي جعفر» وأعرس بها في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ومائة، حملت هي و«أم محمد بَنَة صالح» إليه.

- وتزوج «عزيزة بَنَة الغطريف» وكانت قبله عند «سليمان بن أبي جعفر» فطلَّقها، فخلف عليها «الرشيد»، وهي ابنة أخي «الخيزران».

- وتزوج الجُرَشية العثمانية، وهي ابنة «عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان»، وسميت الجُرَشية لأنها ولدت بجُرَش باليمن، وجدة أبيها «فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب»، وعم أبيها «عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب» ﷺ.

ومات «الرشيد» عن أربع مهائر: «أم جعفر» و«أم محمد بَنَة صالح» و«عباسة ابنة سليمان» و«العثمانية».

وولد للرشيد من الرجال: «محمد الأكبر»، وأمه «زبيدة»، و«عبد الله المأمون» وأمه أم ولد يقال لها: «مَرَاجل»، و«القاسم المؤتمن» وأمه أم ولد، يقال لها: «قَصِف» و«محمد أبو إسحاق المعتصم» وأمه أم ولد، يقال لها: «ماردة»، و«علي» وأمه «أمة العزيز»، و«صالح» وأمه أم ولد، يقال لها: «رئم» و«محمد أبو عيسى» وأمه أم ولد، يقال لها: «عرابة» و«محمد أبو يعقوب» وأمه أم ولد، يقال لها: «شذرة» و«محمد أبو العباس» وأمه أم ولد، يقال لها: «خُبْث» و«محمد أبو سليمان» وأمه أم ولد، يقال لها: «رواح»، و«محمد أبو علي» وأمه أم ولد، يقال لها: «دواج» و«محمد أبو أحمد» وأمه أم ولد، يقال لها: «كِتْمان».

ومن النساء: «سكينة» وأمها «قصِف» وهي أخت «القاسم»، و«أم حبيب» وأمها «ماردة»، وهي أخت «أبي إسحاق المعتصم» و«أروى» أمها «حَلوب»، و«أم

الحسن» وأمها «عِرَابة» و«أم محمد» وهي «حمدونة»، و«فاطمة» وأمها «غُصَص» واسمها «مصفًّى» و«أم أبيها» وأمها «سُلَّر»، و«أم سلمة» وأمها «رحيق»، و«خديجة» وأمها «شَجَر» وهي أخت «كريب»، و«أم القاسم» وأمها «خزق» و«رملة أم جعفر» وأمها «حَلْي»، و«أم علي» أمها «أنيق» و«أم الغالية» أمها «سَمَنْدَل» و«ريطة» وأمها «زينة»[١].

وذكر ابن عبد ربه في «العقد الفريد»: تزوج «زبيدة» واسمها «أمة العزيز»، وتكنى «أم الواحد» و«زبيدة» لقب لها، وهي ابنة «جعفر بن المنصور» أولدها «محمداً الأمين»، ثم «مراجل» فأولدها «عبد الله المأمون» و«ماردة» أولدها «محمد المعتصم»، و«نادر» ولدت له «صالحاً» و«شجا» ولدت له «خديجة» و«لبابة»، و«سريرة» ولدت «محمداً»، و«بربرية» ولدت له «أبا عيسى» ثم «القاسم» وهو «المؤتَمَن»، و«سكينة»، و«حَثٌّ» فولدت له «إسحاق» و«أبا العباس»[٢].

والخلاف بين العقد والطبري في «شجا» وعند الطبري «شجر» وفي «لبابة» وعند الطبري «العباسة» وفي «سريرة» وعند الطبري «شذرة» و«بربرية» وعند الطبري «عرابة» و«حث» وعند الطبري «خبث»، والله أعلم.

قال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وأخرج السلفي في «الطيوريات» بسنده عن ابن المبارك، قال: لما أفضت الخلافة إلى «الرشيد» وقعت في نفسه جارية من جواري «المهدي» فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك، إن أباك قد طاف بي، فشغف بها، فأرسل إلى «أبي يوسف»، فسأله: أعندك في هذا شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين! أو كلما ادَّعت أمة شيئاً ينبغي أن تُصَدَّق، لا تصدقها فإنها ليست بمأمونة، قال ابن المبارك: فلم أدر ممن أعجب: من هذا الذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرَّج عن حرمة أبيه، أو من هذه الأَمَةِ التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أو من هذا فقيه الأرض وقاضيها! قال: اهتك حرمة أبيك، واقض شهوتك، وصيّره في رقبتي[٣].

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).
(٢) العقد الفريد (٥/ ١١٧).
(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٥٦.

من المعلوم أن القاضي النزيه لا يحابي ولا يداهن، ولا يتكلم إلا بما يوافق شرع الله وسنة رسوله ﷺ، ولا يسعني تصديق أن «أبا يوسف» القاضي، بل قاضي القضاة يخون الله ورسوله ﷺ، وهو الذي ملك ناصيته العفة وحاز ثقة أستاذه «أبي حنيفة» يفتي «الرشيد» بفتوى تفضي إلى لذة ساعة وتبقى تبعتها إلى قيام الساعة، وما كان «أبو يوسف» ليطيع مخلوقاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً في معصيته الخالق الذي خلقه وسواه، وإلى أقوم دين هداه، كما أن «الرشيد» المشهود له أنه من العبَّاد الذين إذا سمعوا آية أو حديثاً خشعت جوارحهم، وارتعدت فرائصهم، وسالت مدامعهم بأغزر الدموع، حتى إن الواعظ الذي يعظه يرقُّ له ويشفق عليه، ويرحمه لما يرى من شدة بكائه، إن سمعة «الرشيد» النقية التي بلغتنا تخبرنا أنه كان يحج سنة ويغزو سنة بنفسه ويصلي كل ليلة مائة ركعة، لا تتفق مع مجريات هذه القصة، كما أنه كانت لديه الزوجات والجواري اللاتي يتجاوزن الثلاثين في العدد، وكلهن من أجمل النساء وأعظمهن حسناً وبهاء، فيدعهن جميعاً وإتيانهن حلال، ثم يستدعي قاضي القضاة ليُحِلَّ له شهوة محرمة تطيح بمكانته الرفيعة التي أمضى لبلوغها سنين عدداً.

إنها لقصة مختلقة لا تستحق إعارتها أدنى اهتمام، فالبطلان يكتنفها، ويحيط بها من كل جانب. وأخرج «ابن جرير الطبري» في تاريخه: قال: ودخل «ابن السمَّاك» على «الرشيد» يوماً؛ فبينا هو عنده إذ استسقى ماء، فأُتِيَ بقُلَّة من ماء، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها، قال له «ابن السمَّاك»: على رسلك، يا أمير المؤمنين! بقرابتك من رسول الله ﷺ، لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي، قال: اشرب هنَّأك الله، فلما شربها، قال له: أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ، لو منعت خروجها من بدنك، بماذا كنت تشتريها؟ قال: بجميع ملكي، قال «ابن السمَّاك»: إن ملكاً قيمته شربة ماء، لجدير ألَّا ينافس فيه، فبكى «هارون»، فأشار «الفضل بن الربيع» إلى «ابن السمَّاك» بالانصراف فانصرف[1].

ومن الحوادث الهامة التي وقعت أيام «الرشيد» ذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: في سنة خمس وسبعين، افترى «عبد الله بن مصعب الزبيري» على

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

«يحيى بن عبد الله بن حسن العلوي» أنه طلب إليه أن يخرج معه على «الرشيد» فباهله ـ استنزل لعنة الله على الظالم منهم ـ «يحيى» بحضرة «الرشيد» وشبك يده في يده، وقال: قل: اللهم! إن كنت تعلم أن «يحيى» لم يَدْعُني إلى الخلاف والخروج على أمير المؤمنين هذا، فكلني إلى حولي وقوتي، واسحقني بعذاب من عندك، آمين، ربَّ العالمين! فتلجلج «الزبيري» ـ أي تردَّد ـ وقالها، ثم قال «يحيى» مثل ذلك وقاما، فمات «الزبيري» ليومه.

ومن أهم الإنجازات التي تمت في عهد «الرشيد»، كتاب «الخراج» الذي صنفه له قاضي القضاة «أبو يوسف» يعقوب بن إبراهيم الأنصاري.

ومن أبرز الحوادث التي تمت في عهد «الرشيد» قضاؤه على «البرامكة» بعد أن استفحل نفوذهم، وقويت شوكتهم، وكانت البداية بقضائه على «جعفر بن يحيى» حيث أرسل إليه من أتاه برأسه، ثم تتبعهم واحداً بعد الآخر حتى قطع دابرهم. وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة توفي «الرشيد» بطوس كما ذكرنا آنفاً، وقال «أبو الشيص» ـ يرثي «هارون الرشيد» رحمه الله :

غربت في الشرق شمس ... فلها عينان تدمع
ما رأينا قطُّ شمساً ... غربت من حيث تطلع[1]

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٣٦٤).

٦ ــ محمد الأمين وولده

لما ولَّى «الرشيد» عهده لولده «محمد الأمين» قال «سَلْم الخاسر» في ذلك العهد:

قل للمنازل بالكثيب الأعفر ... أُسْقِيتِ غادية السحاب الممطرِ

قد بايع الثقلان مهديَّ الهدى ... لمحمد بن زبيدة ابنة جعفرِ

قد وفق الله الخليفة إذ بنى ... بيت الخلافة للهجان الأزهرِ

فهو الخليفة عن أبيه وجَدِّه ... شهدا عليه بمنظرٍ وبمخبرِ

فَحَشَتْ «زبيدة» فاه جوهراً، باعه بعشرين ألف دينار، فمن كان «محمد الأمين» هذا؟

إنه: «محمد أبو عبد الله بن الرشيد»؛ هارون، أبو جعفر بن المهدي محمد بن المنصور، عبد الله بن العباس وأمه «زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور».

قال «ابن عبد ربه» في «العقد الفريد»: بويع «أبو عبد الله محمد الأمين» في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، وقتل يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وكان مولده بالرُّصَافة، سنة إحدى وسبعين ومائة في شوال، فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأياماً، صفا له الأمر من جملتها سنتين وشهراً، وكانت الفتنة بينه وبين أخيه سنتين، وكان طويلاً جسيماً حسن الوجه، بعيد ما بين المنكبين، أشقر سبطاً، صغير العينين، به أثر جدري، نقش خاتمه: «محمد واثق بالله»[1].

وقال «أبو جعفر الطبري» في تاريخه: كتب «حَمَّوَيْه» مولى «المهدي»

---

(١) العقد الفريد (٥/١١٨).

صاحب البريد بطوس إلى «أبي مسلم سلام» مولاه وخليفته ببغداد على البريد والأخبار، يعلمه وفاة «الرشيد»، فدخل على «محمد» فعزَّاه وهنَّأه بالخلافة، وكان أول الناس فعل ذلك، قدم عليه «رجاء» الخادم، يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، كان «صالح بن الرشيد» أرسله إليه بالخبر بذلك ـ وقيل: أتاه الخبر بذلك ـ ليلة الخميس للنصف من جمادى الآخرة، فأظهره يوم الجمعة، وستر خبره بقية يومه وليلته، وخاض الناس في أمره.

ولما قدم كتاب «صالح» على «محمد الأمين» مع «رجاء» الخادم، بوفاة «الرشيد» ـ وكان نازلاً في قصره بالخُلْد ـ تحول إلى قصر «أبي جعفر» بالمدينة.

وأمر الناس بالحضور ليوم الجمعة، فحضروا وصلى بهم، فلما قضى صلاته صَعِدَ المنبر، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ونعى «الرشيد» إلى الناس، وعزَّى نفسه والناس، ووعدهم خيراً، وبسط الآمال، وآمن الأسود والأبيض، وبايعه جلة أهل بيته وخاصته ومواليه وقواده، ثم دخل، ووكَّل ببيعته على من بقي منهم عم أبيه «سليمان بن أبي جعفر»، فبايعهم، وأمر «السندي» بمبايعة جميع الناس من القواد وسائر الجند، وأمر للجند ممن بمدينة السلام برزق أربعة وعشرين شهراً، وبخواص مَنْ كانت له خاصة بهذه الشهور[1].

وجاء في «تاريخ الخلفاء» «للسيوطي»: «محمد أبو عبد الله بن الرشيد» كان ولي عهد أبيه، فولى الخلافة بعده، وكان من أحسن الشباب صورة، أبيض، طويلاً، جميلاً، ذا قوة مفرطة، وبطش وشجاعة معروفة، يقال: إنه قتل مرة أسداً بيده، وله فصاحة وبلاغة، وأدب وفضيلة، لكن كان سيىء التدبير، كثير التبذير، ضعيف الرأي، أرعن، لا يصلح للإمارة، فأول ما بويع بالخلافة، أمر ثاني يوم ببناء ميدان جوار قصر «المنصور» للعب بالكرة، ثم في سنة أربع وتسعين ومائة، عزل أخاه «القاسم» عما كان «الرشيد» ولاه، ووقعت الوحشة بينه وبين أخيه «المأمون»، وقيل: إن «الفضل بن الربيع» علم أن الخلافة إذا أفضت إلى «المأمون» لم يُبْقِ عليه، فأغرى «الأمين» به، وحثه على خلعه، وأن يولي العهد لابنه «موسى».

---

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٣٦٥).

ولما بلغ «المأمون» عزل أخيه «القاسم» قطع البريد عن «الأمين»، وأسقط اسمه من الطرز والضرب، ثم إن «الأمين» أرسل إليه يطلب منه أن يقدم «موسى» على نفسه، ويذكر أنه قد سمَّاه «الناطق بالحق»، فرد «المأمون» ذلك وأباه، وخامر الرسول معه، وبايعه بالخلافة سراً، ثم كان يكتب إليه بالأخبار، ويناصحه من العراق.

ولما رجع وأخبر «الأمين» بامتناع «المأمون» أسقط اسمه من ولاية العهد، وطلب الكتاب الذي كتبه «الرشيد» وجعله بالكعبة، فأحضره ومَزَّقه، وقويت الوحشة، ونصح «الأمينَ» أولو الرأي.

وقال له «خزيمة بن خازم»: يا أمير المؤمنين! لن ينصحك مَنْ كَذَبك، ولن يغشك مَنْ صَدَقَك، لا تجرِّىء القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا ببيعتك وعهدك، فإن الغادر مغلول، والناكث مخذول، فلم ينتصح، وأخذ يستميل القواد بالعطاء، وبايع بولاية العهد لابنه «موسى» ولقَّبه «الناطق بالحق»، وهو إذ ذاك طفل رضيع، فقال بعض الشعراء في ذلك:

أضاع الخلافة غش الوزير ... وفسق الأمير وجهل المشير
لواط الخليفة أعجوبة ... وأعجب منه حلاق الوزير
فهذا يدوس وهذا يُداس ... كذاك لعمري خلاف الأمور
فلو يستعِفَّان هذا بذاك ... لكان بعرضة أمر ستير
وأعجب من ذا وذا أننا ... نبايع للطفل فينا الصغير
ومن ليس يحسن غسل استه ... ولم يخلُ من بوله حَجْر ظير
وما ذاك إلا بفَضْلٍ وبَكْرٍ ... يريدان طمس الكتاب المنير
وما ذاك لولا انقلابُ الزما ... ن في العير هذان أو في النفير

ولمّا تيقَّن «المأمون» خلعه، تسمى بإمام المؤمنين، وكوتب بذلك، وولَّى «الأمين» «علي بن عيسى بن ماهان» بلاد الجبال همدان ونهاوند وقم وأصبهان، في سنة خمس وتسعين ومائة، فخرج «علي بن عيسى» من بغداد، في نصف جمادى الآخرة، ومعه الجيش لقتال «المأمون» في أربعين ألفاً في هيئة لم يُرَ مثلها، وأخذ معه قيد فضة ليقيد به «المأمون» بزعمه، فأرسل «المأمون» لقتاله «طاهر بن الحسين» في أقل من أربعة آلاف، فكانت الغلبة له، وذبح «علي» وهزم

جيشه، وحُمِلَ رأسه إلى «المأمون» فطيف به في خراسان، وسلّم على «المأمون» بالخلافة، وجاء الخبر «الأمينَ» وهو يتصيد السمك، فقال للذي أخبره: ويلك! دعني فإن «كوثراً» صاد سمكتين، وأنا ما صدت شيئاً بعد.

وقال «عبد الله بن صالح» الجرمي: لما قُتِلَ «علي» أرجف الناس ببغداد إرجافاً شديداً، وندم «الأمين» على خلعه أخاه، وطمع الأمراء فيه، وشغبوا جندهم لطلب الأرزاق من «الأمين»، واستمر القتال بينه وبين أخيه، وبقي أمر «الأمين» كل يوم في الإدبار لانهماكه في اللعب والجهل، وأمرُ «المأمون» في ازدياد إلى أن بايعه أهل الحرمين وأكثر البلاد بالعراق، وفسد الحال على «الأمين» جدًّا، وتلف أمر العسكر، ونفذت خزائنه، وساءت أحوال الناس بسبب ذلك، وعظم الشر، وكثر الخراب والهدم من القتال، ورمي المجانيق والنفط حتى دَرَسَت محاسن بغداد وعملت فيها المراثي، ومن جملة ما قيل في بغداد:

بكيت دماً على بغداد لَمَّا فقدت غضارة العيش الأنيق
أصابتها من الحساد عَينٌ فأفنت أهلها بالمنجنيق

ودام حصار بغداد خمسة عشر شهراً، ولحق غالب العباسيين وأركان الدولة بجند «المأمون»، ولم يبق مع «الأمين» يقاتل عنه إلّا غوغاء بغداد والحرافشة، إلى أن استهلّت سنة ثمان وتسعين ومائة، فدخل «طاهر بن الحسين» بغداد بالسيف قسراً، فخرج «الأمين» بأمه وأهله من القصر إلى مدينة «المنصور»، وتفرّق عامة جنده وغلمانه، وقلَّ عليهم القوت والماء.

قال «محمد بن راشد»: أخبرني «إبراهيم بن المهدي» أنه كان مع «الأمين» بمدينة «المنصور»، قال: فطلبني ليلة فأتيت، فقال: ما ترى طيب هذه الليلة، وحسن القمر وضوءه في الماء، فهل لك في الشراب؟ قلت: شأنك، فشربنا، ثم دعا بجارية اسمها «ضعف» فتطيرتُ من اسمها، فأمرها أن تغني، فغنَّت بشعر النابغة الجعدي:

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً وأيسَرَ ذنباً منك ضُرِّج بالدم

فتطيَّر بذلك، وقال: غني غير هذا، فغنَّت:

أبكى فراقهم عيني فأرّقها إن التفرق للأحباب بَكَّاء

مـا زال يـعـدو عـلـيـهـم ريبُ دهـرهـم ... حـتـى تـفـانـوا وريـب الـدهـر عـدَّاء
فـالـيـوم أبـكـيـهـم جـهـدي وأنـدبـهـم ... حـتـى أؤوب ومـا فـي مـقـلـتـي مـاء

فقال لها: لعنك الله، ما تعرفين غير هذا، فقالت: ظننت أنك تحب هذا، ثم غنَّت:

أمـا وربِّ الـسـكـون والـحَـرَكِ ... إن الـمـنـايـا الـكـثـيـرة الـشَّـرَكِ
مـا اخـتـلـف الـلـيـل والـنـهـار ولا ... دارت نـجـوم الـسـمـاء فـي الـفـلـكِ
إلا لـنـقـل الـسـلـطـان عـن مـلـك ... قـد زال سـلـطـانُـه إلـى مـلـك
ومـلـك ذي الـفـرس دائـم أبـداً ... لـيـس بـفـانٍ ولا بـمـشـتـركِ

فقال لها: قومي لعنك الله! فقامت، فعثرت في قدح بلور له قيمته فكسرته، فقال: ويحك يا إبراهيم أما ترى؟ والله! ما أظن أمري إلَّا قد قرب، فقلت: بل يطيل الله عمرك، ويعزُّ ملكك، فسمعت صوتاً من دجلة: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يُوسُف، الآية: ٤١] ، فوثب «محمد» مُغْتَمًّا، وقتل بعد ليلتين، أُخِذَ وحُبِس في موضع، ثم أدخل عليه قوم من العجم ليلاً فضربوه بالسيف، ثم ذبحوه من قفاه، وذهبوا برأسه إلى «طاهر» فنصبه على حائط بستان، ونودي: هذا رأس المخلوع «محمد»، وجُرَّت جثته بحبل، ثم بعث «طاهر» بالرأس والبُرْد والقضيب والمصلَّى، وهو من سعف مبطَّن إلى «المأمون» واشتد على «المأمون» قتل أخيه، وكان يحب أن يرسل إليه حياً، ليرى فيه رأيه، فحقد بذلك على «طاهر بن الحسين» وأهمله نسياً منسياً إلى أن مات طريداً بعيداً، وصدق قول «الأمين»، فإنه كان يكتب بخطه رقعة إلى «طاهر بن الحسين» لما انتدب لحربه فيها: يا طاهر! ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا، فكان جزاؤه عندنا إلَّا السيف، فانظر لنفسك أو دَعْ، يُلَوِّح بأبي مسلم وأمثاله الذين بذلوا نفوسهم في النصح لهم، فكان مآلهم القتل منهم، ولإبراهيم بن المهدي في قتل «الأمين»:

عـوجـا بـمـغـنـى طـلـلٍ دائـرِ ... بـالـخـلـد ذات الـصـخـر والآجُـرِ
والـمـرمـر الـمـسـنـون يـطـلـى بـه ... والـبـاب بـاب الـذهـب الـنـاضـرِ
وأبـلـغـا عـنـي مـقـالاً إلـى الـ ... ـمـولـى عـن الـمـأمـور والآمـرِ
قـولا لـه: يـابـن ولـي الـهـدى ... طـهِّـرْ بـلاد الله مـن طـاهـرِ
لـم يـكـفـه أن حَـزَّ أوداجـه ... ذَبْـحَ الـهـدايـا بـمُـدَى الـجـازرِ

حـتـى أتـى يـسـحـب أوصـالـه في شـطَـن هـذا مـدى الـسـائـرِ
قـد بـرد الـمـوت عـلـى جـفـنـه فـطـرفـه مـنـكـسـر الـنـاظـرِ

ومما قيل فيه:

لِـمَ نـبـكـيـك؟ لـمـاذا؟ لـلـطـربْ يـا أبـا مـوسـى وتـرويـج الـلـعـبْ
ولـتـرك الـخـمـس فـي أوقـاتـهـا حَـرَصـاً مـنـك عـلـى مـاء الـعِـنَـبْ
وشـنـيـف أنـا لا أبـكـي لـه وعـلـى كـوثـر لا أخـشـى الـعَـطَـبْ
لـم تـكـن تـصـلـح لـلـمـلـك ولـم تـعـطـك الـطـاعـة بـالـمـلـك الـعربْ
لِـمَ نـبـكـيـك؟ لـمـا عَـرَّضْـتَـنَـا لـلـمـجـانـيـق وطـوراً لـلـسَّـلَـب

ولخزيمة بن الحسن على لسان «زبيدة» قصيدة يقول فيها:

أتـى طـاهـر لا طـهَّـرَ الله طـاهـراً فـمـا طـاهـر فـيـمـا أتـى بـمـطـهَّـرِ
فـأخـرجـنـي مـكـشـوفـة الـوجـه حـاسـراً وأنـهـب أمـوالـي وأخـرب أدؤري
يـعـزُّ عـلـى هـارون مـا قـد لـقـيـتُـه ومـا مـرَّ بـي مـن نـاقـص الـخـلـق أعـورِ
تـذكـر أمـيـر الـمـؤمـنـيـن قـرابـتـي فـديـتـك مـن ذي حـرمـةٍ مـتـذكـرِ

قال ابن جرير: لما ملك «الأمين»، ابتاع الخصيان، وغالى بهم، وصَيَّرهم لخلوته، ورفض النساء والجواري.

وقال غيره: لما مَلك وجَّه إلى البلدان في طلب الملهين، وأجرى لهم الأرزاق، واقتنى الوحوش والسباع والطيور، واحتجب عن أهل بيته وأمرائه، واستخف بهم، ومحق ما في بيوت الأموال، وضيَّع الجواهر والنفائس، وبنى عدة قصور للهو في أماكن، وأجاز مرة مَنْ غَنَّى له:

هـجـرتـك حـتـى قـلـت لا يـعـرف الـقـلـى وزرتـك حـتـى قـلـت لـيـس لـه صـبـر

بمِلْءِ زَوْرَقه ذهباً، وعمل خمس حَرَّاقات ـ جمع حَراقة، ضرب من السفن ـ فيها مرامي نيران يرمي بها العدو ـ على خلقة الأسد، والفيل، والعُقَاب، والحية، والفرس، وأنفق في عملها أموالاً، فقال «أبو نواس»:

سـخـر الله لـلأمـيـن مـطـايـا لـم تـسـخـر لـصـاحـب الـمـحـرابِ
فـإذا مـا ركـابـه سِـرْنَ بَـرًّا سـار فـي الـمـاء راكـبـاً لـيـث غـابِ
أسـداً بـاسـطـاً ذراعـيـه يـهـوي أهْـرتَ الـشُّـدْق كـالـح الأنـيـابِ

قال الصولي: حدثنا أبو العيناء، حدثنا محمد بن عمرو الرومي، قال: خرج «كوثر» خادم «الأمين» ليرى الحرب، فأصابته رجمة في وجهه، فجعل «الأمين» يمسح الدم عن وجه، ثم قال:

ضـربـوا قـرة عـيـنـي ومِـن أجـلـي ضـربـوه
أخـذ الله لـقـلـبـي مِـنْ أنـاس أحـرقـوه

ولم يقدر على زيادة، فأحضر «عبد الله بن التيمي» الشاعر، فقال له: قل عليهما، فقال:

مـا لِـمَـنْ أهـوى شـبـيـهُ فـبـه الـدنـيـا تـتـيـهُ
وصـلـه حـلـوٌ ولـكـن هـجـره مُـرٌّ كـريـهُ
مَـنْ رأى الـنـاس لـه الـفَـضْـلُ عـلـيـهـم حَـسَـدُوهُ
مـثـل مـا قـد حـسـد الـقـا ئـمَ بـالـمـلـك أخـوهُ

فأوقر له ثلاثة بغال دراهم، فلما قتل «الأمين» جاء «التيمي» إلى «المأمون» وامتدحه، فلم يأذن له، فالتجأ إلى «الفضل بن سهل» فأوصله إلى «المأمون»، فلما سلَّم عليه، قال: هيه، يا تيمي!

مـثـل مـا قـد حـسـد الـقـا ئـم بـالـمـلـك أخـوهُ

فقال «التيمي»:

نُـصِـرَ الـمـأمـون عـبـد الـلَّـهِ لـمـا ظـلـمـوهُ
نـقـض الـعـهـد الـذي قـد كـان قِـدْمـاً أكَّـدوهُ
لـم يـعـامـلـه أخـوهُ بـالـذي أوصـى أبـوهُ

فعفا عنه، وأمر له بعشرة آلاف درهم[1].

وقال «السيوطي»:

ومن شعر «الأمين» يخاطب أخاه «المأمون» ويعيره بأمه لما بلغه عنه أنه يعدِّد مثالبه، ويفضل نفسه عليه، أنشده «الصولي»:

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٦١ ـ ٢٦٦.

لا تفخرن عليك بعد بقية ... والفخر يكمل للفتى المتكامل
وإذا تطاولت الرجال بفضلها ... فاربع فإنك لست بالمتطاول
أعطاك ربك ما هويتَ وإنما ... تلقى خلاف هواك عند راجل
تعلو المنابر كل يوم آملاً ... ما لستَ مِنْ بعدي إليه بواصلِ
فتعيب من يعلو عليك بفضله ... وتعيد في حقي مقال الباطلِ

قلتُ: ـ يعني السيوطي ـ: هذا نظم عالٍ، فإن كان له فهو أحسن من نظم أخيه وأبيه[1]. وروى «ابن عبد ربه» في «العقد الفريد»: عن العتبي: قال «أبو الجنوب؛ مروان بن أبي حفصة» أبياتاً ورفعها إلى «زبيدة بنت جعفر» يمتدح ابنها «محمداً»، وفيها يقول:

لله دَرُّكِ يا عقيلة جعفر ... ماذا ولدتِ من العُلى والسُّؤدَدِ
إن الخلافة قد تبيَّن نورها ... للناظرين على جبين محمَّدِ

فأمرت أن يملأ فمه دُرًّا[2].

وقال الأندلسي أيضاً في «العقد»: لما قَتَلَ «عبدُ الله المأمون» أخاه «محمد بن زبيدة» أرسلت أمه «زبيدة بنت جعفر» إلى «أبي العتاهية» أن يقول أبياتاً على لسانها للمأمون، فقال:

ألا إن ريب الدهر يدني ويبعدُ ... وللدهر أيام تذمُّ وتُحمَدُ
أقول لريب الدهر إن ذهبت يدٌ ... فقد بقيت والحمد لله لي يَدُ
إذا بقي المأمون لي فالرشيد لي ... ولي جعفر لم يهلكا ومحمدُ

وكتبت إليه من قوله:

لخير إمام قام من خير معشر ... وأكرم بسَّام على عود منبرِ
كتبتُ وعيني تستهل دموعها ... إليك ابن يعلى من دموعي ومحجري
فجعنا بأدنى الناس منك قرابةً ... ومن زلَّ عن كبدي فقَلَّ تصبُّري
أتى طاهر وطَهَّرَ الله طاهراً ... وما طاهر في فعله بمطهَّرِ
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالي وخرَّب أدْؤري

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٦٧.
(٢) العقد الفريد (١/٣١٣ ـ ٣١٤).

وعزَّ على هارون ما قد لقيته ... وما نابني من ناقص الخلق أعورِ

فلما نظر المأمون إلى كتابها وجَّه إليها بحِباء جزيل، وكتب إليها يسألها القدوم عليه، فلما تأته في ذلك الوقت، وقبلت منه ما وجَّه به إليها، فلما صارت إليه بعد ذلك، قال لها: من قائل الأبيات؟ قالت: «أبو العتاهية»، قال: وبكم أمرتِ له؟ فقالت: بعشرين ألف درهم، قال «المأمون»: وقد أمرنا له بمثل ذلك، واعتذر إليها من قتل أخيه «محمد»، وقال لها: لستُ صاحبهُ ولا قاتلَه، فقالت: يا أمير المؤمنين! إن لكما يوماً تجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء الله[1].

وقال ابن عبد ربه: قالت «أم جعفر؛ زبيدة بنت جعفر» للمأمون، حين دخلت عليه بعد قتل ابنها: الحمد لله الذي ادَّخركَ لي لمَّا أثكلني ولدي، ما ثكلت ولداً كنتَ لي عوضاً منه.

فلما خرجت قال «المأمون» لأحمد بن أبي خالد: ما ظننتُ أن نساء جُبِلْنَ على مثل هذا الصبر[2].

قال أحمد بن حنبل: إني لأرجو أن يرحم الله «الأمين» بإنكاره على «إسماعيل بن علية»، فإنه أدخل عليه فقال له: يابن الفاعلة! أنت الذي تقول: كلام الله مخلوق؟[3].

أما عن أولاد «الأمين» فقد ذكر «ابن عبد ربه» في «عقده» فقال: رزق من الولد «موسى» من أم ولد تدعى «نَظْم» ولقَّبه «الناطق بالحق» وضرب اسمه على الدراهم.

وذكر «الصولي» قال: حدثني من قرأ على درهم:

كل عِزٍّ ومَفخَرِ ... فلِمُوسى المظفَّرِ
ملك خُطَّ ذكره ... في الكتاب المُسَطَّرِ

---

(١) العقد الفريد (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).
(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٦٦.

وماتت «نَظْم» فاشتد جزعه عليها، فدخلت «زبيدة» مغرية له، فقالت:

نفسي فداؤك لا يذهب بك التلف ... ففي بقائك ممن قد مضى خلف
عوضتَ موسى فماتت كل مَرْزِيةٍ ... ما بعد موسى على مَفْقُودةٍ أسفُ

وبايع لابنه «موسى» في حياته، ولأخيه «عبد الله»، وأمه أم ولد، ونقش اسمه على الدراهم[1].

(١) العقد الفريد (٥/ ١١٨ ـ ١١٩).

٧ ـ أزواج عبد الله المأمون

هو «عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي» وأمه أم ولد، ويقال لها: «مراجل»، قال «السيوطي»: ولد سنة سبعين ومائة في ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول، وهي الليلة التي مات فيها «الهادي» واستخلف أبوه، وأمه اسمها «مراجل» ماتت في نفاسها به، وقرأ العلم في صغره.

سمع الحديث من أبيه، وهُشَيْم، وعَبَّاد بن العوام، ويوسف بن عطية، وأبي معاوية الضرير، وإسماعيل بن علية، وحجاج الأعور، وطبقتهم.

وأدَّبه اليزيدي، وجمع الفقهاء من الآفاق، وبرع في الفقه والعربية، وأيام الناس، ولما كبر عني بالفلسفة وعلوم الأوائل، ومهر فيها، فجرَّه ذلك إلى القول بخلق القرآن.

روى عنه ولده الفضل، ويحيى بن أكثم، وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي، والأمير عبد الله بن طاهر، وأحمد بن الحارث الشيعي، ودعبل الخزاعي، وآخرون.

وكان أفضل رجال بني العباس، حزماً، وعلماً، وصلحاً، ورأياً، ودهاء، وهيبة، وشجاعة، وسؤدداً، وسماحة، وله محاسن وسيرة طويلة، لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن، ولم يَلِ الخلافة من بني العباس أعلم منه، وكان فصيحاً مُفَوَّهاً، وكان يقول: «معاوية» بعَمْرِه، و«عبد الملك» بحَجَّاجِه، وأنا بنفسي.

وكان يقال: لبني العباس فاتحة، وواسطة، وخاتمة، فالفاتحة «السفاح» والواسطة «المأمون»، والخاتمة «المعتضد».

وقيل: إنه ختم في بعض الرمضانات ثلاثاً وثلاثين خَتْمَة، وكان معروفاً

بالتشيع، وقد حمله ذلك على خلع أخيه «المؤتَمَن» والعهد بالخلافة إلى «علي الرضا»[١].

وكان «المأمون» محباً للعدالة، رافعاً لواءها، حتى وإن مسَّت مصالح أقاربه، وأنزلت بهم الأذى، فقد أخرج صاحب «العقد الفريد» عن الشيباني، قال: حدثنا محمد بن زكريا، عن عباس بن الفضل الهاشمي، عن قحطبة بن حميد، قال: إني لواقف على رأس «المأمون» يوماً، وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه ـ وقد هَمَّ بالقيام ـ امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثَّة، فوقفت بين يديه، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! فنظر «المأمون» إلى «يحيى بن أكثم»، فقال لها «يحيى»: وعليكِ السلام، يا أمةَ الله! تكلمي بحاجتك، فقالت:

يا خيرُ مُنْتَصِف يُهدى له الرشدُ ... ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك ـ عميد القوم ـ أرملةٌ ... عُدِي عليها فلم يُتْرَكْ لها سَبَدُ[٢]
وابتُزَّ مني ضياعي بعد منعتها ... ظلماً وفُرِّق مني الأهل والوَلَدُ

فأطرق «المأمون» حيناً، ثم رفع رأسه إليها، وهو يقول:

في دون ما قلتِ زال الصبر والجَلَدُ ... عني وأُقْرِحَ مني القلب والكبدُ
هذا أذانُ صلاة العصر فانصرفي ... وأحضِري الخصم في اليوم أَعِدُ
فالمجلس السبتُ ـ إن يُقْضَى الجلوسُ لنا ... نُنْصِفْكِ منه ـ وإلّا المجلس الأحَدُ

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! فقال: وعليك السلام، ثم قال: أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين! ـ وأومأت إلى «العباس» ابنه ـ.

فقال: يا أحمد بن أبي خالد! خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام «العباس»، فقال لها «أحمد بن أبي خالد»: يا أمةَ الله!

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٦٩.
(٢) السَّبَدُ: الشعر، ويكنى به عن الإبل.

إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك.

فقال «المأمون»: دعها، يا أحمد! فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، ثم قضى لها بردِّ ضيعتها إليها، وظَلّم «العباس» بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يُوغِرَ ـ يسقط الخراج عنها ـ لها ضيعتها ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة[(١)].

ومن شيم «المأمون» عفوه عند المقدرة، فقد ذكر «ابن عبد ربه» في «عقده»: كان للمأمون خادم، وهو صاحب وَضوئه، فبينما هو يصب الماء على يديه، إذ سقط الإناء من يده، فاغتاظ «المأمون» عليه، فقال: يا أمير المؤمنين! إن الله يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ١٣٤] قال: قد كظمتُ غيظي، قال: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ١٣٤] قال: قد عفوت عنك، قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ١٣٤] قال: اذهب فأنت حر[(٢)].

وذكر «السيوطي» بعضاً من أقوال «المأمون»، قال: لا نزهة ألذ من النظر في عقول الرجال.

وقال: أعيت الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يدبر، وإذا أدبر أن يقبل، وقال: أحسن المجالس ما نظر فيه إلى الناس.

وقال: الناس ثلاثة: فمنهم مثل الغذاء، لا بد منه على كل حال، ومنهم كالدواء، يحتاج إليه في حال المرض، ومنهم كالداء، مكروه على كل حال.

وقال: ما أعياني جواب أحد مثل ما أعياني جواب رجل من أهل الكوفة، قدَّمه أهلها فشكا عاملهم، فقلت: كذبت، بل هو رجل عادل، فقال: صدق أمير المؤمنين، وكذبت أنا، قد خصصتنا به في هذه البلاد، دون باقي البلاد، خذه واستعمله على بلد آخر يشملهم من عدله وإنصافه مثل الذي شملنا، فقلت: قم في غير حفظ الله، عزلته عنكم.

وقال في الشطرنج:

---

(١) العقد الفريد (١/ ٢٨ ـ ٢٩).

(٢) العقد الفريد (٢/ ١٨٧).

أرض مـربـعـة حـمـراء مـن أدم ما بين إلفين معروفين بالكرم
تذاكر الحرب فاحتلا لها حيلاً من غير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحزم لم تنم
فانظر إلى فطن جالت بمعرفة في عسكرين بلا طبل ولا علم

وأخرج الصولي عن محمد بن عمرو، قال: دخل «أصرم بن حميد» على «المأمون» ـ وعنده المعتصم ـ فقال: يا أصيرم! صفني وأخي، ولا تفضل واحداً منا على صاحبه، فأنشد بعد قليل:

رأيت سفينة تجري ببحر إلى بحرين دونهما الجسور
إلى ملكين ضوؤهما جميعاً سواء صار دونهما البصير
كلا الملكين يشبه ذاك هذا وذا هذا وذاك وذا أمير
فإن يك ذاك ذا وذاك هذا فلي في ذا وذاك معاً سرور
رواق المجد ممدود على ذا وهذا وجهه بدر منير[(١)]

وأما نساء «المأمون» وأبناؤه، فقد ذكر «ابن عبد ربه» في «عقده» قال: ورزق من الولد «محمداً الأصغر» و«عبيد الله» من «أم عيسى بنت موسى الهادي»، وتزوج «بوران بنت الحسن بن سهل»، بنى بها سنة عشر ومائتين، ووهب لأبيها عشرة آلاف ألف درهم، ولولده ألف ألف درهم، وكان له عدة أولاد من بنين وبنات[(٢)].

وقد ذكر «ابن جرير الطبري» في تاريخه، خبر بناء «المأمون» ببوران بنت الحسن بن الحسن في شهر رمضان سنة عشر ومائتين، فقال:

ذكر أن «المأمون» لما مضى إلى فم الصلح إلى معسكر «الحسن بن سهل»، حمل معه «إبراهيم بن المهدي»، وشخص «المأمون» من بغداد حين شخص إلى ما هنالك للبناء ببوران، راكباً زورقاً، حتى أرسى على باب «الحسن».

وكان «العباس بن المأمون» قد تقدم أباه على الظَّهر، فتلقَّاه «الحسن» خارج

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٢) العقد الفريد (٥/ ١٢٠).

عسكره، في موضع قد اتُّخِذَ له على شاطىء دجلة، بُنِيَ له فيه جَوْسَقٌ ـ قصر صغير ـ، فلما عاينه «العباس» ثنى رجليه لينزل، فحلف عليه «الحسن» ألَّا يفعل، فلما ساواه ثنى رجله «الحسن» لينزل، فقال له «العباس»: بحق أمير المؤمنين لا تنزل، فاعتنقه «الحسن»، وهو راكب، ثم أمر أن يقدم إليه دابته، ودخلا جميعاً منزل «الحسن»، ووافى «المأمون» وقت العشاء، وذلك في شهر رمضان منذ سنة عشر ومائتين، فأفطر هو و«الحسن» و«العباس» ـ و«دينار بن عبد الله» قائم على رجله ـ حتى فرغوا من الإفطار، وغسلوا أيديهم، فدعا «المأمون» بشراب، فأُتِيَ بجام ذهب فصُبَّ فيه وشرب، ومَدَّ يده بجام فيه شراب إلى «الحسن»، فتباطأ عنه «الحسن»، لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك، فغمز «دينار بن عبد الله»، «الحسن»، فقال له «الحسن»: يا أمير المؤمنين! أشربه بإذنك وأمرك؟ فقال له «المأمون»: لولا أمري لم أمدد يدي إليك، فأخذ الجام فشربه. فلما كان في الليلة الثانية جمع بين «محمد بن الحسن بن سهل» و«العبّاسة بنت الفضل» ذي الرئاستين، فلما كان في الليلة الثالثة، دخل على «بُوران» وعندها «حمدونة» و«أم جعفر» وجدتها.

فلما جلس «المأمون» معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر «المأمون» أن تجمع، وسألها عن عدد ذلك الدر، كم هو؟ فقالت: ألف حبة، فأمر بَعِدِّها، فنقصت عشراً، فقال: مَنْ أخذها فليردُّها، فقالوا: «حسين زجلة»، فأمره بردِّها، فقال: يا أمير المؤمنين! إنما نُثِرَ لنأخذه، قال: ردَّها فإني أخلفها عليك، فردَّها.

وجمع «المأمون» ذلك الدر في الآنية كما كان، فوضع في حَجْرِها، وقال: هذه نحلتك، وسلي حوائجك، فأمسكت، فقالت لها جدتها: كلمي سيدك، وسليه حوائجك فقد أمرك، فسألته الرضا عن «إبراهيم بن المهدي» فقال: قد فعلت، وسألته الإذن لأم جعفر في الحج، فأذن لها، وألبستها «أم جعفر» البَدَنَة الأموية، وابتنى بها في ليله.

وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر؛ فيها أربعون منًّا في تَوْرِ ذهب، فأنكر «المأمون» ذلك عليهم، وقال: هذا سرف، فلما كان من الغد دعا بإبراهيم بن المهدي، فجاء يمشي من شاطىء دجلة عليه مبطَّنة ملحَم، وهو معتم بعمامة حتى

دخل، فلما رفع الستر عن «المأمون» رمى بنفسه، فصاح «المأمون»: يا عم! لا بأس عليك، فدخل فسلم عليه تسليم الخلافة، وقبَّل يده، وأنشد شعره، ودعا بالخلع فخلع عليه خلعة ثانية، ودعا له بمركب وقلده سيفاً، وخرج فسلَّم على الناس، ورُدَّ إلى موضعه.

وذكر أن «المأمون» أقام عند «الحسن بن سهل» سبعة عشر يوماً يُعِدُّ له في كل يوم لجميع من معه جميع ما يُحتاج إليه، وأن «الحسن» خلع على القواد على مراتبهم، وحملهم ووصلهم، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف، قال: وأمر «المأمون»، «غسان بن عباد» عند منصرفه أن يدفع إلى «الحسن» عشرة آلاف ألف من مال فارس، وأقطعه «الصِّلح»، فَحُمِلت إليه على المكان، وكان معدة عند «غسان بن عباد»، فجلس «الحسن» ففرَّقها في قُوَّاده وأصحابه وحشمه وخدمه، فلما انصرف «المأمون» شيعه «الحسن»، ثم رجع إلى فم «الصِّلح».

فذكر عن «أحمد بن الحسن بن سهل»، قال: كان أهلنا يتحدثون أن «الحسن بن سهل» كتب رقاعاً فيها أسماء ضِياعه، ونثرها على القواد وعلى بني هاشم، فمن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها.

وذكر عن «أبي الحسن؛ علي بن الحسين بن عبد الأعلى» الكاتب، قال: حدثني «الحسن بن سهل» يوماً بأشياء كانت في «أم جعفر»، ووصف رجاحة عقلها وفهمها، ثم قال: سألها يوماً «المأمون» بفم «الصِّلح» حيث خرج إلينا عن النفقة على «بُوران» وسأل «حمدونة بنت غضيض» عن مقدار ما أنفقت في ذلك الأمر.

قال: فقالت «حمدونة»: أنفقت خمسة وعشرين ألف ألف، قال: فقالت «أم جعفر»: ما صنعتِ شيئاً، قد أنفقت ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم، قال: وأعددنا له شمعتين من عنبر، قال: فدخل بها ليلاً، فأوقدتا بين يديه، فكثر دخانهما، فقال: ارفعوهما قد آذانا الدخان، وهاتوا الشمع، قال: ونحلتها «أم جعفر» في ذلك اليوم «الصِّلح»، قال: فكان سبب عود «الصِّلح» إلى مُلكي، وكانت قبل ذلك لي، فدخل عليَّ يوماً «حميد الطوسي» فأقرأني أربعة أبيات امتدح بها «ذا الرياستين»، فقلت له: ننفذها لك «ذي

الرياستين»، وأقطعك «الصِّلْح» في العاجل إلى أن تأتي مكافأتك من قِبَلِه، فأقطعته إياها، ثم ردَّها «المأمون» على «أم جعفر» فنحلتها «بوران».

وروى «علي بن الحسين» أن «الحسن بن سهل» كان لا ترفع الستور عنه، ولا يرفع الشمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبيَّنها إذا نظر إليها، وكان متطيِّراً يحب أن يقال له إذا دخل عليه: انصرفنا من فرح وسرور، ويكره أن يذكر له جنازة أو موت أحد، قال: ودخلت عليه يوماً فقال له قائل: إن «علي بن الحسين» أدخل ابنه «الحسن» اليوم الكتاب.

قال: فدعا لي وانصرفت، فوجدت في منزلي عشرين ألف درهم هبة للحسن، وكتاباً بعشرين ألف درهم، قال: وكان قد وهب لي من أرضه بالبصرة ما قُوِّمَ بخمسين ألف دينار، فقبضه عني «بُغَا» الكبير، وأضافه إلى أرضه.

وذكر عن «أبي حسان الزيادي» أنه قال: لما صار «المأمون» إلى «الحسن بن سهل» أقام عنده أياماً بعد البناء ببوران، وكان مقامه في مسيره وذهابه، وذهابه ورجوعه أربعين يوماً، ودخل إلى بغداد يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خَلَتْ من شوال.

وذكر عن «محمد بن موسى» الخُوَارَزْمي أنه قال: خرج «المأمون» نحو «الحسن بن سهل» إلى فم «الصِّلْح» لثمان خَلَوْن من شهر رمضان، ورحل من فم «الصِّلْح» لتسع بقين من شوال سنة عشر ومائتين[1].

وذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وأخرج الصولي، عن الحسين الخليع، قال: لما غضب عليَّ «المأمون» ومنعني رزقاً لي، عملت قصيدة أمتدحه بها ودفعتها إلى من أوصلها إليه، وأولها:

أجرني فإني قد ظمئت إلى الوعدِ ... متى تنجز الوعد المؤكد بالعهدِ
أعيذك من خلف الملوك وقد ترى ... تقطُّع أنفاسي عليك من الوجدِ
أيبخل فرد الحسن عني بنائل ... قليل وقد أفردته بهوىً فردِ

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٦٠٦ ـ ٦٠٩).

إلى أن قال:

رأى الله عبد الله خير عباده فملَّكه والله أعلم بالعبدِ
ألا إنما المأمون للناس عصمة مفرقة بين الضلالة والرشدِ

فقال «المأمون»: قد أحسن إلَّا أنه القائل:

أعينايّ جودا وابكيا لي محمَّدَا ولا تذخرا دمعاً عليه وأسعِدَا
فلا تمَّت الأشياء بعد محمَّدٍ ولا زال شمل الملك فيه مبدَّدَا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولا زال في الدنيا طريداً مُشَرَّدا

فهذا بذاك، ولا شيء له عندنا.

فقال له الحاجب: فأين عادة أمير المؤمنين في العفو؟ فقال: أما هذا فنعم، فأمر له بجائزة، وردَّ رزقه فيه[1].

وأخرج «السيوطي» عن مخارق، قال: أنشدت «المأمون» قول «أبي العتاهية»:

وإني لمحتاج إلى ظل صاحبٍ يروق ويصفو إن كدرتُ عليه

فقال لي: أعِدْ، فأعدت سبع مرات، فقال لي: يا مخارق! خذ مني الخلافة وأعطني هذا الصاحب[2].

قال «المأمون»: ما انفتق عليَّ فَتْقٌ إلَّا سببه جور العمال.

وكانت وفاة «المأمون» سنة /٢١٨/ هـ لثمان خَلَوْن من رجب بالبذندون.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٨١.

٨ ـ المعتصم بالله

بويع لأبي إسحاق المعتصم «محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي» سنة ثمان عشرة ومائتين بالخلافة، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب. وأمه أم ولد يقال لها «ماردة».

قال «ابن عبد ربه» في «عقده»: وكان أبيض أصهب اللحية، طويلها، مربوعاً مشرب اللون حمرة، نقش خاتمه: الله ثقة أبي إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن، وكان شديد البأس، حمل باباً من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلاً، وفوقه عِكَام[1] فيه مائتا وخمسون رطلاً وخطا خُطىً كثيرة، وكان يسمى ما بين إصبعي «المعتصم» «المِقْطَرة» لشدته، وإنه اعتمد يوماً على غلام فَدَقَّه، وذكر «الصولي» أنه كان يسمى «المُثَمَّنَ»، وذلك أنه الثامن من خلفائهم[2].

وقال ابن أبي دؤاد: كان «المعتصم» يخرج ساعده إليَّ ويقول: يا أبا عبد الله! عَضَّ ساعدي بأكثر قوتك، فأمتنع، فيقول: إنه لا يضرني، فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان[3].

وكان «المعتصم» يعفو عند المقدرة، ويصفح في ساعة الانتقام، وحلمه يكبح سيفه، فقد روى صاحب «العقد الفريد» فقال: قال «أحمد بن أبي دُوَاد»: ما رأينا رجلاً نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يحب أن يفعل إلا «تميمَ بن جميل»، فإنه كان تغلَّب على شاطىء الفرات، وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين «المعتصم» في يوم الموكب حين يجلس للعامة، ودخل عليه، فلما مثل بين يديه، دَعَا بالنِّطَعِ والسيف، فأُحْضِرا، فجعل «تميم بن جميل» ينظر إليهما ولا يقول شيئاً، وجعل «المعتصم» يُصَعِّدُ النظر فيه ويصوِّبه، وكان جسيماً

---

(١) العِكَام: العِدْل.

(٢) العقد الفريد (٥/ ١٢١).

(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٩١.

وسيماً، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جَنانُه ولسانُه من منظره؛ فقال: يا تميم! إن كان لك عذر فَأْتِ به، أو حجة فأَدْلِ بها، فقال: أما إذ قد أَذِنَ لي أميرُ المؤمنين فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلقَ الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، يا أمير المؤمنين! إن الذنوب تخرس الألسنة، وتصدع الأفئدة، ولقد عظمت الجريرة، وكَبُر الذنب وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربُهما منك، وأسرعُهما إليك أولاهما بإمامتك، وأشبهُهما بخلافتك ثم أنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنِّطع كامناً يلاحظني من حيث ما أتلفتُ
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي وأيُّ امرىء مما قضى الله يفلتُ
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجةٍ وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يَعِزُّ على الأوس بن تَغْلِبَ موقفٌ يُسَلُّ عليَّ السيف فيه وأسكتُ
وما جزعي من أن أموت وإنني لأعلم أن الموت شيء موقتُ
ولكن خلفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرةٍ تتفتَّتُ
كأني أراهم حين أُنْعَى إليهم وقد خَمشوا تلك الوجوه وصَوَّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغبطةٍ أذود الردى عنهم وإن مِتُّ مُوِّتوا
فكم قائل لا يبعد اللهُ روحَه وآخرَ جذلانٌ يُسَرُّ ويشمتُ

قال: فتبسم «المعتصم» وقال: كاد والله يا تميم! أن يسبق السيفُ العَذَلَ، اذهب فقد غفرتُ لك الصَّبْوَة، وتركتك للصبية[1].

ونقل «السيوطي» عن الذهبي قوله: كان «المعتصم» من أعظم الخلفاء وأهيبهم، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن.

وعن نِفْطَوَيْه: وكان من أشد الناس بطشاً، كان يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره، وقال غيره: هو أول خليفة أدخل الأتراك الديوان.

وكان يتشبه بملوك الأعاجم، ويمشي مشيهم، وبلغ غلمانُه الأتراكُ بضعة عشر ألفاً.

وقال ابن يونس: هجا «دعبل» «المعتصم»، ثم نذر به، فخاف وهرب حتى

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

قدم مصر، ثم خرج إلى المغرب، والأبيات التي هجاه بها هذه:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم تأتنا في ثامن منهم الكُتُبُ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة ... غداة ثووا فيه وثامنهم كلبُ
وإني لأزهي كلبهم عنك رغبة ... لأنك ذو ذنب وليس له ذَنْبُ
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم ... وصيفٌ وأشناسٌ وقد عظُم الخطبُ
وإني لأرجو أن ترى من مغيبها ... مطالع الشمس قد يَغَصُّ بها الشُّرْبُ
وهَمُّك تركيٌّ عليه مهانةٌ ... فأنت له أم وأنت له أبُ

وتابع «السيوطي» قوله: بويع له بالخلافة بعد «المأمون» في شهر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، فسلك ما كان «المأمون» عليه، وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن، فكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقاً من العلماء، وضرب الإمام «أحمد بن حنبل»، وكان ضربه في سنة عشرين ومائتين.

وفيها تحول «المعتصم» من بغداد، وبنى «سُرَّ من رأى»، وذلك أنه اعتنى باقتناء الترك، فبعثه إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم، وبذل فيهم الأموال، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، فكانوا يطرِّدون خيلهم في بغداد، ويُؤْذُون الناس، وضاقت بهم البلد، فاجتمع إليه أهل بغداد، وقالوا: إن لم تخرج عنا بجندك حاربناك، قال: وكيف تحاربونني؟ قالوا: بسهام الأسحار، قال: لا طاقة لي بذلك، فكان ذلك سبب بنائه «سُرَّ مَنْ رأى» وتحوّله إليها[1].

وكان «المعتصم» يتسم بشهامة نادرة، ومروءة فذة، ونخوة فريدة، فقد تناهت إلى مسامعه صرخة فتاة عربية مسلمة وقعت في أسر الروم في عهده، فصرخت: وامعتصماه! فهبَّ من مجلسه، وجهَّز جيشاً عرمرماً، وانطلق بنفسه إلى «عمورية» فاستنقذها من أعداء الله والدين.

وقد خَلَّد الشاعر «أبو تمام الطائي» معركة «عمورية» والانتصار العظيم الذي حققه «المعتصم» يومئذ بهذه القصيدة الخالدة، فقال:

السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حدِّه الحد بين الجد واللعبِ

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٩٢.

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريبِ
والعلم في شهب الأرماح لامعةً بين الخميسين لا في السبعة الشهبِ

وكان المنجمون قد أخبروا «المعتصم» أن وقت خروجه إلى الروم ليس مناسباً، وقالوا له: إن معركته خاسرة، لكن «المعتصم» خالفهم وخرج، وعاد بالنصر المبين، فقال أبو تمام:

أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟
تخرصاً وأحاديثاً ملفقةً ليست بنبع إذا عُدَّت ولا غَرَب
عجائباً زعموا الأيام مُجْفِلَةً عنهن في صَفَرِ الأصفار أو رجبِ
وخوّفوا الناس من دهياء مظلمةٍ إذا بدا الكوكب الغربيّ ذو الذنبِ
وصيَّروا الأبراج العليا مرتبةً ما كان منقلباً وغير منقلبِ
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ما دار في فلكٍ منها وفي قُطُبِ
لو بَيَّنَت قطُّ أمراً قبل موقعه لم تخف ما حَلَّ بالأوثان والصُّلُبِ
فتحُ الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخُطَبِ
فتحٌ تفتَّح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشُبِ
يا يوم وقعةِ عمورية انصرفت منك المنى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ
أبقيتَ جَدَّ بني الإسلام في صُعُدٍ والمشركين ودار الشرك في صَبَبِ
أمٌّ لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا فداءها كلَّ أُمٍّ منهمُ وأبِ
وبرزةُ الوجه قد أعيت رياضتُها كسرى وصَدَّتْ صدوداً عن أبي كَرَبِ
بكرٌ فما افترعتها كفُّ حادثةٍ ولا ترقَّت إليها همة النُّوَبِ
من عهد إسكندرَ أو قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تَشِبِ
حتى إذا مَخَّضَ الله السنين لها مَخْضَ البخيلة كانت زبدة الحِقَبِ
أتتهم الكُربة السوداء سادرةً منها وكان اسمُها فراجةَ الكُرَبِ
جرى لها الفأل بَرْحاً يوم أنقرة إذ غودرت وحشة الساحات والرَّحَبِ
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجَرَبِ
كم بين حيطانِها من فارس بطل قاني الذوائب من آني دم سَرَبِ
بسنة السيف والحِنَّاء من دمه لا سنةِ الدين والإسلامِ مختضِبِ
لقد تركتَ أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخَشَبِ
غادرتَ فيها بهيم الليل وهو ضُحًى يُشلُّه وسطها صبح من اللهبِ

حتى كأن جلابيب الدجى رَغِبتَ	عن لونها وكأنّ الشمس لم تَغِبِ
ضوءٌ من النار والظلماءُ عاكفةٌ	وظلمة من دخان في ضُحىً شَحِبِ
فالشمس طالعةٌ من ذا وقد أفلت	والشمس واجبةٌ من ذا ولم تجِبِ
تصرَّح الدهر تصريح الغمام لها	عن يوم هيجاء منها طاهرٍ جُنُبِ
لم تطلعُ الشمسُ فيه يوم ذاك على	بانٍ بأهل ولم تغرب على عَزَبِ
ما ربعُ مَيَّة معموراً يُطيفُ به	غيلان أبهى ربًى من ربعها الخَرِبِ
ولا الخدودُ وقد أُدمِين من خجلٍ	أشهى إلى ناظري من خدها التَّرِبِ
سماجةً غَنِيت منا العيون بها	عن كل حسنٍ بدا أو منظرٍ عَجَبِ
وحسنُ مُنقَلَبٍ تبدو عواقبُه	جاءت بشاشتُه من سوء منقَلَبِ
لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت	له العواقب بين السُّمْر والقُضُبِ
تدبير معتصم بالله منتقم	لله مرتقِبٍ في الله مرتغبِ
ومطعم النصر لَمْ تكهم أسِنَّتهُ	يوماً ولا حجبت عن روح محتجِبِ
لم يغزُ قوماً ولم ينهدْ إلى بلدٍ	إلّا تقدمه جيش من الرعُبِ
لو لم يَقُدْ جحفلاً يوم الوغى لغدا	من نفسه وحدها في جحفلٍ لجِبِ
رمى بك الله برجَيْها فهدَّمها	ولو رمى بك غيرُ اللهِ لم يُصِبِ
من بعد ما أشَّبوها واثقين بها	والله مِفتاح باب المعقل الأشِبِ
وقال ذو أمرهم لا مرتع صَدَدٌ	للسارحين وليس الوِرْدُ مِنْ كَثَبِ
أمانياً سلبتهم نُجْحَ هاجسها	ظُبَا السيوف وأطرافُ القنا السُّلُبِ
إن الحِمامَيْن من بيض ومن سُمُرٍ	دَلْو الحياتَيْن من ماء ومن عُشُبِ
لبَّيْت صوتاً زِبَطْريًّا هرقت له	كأس الكرى ورُضابَ الخُرَّد العُرُبِ
عداك حَرُّ الثغور المستضامة عن	بَرْد الثغور وعن سلسالها الحَصِبِ
أجبته معلِناً بالسيف منصلتاً	ولو أجبتَ بغير السيف لم تُجِبِ
حتى تركتَ عمودَ الشرك مُنْعَفِراً	ولم تعرِّج على الأوتاد والطُّنُبِ
لما رأى الحربَ رأيَ العين تُوفَلِسٌ	والحرب مشتقة المعنى من الحَرَبِ
غدا يصرِّف بالأموال جِرْيَتَها	فعزَّه البحر ذو التيار والحَدَبِ
هيهات زعزعت الأرض الوَقُور به	عن غزو محتسبٍ لا غزو مكتسِبِ
لم ينفقِ الذهب المُرْبي بكثرته	على الحصى وبه فقر إلى الذهَبِ
إن الأسود أسود الغيل همتُها	يومَ الكريهة في المسلوب لا السَّلَبِ
ولَّى وقد ألجم الخَطِّيُّ منطقه	بسكتةٍ تحتها الأحشاء في صَخَبِ

أَحْذَى قرابينه صَرْفَ الردى ومضى يحتَثُّ أنجى مطاياه مِن الهَرَبِ
مُوَكَّلاً بِيَفاعِ الأرض يشرفه مِن خفة الخوف لا من خفة الطَّرَبِ
إن يعد من حرها عدو الظليم فقد أوسعتَ جاحِمَها من كثرة الحَطَبِ
تسعون ألفاً كآساد الشَّرَى نَضِجَتْ أعمارهم قبل نُضْج التين والعِنَبِ
يا رُبَّ حوباء لما اجتُثَّ دابرهم طابت ولو ضُمِّخَتْ بالمسك لم تَطِبِ
مغضَبٍ رجعت بيض السيوف به حيَّ الرضا مِن رداهم ميت الغضبِ
والحرب قائمة في مأزقٍ لَجِجٍ تجثو القيام به صغراً على الرُّكَبِ
كم نيل تحت سناها من سنا قمرٍ وتحت عارضها من عارضٍ شَنِبِ
كم كان في قطع أسباب الرقاب بها إلى المخدَّرَة العذراء من سَبَبِ
كم أحرزت قُضُبُ الهندي مصلتَةً تهتز من قُضُبٍ تهتز في كُثُبِ
بيضٌ إذا انتُضِيَتْ من حُجْبها رجعت أحقَّ بالبيض أتراباً من الحُجُبِ
خليفةَ اللهِ جازى اللهُ سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحَسَبِ
بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلّا على جسر من التعبِ
إن كان بين صروف الدهر من رَحِمٍ موصولةٍ أو ذمام غير مُنْقَضِب
فبين أيامك اللاتي نُصِرَت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم صفرَ الوجوه وجلَّت أوجهَ العَرَبِ(١)

فهل من «معتصم» ثانٍ يجيب صرخات الأرامل الثكالى، والفتيات اليتامى في فلسطين السليبة الطاهرة، التي دنسها الصهاينة اللئام بأرجاسهم؟ أم أن الأمر كما قال الشاعر «عمر أبو ريشة»:

رب وامعتصماه انطلقت مِلْءَ أفواه الصبايا اليُتَّمِ
لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصمِ

ولئن كان بعض الناس قانطاً من ظهور «معتصم» آخر ليردَّ للإسلام كرامته وعزته، فأنا لست من القانطين، والله لمن استعان به خير معين. وكانت وقعة «عمورية» سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وولد للمعتصم ثمانية ذكور وثمان إناث، وعرفت من أمهات أولاده «قراطيس» أم ولده «الواثق»، و«شجاع» أم ولده «المتوكل»، وكانت وفاته سنة /٢٢٧/ هـ، في «سُرَّ من رأى».

(١) القصيدة في ديوان أبي تمام (١/ ٤٥ ـ ٧٩). ط. دار المعارف ـ ذخائر العرب.

٩ ـ الواثق باللهِ وولده

اسمه «الواثق بالله؛ أبو جعفر هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد» وأمه أم ولد، يقال لها «قراطيس الرومية». ولد يوم الاثنين لعشر بقين من شعبان سنة ست وتسعين ومائة، ذكر ذلك «ابن عبد ربه» في «عقده» و«السيوطي» في «تاريخ الخلفاء». وأضاف «ابن عبد ربه»: وكان أبيض إلى الصفرة، حسن الوجه جسيماً، وفي عينه اليمنى نكتة بياض، نقش خاتمه «محمد رسول الله ﷺ»، وخاتم آخر «الواثق بالله».

ورزق من الولد «محمداً المهتدي» وأمه أم ولد، يقال لها «قُرْب»، و«عبد الله» و«أبا العباس؛ أحمد» و«أبا إسحاق؛ محمداً»، و«أبا إسحاق؛ إبراهيم»[١].

وذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين استخلف على السلطنة «أشناس التركي» وألبسه وشاحين مجوهرين، وتاجاً مجوهراً، وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً، فإن الترك إنما كثروا في أيام أبيه. في سنة إحدى وثلاثين ومائتين، ورد كتابه إلى أمير البصرة يأمره أن يمتحن الأئمة والمؤذنين بخلق القرآن، وكان قد اتبع أباه في ذلك، ثم رجع في آخر أمره، وفي هذه السنة قتل «أحمد بن نصر» الخزاعي، وكان من أهل الحديث، قائماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أحضره من بغداد إلى سامراء مقيداً، وسأله عن القرآن، فقال: ليس بمخلوق، وعن الرؤية في القيامة، فقال: كذا جاءت الرواية، وروى له الحديث، فقال «الواثق» له: تكذب، فقال للواثق: بل تكذب أنت، فقال: ويحك! يُرَى كما يُرَى المحدود المتجسِّم ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ إنما كفرتُ برب صفتُه ما تقولون فيه.

فقال جماعة من فقهاء المعتزلة الذين حوله: هو حلال الضرب، فدعا

---

(١) العقد الفريد (٥/ ١٢٢).

بالسيف. وقال: إذا قمت إليه فلا يقومَنَّ أحد معي، فإني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها، ثم أَمَرَ بالنِّطَع فأجلس عليه، وهو مقيد، فمشى إليه، فضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد، فصلب بها، وصلبت جثته في سُرَّ من رأى، واستمر ذلك ست سنين إلى أن ولي «المتوكل» فأنزله ودفنه، ولما صلب كتب ورقة وعلقت في أذنه، فيها:

هذا رأس «أحمد بن نصر بن مالك» دعاه «عبد الله» الإمام «هارون» إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فعجَّله الله إلى ناره، ووكَّل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة برمح، فذكر الموكَّل به أنه رآه بالليل يستدير إلى القبلة بوجه، فيقرأ سورة «يسٓ» بلسان طَلْق. رويت هذه الحكاية من غير وجه.

وفي هذه السنة استفَكَّ من الروم ألفاً وستمائة أسير مسلم، فقال ابن أبي دؤاد ـ قبَّحه الله ـ: من قال من الأسارى: (القرآن مخلوق) خلصوه وأعطوه دينارين، ومن امتنع دَعُوه في الأسر.

قال الخطيب: كان «أحمد بن أبي دؤاد» قد استولى على «الواثق» وحمله على التشدد في المحنة، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن، ويقال: إنه رجع عنه قبل موته، وقال غيره: حُمِلَ إليه رجل فيمن حُمِلَ مكبلٌ بالحديد من بلاده، فلما دخل ـ وابن أبي دؤاد حاضر ـ، قال المقيد: أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس إليه، أعَلِمَهُ رسول الله ﷺ فلم يدعُ الناس إليه، أم شيء لم يعلمه؟

قال «ابن أبي دؤاد»: بل علمه، قال: فكان يَسعُه ألّا يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم؟ قال: فَبُهِتُوا.

وضحك «الواثق» وقام قابضاً على فمه، ودخل بيتاً، ومَدَّ رجليه، وهو يقول: وسِعَ النبي ﷺ أن يسكت عنه ولا يسعنا، فأمر له أن يعطى ثلاثمائة دينار، وأن يُرَدَّ إلى بلد، ولم يَمْتَحِن أحداً بعدها، ومقت «ابن أبي دؤاد» من يومئذ. والرجل المذكور هو «أبو عبد الرحمٰن؛ عبد الله بن محمد الأذرمي، شيخ أبي داود والنسائي»[(١)].

(١) تاريخ الفقهاء، ص: ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

وذكر صاحب «العقد الفريد» عن أبي عثمان بكر بن محمد، قال: وفدت على «الواثق»، فلما دخلت وسلمت، قال: هل خلَّيتَ وراءك أحداً يهمُّك أمره؟ قلت: أُخَيَّة لي ربَّيتها فكأنها بنتي، قال: ليت شعري! ما قالت حين فارقتَها؟ قلت: أنشدتني قول الأعشى:

تقول ابنتي يوم جَدَّ الرحيل ... أرانا سواء ومن قد يَتمْ
أبانا فلا رِمْتَ من عندنا ... فإنا نخاف بأن نُختَرَمْ
أرانا إذا أضمرتك البلا ... دُ نُجفَى وتقطع مِنا الرَّحِمْ

قال: ليت شعري ما قلتَ لها؟ قال: أنشدتُها يا أمير المؤمنين قول جرير:

ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح

قال: أتاك النجاح، وأمر له بعشرة آلاف درهم، ثم قال: حَدِّثْني حديثاً ترويه عن «أبي مهدية» مُسْتَظْرِفاً؛ قلت: يا أمير المؤمنين! حدثني الأصمعي، قال: قال لي «أبو مهديَّة»: بلغني أن الأعراب والأعزاب سواء في الهجاء، قلت: نعم، قال: فاقرأ: «الأعزاب أشد كفراً ونفاقاً» ولا تقرأ «الأعراب»، ولا يغرنَّكَ العَزَب، وإن صام وصلى، فضحك «الواثق» حتى شَغَر برجله، وقال: لقد لقي «أبو مهدية» من العزبة شراً، وأمر له بخمسمائة دينار[1].

وقال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» نقلاً عن «الصولي»: كان «الواثق» يسمى «المأمون الأصغر» لأدبه وفضله، وكان «المأمون» يعظمه ويقدمه على ولده، وكان «الواثق» أعلم الناس بكل شيء، وكان شاعراً، أعلم الخلفاء بالغناء.

وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت، وكان حاذقاً بضرب العود، راوية للأشعار والأخبار.

وقال الفضل اليزيدي: لم يكن في خلفاء بني العباس أكثر رواية للشعر من «الواثق» فقيل له: كان أروى من «المأمون؟» فقال: نعم، كان المأمون قد مزج بعلم العرب علم الأوائل من النجوم والطب والمنطق، وكان «الواثق» لا يخلط بعلم العرب شيئاً.

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٠١).

وقال «يزيد المهلبي»: كان الواثق كثير الأكل جِدًا.

وقال «ابن فهم»: كان للواثق خِوانٌ من ذهب مؤلف من أربع قطع يحمل كل قطعة عشرون رجلاً، وكل ما على الخِوان من غضاة وصفحة وسكرجة من ذهب، فسأله «ابن أبي دؤاد» ألَّا يأكلَ عليه للنهي عنه، فأمر أن يكسر ذلك ويضرب ـ أي يسك منه النقود ـ ويحمل إلى بيت المال.

وقال الحسين بن يحيى: رأى «الواثق» في النوم كأنه يسأل الجنة، وأن قائلاً يقول له: لا يهلك على الله إلَّا من قلبه مَرْتٌ، فأصبح فسأل الجلساء عن ذلك لم يعرفوا معناه، فوجَّه إلى «أبي محلم» وأحضره، فسأله عن الرؤيا والمَرْت، فقال «أبو المحلم»: المَرْتُ: القَفْر الذي لا ينبت شيئاً، فالمعنى على هذا: لا يهلك على الله إلا من قلبه خالٍ من الإيمان خُلُوَّ المَرْتِ من النبت، فقال له «الواثق»: أريد شاهداً من الشعر في المَرْت، فبادر بعض من حضر فأنشد بيتاً لبني أسد:

ومَـرْت مَـرُوتـاة يـحـاربـهـا الـقـطـا ... ويـصـبـح ذو عـلـم بـهـا وهـو جـاهـل

فضحك «أبو محمل» وقال: والله! لا أبرح حتى أنشدك، فأنشده للعرب مائة قافية معروفة لمائة شاعر معروفاً، في كل بيت ذكر المَرْت، فأمر له «الواثق» بمائة ألف دينار.

وأضاف «السيوطي»: مات «الواثق» بسر من رأى يوم الأربعاء لستٍّ بقين من ذي الحجة سنة مائتين واثنتين وثلاثين، ولما احتضر جعل يردد هذين البيتين:

الـمـوت فـيـه جـمـيـع الـخـلـق مـشـتـركٌ ... لا سـوقـة مـنـهـم يـبـقـى ولا مَـلِـكُ

مـا ضـرّ أهـلَ قـلـيـل فـي تـفـارقـهـم ... ولـيـس يـغـنـي عـن الأمـلاك مـا مـلـكـوا

وحكي أنه لما مات ترك وحده، واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل، فجاء جرذ فاستلَّ عينه فأكلها[1].

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

١٠ ـ المتوكل على الله

جاء في كتاب «تاريخ الخلفاء» للسيوطي: المتوكل على الله: «جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد» أمه أم ولد اسمها «شجاع»، ولد سنة خمس ـ وقيل: سبع ومائتين ـ وبويع له في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، بعد «الواثق»، فأظهر الميل إلى السنة، ونصر أهلها، ورفع المحنة، وكتب بذلك إلى الآفاق، وذلك في سنة أربع وثلاثين، واستقدم المحدثين إلى «سامراء»، وأجزل عطاياهم وأكرمهم، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية، وجلس «أبو بكر بن أبي شيبة» في جامع الرُّصافة، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس، وجلس أخوه «عثمان» في جامع المنصور، فاجتمع إليه أيضاً نحو من ثلاثين ألف نفس، وتوفر دعاء الخلق للمتوكل، وبالغوا في الثناء عليه، والتعظيم له، حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: «أبو بكر الصديق» ﷺ في قتل أهل الردة، و«عمر بن عبد العزيز» في رد المظالم، و«المتوكل» في إحياء السنة، وإماتة التجهم، وقال «أبو بكر الجنازة» في ذلك:

وبعدُ فإن السنة اليوم أصبحت ... معزَّزةً حتى كأن لم تُذَلَّلِ
تصول وتسطو إذ أقيم منارها ... وحُطَّ منار الإفك والزور من عَلِ
وولَّى أخو الإبداع في الدين هارباً ... إلى النار يهوي مدبراً غير مقبلِ
شفى الله منهم بالخليفة جعفرِ ... خليفتِهِ ذي السنة المتوكلِ
خليفة ربي وابن عم نبيه ... وخير بني العباس مَنْ منهم وَلِي
وجامع شمل الدين بعد تشتُّت ... وفاري رؤوس المارقين بمُنْصلِ
أطال لنا رب العباد بقاءه ... سليماً من الأهوال غيرَ مُبَدَّلِ
وبَوَّأه بالنصر للدين جنةً ... يجاور في روضاتها خير مرسَلِ

وفي هذه السنة أصاب «ابن أبي دؤاد» فالج صَيَّره حجراً ملقى، فلا آجره الله.

ومن عجائب هذه السَّنَة أنه هَبَّت ريح بالعراق شديدة السموم، ولم يعهد مثلها، أحرقت زرع الكوفة والبصرة وبغداد، وقتلت المسافرين، ودامت خمسين يوماً، واتصلت بهمذان، وأحرقت الزرع والمواشي، واتصلت بالموصل وسنجار، ومنعت الناس من المعاش في الأسواق، ومن المشي في الطرقات، وأهلكت خلقاً عظيماً، وفي السنة التي قبلها جاءت زلزلة مهولة بدمشق، سقطت منها دور، وهلك تحتها خلق، وامتدت إلى أنطاكية فهدمتها وإلى الجزيرة فأحرقتها، وإلى الموصل، فيقال: هلك من أهلها خمسون ألفاً[1].

ومن مخازي «المتوكل» أمره بهدم قبر «الحسين» ﷺ، ومنع الناس من زيارته، وهدم ما حوله من الدور، فترك المكان بلقعاً كأنه قطعة من الصحراء، وهذا ما أثار عليه سخط أهل بغداد، فشتموه على الجدران، وفي المساجد، كما هجاه الشعراء، ومما قيل في ذلك:

بالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلومَا
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمري قبره مهدومَا
أسفوا على ألّا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رَميمَا

وكانت له أم ولد تدعى «حبشية» ولدت له ابنه «المنتصر بالله، محمد أبو جعفر».

وقال «السيوطي»: ودخل عليه «علي بن الجهم» يوماً وبيديه درتان يقلبهما، فأنشده قصيدة له، فرمى إليه بدرة، فقلبها، فقال: تستنقص بها، هي والله خير من ألف؟ فقال: لا، ولكني فكرت في أبيات أعملها آخذ بها الأخرى، فقال: قل، فقال:

بِسُرَّ مَنْ رأى إمام عدلٍ ... تغرف من بحره البحارُ
الملك فيه وفي بنيه ... ما اختلف الليل والنهارُ
يرجى ويخشى لكل خَطْبٍ ... كأنه جنة ونارُ
يدان في الجود ضَرَّتانِ ... عليه كلتاهما تغارُ

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٨ ـ ٣٠٢.

لـم تـأت مـنـه الـيـمـيـن شـيـئـاً إلّا أتـت مـثـلـهـا الـيـسـارُ

فرمى إليه بالدرة الأخرى[١].

وكان يستسهل قتل العلماء الأفذاذ، ولا يتروى في ذلك. وروى «السيوطي» أنه في سنة أربع وأربعين ومائتين، قتل «المتوكل» «يعقوب بن السكيت» الإمام في العربية، فإنه ندبه إلى تعليم أولاده، فنظر «المتوكل» يوماً إلى ولديه «المعتز» و«المؤيد»، فقال لابن السكيت: من أحب إليك: هما أو «الحسن» و«الحسين»؟ فقال: «قنبر» ـ يعني مولى «عليّ» ـ خير منهما، فأمر الأتراك فداسوا بطنه حتى مات، وقيل: أمر بسَلِّ لسانه فمات، وأرسل إلى ابنه بديته، وكان «المتوكل» رافضياً[٢].

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٠٣.

خاتمة

تمَّ كتاب «نساء الخلفاء» وقد تضمَّن بعضاً من محاسن هؤلاء الملوك الذي استرعاهم الله أمر عباده، وبعضاً من مثالبهم، سائلاً الله تعالى أن ييسر لنا التأسي بالمحاسن، واجتناب المثالب، فهو الهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى وسلم على خاتم المرسلين، وآله البررة المطهرين، وأصحابه الأخيار الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتبها

محمد راجي حسن كِنّاس

المحتويات

المقدمة ٥
١ ـ أزواج أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٧
٢ ـ أزواج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٤١
٣ ـ أزواج عثمان بن عفان رضي الله عنه ٧٤
٤ ـ أزواج علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١٠٩
خلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما ١٤٧

خلفاء بني أمية

١ ـ أزواج معاوية بن أبي سفيان ١٦١
٢ ـ أزواج يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ١٧٦
٣ ـ خلافة عبد الله بن الزبير ٢٠١
٤ ـ أزواج عبد الملك بن مروان ٢١٠
٥ ـ أزواج الوليد بن عبد الملك ٢١٦
٦ ـ أزواج سليمان بن عبد الملك ٢١٨
٧ ـ أزواج عمر بن عبد العزيز ٢٢٥
٨ ـ أزواج يزيد بن عبد الملك ٢٣١
٩ ـ أزواج هشام بن عبد الملك ٢٣٤
١٠ ـ أزواج الوليد بن يزيد ٢٤١

خلفاء بني العباس

١ ـ أزواج أبو العباس السفَّاح ٢٤٥
٢ ـ أبو جعفر المنصور ٢٥٢
٣ ـ المهـدي ٢٧٢
٤ ـ موسى الهادي وأمهات أولاده ٢٧٦

٥ ـ أزواج هارون الرشيد ٢٨٥
٦ ـ محمد الأمين وولده ٢٩٣
٧ ـ أزواج عبد الله المأمون ٣٠٣
٨ ـ المعتصم بالله ٣١١
٩ ـ الواثق بالله وولده ٣١٧
١٠ ـ المتوكل على الله ٣٢١
الخاتمة ٣٢٥
المحتويات ٣٢٧

التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
٠١\٤٥٠٤٥٤ـ٠١\٤٥٠٤٦٧ ـ بيروت. لبنان

إصدار تضمن بعضاً من محاسن الخلفاء الذين استرعاهم الله - سبحانه وتعالى - أمر عباده، ثم شرع بتبيان الجوانب المضيئة في حياة نسائهن، بدءاً بنساء الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، وصولاً إلى خلفاء بني العباس.

وكلنا أمل أن تأتسي نساء عصرنا الحالي بالصالحات منهن، ويكن خيراً لأزواجهن وأبنائهن.

ISBN 9953-85-058-5

9 789953 850580 90000>

دار المعرفة
للطباعة والنشر
www.marefah.com